الانسان الدنيا والشيطان - الكافرون والمنافقون

بين الكتاب والسنةوسائر الكتب السماوية

آیة الله العظمی الدکتور محمد الصادقی الطهرانی

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 8

الانسان الدنيا والشيطان الكافرون والمنافقون (بين الكتاب والسنةوسائر الكتب السماوية) (ج 28)

المقدمة

الكتاب الذي بين يديك يحدث على ضوء القرآن والسنة القطعية المحمدية وسائر الكتابات الوحي بسورة مفصلة ولاينبئك مثل خبير فإن المستند فيه قوىٌ قوى ولاسيما الكتاب والسنة ثم نستدل بصحيح الوحي من سائر الكتب السماوية.

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته‏

محمّد الصادقي الطهراني‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 9

الشيطان والإنسان «1»

وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآِدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى‏ وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ 34 «و إذ» قد تكون عطفا على «وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ» ثم وعلى المحذوف في «وَ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ» إذ .. «وَ إِذْ قُلْنا» بيانا لأهم ما كانوا يكتمون من الاستكبار عن السجود لآدم، كما حصل لإبليس «وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ» ظهور العصيان إذ كان يكتم كفره.

و ترى متى قال للملائكة اسجدوا لآدم؟ وكيف أمروا أن يسجدوا لآدم؟ وإذ لم يكن إبليس من الملائكة: و «كانَ مِنَ الْجِنِّ» (18: 50) فلا يشمله أمر الملائكة، فكيف أبى واستكبر، فهل عما لم يؤمر؟! إنهم أمروا أن يسجدوا لآدم قبل خلقه: «إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ» (38: 72) فموقع الأمر قبل خلقه، وموقع السجدة بعد خلقه، وقد تكون بعد ما علّم آدم الأسماء كلها لتكون السجدة أمكن وأمتن، او تكون قبله لتكون المحنة أتم، ولكن فلنسكت عما سكت اللّه عنه.

و أما السجود لآدم؟ فهل المسجود هنا آدم عبادة؟ و «أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» (12:

40) فلا يمكن أن يأمر بعبادة غير اللّه، فانها تسوية ضالة ظالمة بين اللّه وسواه: «تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ، إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ» (26: 98) ثم ولا طائل تحت هذه العبادة اللّهم إلّا دفعا لعبادة غير اللّه، اتباعا لملائكة اللّه! او أنها تكريم لخليفة اللّه، ان يسجد لآدم إكراما له و احتراما؟ فهكذا الأمر! فهل يأمر اللّه بهكذا تكريم لسواه، وفيه إهانة لساحته، وتشريك له معه في كرامته، وتسوية له في حرمته، ونيل من محتده، فلم يكن اللّه ليسمح أو يأمر باحترام لآدم أو من فوقه، وفيه اخترام لساحة قدسه والاحترام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 10

درجات قمتها احترام العبادة فلا يحق إلّا للمعبود! كما وآيات السجود تختصه- عبادة واحتراما- باللّه، وما «وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً» من والدي يوسف له، إلّا كما سجد الملائكة لآدم، إذ تعنيان معنى سواء، دون أن تفسر إحداهما الأخرى!.

فعدم جواز التسوية بين العالي والداني، فضلا عن اللّه وخلقه، إنه من المستقلات العقلية، والسجود هو الغاية القمة من مراحل العبادة عبادة، ومن الحرمة احتراما او شكرا، اللهم إلّا إذا كان بقصد الاستهزاء فليس إذا سجودا، ومسرح البحث هنا هو سجود العبادة والاحترام دون اللعبة والاخترام، وهو- لا شك- منحصر في اللّه، منحسر عمن سوى اللّه مهما كان عظيما، فلا عظيم بجنب اللّه! أترى ان اللّه يأمر بما هو ضلال وظلم في نفسه، ولكي يرّغب الى عبادة غيره او احترامه كمثله سواء.

و القرآن في عشرات الآيات يصرح باختصاص السجود باللّه أيّا كان:

«إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ» (7: 206)

أ ترى انه تعالى يمدح الملائكة في اختصاص السجود به ثم يأمرهم ان يسجدوا لآدم، فانما الخالق هو الذي يحق أن يسجد له دون سواه، فلا تعني «اسْجُدُوا لآِدَمَ» إلّا ما تعنيه «وَ لَهُ يَسْجُدُونَ» بفارق ان هذه مطلق السجود للّه، وتلك هي سجود الشكر حيث «لآدم» و «لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ» (41: 37): فتوحيد العبادة للّه لزامه توحيد السجدة للّه، ولأنه الخالق دون سواه و «هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ» «وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 11

أَحَداً» (72: 18) «1».

ثم ولم يسبق لأحد من أنبياء اللّه، ولا لنبي الأنبياء محمد صلى الله عليه و آله ان يسمح بالسجود او الركوع له، ومناط السماح- لو جاز لآدم- هو فيه أقوى بما لا يحصى! ولقد كذّب كونه تحية الأنبياء «2» إذ «ما ينبغي لبشر أن يسجد لبشر» «3» ولا «لأحد أن يسجد لأحد من دون اللّه يخضع له خضوعه للّه ويعظم به السجود كتعظيمه للّه» «4» لا وحتى أن يقبّل رجل ولي من أولياء اللّه، فهل «بقي شي‏ء- بقي شي‏ء» «5» للّه، لو سوينا بينه وبين عباده احتراما فضلا عن عبادة! كما هوى رجل على قدميه صلى الله عليه و آله فقال صلى الله عليه و آله: تنح! دع عنك أفاعيل الأعاجم‏ «6» وما إلى ذلك من مواقف مشرفة للرسول صلى الله عليه و آله والأئمة من آل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع لتفسير الآية الى ج 29: 193- 194 تجد بحثا فصلا عن السجود

(2). روى احمد بن حنبل في مسنده 4: 381- ان معاذا لما قدم من اليمن سجد للنبي صلى الله عليه و آله فقال: يا معاذ! ما هذا؟ قال: ان اليهود تسجد لعظمائها وعلمائها و رأيت النصارى تسجد لقسسها وبطارقتها، قلت ما هذا؟ قالوا: تحية الأنبياء فقال صلى الله عليه و آله: كذبوا على أنبيائهم‏

(3). الجصاص 1: 35 عن عائشة وجابر بن عبد اللّه وانس ان النبي صلى الله عليه و آله قال: ما ينبغي لبشر ان يسجد لبشر ولو صلح لبشر ان يسجد لبشر لأمرت المرأة ان تسجد لزوجها من عظم حقه عليها «و رواه ابن ماجه واحمد بن حنبل في مسنده 4: 381 و 6: 76 و 5: 228 وروى ما في معناه ابو داود في سننه- نكاح: 40

(4). تفسير البرهان 1: 81 عن تفسير الامام الحسن العسكري قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله ... ولم يكن‏سجودهم لآدم انما كان آدم قبلة- لهم يسجدون نحوه للّه عز وجل وكان بذلك معظما مبجلا ولا ينبغي لأحد ... ولو أمرت أحدا ان يسجد هكذا لغير اللّه لأمرت ضعفاء شيعتنا وسائر المكلفين من شيعتنا ان يسجدوا لمن توسط في علوم وصي رسول اللّه صلى الله عليه و آله‏

(5). في الوافي باب المعانقة والتقبيل عن أبي عبد اللّه عليه السلام قيل له اعطني يدك اقبلها فأعطاها ثم‏وجهك فأعطاه، ثم قال: ورجلك قال: هل بقي شي‏ء ثم قال: لا يقبل وجه احد ولا يده إلّا رسول اللّه او من أريد به رسول اللّه- وفي حديث آخر: إلّا رسول اللّه او وصي رسول اللّه‏

(6). في حديث لا اذكر مسنده ان أعجميا أراد ان يهوى على قدمي رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال صلى الله عليه و آله: تنحّ! دع عنك أفاعيل الأعاجم. وفي تفسير الرازي 2: 212 عن الثوري عن سماك بن هاني قال: دخل الجاثليق على علي بن أبي طالب فأراد ان يسجد له فقال علي عليه السلام: اسجد للّه ولا تسجد لي‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 12

الرسول، مستنكرين الركوع او السجود- مهما كان احتراما دون عبادة لغير اللّه-، ولهم! وهم من نعرفهم بفضلهم على آدم ومن فوقه، فكيف يختص آدم بسجود الملائكة، ثم يحرم من هم أدنا منهم ان يسجدوا لمن فوقه، ان هي إلّا قيلة فارغة هراء، واللّه منها براء! أم كان آدم قبلة لهم في سجودهم للّه؟ والقبلة لا يسجد له، وإنما يسجد إليه، وهنا السجود لآدم لا الى آدم! ثم لا تفضيل له عليهم بالسجود إليه كقبلة، كما الرسول يسجد إلى القبلة التي هي دونه! والسجدة لآدم تحمل تكريما له على الملائكة وفيهم إبليس القائل:

«أَ رَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ..» (17: 62)! وان كانت سجدة الشكر لنعمة لا تجعلها أفضل من الشاكر، اللهم الا إذا كان نعمة روحية من تعليم او نبوة! أم كان السجود للّه شكرا على ما أنعم عليهم بمعلم ك‏آدم، كما تقول: سجدت لولدي- لرزقي- لصحتي ..

والمسجود هو اللّه لما أعطاك وحباك! فاللّام إذا للغاية «اسجدوا» للّه «لآدم» حيث خلقه اللّه لكم معلما داعيا إليه وسراجا منيرا كما «وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً» (12: 100): خروا سجدا للّه ليوسف حيث وجدوه حيّا عزيزا، فليس يعني السجود هنا وهناك لآدم او يوسف أنه المسجود له، وانما مسجود لأجله المعبر عنه ب «له» «لآدم»! فاللام الأولى للمسجود له والثانية للمسجود لأجله‏ «1» تحذف الاولى حين تحذف اعتمادا على الضرورة العقلية والقرآنية وسائر كتابات السماء أن لا سجود إلّا للّه، عبودية أو احتراما أم شكرا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. لسان العرب 3: 204- ولأهل العربية وجه آخر وهو ان يجعل اللام في قوله: وخروا له‏سجدا- وقوله: رايتهم لي ساجدين- لام من اجل: فالمعنى: وخروا من اجله سجدا للّه شكرا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 13

و قد يجوز أنهم سجدوا إليه كقبلة، سجودا للّه: «اسْجُدُوا لآِدَمَ»: للّه شكرا لما خلق آدم، متوجهين إليه كقبلة، حيث كونه وسيطا بينهم وبين اللّه في سجودهم وسائر عباداتهم للّه.

ف «انما كان آدم قبلة لهم يسجدون نحوه للّه وكان بذلك معظما مبجّلا» «1» ام انهم سجدوا عليه كتربة يسجد عليها؟ ولكنما الملائكة ليست لتسجد على شي‏ء فانها ماكنة السماء لا ساكنة الأرض! وليس هنا السجدة «على» بل السجدة ل! «2» ولكن «ل» في السجود، دون «الى» او «على» ينحّي هذا السجود عن هاتين، اللّهم إلّا معنيّا ضمنيا ما صلح معنويا كالقبلة، دون كونه كتربة يسجد عليه! او أن لامه للانتفاع «اسجدوا لينتفع آدم»: اخضعوا لأمر اللّه في تحقيق مصالح آدم لحاجياته الحيوية نفسية ومادية، وكما نراهم هكذا يعملون، من ملائكة الوحي والمدبرات أمرا أم ماذا.

أو أنه يحمل مثلث المعنى: أن آدم كان قبلة والمسجود هو اللّه سجدة شكر للّه، وخضوع في صالح آدم لأمر اللّه، والآية تتحملها كلها، ما دام المسجود هو اللّه، دون آدم، ولان «سجد» لازم فليتعد بشي‏ء، فلام «للّه» هي للتعدية .. «اسْجُدُوا لِلَّهِ» واللام في غير اللّه لغيرها كما في سجدة الشكر «لآدم وليوسف» إذ تعنيان: اسجدوا للّه لآدم او

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان 1: 81 عن تفسير الامام الحسن العسكري عليه السلام‏

(2). و من اغرب ما نراه في هذا المسرح اختلاف الشيخين الأعظمين المفيد والطوسي في ماهيته‏الشيطان؟ اختلاف التناقض- قال في البيان: كان إبليس من الملائكة بدلالة استثناءه من جملتهم وهو المروي عن أبي عبد اللّه والظاهر في تفسيرنا واخبارنا.

و قال الشيخ المفيد إبليس كان من الجن ولم يكن من الملائكة وقد جاءت الأخبار بذلك متواترة عن أئمة الهدى وهو من مذهب الامامية.

أقول: ليتهما استندا فيما ذهبا اليه الى كتاب اللّه، دون ان يقعوا في فخ دعوى التناقض بين متواتر الأخبار!- هامش الصفحة 303

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 14

ليوسف! ومهما يكن من شي‏ء ففي هذا السجود لآدم مكرمة له وشكر للّه أن يسجد له للّه لما أنعم، لمّا أنعم، فله الشكر بما أنعم وألهم.

و هل يا ترى أن الملائكة كيف سجدوا؟ لا شك انهم تطامنوا في غاية التذلل والخنوع، واما كيف فلا ندري، فلكل كائن هيئة خاصة لسجوده كما يناسبه، ام دون هيئة وانما حقيقة السجود كما «وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ ظِلالُهُمْ» (13: 15) (وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ يَسْجُدانِ» (55: 6) ولا شك ليس يسجد كل الكائنات كما نسجد بوضع الجباه على الأرض، ولا سيما في السجود التكويني كرها ان ذواتها خاضعة لارادة اللّه، مسيّرة في قبضة اللّه دونما تمنّع، لا فحسب، فحتى الإنسان حيث يؤمر بغاية الخضوع أحيانا دون هيئته الخاصة كما الخضوع للقرآن- التام-: «فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ، وَ إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ» (84: 21) حيث تفرض السجود عند قرائة القرآن ككلّ، وهو لا شك غير سجدة التلاوة في آياتها الخاصة، حيث الموضوع هنا القرآن كلّه، فلتكن غاية الخضوع استماعا وإنصاتا وتفهما وتصديقا وتطبيقا، وهي هنا السجدة كما قد تكون السجدة حالة المشي‏ء، فلا يمكن ان تكون الهيئة الخاصة في الصلاة كما امر بنو إسرائيل حين دخول القدس: «وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً» (2: 58) فغاية الخضوع حالة المشي‏ء الدخول، هي التطامن الى الأرض كما يستطاع، وهو أركع من الركوع، وأرفع من السجود!.

فالسجود بكافة صنوفه في هيئات خاصة او دونها، له معنى واحد: «غاية الخضوع»: طوعا او كرها بأرجائه وأجوائه، مهما اختلفت شاكلته وحالاته وغاياته، اللهم إلّا هتكا وهزأ! إذا فلا تهمنا وتعنينا أن الملائكة كيف سجدوا ويسجدون، وبعد ما سكت اللّه عنها، وانما أنهم خضعوا للغاية وتذللوا للنهاية بما لا يحق إلّا للّه، فسبحان اللّه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 15

عما يصفون!.

فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ...

لا شك أن إبليس لم يكن من الملائكة كونا في أصله وهيئته مهما كان منهم في كيانه وظاهر عبادته، فقد «كان من الجن ففسق عن امر به» ولو كان من الملائكة لم يفسق عن أمر ربه: «بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ، لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» «يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ» «يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لا يَفْتُرُونَ».

كما وأن الملائكة أيضا تعترف أن الجن لا تسانخهم ولا تجانس: «وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَ هؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ- قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ» (34: 41) ومن ثم فإبليس له ذرية: «أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي» (18: 50) ولا ذرية إلّا بين ذكر وأنثى، والجن منهم نساء ومنهم رجال: «وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ» والملائكة لا ذكور فيهم ولا إناث: «وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ» وإذ لا إناث فيهم فلا رجال، أم- على أقل تقدير- ليست لهم ذرية فإنها بين رجال وإناث!.

فترى إذ لم يكن إبليس من قبيل الملائكة فكيف يشمله أمر السجود الخاص بالملائكة: «وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ»؟ وكيف يعتبر عاصيا إذ لم يسجد، أفعصيانا دون ذنب؟! إنه أمر ولعله مرتين، إحداهما: «ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ» (7: 12) كما وهو معترف بالأمر: «فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً» (17: 61) وإلّا كان يعتذر ويعترض بعدم الأمر! فلقد شمله أمر الملائكة- كما وعلّه اختصه امر ثان- شمله حيث كان في العبادة بكيان الملائكة، وحتى في مكان الملائكة، فعدّ منهم من حيث الملائكية الروحانية، مهما اختلف عنهم في غيرها، عبد اللّه معهم كما كانوا يعبدون، ردحا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 16

بعيدا من الزمن نفاقا عارما كافرا، حتى أظهر مكنونه إذا أمر «1» ف «أَبى‏ وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ» (39: 74): كان إذ كان مع الملائكة من الكافرين المنافقين.

و هنا الاستثناء متصل، وعلى انفصالها فالوجه انه لم يكن منهم لا كونا ولا كيانا، ولكنه إذ أمر شخصيا بالسجود: «ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ» اعتبر هنا في ردف المأمورين وليس منهم في غيره، وعلّ الفائدة هنا أتم، إذ الاستثناء المنقطع تفيد الاستغراق: لم يبق منهم احد إلّا سجد، فلم يعص منهم احد، اللّهم «إِلَّا إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» (18: 50): وأما هم: «فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ» (15:

30) مما يؤكد استغراق الأمر بالسجود.

«فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى‏ وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ»: وهناك تفاصيل وتعاليل من قياس إبليس لمّا ترك السجود لآدم، أجمل عنها هنا وفصّلت في سائر آياتها الست الأخرى، ندرسها في طياتها، وهي في صيغة واحدة: رد على اللّه وردّة عن شرعة اللّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين (1: 55) عن تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل عن أبي عبداللّه عليه السلام قال: سئل عما ندب اللّه الخلق اليه أدخل فيه الضلال، قال: نعم والكافرون دخلوا فيه لأن اللّه تبارك وتعالى امر الملائكة بالسجود لآدم فدخل في امره الملائكة وإبليس، كان مع الملائكة في السماء يعبد اللّه وكانت الملائكة تظن انه منهم ولم يكن منهم، فلما امر اللّه الملائكة بالسجود لآدم اخرج ما كان في قلب إبليس من الحسد فعلمت الملائكة عند ذلك ان إبليس لم يكن منهم فقيل له عليه السلام فكيف وقع الأمر على إبليس وانما امر اللّه الملائكة بالسجود لآدم فقال: كان إبليس منهم بالولاء ولم يكن من جنس الملائكة وذلك ان اللّه خلق خلقا قبل آدم وكان إبليس منهم حاكما في الأرض فعتوا وأفسدوا وسفكوا الدماء فبعث اللّه الملائكة فقتلوهم وأسروا إبليس ورفعوه الى السماء فكان مع الملائكة يعبد اللّه الى أن خلق اللّه تبارك وتعالى آدم.

أقول: لعل الجمع بين معرفتهم لإبليس وعدمها ان الذين قاتلوه هم عرفوه دون سواهم.

ثم أقول: وفي معناه ان إبليس لم يكن منهم، رواه في اصول الكافي عن علي بن ابراهيم عن أبي عبد اللّه عليه السلام.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 17

بقياس فيه إبلاس: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» (7: 12) (قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» (15: 33) (أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً» (17: 61) (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى‏» (21: 16) (فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» (18: 50) وهنا نجمل كما أجمل اللّه وما أجمله شمولا «أَبى‏ وَ اسْتَكْبَرَ»:

أبى ان يسجد كما أمر اللّه، واستكبر على آدم وعلى اللّه، على آدم حيث عدّه أدنى منه لان جنسه- كما زعم- أعلى من جنسه، وعلى اللّه حيث رد حكمه بقياس، تجهيلا للّه وترفّعا عليه كأنه أعلم منه في مناطات الأحكام، فليس إذا كفره لأنه ما سجد، حيث التاركون من المسلمين للسجود كثير وما هم بكافرين، إذ يأبون دون استكبار، وإنما لاستكباره.

لرده حكم اللّه ومحادّته للّه، وما أكفره من يحاجّ اللّه، فانه ليس فقط تكذيبا للّه، بل وترفعا وطغيانا على اللّه، فهو أنحس من ايّ شرك او كفر او إلحاد، ولذلك فهو زعيم الضالين أجمعين إن «إبليس» كلما يذكر فهو زعيم الشياطين، طالما الشيطان يعمه وسائر الشياطين، وإن أخطر مواقفه وأكفرها هو رده على رب العالمين، فاختص في موارده ب «إبليس»: إحدى عشر موضعا من الذكر الحكيم، طالما الشيطان يذكر في (68) والشياطين في (17) زائدا على جنوده الشياطين باسميه في (62) موضعا: ثنوي الاسم وثالوثي الموقف:

إبليس- شيطان- شياطين: بشخصه وحزبه والإبلاس حزن معترض من شدة البأس، و قطع، وانقطاع حجة، وحيرة، وقنوط، وقطع رجاء، وانكسار، وحزن، وإيقاع في البلس:

الالتباس.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 18

و إبليس يجمع في نفسه جميع هذه المعاني لاسمه: حزنا على ما كرّم عليه آدم وطرد، وقطعا للجنة والناس من الوصول الى مأمولهم، مع انقطاع حجته أمام اللّه وأمام الخلق، وحيرة فيما تورّط فيه ووقع من هوّات، وقطع رجاء لنفسه عن رحمة اللّه ولغيره أيضا عن مغفرة اللّه، وانكسار في كافة الحقول الدعائية أمام عباد اللّه، وحزن مما يجاهدون في سبيل اللّه، وإبلاس لهم فيما يعتنقون من شريعة اللّه، وكل ذلك تجمعها «أَبى‏ وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ» إن إبليس يبلس كما المجرمون مبلسون يوم الدنيا ويوم الدين: «حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ» (44: 6) (وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الُمجْرِمُونَ» (30: 12) ولكنما إبليس زعيمهم هو الأصل في الإبلاس كما إفعيل مبالغة في مادته، والإبلاس هنا هو الإياس، فانه آيس عن رحمة اللّه ويؤيس عن رحمة اللّه ليجلب اكثر عدد ممكن إلى حزبه، ألا فتيقظوا يا أولي الأبصار! وَ قُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَ كُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ (36) قصة الجنة هذه تذكر هنا وفي أخرى: «وَ يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ، فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَ قالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ. وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ، فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ ناداهُما رَبُّهُما أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ، قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ، قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ، قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَ فِيها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 19

تَمُوتُونَ وَ مِنْها تُخْرَجُونَ» (7: 25) وثالثة في طه: «وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى‏ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً. وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآِدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى‏. فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى‏. إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى‏. وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى‏. فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى‏ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى‏، فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏. ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏. قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى‏» (20: 123).

مواضع ثلاثة تذكر فيها قصة جنه آدم، كما وذكرت قصة المعركة المصيرية بين إبليس وآدم في سبعة هذه منها، معركة تفتح للغاوين السبعة أبواب الجحيم كما ذكرت في سبعة، ندرس الثلاثة هنا ونترك السبعة الى محالها، وفي الهامش عرض الاعتراضات السبع الابليسية «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في تفسير الفخر الرازي: 2/ 236: حكى محمد بن عبد الكريم الشهرستاني في أول كتابه المسمى بالملل والنحل عن ماري شارح الأنا جيل الأربعة، وهي مذكورة في التوراة على شكل مناظرة بينه وبين الملائكة بعد الأمر بالسجود، قال إبليس للملائكة: إني اسلم ان لي إلها هو خالقي وموجدي وهو خالق الخلق لكن لي على حكمة اللّه تعالى اسئلة سبعة: الأولى: ما الحكمة في الخلق لا سيما إن كان عالما بان الكافر يستوجب عند خلقه الآلام؟.

الثاني: ثم ما الفائدة في التكليف مع انه لا يعود منه ضرر ولا نفع وكل ما يعود الى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف؟.

الثالث: هب انه كلفني بمعرفته وطاعته فلما ذا كلفني بالسجود لآدم.

الرابع: ثم لما عصيته في ترك السجود لآدم فلم لعنني وأوجب عقابي مع انه لا فائدة له ولا لغيره فيه ولي فيه أعظم الضرر؟.

الخامس: ثم لما فعل ذلك فلم مكنّني من الدخول الى الجنة ووسوست لآدم؟.

السادس: ثم لما فعلت ذلك فلم سلطني على أولاده ومكنني من إغوائهم وإضلالهم؟.

السابع: ثم لما استمهلته المدة الطويلة في ذلك فلم أمهلني؟ ومعلوم ان العالم لو كان خاليا من الشر لكان ذلك خيرا! .. هكذا زين لإبليس سوء تفكيره والجواب كلمة واحدة:

«لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ» حيث المسئول تنديدا ليس إلا لجاهل او العامد الخاطئ والظالم المفتاق، وأما الغني الحميد والعالم الذي علمه لا يبد فلا يسأل إلا تفهما! ثم الحكمة في الخلق هو اظهار لطفه ورحمته وإبراز عطفه ونعمته، فما لمن بدّل نعمه اللّه نقمة ان يعترض على ما أتاه اللّه من نعمة.

ثم التكليف ليس لفائدة الى اللّه من دفع ضر أو جلب نفع، وانما العائدة الى المكلفين واستكمالا للهدف من خلقهم ف «ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ» وتحصيل الكمال لنا دون سعي بطالة وعطالة وهي خلاف‏الحكمة.

ثم التكليف بالمعرفة والطاعة لزامه الابتلاء بالأمر والنهي، ومنه السجود لآدم إظهارا لفضله، رغم أنه أضله، فليرغم بذلك جزاء عما أضل.

و ليس العذاب واللعنة إلا من خلفيات العصيان أيا كان دونما ابتغاء فائدة للّه ام لغيره وإنما جزاء وفاقا هو العصيان بنفسه في ظهور حقيقته، ولكيلا يسوّي بين المحسن والمسي، وليتحذر كل سيّئ.

و في تمكينه لدخول الجنة تمكين بلا تسيير لاقتراف المعصية، فلو لم يمكّن العاصي في عصيانه لم يفرّق بين المطيع والعاصي وهذا ظلم وتسليطه على ولد آدم ليس تسليط التسيير، وانما تخيير دون الزام، لا في إغواء ولا إهداء، وحجج اللّه البالغة كافية لولد آدم تركا لطاعة إبليس، وفي ذلك التسليط ابتلاء يجعل من المدعين الايمان مخلصين وغير مخلصين، ولتمييز الصالح عن غيره، فعند الامتحان يكرم المرء او يهان.

و في إمهاله إملال وإدلال، وليظهر مكنون كفره كما هو، ويظهر مدخول النيات والطويات لمن يدعون الايمان.

فلقد أغلقت أبواب جحيم إبليس السبعة بكلمة واحدة «لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 20

و في هذه القصة مسارح للبحث والتساءل ندرسها على ضوء المثلث من آياتها، تاركين الأقاويل والروايات المتناقضة التي لا تلائمها، كما هو دأبنا في تفسيرنا «وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 21

(7: 17) فعلّنا نكون ممن يصلح ولا يفسد في آي الذكر الحكيم.

فما هي جنة آدم؟ ولماذا أدخل فيها إذا كانت سماوية وهو خليفة أرضية؟ وما هي الشجرة المنهية؟ وكيف النهي؟ وكيف يجوز العصيان من الخليفة المفضّلة على الملائكة وهو نبي؟ وكيف استطاع إبليس أن يزلّهما وهو خارج الجنة إذ أمر بالهبوط قبله؟ ومن هم المأمورون بالهبوط: «اهبطوا»؟ وما هي الكلمات التي تلقاها من ربه فتاب عليه؟ أم ماذا من أسئلة حول هاه القصة المهمة التي تستعرض بداية ظهور الإنسان وحياته.

1- جنة آدم؟

ترى إنها جنة الخلد؟ وكما يفهم من إطلاقها دون قرينة تصرفها عن وجهها؟

1- وجنة الخلد هي خلد دونما شرط الأكل من شجرة خاصة منها، فكيف عصى آدم ربه فغوى طمعا فيها: «هَلْ أَدُلُّكَ عَلى‏ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى‏. فَأَكَلا مِنْها،» (20: 121) وآدم أعرف بها منا إذ دخلها، فلو كانت هي الخلد لم يزلّ للحصول عليه بالأكل من شجرة الخلد وملك لا يبلى! 2- وأن «فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ» دونما استثناء، و قد نهي آدم فيها عما اشتهت نفسه! 3- وأن الداخل فيها ليس بخارج عنها: «لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ وَ ما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ» (15: 48) وقد مسّه نصب وأهبط عنها، وهم «خالِدِينَ فِيها أَبَداً» (5: 119) (لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ» (9: 21):

4- وان الكافر محروم عنها ونادى اصحاب النار اصحاب الجنة ان أفيضوا علينا من الماء او مما رزقكم اللّه قالوا إن اللّه حرمهما على الكافرين (7: 50) وإبليس كان من الكافرين! 5- وان الخلد هي جنة الآخرة، لا يدخلها احد قبل الآخرة، فكيف دخلها آدم و زوجه في الأولى وقبل أن تقوم القيامة!.

6- وأنها ليست دار شريعة وتكليف وقد كلّف آدم فيها! 7- وأنه لا يدخلها إلّا من‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 22

آمن وعمل الصالحات وجاهد وصابر: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ» (3: 142) ولا يعرف لآدم عمل يستحق به الجنة قبل دخولها ولا موقف للمصابرة قبل معركة الشيطان!.

8- وانها لا تزلف لأهله إلّا عند القيامة: «وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ» فكيف يدخلها آدم قبل إزلافها وقبل ابتلاء التقوى!:

فلدخول جنة الخلد التي لها ثمانية أبواب، ثمانية أبواب شرحناها، ولم يدق آدم حينذاك ولا بابا واحدة فكيف دخلها؟! ام كانت هي الجنة البرزخية؟ 1- ولا دخول فيها قبل الموت عن الحياة الدنيا وكما تشهد لها آياتها: «وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ»:

2- ولا يخرج الداخل فيها ما دامت السماوات والأرض: «وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» (11: 108).

3- ولا يدخلها الداخلون إلّا بأبدان تناسبها هي البرزخ بين الآخرة والأولى، دون الأبدان الأولى! إذا فلتكن هي من جنان الدنيا، وترى أنها من جنان الدنيا الأرضية؟ أم السماوية؟

و الأرضية منها ترفضها آياتها: «وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» ولا هبوط إلّا من أعلى الى ادني، ثم ولا تدل «اهْبِطُوا مِصْراً» على أنها المعني منها، حيث القرينة الأرضية هنا حاكمة دونها، وتفسير آية بأخرى ليس أن تفسرها بما فسرت الثانية مع فارق قرينة فيها دونها، فانه من ضرب الآيات بعضها ببعض، وهنا قرينة قاطعة أن الهبوط كان من جنة في السماء:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 23

«قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ. قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَ فِيها تَمُوتُونَ وَ مِنْها تُخْرَجُونَ» حيث الأرض المستقر فيها هي كلّ الأرض بجنانها وجاه السماء، وفيها حياة وموت وخروج منها، دون الجنة التي كان آدم فيها، وأن في الأرض الشقاء أيا كانت دون هذه الجنة: «فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى‏. إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى‏، وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى‏» وفي الأرض بجناتها جوع وعرى وظمأ وضحى! إذا فلتكن هي من جنان السماء، المتوفرة فيها مواصفاتها التي ليست في جنان الأرض أبدا.

و هل خلق آدم وزوجه فيها ومن ترابها ثم أسكنا فيها استمرارا لكونهما؟ كما قد توحي له: «وَ قُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ»؟

و السكون لا يخص الاستمرار فيما كان، وقد يلمح للدخول، فلا يقال للمكوّن في مكان: اسكن فيه، فانه لا محالة ساكن فيه ما لم ينقل عنه، وإنما يقال: ابق فيها، فالسكون فيها هو الدخول، وكما توحي له خلافته الأرضية منذ خلق: «إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَ تَجْعَلُ فِيها».

إذا فهو مخلوق في الأرض ثم منقول منها الى جنة في السماء، علّها جنة المسيح عليه السلام التي رفعه اللّه إليها، مما يدل أن الحياة الارضية تختلف عن حياة الجنة الدنيوية في السماء، ف «إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى‏، وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى‏» وبصيغة واحدة انك فيها لا تشقى: «فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى‏».

فلتكن فيها حياة بلا شقاء، بلا جوع ولا عرى ولا ظمأ ولا ضحى، فلتكن فيها أحياء وسعداء لا يعصون اللّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

و ترى كيف صعد إليها آدم وحواء ثم كيف هبطا؟ القرآن ساكت عنها، فلنسكت عما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 24

سكت اللّه عنه.

2- خليفة الأرض كيف يسكن جنة السماء ولماذا؟

إن آدم- دون شك- خلق لهذه الأرض بحياتها الشقية البلاء منذ اللحظة الاولى، ولكنه لا بد له من تجربة واستعداد، إيقاظا لقواه المكنونة، وإبرازا لسوئاته المواراة، ومعرفة لشيطانه الغاوي، تدريبا له على تلقي الغواية، وتذوّق النهاية، وتجرّع الندامة، واللجوء المكين إلى ملاذ أمين.

فنسيان العهد، ووسوسة الشيطان في الشجرة المنهية، والصحوة بعد السكرة، والندامة بعد المعصية، التي بدأت لآدم وزوجه في الجنة، إنها مثال التجربة البشرية المتكررة في الحياة الأرضية، فليستعد آدم وزوجه لمعركة الشيطان المصيرية الدائبة على هذه الأرض وليعرف أن الشيطان لا يكاد يتخلى عنه في الجنة فكيف له في الأرض، فليعدّ عدته وعدّته لمعترك هذه الساحة بسلاح اليقظة حتى لا يقع في فخّه، ثم التوبة لو اعترضته اللمم، تلقيا من اللّه عهده فلا ينساه، ومعرفة عدوه فلا يهواه! وتعرّفا إلى كلماته ليتوب عليه «إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

إن تجربة الجنة توحي بأن حياة الخليفة الأرضية هي حياة الجنة لو لا الخطيئة، وسوف تنتهي إلى الجنة إذا تداركها بالتوبة، كما وتتدارك حياته الأرضية ايضا بالتوبة، وأن الطريق إلى التوبة مفتوحة في يسر وبساطة، وحتى إذا كانت توبة وقتية فضلا عن التوبة النصوح.

و توحي ايضا أن ما حلت في حياته من الطيبات اكثر بكثير مما حرمت من‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 25

الخبيثات‏ «1» فان له أن يستعيض الطيبات بخبيثات يهواها على ضوء الشريعة السهلة السمحاء، فلا عليه إذ يهدف تبنّي حياة الجنة في الأولى والآخرة إلّا أنها تنغّص الحياة المريحة، وتهدم صرح الإنسانية.

ففي معترك الحياة الأرضية تكفيك معرفة عدوك بما عرفه اللّه، والالتزام بعهد اللّه، ثم التوبة إلى اللّه إذا اعترضتك لمم، مثلث الحياة للخليفة الأرضية، التي تجعلها راجعة الى ربها راضية مرضية! ..

3- ما هي الشجرة المنهية؟

لا نجد لها اسما في آياتها الثلاث، اللّهم إلّا سمات وآثارا، وهي هي المقصودة في كتاب الهداية دون الأسماء، إذ لا جدوى فيها إلّا تعريف المسميات، وعلّ القصد من الشجرة المنهية ليس شجرة واحدة مما نعرفها، وإنما جنس ما يتشجر تحريضا للشهوات والتشاجرات، فليس لها- اذن- اسم خاص ولا مسمى خاص، وانما كلما يؤثر ذوقه وتناوله هذه الآثار:

الخروج من حياة الجنة الى حياة الشقاء والعناء، حياة الجوع والعرى والظمأ، والضحى وظهور السوءات، وهي في صيغة اخرى: نسيان عهد اللّه والإعراض عن ذكر اللّه: «وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى‏ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ... وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏» كما في الآيات من طه، فضنك المعيشة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نستوحيه من «وَ كُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 26

وشقائها، والهبوط من حياة الجنة الى ارض التجربة والبلاء، كل ذلك من مخلفات ذوق هذه الشجرة، التي تشجّر الحياة فتعملها فوضى، وتتشجر عنها الحياة الظالمة المظلمة فتخلّف عيشة ضنكا!.

هذه هي الشجرة المنهية بسماتها دون أن نعرف اسمها او أسمائها حيث لا جدوى فيها إلّا سماتها، مهما تشجرت الآراء في اسمها، بين هابطة خابطة كالتي تسربت في توراة موسى: شجرة المعرفة! وبين ما لا طائل تحتها او لا صلة بها وآثارها، او لا دليل لها من علم او أثارة من علم‏ «1».

و ترى كيف ينهى عن تناول شجرة المعرفة بين الحسن والقبح، وهي الشجرة الطيبة التي خلق الإنسان لها، وامره اللّه ان يعيشها متزودا بها حياته وحياتها، مندّدا بمن لا يستظل في ظلها، ولا يتناول من ثمراتها؟ فكيف ينهى عنها؟

أم كيف يعصى بتناولها قبل أن يعرف الحسن والقبح؟ ومن القبيح عصيان اللّه! فليعرف فيتعرف إليها بذوقها حتى لا يعصى ربه بعدها! فلما ذا عدّ من العصاة؟: «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏» فلو كانت هي شجرة المعرفة كان تناولها من أفضل الطاعة! ثم ولا عصيان قبل المعرفة! حيث هي مهبط التكاليف الإلهية، واما المجانين او البله المستضعفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلا، فليسوا هؤلاء عصاة!.

ثم آدم الذي علّم الأسماء كلها وأنبأ الملائكة بأسمائها، هلّا كان هو من العرفاء، ولحد يعرف الحسن عن القبيح حتى يعصى ربه في ذوق شجرة المعرفة! إنها لقولة فارغة هراء، خاوية عراء، واللّه منها براء! وأما شجرة الكرم والنخلة والتين والحنطة والكافور والأترج و السنبلة فليست هي بالتي تؤثر هذا الأثر الرذيل، رغم أن التين مبارك في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). انها بين ستة عشر قولا: شجرة الكرم، النخلة، التين، الحنطة، السنبلة، الكافور، الأترج، الحنظل، المحبة، الطبيعة، الهوى. العلم بالخير والشر، الخلد، الحسد، شجرة علم محمد و آله، والمؤيدة ببعض الروايات منها هي: 1- 4- 5- 6- 15- 16

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 27

القرآن والسنبلة مباركة في حديث الرسول، والنخلة ام لآلكلة، والحنطة إدام لدوام الحياة، والكافور ممدوح في القرآن، والأترج في السنة، فما هي الصلة الطبيعية بينها وبين هذه العرقلات للحياة مادية و روحية، اللّهم إلّا كونه نهي امتحان دون أن تحمل شجرته هذه وتلك من العرقلات، ولكنما التوبة- إذا- لا بد وان ترجع بصاحبها الى ما كان من حياة الجنة لو لا أن طبيعة الشجرة المنهية تحمل عناء الحياة وشقائها، وكما أن ذوقها عصيانا للّه نسيان لعهد اللّه وإعراض عن ذكر اللّه.

فنفسية الشقاء هي من مخلفات العصيان، ومادّيتها من آثار هذه الشجرة، خلاف ما وصفها الشيطان: «هَلْ أَدُلُّكَ عَلى‏ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى‏»! ومهما يكن من شي‏ء فلنسكت عما سكت اللّه، ونفصح مستصفحا عما ذكر اللّه، وما هو في مثلث الآيات إلّا التي عرفناها: شجرة الإعراض عن ذكر اللّه، تتبع نسيان عهد اللّه، فتخلّف معيشة ضنكا: انحرافا وانهرافا عن معنوية الحياة، وشقاء وجوعا وعرى وظمأ وضحى، التي تجمعها: «الهبوط عن الحياة العليا»: أسفل سافلين: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ»:

«قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ».

ثم الآيات تنهى آدم وزوجه ان يقربا هذه الشجرة، مما يوحي بشدة النهي كما في سائر مواردها: «وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنى‏» «وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ» ...

و لكنما المنهي عنه هو الأكل منها أو ذوقها: «فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ» و «فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما» وترى انه ذوقها هي ام ثمرتها؟ إن الشجرة لا تؤكل او تذاق بسوقها وأوراقها! وإنما أثمارها، فهي هي التي نهي عنها، والنهي عن قربها تأكيد للنهي عن ثمرتها،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 28

«فالمعاصي حمى الله فمن حام حول الحمى او شك ان يدخلها».

و هنا الأكل منها يعني ذوق ثمرتها، دون شبع للبطن منها، ولا أكل دون ذلك، وإنما ذوق الأكل وأكل الذوق: أقل ما يسمّى أكلا، «فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما» ما أن بدئا يأكلان، ولذلك عبر عنه بالذوق. وهذا الأكل الذوق خلّف دون فصل او اختيار ظهور السوءات، ومن ثم حياة العناء الهابطة الخابطة.

4- وكيف النهي؟

لقد نهى اللّه تعالى آدم وزوجه عن أكل الشجرة وذوقها نهيا مؤكدا منذرا: «وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ»- «أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ»- «فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى‏».

فهنا يهدد في اقتراف المحظور بالخروج عن الجنة والشقاء وأنه ظلم، ثم ينادي في آيات أخرى انه زل عن طاعة اللّه بوسوسة الشيطان:

«فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ» «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ» «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏»! فهناك فيما فعله آدم وزوجه: زلة وغواية وظلم وعصيان وشقاء، وكلّ منها كاف في التدليل على أنهما ارتكبا الحرام، كما و «لا تَقْرَبا» تؤكده وتشدده! فالزلة هنا هي الزوال عن الحق او زوال الطاعة: «إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا» (3: 155) والغواية جهل عن اعتقاد فاسد:

«لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» (2: 256) (وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ» (7: 202).

و الظلم انتقاص إما بحق النفس والغير وهو أفحشه، او بحق الغير وهو أوسطه، او بحق النفس وهو أدناه، وليس بحق اللّه إذ لا ينتقص في شي‏ء: «وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 29

أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (2: 57)، وقد ظلم آدم نفسه فانتقص حاله ومستقبله!: «رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ». ثم قد يكون الظلم بالنفس دون اقتراف منهي عنه كما في يونس: «سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» (21: 87) وفي موسى: «رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي» حيث لم يسبق ليونس نهي عن ذهابه عن قومه مغاضبا مستاء أن عصوا اللّه، وانما انتقص في دعوته الرسالي إذ ذهب عن قومه ولم يصابر! ..

و اظهر منه ظلم موسى نفسه فانه قتل القبطي المشرك المقاتل للاسرائيلي الموحّد، وليس هذا محرما حتى ولو لم يقاتل المشرك فان دمه هدر، فكيف إذا قاتل الموحد فان مطاردته تصبح واجبة، فهذا ذنب العصيان عند المشركين: «وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ» (26: 14) وطاعة خاطئة عند الموحدين: بِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي» فلم يقل غيري وهو قد قتل، وانما «نفسي» حيث أخر دعوته الرسالية نتيجة قتله القبطي، إذ كان الأحرى أن يدفعه ولا يقتله حتى لا تتأخر دعوته، ولكنه «فَوَكَزَهُ مُوسى‏ فَقَضى‏ عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ» (28:) 15) فوكزه عمل الرحمان وقد كان مقصودا للدفاع عن الموحد، وقتله من عمل الشيطان ولم يكن مقصودا حيث يؤخر الدعوة، وطلب الغفر عن هذا الذنب الظلم لا يعني إلّا ان يستر اللّه على البغضاء الفرعونية حتى يواصل موسى في دعوته.

و مهما يكن هنا وهناك من شي‏ء فليس الظلم من يونس وموسى مسبوقا بنهي، وان كان مرجوحا وجاه الدعوة الرسالية، لكن ظلم آدم كان مسبوقا بأشد النهي، موصوفا بالزلة والغواية والعصيان، إذا فهو الظلم الحرام مهما كان من أدناه، وقد هدّد الظالمون العصاة بعدم الفلاح «إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» (6: 21) والهلاك: «هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 30

الظَّالِمُونَ» (6:) 47) واللعنة: «أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» (11: 18) وبضلال مبين:

«بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» (31: 11) مهما اختلفت مراتب الهلاك والضلال واللعنة حسب اختلاف الظلامات.

فهل لك بعد ذلك كله ان توجّه ظلم آدم وعصيانه وزلته وغوايته بظلم غير محرم كما في يونس وموسى، وبينهما مثلث البون:

1- انهما لم يسبق لهما نهي، وقد سبق لآدم أشده بتهديدات! 2- انهما اعترفا بظلم توجّهه قرينته أنه- فقط- انتقاص في الدعوة دون قصد، ولكن آدم وزوجه «فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ»: سائر الظالمين العصاة لا «فتكونا ظالمين» حتى يتحمل ما تحمّله في يونس وموسى!.

3- إنّ ظلم آدم مقرون بقرائن قاطعة أنه ظلم الزلة والغواية والعصيان، دونهما حيث القرائن تنفي عنهما ظلم العصيان.

و ترى هل يتحمل هكذا نهي أنه تنزيهي إرشادي، فان ذوق الشجرة أتبع الهبوط عن الجنة فعناء الحياة الأرضية وشقاءها، فقد نهيا عنها إرشادا إلى التحرز عن هذه الشقاء، ولو لا انه- فقط- ارشادي: لا مولوي- لأنتجت توبتهما رجوعهما إلى ما كانا فيها ولم يرجعا بعدها؟! إلّا أن المتصور من النهي والأمر: المولوية- الإرشاد- مجموع الأمرين.

فإذ ينهى المولى مولويا وللإرشاد الى ما يحمله من فساد، كان العصيان ثنائيا فالظلم اثنان، كما في أكثرية النواهي التشريعية.

و إذ ينهى مولويا دون إرشاد الى محظور الفساد، فهذا نهي ابتلائي فعصيان واحد لا اثنان، كما في القليل من موارده.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 31

و إذ ينهى إرشاديا لا مولويّا، فقد يتحمل توجيه خلاف الأولى! وقد لا يتحمله.

و الأغلبية الساحقة من أوامر اللّه ونواهيه هي من القبيل الأول فان اللّه يأمر وينهي كرب العالمين ومولى الخلق أجمعين، بما يحمل توجيهات- عرفناها ام لا- إلى مصالح فيما يأمر و مفاسد فيما ينهى.

وَ لَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآِدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11).

وئمن الأكيد أن «قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآِدَمَ» كان قبل «خلقناكم ..» كمجموعة، فكيف تأخر هنا في هذا العرض العريض؟.

أ فكان عرضا مشوشا خلاف واقع الترتيب؟ وهو مشوش من التأويل يمس من كرامة القرآن الرتيب الأديب فوق القمم كلها في الأدب الأريب!.

قد تعني «خلقناكم» بما خلق أبوينا الأولين حيث كنا ذرا هناك، وكما «وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» (36: 41) بوجه الذرية الصحيح أنها هناك من إضافة الشي‏ء إلى نفسه باعتبارين:

حملناهم وهم ذرية في أصلاب وأرحام الآباء والأمهات المحمّلين في الفلك المشحون، وكما تشهد له: «و أنا لم طغى الماء حملناكم في الجارية» (69: 11).

فهنا «خلقناكم» بما خلقنا في صلب آدم وترائب زوجه «ثم صورناكم» تصويرا بدائيا إنسانيا هو الصورة الأولى الإنسانية، ثم: «النطفة» وما أشبه من سابقتها.

و علّ القصد من جمعية الخلق والتصوير هنا هو التلميح بأن سجود الملائكة لآدم بمعناه الصالح لم يكن- فقط- حرمة لشخصه الشخيص، ومن ذريته من هم أعلى منه محتدا وأهليه لذلك الاحترام، كالمعصومين المحمديين عليهم السلام الذين لم يكونوا يتركون الأولى‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 32

بجنب اللّه فضلا عن عصيان. ذلك، وبوجه آخر ضمنه يلمح بالترتيب الثلاثي خلقا وتصويرا ومن ثم حرمة السجدة الملائكية لهذا الإنسان المخلوق في أحسن تقويم، والقصد هنا إلى الصورة الإنسانية الكاملة الواصلة إلى أحسن تقويم كيانا على ضوء شرعة اللّه بعد ما هو أحسن تقويم كونا بفضل خلق اللّه إياه.

فالكيان الإنساني المتكامل على ضوء الفطرة والعقلية السليمة والوحي، هو الكيان المسجود له بملائكة اللّه، ولا تعني «اسْجُدُوا لآِدَمَ»- كما فصلناه في آيات البقرة- إلّا سجدة الشكر للّه بما خلق آدم معلما لهم ومربيا، وليست سجدة الحرمة لآدم نفسه، فضلا عن سجدة العبودية، حيث التسوية باللّه محرمة في شرعة اللّه: «تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ» (26: 98).

و قد يتأيد كون المسجود له احتراما هو الإنسانية دون شخص خاص هو الأول، أن إبليس يهددهم أجمع بعد ما دحر بتخلفه عن السجود لآدم:

«لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» (17: 62) (قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» (15: 39) وهنا «فَبما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ..»، ولولا أن السجود كان لهم أجمعين بصورة إنسانية كاملة، لما هددهم بما هددهم أجمعين.

و كما أن خلق آدم كان خلقا لنا أجمعين، كذلك السجود له هو سجود لنا أجمعين، اللّهم من رد إلى أسفل سافلين، فانما هو سجود الاحترام بساحة الإنسانية الكبرى، ولا سيما أهل بيت الرسالة المحمدية كما يقول الإمام علي (عليه السّلام): «و أودعنا في صلبه وأمر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 33

الملائكة بالسجود له لكوننا في صلبه» «1».

و لقد جاءت قصة آدم وإبليس بحذافيرها جملة أو تفصيلا في سبعة مواطن: هنا وفي البقرة والحجر وبني إسرائيل والكهف وطه وص، والقول الفصل حولها آت وقد مضى في البقرة فلا نعيد هنا، اللّهم إلّا ميّزات تختص بها هذه الآيات:

قالَ ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12).

«ما منعك» تلمح بأن طبيعة الحال وقضية المجال كانت السجدة دونما فتور، حيث الآمر هو اللّه المولى والمأمورون هم ذلك الحشد العظيم بمن فيهم إبليس، المولّى عليهم ربهم.

فلا بد- إذا- من مانع هو أقوى من دافع، كما هو قضية الحال في كل عصيان.

«قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» فكيف يسجد «خير منه» لمن هو أدنى؟ إذ «خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ»! والنار خير من الطين في كافة الفاعليات مهما كان الطين- علّه- خيرا منها في قابليات، ولكنها أيضا على ضوء فاعليات النار حيث تفعل آثارها فيه فتنبت منه نباتا وحيوانا وإنسانا.

ذلك ولكنه أخطأ في بعدين بعيدين، ثانيهما أنه رد على اللّه بذلك البرهان! وكأنه غافل عما خلق أو جاهل به، أم هو ظالم في تقديم المفضول على الفاضل، وكل ذلك إلحاد بل هو أنحس من الإلحاد في اللّه والإشراك باللّه، ولذلك استحق الدحر أبد الآبدين، كما وأنه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ملحقات إحقاق الحق 5: 92

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 34

أخطأ في أصل البرهان.

وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآِدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (61).

حسد فاتك من إبليس في حماقة كبرى يجعله يذكر الطين، غافلا متجاهلا عما نفخه اللّه في هذا الطين، فلو أنه نظر الى نورية آدم ولم ينظر الى نارية نفسه لما كفر!.

قفزة الخلقة لآدم الاول من طين.

و «طينا» هنا ليس إلّا حالا، خلقته حال كونه طينا، فتصبح نصا على قفزة دون واسطة للطين الى آدم، رغم تأويلات الداروينيين في سائر آيات الطين: «إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ» (38:) 71) في قولتهم إن «من» النشوية الابتدائية الجنسية لا تثبت إلّا بداية طينية، أما أنها دون وسيط بقفزة ام بوسيط التكامل فلا تدل على شي‏ء منهما، وقد يلوح من آيات اخرى التكامل! ليست هناك آيات تلمح للتكامل إلّا القفزة، وهنا الحال «طينا» تقطع المجال والآمال عما يهوون، نصا في القفزة، ف «خَلَقْتَ طِيناً» تعني خلقت آدم الاوّل حال كونه حين خلق طينا ثم «وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ» (32: 7) مما تناصرها في هذه القفزة، حيث البداية تختلف عن الاستمرارية التناسلية في خلق سائر الإنسان، فلو عنت «من طين» فيما يعنون من النشوية البعيدة لم يكن فرق بين البداية وسواها، حيث النطفة تبتدء من طين كما آدم في قولتهم. واما أن الجامد لا يأتي حالا، فهو اجتهاد أدبي من استقراء، ولا قرية أدبية أحرى من القرآن، ولا يصح او يحسن هنا «طينا» إلّا حالا «1»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فكونه مفعولا لخلقت وحيدا لا يصح حيث الصلة لا بد لها من ضمير الى الموصول، او انه مفعول ثان اوله محذوف «خلقته طينا» هو عكس الواقع انه خلق طينا إياه، لا خلقه طينا، او انه مفعول أول تأخر «خلقت طينا إياه» ولو انه صحيح فغير فصيح، او ان «طينا» منصوب بنزع الخافض، وهنا موضع اللبس فلا ينزع الخافض فإن نزعه يخلف النزاع. فلا مجال في أدب القرآن إلا كونه حالا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 35

خلقته طينا وخلقتني نارا والنار في أصلها وتبدلها التكامل خير من طين، فلما ذا أسجد أنا النار لآدم الطين؟!.

و هنا لك آيات اخرى صريحة في القفزة الطينية لآدم ك «إِنَّ مَثَلَ عِيسى‏ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (3: 59) ولزام الممثل به أن يكون أمثل وأفضل فيما يمثل، ومادة المماثلة بين عيسى وآدم هي اختراق العادة في خلقهما فليكن آدم دون أبوين ليمثل به عيسى المخلوق من أم، وليس ذلك إلا خلقه قفزة من تراب، وأما الخلقة التكاملية فليست خارقة فلا مماثلة فضلا عن كون آدم أمثل، فإنما «خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ» (55: 14) وهل الفخار يصنع الفخار إلّا من طين، فكذلك فخّار فخار الإنسان خلقه من طين.

و اما آية الاصطفاء «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ» (3: 33) فلا تدل على ما يهواه الهاوون الغاون، ان آدم أبا هذا البشر كان بين أوادم فاصطفاه ربه لإنسان البشر، وجعله رسولا إليهم، حيث الاصطفاء يكفيه انه كان بين حواء وسائر الجن والشياطين، فاصطفاه رسولا إليهم بعد العصيان والتوبة والاهتداء:

«وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏، ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» (30: 122).

و مهما كانت في سائر القرآن آيات تتشابه احتمالا للتكامل، فهي متشابهة ترجع الى أمثال هذه المحكمات «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 36

ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ»! فلا مجال لخلق آدم- على ضوء القرآن- إلّا القفزة الطينية، اللّهم إلا لمن يكفر ه فيهرف بما لا يعرف ناسبا له الى القرآن! بما تأثر من تخيلات دارونية اماهيه، تحميلا لها على متشابهات من الذكر الحكيم، متغاضيا عن محكمات القفزة الطينية اليقينية.

و لئن قلت إن شيطنة العقيدة تضرب الى شيطنة التفهم عن خلق آدم، و «خَلَقْتَ طِيناً» من اجتهاد الشيطان؟.

فالجواب: ان الرحمان ليس ليصدق الشيطان فيما يكذب وإلّا أصبح القرآن البيان كتاب الشيطان، فلا تجد في القرآن استعراض ضلالة إلّا في إعراض وابطال كما هو قضية كتاب الهدى وإلّا أصبح من كتب الضلال، فهنا السكوت عن إبطال «خَلَقْتَ طِيناً» ومن ثم في آيات تناظرها التصريح بطينية آدم برهان لا مردّ له على تصديق لقوله أكيد، فليست كل مقالات الشيطان باطلة، وانما يخلط حقا بباطل إضلالا، وليس يستطيع الشيطان أن يكذب ربه فيما خلق وفي مواجهة خاصة «خَلَقْتَ طِيناً»! ثم اللّه هو القائل «لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ» (38: 71) لخصوص آدم «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ» (23: 12) له ولبنيه حيث النطفة سلالة من طين، كما وأن طين آدم كان سلالة من طين.

ثم الشيطان وإن لم يكن من الملائكة إذ «كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» (18:

15) ولكنه كان في زمرتهم تقدسا وعبودية للّه فشمله الأمر كيانا وإن لم يشمله كونا، كما ولم يعترض هو بذلك على ربه فيما اعترض، ثم و «إِذْ أَمَرْتُكَ» (7: 121) دليل خاص على أمره و «قلنا للملائكة يدلنا انه كان ضمن الملائكة.

و السجود هنا كما فصلناه في البقرة والجن ويوسف كان سجود شكر ولم يكن المسجود آدم، وإنما «اسْجُدُوا لآِدَمَ» سجودا للّه لما أنعم عليهم من آدم معلما «قالَ يا آدَمُ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 37

أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ»، فلا أن آدم كان قبلة لهم حيث السجود هو الى القبلة لا لها وهنا «لآدم» ولا أنه مسجود فانما هو اللّه وآدم مسجود له: ولأجله، فالسجود له قد يعني أنه مسجود كما اللّه، أو انه سبب للسجود كالشكر للّه بما أنعم ورزق كما تقول: سجدت لرزقي- لولدي إمّا ذا.

قالَ أَ رَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (62).

هنا يتهدد إبليس ربه في ذرية آدم باحتناك ذريته فتزول هذه الكرامة حيث يجعلهم في احتناكهم كمثله ام هم أضل سبيلا، فينقض في زعمه الكرامة الربانية لآدم حيث ينتقص من تلكم الكرامة ... وكما انتقض فترة في عصيان آدم.

«قال» إبليس مخاطبا ربه: «أرأيتك» أرأيت نفسك «هذا» الطين الحقير الهزيل الذليل «الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ» وقد «خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ»! أرأيتك تبقى هذه الكرامة؟ «لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ»؟

كلّا فانني إن أخرت وأمهلت «لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا»:

أنت كرمته عليّ لأنه يعبدك اكثر مني، وانا اكرّم نفسي عليه حيث احتنك ذريته ...

فيعبدونني أنا تاركين عبادتك! نرى قصة إبليس في آيات سبع، تشترك في أمر الملائكة بالسجود لآدم وإبلاس إبليس، حيث استقل كيان آدم المخلوق من طين، واستغل ناريته في إبلاسه عن السجود له، ثم تأتي بماتهدّد إبليس ذرية آدم باحتناك ذريته إلّا قليلا، وان «لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ، قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ» (7: 18) و «لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 38

أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الُمخْلَصِينَ. قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ» (15: 43).

«وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ» فيما هدد ذريته «فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (34: 20)! لا لأنه أقوى منهم ف «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً» بل لأنهم اغوى منه رغم انهم أقوى حجة وأحجى!.

إنه طالب ربه إنظاره الى يوم يبعثون «قالَ أَنْظِرْنِي إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ» (7: 15) فهل إلى يوم يبعثون؟ و «مِنَ الْمُنْظَرِينَ» يلمح إلى أنهم عدة، فمن هم؟

وحتى متى؟ وفي صلى الله عليه و آله «وَ إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى‏ يَوْمِ الدِّينِ: قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ: إِلى‏ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» (81).

و قد تلمح لعنته الى يوم الدين أنه الوقت المعلوم‏ «1» وقد يبعده ألّا تصريحه في سائر القرآن بإجابته الى يوم الدين، وإنما «إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ» ام و «إِلى‏ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» وعلّه لان إنظاره له مرحلتان، إنظار اوّل الى يوم يقوم القائم عليه السلام حيث يأخذ حريته في مجاله الأوسع احتناكا لذرية آدم، وانظار ثان منه الى يوم القيامة الكبرى ولا يحسب له حساب، حيث الدولة الحقة الإلهية لا تفسح له مجالا فسيحا ولان الشيطان ربط احتناكهم إلا قليلا بإنظاره الى يوم الدين، و «صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» فهذه تلميحة اخرى انه منظر الى يوم الدين.

و لماذا يربط احتناكه إلّا قليلا بذلك الإنظار وهو محتنك ذريته وان انظر ساعة؟ ...

لأنّ «الا قليلا» لا يتحقق في حسابه الا في إنظاره إلى يوم الدين، فلو انظر أقل منه فقد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). حيث اللعنة الى يوم الدين هي جزاء الشيطنة الى يوم الدين وقد تحققت اللعنة فلتتحقق‏كذلك الشيطنة الى يوم الدين، مهما خفت منذ قيام القائم لقوة في دولة الايمان وللمؤمنين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 39

يتفلت كثير عن سلطانه فيما ليس له سلطان، فهو بحساب كل زمان ومكان يحتنك ذريته إلّا قليلا حسب هذا المجموع، فلو خرج شطر من زمان او مكان لاختل ميزان الشيطان ولم ينضبط في المجموعة «إلا قليلا» مهما انضبط بالنسبة للشطر الذي انظر فيه.

و قد ينصدم «إلّا قليلا» بزمن القائم المهدي عليه السلام واللّه العالم! ثم الاحتناك قد يعني افتعالا من الحنك: لأقودنهم إلى المعاصي كما تقاد الدابة بحنكها، غير ممتنعة على قائدها، استيلاء عليهم وملكة لتصرفهم كما يملك الراكب الحمار حماره، بثني العنان تارة وبكبح اللجام أخرى.

أم يعني: لألقين في إحناكهم حلاوة المعاصي حتى يستلذوها ويرغبوا فيها ويطلبوها.

او: لأستأصلن ذريته بالإغواء، ولأستقصين إهلاكهم بالإضلال، حيث اتباعهم غيّه، وطاعتهم امره يؤولان بهم الى موارد الهلاك وعواقب البوار. او: لأضيقن عليهم مجاري الأنفاس من إحناكهم بإيصال الوسوسة لهم، وتضاعف الإغواء عليهم، يقال: احتنك فلان فلانا إذا أخذ بمجرى النفس من حنكه فكان كالشبا في مقلته، والشجا في مسعله» «1».

او أنها كلها معنية تجمعها احتناكه لهم كالحمار حيث يؤخذ بحنكه فينقاد حيث يقاد احتناكا فطريا- عقليا- فكريا- عقيديا- عمليا- سياسيا- اقتصاديا إمّا ذا حيث الشيطان يحتنك كلّا حسب المكنة والاستطاعة بما عنده من هذه وتلك، وعلى أية حال إنه يحقق نصيبه في كلّ باستحمار يناسبه بعلم او مال او مقال أمّاذا، و «قليلا» يعني المنحسرين عن احتناك الشيطان، المنحصرين باللّه وفي اللّه فلا ينجو عن ذلك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بين القوسين منقول عن مجازات القرآن للسيد الشريف الرضي ص 302- 203

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 40

الاحتناك- قلّ او كثر- إلا القليل.

و ترى من القليل المستثنى من احتناك الشيطان؟ هناك قلة مخلصة لا تشملهم أية غواية علمية او عملية او عقائدية أماهيه «قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الُمخْلَصِينَ» (38: 83) ثم له سلطان أيا كان على غير المخلصين: «إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ» (15: 42) ففي كل غواية سلطان للشيطان من سيئة صغيرة الى كبيرة والى كفر مطلق، مهما اختلف سلطان عن سلطان، فمن يتبع الشيطان كان للشيطان عليه قدر اتباعه سلطان، فمنهم من ينجو بتوبة او شفاعة او رجاحة الحسنات او ترك كبائر السى‏آت، ومنهم من لا ينجو إلا دخولا في النار لفترة طالت ام قصرت ثم يخرج الى الجنة، ومنهم من يخلد بخلود النار ثم يفنى بفناء النار «وَ ما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ».

فلا ينجو من سلطان الشيطان ككل إلّا فريق من المؤمنين لا كلهم:

«وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (34:)

20) فلم يقل «إلا المؤمنين» وهذه الفرقة من المؤمنين هم المعنيون ب‏آية النحل «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» (16:) 99) إيمانا يتوكل فيه على اللّه، فبالإيمان يخلص وبالتوكل يصبح من العباد المخلصين فليست هذه القلة إلّا المعصومين! و هم عباد اللّه حقا إذ لا نصيب منهم للشيطان «إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَ كَفى‏ بِرَبِّكَ وَكِيلًا» (17: 65).

فالشيطان بين سلطان مطلق واحتناك لبني الإنسان، وبين عباد مخلصين ليس له عليهم سلطان، ثم بينهما عوان للشيطان عليهم سلطان قل او كثر.

و ترى ذلك الاحتناك يخص بني آدم دون سواهم من المكلفين حيث النص:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 41

«لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا»؟ ... ان الشيطان يطمح في احتناك ذريته كأصول لدعوته، انتقاما من تكريم آدم عليه ولأنه شيطان، فهو شيطان بالنسبة للمكلفين كافة كما الآيات الأخرى تشملهم ف «إِنَّ عِبادِي ...» لا يخص بني آدم! قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً (63).

«اذهب» أمر ليس دفعا الى الإضلال لا تكوينا ولا تشريعا، بل هو سماح وإنظار يتبعه إنذار «فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ ...» فهو امر تهديدي في معنى أشد النهي تشريعيا لمن لا يحن الى هدى ولا يرجى منه الاهتداء فيطرد تحديا، وتهديدا، مهما يحمل إمهالا تكوينيا كما في نظائره: «قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ» (20: 97).

و الجزاء الموفور هو الوفاق وفر العدل، دون أن ينقص ما يستحقونه شيئا أو يزيد، وقد يعني أنهم مهما كثروا فجهنم لهم جزاء موفور لا تضيق بهم «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ».

و ترى إن جهنم جزاء لكل من تبعه في أية تبعة؟ وهنا لك غفرانات بتوبات ام شفاعات او ترك كبائر السى‏آت او فعل الحسنات ام ماذا! الجواب أن هؤلاء ليسوا أتباع الشيطان، وإنما هم من كانت حياته حياة التبعية للشيطان مهما كانت له حسنات ام ماذا، فرجاحة السى‏آت جزاءها جهنم مهما خرج عنها باستحقاق ام خلد فيها باستحقاق.

«اذهب» وحاول ما استطعت في احتناكهم فلا تملك منهم إلا كيدا، وقد ملّكوا عقولا وزوّدوا ب‏آيات الحق صدقا، برسالات دواخل الذوات وخوارجها، فهم أقوى منك في هذا الميدان، إلّا من تغافل عن طاقاته، وتجاهل عن بيناته «وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ» هذه النعمة القوة بسوء اختيارهم.

و ترى لماذا «جزاءكم» خطاب الحاضرين وهم غيّب وحاضر الخطاب هو إبليس؟

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 42

... لأنهم أيا كانوا وأيان فهم حضور عند اللّه دون غياب، قبل أن يوجدوا وبعده، أحياء وأمواتا، وان غائب الصيغة لا يشمله وهو حاضر «جزاءهم» وحاضرها تشمله وإياهم، ثم وحاضر الإنذار أوقع من غائبه.

وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ وَ شارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ وَ عِدْهُمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً (64).

آية عديمة النظير تحمل فيما تحمل افتعالات الشيطان في أوامر اربعة لا تعني إلّا ما عناه «اذهب» دون دفع تكويني او تشريعي، وإنما سماح وإنظار وأنه لا يمنع تكوينا مهما منع تشريعا: «فان جهنم جزاءكم» وترى إن اللّه يدله على موارد إضلاله؟ كلا! وإنما يدلنا على مجاري ضلاله ومناهل اعتقاله.

و تحتصر الآية فيما تختصر قدر المستطاع من كيد الشيطان، ولكي نكون على نبهة واهبة في مواجهته بما زودنا من طاقات، وتزيدنا نجاحا في هذا النضال مواعيد ربنا «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا» (19: 63) (إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَ كَفى‏ بِرَبِّكَ وَكِيلًا».

فهناك خطوة إبليسية اولى: «وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ»:

فما هو صوته وما هو استفزازه بصوته؟.

الاستفزاز هو الاستخفاف الإزعاج من الفز: ولد البقرة لما تصور فيه من الخفة كما يسمى عجلا لما تصور فيه من العجلة، ولا يحمل على العصيان ولا يحتنك للشيطان إلّا من يستفز استخفافا عن ثقله، وكما ان فرعون «فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ» (43: 54) وأراد ان يستفز بني إسرائيل فثبتّهم موسى «فَأَرادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِيعاً» (17: 103) وكادوا ليستفزوا الرسول (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) ولكن‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 43

«وَ إِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَ إِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا» (17: 76).

ليس للشيطان ان يستفز عباد الرحمن بعقلية راجحة او بحجة ووعد الصدق، وانما بما يزين لهم في الأرض: «قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الُمخْلَصِينَ (15: 40).

و للشيطان صوتان يستفزان، صوت يلهي بما يشهيّ من غنى وموسيقا ام ماذا؟ «1»، فمهما لا يسمع منه نفسه، يحمل من يحتنكه على صوته استفزازا لنا.

ثم وصوت يحمل وعودا في غرّة ومكيدة، ولا يستفز بهما إلّا الأخفّاء في عقولهم وايمانهم و في اي حقل من حقولهم المستخفة المتخاذلة، والصوت قد يلهي بنفسه سواء بلفظ له معنى حق أو باطل، أو لا يعني ايّ معنى، كالأصوات الخاصة بالمراقص وسائر اللهو، فاللهو الثالث ذو بعد واحد والثاني اثنين وفي الاول بعد بعيد فان فيه مهانة للحق كأن يقرء القرآن بصوت يناسب الرقص، وامّا الصوت غير الخاص باللهو، فقد يعني معاني واعظة ومذكرة فأحسن، او معاني مضللة وباطلة ملهية فقبيح، او معان عوان فعوان لا ممدوحة ولا مذمومة.

ثم المعنى المضلّل الملهي بصوت لا يلهي هو ذو بعد واحد بلهو المعنى، فاللهو عما يعنيه الإنسان في دينه ودنياه الى ما لا يعنيه او يعني ضلاله ويلهيه عن اللّه، إنه محرم أيا كان، لفظا و معنى او هما معا، وتختلف دركاته باختلاف دركات اللهو.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. الدرر المنثور 4: 193- اخرج سعيد بن منصور وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي وابن جريروابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله «وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ» قال: استنزل من استطعت منهم بالغناء والمزامير واللهو والباطل.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 44

و الاستفزازات الشيطانية كلها محرمة، سواء أكانت شهوانية ام عقائدية- ثقافية- اجتماعية- سياسية- اقتصادية وحربية إمّا ذا من استفزاز الاستخفاف للثقالة الإنسانية فاحتناك واستحمار وهنالك تقع الطامة الكبرى! إذا فكل صوت مستفز عما يعنيه الإنسان في مفترضاته الإنسانية والإسلامية الى ما يعني ضلاله او ما لا يعنيه، تشمله «صوتك» وهي كافة الملاهي التي تسمع، من غناء ملهية وموسيقا اماهيه؟ وهي كلها صوت الشيطان و إن تسمعها عن انسان.

و لأن استفزازهم بصوته بحاجة الى تكريس القوات المضلّلة، إذ ليس كل انسان بالذي يستفز بصوت الشيطان إلّا بمعدات، فهنا لك خطوة اخرى.

«وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ» خطوة ثانية إبليسية لمن لا يحتنك بصوته:

فالخيل و الرجل هما الجندان راكبا وماشيا، وعلّهما كناية عن صورتي الجيش الشيطاني من راكب في نضاله الإضلال يسرع، ومن ماش يبطئ، فللشيطان جنود يحملون دعوته ودعايته من الجنة والناس الى الجنة والناس: «فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَ الْغاوُونَ: وَ جُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ» (26: 97) من ذريته الجنة الشياطين: «أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ» (18: 50) ومن شياطين الإنس: «وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ ...» (6: 12).

فالشيطان يستفزهم بصوته ويجلب عليهم بخيله ورجله من شياطينه، والإجلاب هو الصيحة بقهر، فمن لا يستفزه صوت دون صيحة، يصيح عليه بقهر باذاعاته العدة التي يحملها خيله ورجله، صيحات على مسامع آذانهم وعقولهم وقلوبهم ولحد الاستفزاز، وهنالك دركات لهذه الصيحات كما يقتضيها مختلف الاستفزازات على اختلاف الاستعدادات.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 45

معركة صاخبة تتجسم فيها وسائل الغواية والسلطة الابليسية، باستخدام مختلف الأصوات المستفزة جلية وخفية، من أية إذاعة شيطانية، إزعاجا للخصوم، واستدراجا لهم للفخ المنصوب لهم، فإذا استفزوا الى العراء أخذهم في احتناك واستحمرهم في ذالك العراك.

«فاحذروا عدو الله ان يعديكم بدائه وان يستفزكم بخيله ورجله:: فلعمر الله فخر على أصلكم ووقع في حسبكم ودفع في نسبكم واجلب عليكم بخيله وقصد برجله سبيلكم يقتنصونكم بكل مكان ويضربون منكم كل بنان، لا يمتنعون بحيلة ولا يدفعون بعزيمة في حومة ذل وحلقة ضيق وعرصة موت وجولة بلاء» «1»:

و في ذلك الأمر الإمر استهانة بمكره، وإقلال الحفل بخدائعه، ثم وليس له- في الحق- خيل ورجل لا نراهما، فانه خلاف العدل، وخلاف الواقع الملموس، فانما كل راكب في معصية اللّه، مرّغب فيها سواه هو من خيله وعملائه، وكل ماش فيها هكذا هو من رجله، من شياطين الجن والإنس.

وَ شارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ خطوة ثالثة في احتناكهم باحتكاكهم في الأموال والأولاد، فما ذا تعني مشاركتهم في الأموال والأولاد؟ ومن الأموال والأولاد ما تختص بالشيطان ومنها ما تشترك؟

هذه الشركة تتمثل في الأموال والأولاد التي تحصل بغير حق او تصرف في غير حق، او يجمع فيها بينهما من باطل الى باطل، ام تجمّد وتكتنز بباطل.

فأية حالة باطلة في مال او ولد- وهما قوام الحياة الإنسانية- إنها شركة شيطانية،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة السيد الشريف الرضي عن الامام علي عليه السلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 46

اختص بها الشيطان أم شارك فيها، كما الشرك باللّه، إذ لا يعني- فقط- ان يعبد اللّه مع خلقه، بل وان يعبد خلقه دونه كالكثيرين من المشركين.

إن مثلث التحصيل والصرف والكنز للمال حراما، تماما او بعضا، كلّه من شرك الشيطان، فلشرك الشيطان- أيا كان- دركات كما لتوحيد الرحمن والايمان درجات، فأسفل الدركات في الأموال ثالوث المحرّم تحصيلا وصرفا وكنزا دون حلّ فيه، وأعلاها المحرم في واحد على حلّ فيه وبينهما متوسطات.

كما الأسفل في الأولاد هو الاستيلاد بالسفاح‏ «1» ثم التربية الشيطانية، ثم الاستعمال في مختلف الشيطنات، والأعلى نكاح محرم على حلّ، او تربية او استعمال فيه شرك شيطان وبينهما متوسطات، وقد يشمل النكاح دون ذكر اللّه لكي يصبح الولد صالحا متحللا حياته عن شرك الشيطان‏ «2».

فأية حالة شيطانية في الأموال والأولاد هي من شرك الشيطان أيا كان، وقليل هؤلاء الذين يتخلصون عن أي‏شرك للشيطان، وهم عباد اللّه المخلِصون ثم المخلَصون وهم قلة اللهم اجعلنا من هذه القلة.

و من شرك الشيطان بغض الامام علي عليه السلام حسب المروي عن الرسول (صلّى اللّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 184 ح 295 تفسير العياشي عن عبد الملك بن اعني قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إذا زنى الرجل ادخل الشيطان ذكره ثم عملا جميعا ثم تختلط النطفتان فيخلق الله منهما فيكون شركة الشيطان‏

(2). المصدر ص 185 ح 300 عن يونس بن أبي الربيع الشامي قال كنت عنده (الباقر ع) ليلة فذكر شرك الشيطان فعظمه حتى افزعني فقلت جعلت فداك فما المخرج منها وما نصنع؟ قال: إذا أردت المجامعة فقل بسم الله الرحمن الرحيم الذي لا اله الا هو بديع السماوات و الأرض اللهم ان قضيت مني في هذه الليلة خليفة فلا تجعل للشيطان فيه نصيبا ولا شركا و لا خطأ واجعله عبدا صالحا خالصا مخلصا مصغيا وذريته جل ثناءك‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 47

عليه وآله وسلّم) حيث يقول: «و الله يا علي لا يبغضك من قريش إلا سفاحيا ولا من الأنصار إلا يهوديا ولا من العرب إلا دعيا ولا من سائر الناس إلا شقيا ولا من النساء إلا سلقلقية وهي التي تحيض في دبرها ... «1»».

وَ عِدْهُمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً ... خطوة رابعة من خطوات الشيطان الوعد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ملحقات الأحقاق ج 14: 655- الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ج 1: 343 ط بيروت بسند متصل الى جابر بن عبد اللّه الأنصاري عن علي عليه السلام قال: كنا مع النبي صلى الله عليه و آله إذ أبصر برجل ساجد راكع متطوع متضرع فقلنا يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله! ما احسن صلاته؟ فقال: هذا الذي اخرج أباكم آدم من الجنة فمضى اليه علي غير مكترث فهزه هزا ادخل أضلاعه اليمنى في اليسرى واليسرى في اليمنى ثم قال: لأقتلنك ان شاء اللّه فقال: لن تقدر على ذلك ان لي أجلا معلوما من عند ربي ما لك تريد قتلي؟ فو اللّه ما أبغضك احد الا سبقت نطفتي في رحم امه قبل ان يسبق نطفة أبيه! ولقد شاركت مبغضك في الأموال والأولاد وهو قول اللّه في محكم كتابه «وَ شارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ وَ عِدْهُمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً» فقال النبي صلى الله عليه و آله صدقت واللّه يا علي! لايبغضك ... ثم اطرق مليا فقال:

معاشر الأنصار! اعدوا أولادكم على محبة علي، قال جابر: كنا نبور أولادنا في وقعة الحرة بحب علي فمن أحبه علمنا انه من أولادنا ومن أبغضه اشفينا منه.

وبإسناد متصل آخر من حبة العرفي، قال سمعت علي بن أبي طالب يقول: دخلت على رسول اللّه صلى الله عليه و آله في وقت كنت لا ادخل عليه فيه فوجدت رجلا جالسا عنده مشوه الخلقة لم أعرفه قبل ذلك فلما رآني خرج الرجل مبادرا قلت يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله: من ذا الذي لم أره قبل ذي؟ قال: هذا إبليس الابالسة سألت ربي ان يرينيه وما رآه احد قط في هذه الخلقة غيري وغيرك قال عليه السلام فعدوت في اثره فرأيته عند أحجار الزيت، فأخذت بمجامعه وضربت به البلاط وقعدت على صدره فقال: ما تشاء يا علي؟ قلت: أقتلك قال: انك لن تسلط علي قلت: لم؟ قال: لأن ربك انظرني الى يوم الدين خل عني يا علي فان لك عندي وسيلة لك ولأولادك قلت: وما هي؟ قال: لا يبغضك ولا يبغض ولدك احد الا شاركته في رحم امه ليس اللّه يقول «وَ شارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ»؟

وبإسناد متصل عن جعفر بن محمد في حديث عبد الرحمن بن كثير قلت جعلت فداك بأيش تعرف ذلك (يعني شرك الشيطان) قال: بحبنا وبغضنا ...

قال الحسكاني: والرواية في هذا الباب كثيرة وهي في كتاب طيب الفطرة في حب العترة مشروحة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 48

الكذب الغُرور، فإنه كاذب غَرور.

«عدهم» هنا يعم الوعد الخير والوعيد الشر، وعدا يمنّيهم ترغيبا الى الشهوات:

«يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً» (4:) 120) ووعيدا ترهيبا عن المكرمات: «الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ وَ اللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَ فَضْلًا::» (2: 268).

ثم ولا يخص وعده ترغيبا وترهيبا يوم الدنيا، بل وكذلك الأخرى، وعدا يشككهم في الآخرة، وآخر يرجيّهم رحمة اللّه فيها ام يغلّب رجاءهم على خوفهم، وثالثا بمغفرة في شفاعة اماهيه، وقد تعنيهما فيما تعنيه «ثُمَّ لآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ» (7: 17) حيث الآخرة هي «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» إذ يستقبلونها متجهين إليها، والدنيا هي «من خلفهم» إذ يستدبرونها مولّين عنها.

و وعد الشيطان أيا كان ليس إلّا غُرورا فانه غَرور «فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ» (35: 5)- (31- 3) ..

خطوات اربع كبريات تحمل كافة الشيطنات، وهي هي مجالات واسعة النطاق للسلطات الشيطانية، لا ينجو منها إلّا عباد اللّه الخصوص، واما عباد الشيطان فلا عنت له في تمشيتهم فيها، والعباد المشركون المشتركون يمشّيهم كما يتمشون فيأخذ نصيبه منهم كما يحتنكون، ثم يتخلص العباد المخلَصون باللّه والمخلِصون للّه:

إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَ كَفى‏ بِرَبِّكَ وَكِيلًا (65): ولو لا الوكالة الربانية ل «عبادي» المخلصين المختصين باللّه لم يتخلصوا عن خطوات الشيطان، فلا كفاية للإنسان أيا كان إلّا بهذه الوكالة.

ف «عبادي» تلمح بذلك الإختصاص، أنهم هم الذين وقفوا أنفسهم في اللّه لعبادة اللّه، و طاوعوا في ذوات نفوسهم لطاعة اللّه، واستعاذوا في كل ذلك باللّه، بعد ما قدموا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 49

طاقاتهم كلها لسلوك سبيل اللّه، فمنهم من اصطفاهم اللّه برسالاته فعصمهم عن الأخطاء كلها، تلقيا من اللّه وإلقاء وتطبيقا فهم معصومون في هذا المثلث البارع ...

و منهم من أيدهم وسدّدهم دون تلكم العصمة البارعة فخلصهم من سلطان الشيطان دون العصمة العلمية، وقد يعنيهما «عبادي» هنا مهما اختص المعصومون في مجالات أخرى: «وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الُمخْلَصِينَ» (15: 40) كدرجة اولى ورتبة أعلى من «عبادي»، ومن ثم درجة ثانية ليسوا من الغاوين مهما لم يكونوا من المخلَصين:

«إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ» فعباد اللّه الخالصون للّه مخلِصين كانوا ام مخلَصين ليسوا من الغاوين، فلا سلطان عليهم من شيطان، «1» ولا على غيرهم إلّا دعوة ودعاية متحللة عن البرهان: «وَ ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ...» (14: 22) فلأن دعوته توافق الشهوة لا يطلب منه عليها دليل.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. نور الثقلين 3: 185 ح 302 في تفسير العياشي عن جعفر بن محمد الخزاعي عن أبيه قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يذكر في حديث غير خم انه لما قال النبي صلى الله عليه و آله لعلي عليه السلام ما قال واقامه للناس صرخ إبليس صرخة فاجتمعت له العفاريت فقالوا: سيدنا ما هذه الصرخه؟ فقال: ويلكم يومكم كيوم عيسى واللّه لأضلن فيه الخلق، قال: فنزل القرآن «وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ «فقال: فصرخ إبليس صرخة فرجعت اليه العفاريت فقالوا: يا سيدنا ما هذه الصرخة الأخرى؟ فقال: ويحكم حكى اللّه و اللّه كلامي قرآنا وانزل عليه «وَ لَقَدْ صَدَّقَ ...» ثم رفع رأسه الى السماء ثم قال: وعزتك وجلالك لا لحقن الفريق بالجميع، قال فقال النبي صلى الله عليه و آله بسم اللّه الرحمن الرحيم «إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ» قال: فصرخ إبليس صرخة فرجعت اليه العفاريت فقالوا: يا سيدنا ما هذه الصرخة الثالثة؟ قال: واللّه من اصحاب علي ولكن وعزتك وجلالك لأزينن لهم المعاصي حتى ابغضهم إليك قال: فقال ابوعبد اللّه عليه السلام: والذي بعث بالحق محمدا للعفاريت والأبالسة على المؤمن اكثر من الزنابير على اللحم والمؤمن أشد من الجبل والجبل تدنوا اليه بالفأس فتنحت منه والمؤمن لا يستقل عنه دينه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 50

فبعزتك لأغوينهم أجمعين‏

«إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ» يثبت أصالة التوحيد ووساطة الرسالة، ثم «قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ» هل يعني نبأ التوحيد لأقربيته في المكان والمكانة؟ واحتفافه بذكرى القرآن: هذا ذكر «ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى‏» يقرّب نبأ القرآن كما و «إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ» يسمح أنه نبأ الرسالة، وسابق ذكر المعاد يلحقه بنبإ عظيم! «1».

قد يعني «النَّبَإِ الْعَظِيمِ» ذلك المربع العظيم على الأبدال، على مختلف الدرجات في عظمها، و «أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ» صادق بالنسبة للكل بين مختلف المكذبين المعرضين.

و لان النبأ هو خبر ذو فائدة عظيمة، فما أعظم عظيمه، ولكن حماقى الطغيان هم عنه معرضون! ثم «إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ» يحصر كيانه الرسالي في الإنذار كتكليف عام للرسول بالنسبة للعالمين أجمعين، وكونه بشيرا يختص بمن يتأثر بالإنذار.

إذاً ف «ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى‏ إِذْ يَخْتَصِمُونَ» تخلّ له عن علم الغيب إلّا ما يوحى إليه: «إِنْ يُوحى‏ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ».

«بِالْمَلَإِ الْأَعْلى‏» نجده هنا، وثانية في الصافات: «لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى‏ وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ» (8).

و لأن «الأعلى» هنا أفعل مطلق، فملأه أعلى بصورة مطلقة مكانة أو ومكانا، وهم أمناء الوحي تكوينا وتشريعا من الكروبيين.

فقبل أن ينزلوا الوحي من قبل اللّه على الرسول «ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى‏»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و الروايات القائلة ان امير المؤمنين هو النبأ العظيم هي من باب الجري والتفسير بالمصداق المختلف فيه الحاقا بالمتفق عليه وهو الرسالة كما فصلناه في سورة النبأ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 51

ولكنه يعلم بما يوحى قدر ما يوحى، أترى ذلك الملأ أعلى حتى من الرسول الذي «دَنا فَتَدَلَّى. فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى‏»؟ كلّا! حيث الأعلى مكانا ليس هو الأعلى مكانة، والرسول وهو «أَوَّلُ الْعابِدِينَ» لا ريب أنه أعلى من كل أعلى إلّا ربه الأعلى! ولأن الرسول ليس ملأً كشخص، ف «الملأ الأعلى» غير مفضلين عليه، إلّا على سائر الملإ، وحتى إذا كان ملأ فهو مستثنى عن مطلق الأعلى.

و ترى فيم كانوا يختصمون؟ قد يكون هو الاختصام في خلق الإنسان: «إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ ...» ولكن اين هنا الاختصام إلّا بين إبليس وربه؟ وليس الرب من الملإ، ولا إبليس من ملاء عال فضلا عن الأعلى. او أن اختصامهم مطوي عنه هنا، مذكور في البقرة: أتجعل فيها ...

و لكنه- ايضا- ليس اختصاما بينهم، بل سؤال استفهام عن اللّه كيف يجعل فيها من يفسد فيها؟.

ثم- وعلى أية حال- كيف يختصم الملأ الأعلى وفيم يختصمون، وهم عباد مكرمون لا يعصون اللّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؟

هنا الاختصام- وبقرينه الافتعال- ليس ليعني الخصومة، وإنما هو الحوار حول الوحي النازل إليهم وما سوف يتنزل، وتقدّم الوحي عليهم ثم إلى الرسول، لا يقدّمهم في مكانة الوحي على الرسول، فما هم إلّا وسائط الوحي الرسالي للرسول «و رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»!.

و قد يعني الاختصام- فيما يعنيه- ما علّه حصل من «إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ» كما تلمح له: إذ قال ربك ... فحار المحتار منهم لذلك الإختيار وحصل الحوار: «إِذْ قالَ رَبُّكَ ...».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 52

و لقد فسرنا قصة آدم والملائكة وإبليس في مواضيع عدة، وهنا زيادات في تنبيهات:

1- (وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ» تبين نفاقه حين كان مع الملائكة فأبرز كفره حين الأمر بالسجود، ولو كان من الملائكة ما عصى فضلا عما كفر ومنذ الأول، كلّا! إنه «كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ».

2- (لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ» ترى الظرف يتعلق ب «خلقت»؟ خلقته بيدي «استكبرت» عليّ؟ أم «بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ» حيث خلقتك أيضا بيدي، وأقدرتك بيدي؟

قد يعنيهما «بيدي» وما أحلاه جمعا جامعا للتنديدين بهذا اللعين.

و ترى ما هما اليدان هنا وفي أمثاله: «بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ» (5:) 64) واليد مفردا في سواه: «قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ‏كُلِّ شَيْ‏ءٍ» (23:) 88)؟

اليد هنا وهناك كناية عن القدرة والنعمة والسماحة، وعلّهما هنا وفي أضرابهما كناية عن كرامة القدرة القمة، حيث الخلق تختلف حسب الدرجات في القابليات والفاعليات والعطيات: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» «فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ».

و علّ اليدين هنا يد الخلق لجسم آدم وروحه، حيث الشيطان تناسى اليد الثانية وأكبّ إلى الأولى ففضّل نفسه على آدم: «قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» ولو أن إبليس نظر إلى نورية آدم ولم ينظر إلى نارية نفسه لم يكن منه ما كان! وإنه الحسد ينضج من ذلك الرد الكافر، والتغافل عن العنصر الكريم الزائد على الطين في آدم! «استكبرت» عليّ ام على آدم، والأول كفر والثاني فسق، وقد جمع بينهما، فاستكبر على اللّه وعلى آدم «أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ» على اللّه؟ ولا إله إلا اللّه! أم على آدم، وليس العلو إلّا بعلو الروح، وحتى إذا كنت من العالين على آدم فليس لك أن تعلو على اللّه في أمر آدم، فإنه «لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 53

و يلوح من جوابه كأنه من العالين على آدم: «قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ...» ولكنه استكبار على اللّه، تحكيما للقياس الباطل على حكم اللّه.

و ترى هنا «العالين» على آدم وقد خلق في أحسن تقويم؟ أجل، عالين على آدم لا على كل الناس، فأهل بيت الرسالة المحمدية هم العالون على آدم ومن فوقه من النبيين، ولكنهم لو كانوا يؤمرون أن يسجدوا للّه شكرا لما خلق أباهم آدم لما كانوا يتركون! هنالك صدر الأمر برجم الشيطان الرجيم: «قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَ إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى‏ يَوْمِ الدِّينِ» وما هو مرجع ضمير المؤنث في «منها»؟ إنه الجنة التي كان فيها آدم:

«فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ» (7: 13) دون الرحمة إذ لم يكن الشيطان في الرحمة ولم يسبق ذكر إلّا للجنة! هنا اللعين يستنظر ربه إلى يوم الدين، فيستجاب «إِلى‏ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» «1» ولو كان هو- فقط- يوم الدين لكان الجواب- كذلك- هو يوم الدين، وعلّ الوقت المعلوم يعني يوم الدين نهاية، ويوم القائم مهلة واسعة، حيث يضيق عليه بين اليومين لأنه من أيام اللّه، فلا دولة فيه للشيطان مهما كانت له بعض السلطة! وهنالك يتهدد اللعين الرجيم ذرية آدم، تحددا لمنهجه وطريقه معهم:

قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. 82 إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الُمخْلَصِينَ 83 وليس استثناء المخلصين تطوعا منه وتراحما، ولكن عجزا، فان اللّه هو الذي أخلصهم: «إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ» إذا فالمخلصون في خطر عظيم وأعظم منهم غيرهم، والمخلصون لا خطر عليهم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. فصلناه في سورة البقرة وغيرها فراجع.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 54

قالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ 84. لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ 85.

و ترى «منهم» تعني من المجموعة، فالمخلصون- فقط- هم لا يدخلون الجحيم؟

وهذا خلاف الضرورة والنص أن الجنة هي للمتقين، سواء السابقين وأصحاب اليمين، وكل من رجحت حسناته على سيئآته أمّن هو، أم تعني التابعين، العائشين بحساب الشيطان الرجيم، ف «من تبعك» لا تعم من تبعه في صغائر، أم وفي كبائر مكفرة بتوبة ام شفاعة! أم «لأملأن» لا يدل على حتمية العذاب ف «إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى‏ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا، ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا».

و لكن الداخلين هنا هم كافة المكلفين من أهل التقوى والطغوى، ثم ينجوا أهل التقوى، و النص هنا «مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ».

ثم وملأ الجحيم ممن تبعه منهم يعم الداخلين الخالدين، مؤبدين وغيرهم، كما يعم غير الخالدين، وهؤلاء الثلاث هم تابعوه، الذين يعيشون على حسابه، دون المتقين على درجاتهم «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ...».

قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ. فلا أتصنّع وأتحلّى بما ليس لي، ولا اماري حتى في عدم سؤال الأجر، فمن الدعاة من لا يسأل أجرا على تكلف وتصنّع، أو يدعي فوق مكانته على تكلف، ولكن «وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ» كما هو لائح من كل أقوالي وأعمالي، لا نعرف تكلفا ولا يعرفنا تكلف طول الحياة رسالية وقبلها.

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ.

إن القرآن، وإن نبي القرآن إلّا ذكر للعالمين، ولتعلمن نبأ ذلك الذكر بعد حين، إذ تتذكرون هنا بذكراه، أم تعرضون فذكراه حين الموت، ثم ذكرى بأكملها حين الحساب، أحيان ثلاثة، ينفع أولاها، ثم ولات حين مناص، إذ فات يوم خلاص.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 55

لاتخذن من عبادك نصيباض مفروضاً

لَعَنَهُ اللَّهُ وَ قالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (118).

لعنه اللّه إخبار من اللّه عن لعنه حين دحره بما عصى: «وَ إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى‏ يَوْمِ الدِّينِ» (38: 78) أم وإنشاء لا من اللّه بل انه آهل لدعاء اللعنة عليه، فهي- إذا- لعنة على لعنة إنشاء إلى اخبار، أن على العباد أن يستمروا في لعن ذلك اللعين.

ثم «الواو» هنا عاطفة على «لَعَنَهُ اللَّهُ»، أنه بعد ما لعن «قالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً» «قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى‏ يَوْمِ الدِّينِ ...

قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الُمخْلَصِينَ» (15: 40).

و هل استطاع أو يستطيع أن يغويهم أجمعين إلا المخلصين المعصومين؟ كلّا حيث قال اللّه ردا عليه: «قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ. إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ» (42)، فما هو نصيبه المفروض في أخذه الوعيد العتيد؟.

هل إن نصيبه المفروض فقط هو من جمعهم كما قال: «وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الُمخْلَصِينَ»؟.

و هو مرضوض في نصيبه المفروض بما منعه اللّه! أم هو- فقط- «مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ»؟ وقد لا يتبعه عبد لأنه مؤمن باللّه ولكنه تعرضه لمم هو من إغواء الشيطان!.

قد يعني من «عبادك» جمع النصيبين، نصيب من جمعهم وهم الغاوون المحسوبون بحسابه، و نصيبا من الآخرين غير المخلَصين حيث يبتلون أحيانا بفسوق وهم ليسوا من الغاوين.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 56

فمن النصيب المفروض من جمعهم الملحدون في اللّه والمشركون باللّه، والمتخلفون عن شرعة اللّه، وهو يحسبون أنفسهم مؤمنين باللّه، كما منهم المعبودون من دون اللّه، فلهم- إذا- نصيب مما للّه!. فهنالك ثالوث من النصيب المفروض: عابدون من دون اللّه ومعبودون و متخلفون عن شرعة اللّه، وعلى الهامش من يعرضهم لمم أم زاد من المؤمنين باللّه.

إذاً ف «نَصِيباً مَفْرُوضاً» يشمل كافة التخلفات عن سلك العبودية الوحيدة غير الوهيدة للّه، جليلة وقليلة.

ذلك! وهذا النصيب المفروض المرفوض يرتكن على قواعد أربع وكما يحيط بهم الشيطان من جوانب أربع:

وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَ لآَمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الْأَنْعامِ وَ لآَمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَ مَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً (119).

1 (و لأضلنهم» وهم الغاوون الضالون وهو يزيدهم ضلالا على ضلال، فليس يقوى الشيطان على إضلال إلّا على الضال أن لم يوفقه اللّه لدفع الضلال دونما استقلال في الإضلال بل هو استغلال في جو الضلال.

فالاستقلال في الإضلال يعني عدم الإذن التكويني من اللّه في ذلك الإضلال وعدم ضلال الذي يضله، ثم الاستغلال أن المضلل ضال في نفسه ثم هو يضله بإذن من اللّه.

إذا فلا بد في مزيد الضلال أن يكون المضلّل ضالا في نفسه حتى يضله اللّه سماحا للشيطان أن يضله «وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ» (14: 27) (كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ» (40: 34) «كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ» (74).

هنالك لا يصدّ اللّه الشيطان أن يضل بل يرسله لكي يضل الضال عقوبة على ضلاله:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 57

«إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ» (7: 27) (أَ لَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا» (19: 83)

«وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ» (43: 37).

فليس للشيطان استقلال في الإضلال، اللّهم إلا في ضلال من يضله بإذن اللّه وهو استغلال، وكما لا حادث سواه إلا بما يأذن اللّه، فلا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين.

2 «و لأمنينهم» والتمنية هي إلقاء الأماني الكاذبة الشهية في قلوب الغاوين، وهي تورث الحرص والأمل وهما رأس زوايا الخطايا على الإطلاق.

وقد يروى عن رسول الهدى (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) قوله: «يشيب ابن آدم ويشب فيه خصلتان إتباع الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى فيصد عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة»- و «يهرم ابن آدم ويشب معه اثنان الحرص والأمل».

هنالك يقطع الرجاء عمن ابتلي بالأمنيات الكاذبة الطائلة فلذلك «ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» (15: 3) «1».

هنا الإضلال والتمنية من فعل الشيطان في ظرف الضلال فالإذن من اللّه، ثم الأمر قولا وفعلا:

3 «وَ لآَمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الْأَنْعامِ» والبتك هو القطع، وليس قطع آذان الأنعام بمجرده من أمر الشيطان وفعله إذ قد تقطع علامة لها كيلا تضل، إنما هو القطع علامة على التحريم، أو نسكا في عبادة الأوثان.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير الآية في الفرقان تجد فيه تفصيلا حول طول الأمل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 58

و لقد كانوا يقطعون آذان البحيرة وهي الوالدة خمسة خامسها ذكر، فيحرمونها على أنفسهم شرعة من عند أنفسهم يفترونها على اللّه، وكذلك ف: «ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَ لا سائِبَةٍ وَ لا وَصِيلَةٍ وَ لا حامٍ وَ لكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ» (5: 103).

4 «وَ لآَمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ» وترى ما هو المعني من خلق اللّه هنا وما هو تغييره؟.

لا ريب أن تغيير خلق اللّه بصورة طليقة ليس من أمر الشيطان وفعله، بل وبعضه مأمور به محبور كالختان وقطع سرة الوليد عن أمه وإزالة الشعر عن العانة وتحت الإبطين، وقصر الشعر من الرأس واللحية تجميلا أما هيه.

إذا فالقصد من خلق اللّه هو خلق خاص ومن تغييره ايضا تغيير خاص لا يعرفان إلّا بنص من الكتاب أو السنة.

فمن الكتاب «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها»: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (30: 30) كما وفي الباقري (عليه السّلام) «دين اللّه» «1» حيث يعم دين الفطرة والشرعة.

و «لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ» نفيا للجنس يعم واقع التبديل تحويلا للفطرة ذاتيا إلى غير ما خلقت فهو إنباء عن عدم إمكانيته، ثم محاولة التغيير تخلّفا عن أحكام الفطرة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان 1: 416- العياشي عن محمد بن يونس عن بعض أصحابه عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) في قوله اللّه تعالى «وَ لآَمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ» قال: أمر اللّه بما أمر به، وفيه عن جابر عن أبي جعفر (عليهما السّلام) في الآية قال: دين اللّه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 59

وقضاياها فهو إنشاء لمحظوره، والمعنيان معنيّان من استغراق السلب.

و من أضل الإضلال تبديل الفطرة عما فطر عليها، فمنه مقدور ومنه غير مقدور، فالمقدور من تبديلها هو تغييرها أن تكسف بطوع الأمنيات والأهواء، كما و «إنارة العقل مكسوف بطوع الهوى» فتغيير الفطرة عما فطرت عليها، وتغيير العقل الذي يعقل عنها عن صالح عقلها، وتغيير الصدر عن شرحها، وتغيير القلب عن اتجاهه إلى اللّه، كل ذلك من تغيير خلق اللّه، والفطرة هي رأس الزاوية في هذه الغيارات الشيطانية.

فقد خلق اللّه الفطرة الإنسانية ركيزة للاتجاه إلى دينه، والعقل ليعقل عنها ويعقل عن آيات اللّه آفاقية وأنفسية، والصدر مكانة لحصالات العقل، والقلب لحصالات الصدر، ثم الفؤاد ليتفاّد بنور المعرفة الحصيلة من هذه المقامات المتدرجة الروحية، فتغييرها إلى ما يغاير خلقها اتجاها ومسيرا ومصيرا هو من أعظم تغيير لخلق اللّه.

و ذلك التغيير ليس تغييرا أصيلا لا يمكن تبديله إلى ما كان، إنما هو تضليل لها عن أهليتها لسلوك سبيل اللّه.

و من تغيير خلق اللّه نسبة خلق إلى غير اللّه إشراكا في الخالقية، ف «هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ» (35: 3) (وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ» (31: 25).

و منه نسبة الشرعة إلى غير اللّه والشارع هو اللّه لا سواه: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ..» (42: 13) (أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ» (42: 21).

و منه نسبة الآيات الرسولية أو الرسالية إلى رسل اللّه أنها من عند أنفسهم تكوينا أو تشريعا،- مهما كان توكيلا أو تخويلا- والمكوّن والمشرع ليس إلّا اللّه لا سواه. فهذه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 60

الغيارات لخلق اللّه واقعيا كما يستطاع أو اختلاقا، كلها مشمولة ل «فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ».

و منه تأنث الذكور في الملابس والمظاهر والأعمال، ومنه عكسه أن تتظاهر الأناث بالذكورة، وذلك يشمل الملابس الخاصة لكلّ، وخاصة الأعمال والرغبات، فمن أنوثة الرجال ان يوطئوا كما من ذكورة الإناث المساحقة.

و هل تشمل «فليغيرن» حلق اللحى للرجال تشبها بالنساء؟ قد تشمل لأنه تغيير لخلق اللّه مهما كان وقتيا، فإن اللّه خلق الرجال هكذا والنساء بخلافهم في نبت الشعور على الوجوه وعدمه، فحلق اللحى دون إبقاء تغيير لخلق اللّه.

أم لا تشمل تحريما، إما لأن أمر الشيطان بتغيير خلق اللّه يعم المحرم والمرجوح، ولكن قضية المقام تهديدا للعباد هي التغيير المحرم.

أم ولأن أمر اللحية من المسائل العامة البلوى فلا بد لها من نصوص في الكتاب أو السنة، دون أن يكتفى لها بذلك الإطلاق الطليق الرقيق، والروايات الآمرة بإعفاء اللحى تجمع بينه و بين فتل الشوارب لأنه تشبّه باليهود، فقد يحرم لذلك الجمع بينهما، وأما إعفاءهما أو حلقهما معا فغير مشمولين لها، بل وكذلك الجمع إذ مضى دور التشبّه بهما حيث الناس أصبحوا سواسية في المظاهر والملابس إلّا الشواذ، فلا دليل على حرمة حلق اللحى مهما كان الأحوط الأشبه عدم حلقها.

ثم ومن تغيير خلق اللّه ما هو مسموح أو راجح حسب ثابت الكتاب أو السنة، ومنه محرم كذلك كالتي قدمناها وأشباهها، ومنه مشكوك كحلق اللحية وقضية الأصل إباحته.

فمن تغيير خلق اللّه المحرم الإجباب والإخصاء» «1» وتعقيم الرحم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 223- أخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن ابن عمر قال نهى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) عن خصاء الخيل والبهائم، قال ابن عمر فيه نماء نماء الخلق، وفيه عن ابن عباس قال نهى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) عن صبر الروح واخصاء البهائم، وفيه عن أبي ريحانة قال نهى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) عن عشرة عن الوشر والوشم والنتف وعن مكالعة الرجل الرجل بغير شعار وعن مكالعة المرأة المرأة بغير شعار وأن يجعل الرجل في أسفل ثوبه حريرا مثل الأعلام وان يجعل على منكبه مثل الأعاجم وعن النهي وعن ركوب النمور ولبوس الخاتم إلا لذي سلطان، وفيه أخرج أحمد عن عائشة قالت كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) يلعن القاشرة والمقشورة والواشمة والمستوشمة والواصلة والمتصلة، وفيه أخرج احمد ومسلم عن جابر قال زجر النبي (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) أن تصل المرأة برأسها شيئا، وفيه أخرج احمد والبخاري ومسلم عن اسماء بنت أبي بكر قالت أتت النبي (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) امرأة فقالت يا رسول اللّه إن لي ابنة عروسا وانه اصابتها حصبة فتمزق شعرها أفأصله فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) لعن اللّه الواصلة والمستوصلة.

أقول: ما ثبت من هذه المذكورات حرمتها فهي والا فلا تدل الآية عليها إلا بتوسعة شاملة لا تتحملها، وهنا روايات أخرى من طرق أصحابنا تبين المحظور عن غير المحظور فبعد ما يروى مثل ما عن معاني الاخبار بسنده عن علي بن غراب عن جعفر بن محمد (عليهما السّلام) عن آبائه (عليهم السّلام) قال: لعن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) النامصة والمنتمصة والواشرة والموتشرة والواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة».

بعد ذلك نرى ما رواه عبد اللّه بن الحسن قال سألته عن القرامل قال وما القرامل؟ قلت صوف تجعله النساء في رؤوسهن، قال: «إن كان صوفا فلا بأس وإن كان شعرا فلا خير فيه من الواصلة والمستوصلة ...» حيث تدل على المرجوحية، وفي رواية سعد الإسكاف قال: سئل أبو جعفر (عليهما السّلام) عن القرامل التي يضعها النساء في رؤوسهن يصلن شعورهن؟ قال: لا بأس على المرأة بما تزينت به لزوجها، قال فقلت له: بلغنا أن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) لعن الواصلة والمستوصلة فقال: ليس هناك إنما لعن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) الواصلة التي تزني في شبابها فإذا أكبرت قادت النساء إلى الرجال فتلك الواصلة.

ثم أقول: وإذا كان التزين تمويها للرجال بشأن زواجهم بهن فهو محرم ككل، واما تزين المرأة دون‏تمويه فليس محظورا بل هو محبور حيث أمرن بالتزين لبعولتهن، مثلما في تحف العقول عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر (عليهما السّلام) عن المرأة تحف الشعر عن وجهها؟ قال: لا بأس. قال علي بن غراب النامصة التي تنتف الشعر والمنتمصة التي يفعل ذلك بها والواشرة التي تشر أسنان المرأة والموتشرة التي يفعل ذلك بها و الواصلة التي تصل المرأة بشعر امرأة غيرها والمستوصلة التي يفعل ذلك بها والواشمة التي تشم في يده المرأة أو في شي‏ء من بدنها وهو أن تغزر بدنها أو ظهر كفها بإبرة حتى تؤثر فيه ثم تحشوها بالكحل شي‏ء من النورة فتخضرّ والمستوشمة التي يفعل بها ذلك»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 62

و الصلب عن بكرتهما، أم وزرق النطفة من غير جماع، ولا سيما في رحم غير الحليلة، ولا سيما المحارم.

و بصيغة جامعة قد يعني «خلق اللّه» «صِبْغَةَ اللَّهِ» تكوينا وتشريعا، فالأصل هو الحظر عن أي‏تبديل لخلق اللّه وصبغته إلّا أن يدل دليل على حلّه، أو يكون من المسائل العامة البلوى كحلق اللحية ولا نص بحقها في الكتاب ولا السنة، فلا هي معلومة الحظر فطريا ولا شرعيا فلا محظور فيه مهما كان الاحتياط حسنا.

هذه هي الفخاخ الأربعة للشيطان، لا يتصيد بها إلّا أولياءه الغاوين:

«وَ مَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً».

فهم أولاء الأوغاد الأغباش يدعون الشيطان ويستوحونه ويستمدون منه مربع الضلال المبين، فيندفعون بما يدفعهم إلى أفعال قبيحة وشعائر سخيفة من نسج الأساطير المستطيرة.

ذلك، وقد قرر القرآن المعركة الرئيسية الصاخبة بين الإنسان والشيطان، كفاحا صارما لقبيل الإيمان قبال اللّاإيمان، وقوفا تحت راية الرحيم الرحمان في مواجهة الشيطان وحزبه «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ».

يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً (120).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 63

«يعدهم» الوعود المقلوبة المغلوبة، ويمنّيهم بالأمنيات الكاذبة في طريق الغواية والمتاهة من لذة كاذبة وسعادة موهومة ونجاة من الجزاء في نهاية المطاف،

و التمنية هنا ليست إلّا على مدار الوعد، فهو يمنيهم تصديقا لوعده وتثبيتا حتى يرتكنوا إليه فيصمدوا له.

و تلك هي حالة استغواء واستهواء مدروسة شيطانية تنحرف بها الفطرة والعقلية الإنسانية لولاها لمضت قدما في طريقها المسلوكة المعروفة كما فطرها اللّه.

و لأن الشيطان غرور ف «ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً» يغرهم فيما يوعدون بفتل حباله واختلاف فخاخه واستدراج فرائسه التي لا تبقى لهم إلّا جبلات مطموسة مركوسة التي تظل ضالة سادرة لا تنفيّئ، متفلتة لا تتلفت إلى علم أو هدى، أو كتاب منير «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 552 في أمالي الصدوق باسناده إلى الصادق جعفر بن محمد (عليهما السّلام) قال: لما نزلت هذه الآية «وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ» صعد إبليس جبلا بمكة يقال له ثور فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا إليه فقالوا: يا سيدنا لم دعوتنا؟ قال: نزلت هذه فمن لها؟ فقام عفريت من الشياطين فقال: أنا لها بكذا وكذا، قال: لست لها، فقام آخر فقال مثل ذلك فقال: لست لها، فقال الوسواس الخناس أنا لها قال: بماذا؟ قال: أعدهم وامنيهم حتى يواقعوا الخطيئة فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم الاستغفار فقال: أنت لها فوكله بها إلى يوم القيامة.

أقول: نص الآية أن «يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ» هو في الأصل من الشيطان الأصل، وقد تعني هذه الرواية شورى شيطانية يرأسها الشيطان الاول فيدير أمر الشورى كقائد لها.

وفيه عن تفسير العياشي عن النبي (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) حديث طويل يذكر فيه ما أكرم اللّه به آدم (عليه السّلام) وفي آخره فقال إبليس: رب هذا الذي كرمت علي وفضلته وإن لم تفضلني عليه لم أقو عليه؟ قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك ولدان، قال رب زدني، قال تجري منه مجرى الدم في العروق قال رب زدني قال تتخذ أنت وذريتك في صدورهم مساكن، قال رب زدني قال: تعدهم وتمنيهم «وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 64

ذلك كيده اللعين للغاوين، وأما عباد اللّه المخلِصون والمخلَصون فلم يؤذن له في مساسهم فهو إزاءهم ضعيف نحيف كلما اشتدت قبضتهم على حبل اللّه المتين وسبيه الأمين.

أُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ لا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً (121).

«أولئك» الغاوون الشاردون السادرون، الذين أوقعوا أنفسهم في فخاخ الشيطان فلم يجدوا محيصا «مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ» في الأخرى كما آووا إليها في الأولى «وَ لا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً» هناك كما لم يجدوا هنا، جزاء وفاقا ولا يظلمون نقيرا.

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (122).

«.. سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ» هناك كما أدخلوا أنفسهم هنا جنات «وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا» خلاف وعد الشيطان غرورا «وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا».

أجل وكما قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) «فإن أصدق الحديث كتاب الله و أوثق العرى كلمة الله وخير الملل ملة إبراهيم وخير السنن سنة محمد (صلى الله عليه وآله و سلم) وأشرف الحديث ذكر الله وأحسن القصص هذا القرآن ..».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 65

إنما ذلكم الشيطان يخوف اولياءه‏

الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ 172.

فهناك استجابة للّه والرسول قبل إصابة القرح في هذه السبيل وهي وسط الإيمان، وهنا استجابة للّه والرسول من بعد ما أصابهم القرح وهي قلب الإيمان وصلبه شريطة الإحسان و التقوى فلهم (أَجْرٌ عَظِيمٌ).

و قد نزلت هذه الآية بشأن الخارجين معه صلى الله عليه و آله وذلك ان النبي صلى الله عليه و آله ندب الناس ثاني يوم أحد الى إتباع المشركين، تقوية لقلوب أصحابه وتجلدا على أعدائه، وكان بالمسلمين جوانح الجراح ومواقع السلاح ما انتزع قواهم واثر في تماسكهم حتى كان بعضهم يحمل بعضا عند خروجهم في ملاحقة المشركين، ضعفا عن الاستمرار على المشي والدوام على السعي فلما ندب صلى الله عليه و آله الناس إلى الخروج قال المنافقون للمؤمنين- على طريق التهيب لهم والمكر بهم- قد رأيتم ما لقيتم بالأمس من أعداءكم وأنتم في باحات دياركم ومدارج أقدامكم حتى لم يفلت منكم إلّا الشريد ولم ينج منكم إلّا القليل، أفتصحرون لهم اليوم وقد قل عددكم وضعف جلدكم وأسرع القتل في رجالكم فأوقع الشيطان قلوب المنافقين في قلوب بعض المؤمنين.

الرسول صلى الله عليه و آله يدعوهم مرة أخرى بعد هنيئة من أحد وهم مثخنون بالجراح، وهم ناجون بشق الأنفس من أمس المعركة عن القتل، ولما ينسوا هول الدعكة ومرارة الهزيمة وشدة الكربة.

فلقد دعاهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله دون من سواهم، فلم يأذن للمتخلفين ولا غير الجرحى‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 66

مهما لم يتخلفوا، إذ لم يكن- وقتذاك- يهمه العدد، إنما همته العدد الروحية في النضال، فاصطفى الأصفياء منهم فاستجابوا للّه والرسول من بعد ما أصابهم القرح‏ «1».

و هكذا تتضافر مثل هذه الصورة الرفيعة على إعلان ميلاد تلك الحقيقة الكبيرة في هذه النفوس المؤمنة الكبيرة التي لا تعرف سوى اللّه وكيلا وتزداد به إيمانا في ساعة العسرة واليسرة سواء، قائلة في مواجهة المخاوف الهائلة «حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ».

أجل وإن كل مزايا الحياة وزيادة حاصلة هي للشهداء عند ربهم، وذلك تعديل كامل لمفهوم القتل في سبيل اللّه، وللمشاعر المصاحبة له، في نفوس المجاهدين أنفسهم وفي النفوس التي يخلفونها من وراءهم، ونفوس المتشككين بشأنهم حيث كان يخيّل إليهم أنهم أموات.

و ذلك إفساح لمجال الحياة ومشاعرها وصورها، لكي تتجاوز نطاق هذه الدانية العاجلة الى تلك العالية الآجلة.

و على ضوء ذلك التوجيه الوجيه سارت خطى المجاهدين الكرام في معارك الشرف والكرامة، ونضجت فيها تلك النماذج الرفيعة في غزوتي بدر وأحد وسواهما.

فمن الناس من لا يستجيب للّه والرسول في السبل الخطرة الحذرة، ومنهم من يستجيب فإذا أصابهم القرح وقفوا غير راجعين، ومنهم المستجيبون للّه والرسول من بعد ما أصابهم القرح ولكنهم بعد لا يستمرون، ومنهم المستمرون حتى النفس الأخير وهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 102- أخرج ابن جرير عن السدى قال لما ندم ابو سفيان وأصحابه عن الرجوع عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله وأصحابه وقالوا ارجعوا فاستأصلوهم فقذف اللّه في قلوبهم الرعب فهزموا فلقوا أعرابيا فجعلوا له جعلا فقالوا له ان لقيت محمدا وأصحابه فأخبرهم أنا قد جمعنا لهم فأخبر اللّه رسوله صلى الله عليه و آله فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد فلقوا الاعرابي الذي لقيهم الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 67

أولاء المعنيون ب «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ» مهما كان لمن سبقهم أجر حسب درجات الاستجابة دون فوضى جزاف، فكل شي‏ء عنده بمقدار.

الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ 173.

أولئك الأكارم هم المستجيبون للّه والرسول «الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ» النسناس «ان الناس» المشركين «قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ» ولكنهم لم يخشوهم إنما خشووا اللّه «فَزادَهُمْ إِيماناً» على إيمانهم «وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ».

فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَ اتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ 174.

«فانقلبوا» هؤلاء الأكارم «بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ» الذين استبشروا بهما «لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ» أبدا «وَ اتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ» في الأولى وفي الأخرى طبقا عن طبق «وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ».

و ذلك الانقلاب كان مصاحبا «بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ» وبسبب نعمة من الله وفضل، فلا ينقلب الإنسان عما لديه إلى ما لدى اللّه، وعما هو عنده إلى ما هو عند اللّه، إلّا بنعمة من اللّه و فضل واتباع رضوان اللّه «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

فتلك عشرة كاملة من صفات وحالات الذين قتلوا في سبيل اللّه كما يرضاه أنهم: (1 أحياء- 2 عند ربهم- 3 يرزقون- 4 فرحين ..- 5 ويستبشرون ...- 6 يستبشرون بنعمة من الله وفضل- 7 الذين استجابوا ..- 8 أحسنوا- 9 واتقوا- 10 فزادهم إيمانا» وعلى ضوء هذه العشرة الكاملة «فانقلبوا ..» انقلابا عن كل ما سوى اللّه إلى اللّه حيث يعيشون مع اللّه عند اللّه لا سواه.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 68

إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ فَلا تَخافُوهُمْ وَ خافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ 175.

أولياء الشيطان هم الذين يتولونه على دركاتهم في ولايته ومنها الخوف على النفس والنفيس في سبيل اللّه، فالخائفون غير اللّه في سبيل اللّه هم من أولياء الشيطان، والخائفون اللّه هم من أولياء الرحمن، ف «من عرف الله خاف الله ومن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا» «1» و «من خاف الله أخاف الله منه كل شي‏ء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شي‏ء» «2».

«فَلا تَخافُوهُمْ» أترى «هم» هنا أولياء الشيطان الذين خوفوهم في سبيل اللّه؟ ولم يكن الخوف من هؤلاء، بل هو من الناس الذين جمعوا لكم وهم المشركون!.

«هم» هنا هم الناس الذين جمعوا لكم، والذين يخافونهم من ضعفاء المؤمنين هم من أولياء الشيطان حيث يخوفهم «فَلا تَخافُوهُمْ» كما خافهم أولياء الشيطان «وَ خافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» باللّه.

فالإيمان المتين باللّه يجعل من المؤمنين غير خائفين إلّا اللّه، فالخائفون اللّه لا يخوفهم الشيطان ولا يخافون الشيطان وأولياءه، والخائفون غير اللّه هم من أولياء الشيطان مهما كانوا من المؤمنين باللّه.

و هذا التخويف أيا كان هو من سلطان الشيطان: «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ» (17: 100)، فالمتخوفون بتخويف الشيطان- على دركاتهم- هم من أولياءه على دركات ولايته حيث ركنوا إلى وسوسته وانقادوا لغوايته، ومن كان بهذه الصفة فهو ولي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 213 في اصول الكافي باسناده الى حمزة قال قال ابو عبد اللّه عليه السلام ..

(2). المصدر عن المصدر باسناده الى الهيثم بن واقد قال سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 69

الشيطان بمعنى تولي القبول والركون لا تولي العبادة والدين، والمؤمن مخالف لهذه الطريقة لأنه عند الخواطر السيئة من الشيطان يرجع الى يقينه ويتوكل على ربه.

ف «إِنَّما ذلِكُمُ» البعيد البعيد «الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ» فلا تكونوا من أولياءه فيؤثر فيكم تخويفه «فَلا تَخافُوهُمْ» أولاء المشركين بتخويف الشيطان فتكونوا من أولياءه «و خافون» أنا ربكم «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى‏ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ (112): «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد. وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن اللّه لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم.

«وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ» (22: 55) «1».

«و كذلك» الذي جعلنا لك عدوا «جعلنا ...» وذلك جعل تكويني أنه لم يمنعهم تسييرا أن يعادوا النبيين، حيث الدار دار الإختيار.

هنا «جعلنا» مجردة عن البعث والتحريض، مع توفيق من اللّه تعالى رفيق للنبيين حيث لا يضلون بإضلال الشياطين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع آية الحج تجد على ضوءها تفصيل البحث حول إلقاء الشياطين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 70

و هناك «أرسلنا وقيضنا» على الكافرين سلبا لأي‏توفيق لهم إذ لا يستحقون، ولأنهم قرناءهم في شيطناتهم: «وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ ..» (41: 25) «أَ لَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا» (19: 83).

فمختلف الجعل هناك والتقييض والإرسال هنا، يجعل مختلف الدور والظرف بين النبيين و الكافرين.

فلا دور لشياطين الإنس والجن إلّا تجاوب الوحي بزخرف القول غرورا في الفرية على النبيين، وذلك من إلقاءهم في أمنيات النبيين «فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ ..» «1».

و ذلك الوحي الباطل الحامل لزخرف القول غرورا هو من بعضهم الرؤساء إلى البعض المرئوسين قولا يزخرفونه بمظاهر الحق المرام، غرورا لهؤلاء الأتباع حتى يتم أبعاد العداء في تلك الإيحاء الشورى الشيطاني، ويطم في فاعليته إلقاء في أمنيات النبيين «فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

و الوحي- كأصل- هو إشارة في رمز، لخير كما للّه وأهله إلى أهله، أم لشر كما لشياطين الإنس والجن حيث يرمزون الشر إلى بعضهم البعض تشاورا وتعليما وتعلما، ولكي يضلوا سائر الإنس والجن.

قالَ فَبما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 758 عن تفسير القمي في الآية حدثني أبي عن الحسين بن سعيد عن علي بن أبي حمزة عن بعض رجاله عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: ما بعث اللّه نبيا إلّا وفي أمته شيطانان يؤذيانه ويضلان الناس بعده فأما صاحبا نوح فقنطيقوس وحزام وأما صاحب ابراهيم فمكثل وزرام واما صاحبا موسى فالسامري ومر عقيبا واما صاحبا عيسى فبولس ومرتيون وأما صاحبا محمد صلى الله عليه و آله فحبتر وزريق‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 71

خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ (17).

لقد ضل اللعين حينما نفد جوار الرحمة، ودخل بوار الزحمة، فنسب غوايته إلى اللّه، أم قد يعني من هذه النسبة أنه تعالى ابتلاه بما أغواه وأهواه، وهو معترض على اللّه بما ابتلاه!.

«قالَ ... لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» كحارس على مدخل الصراط، حارص على الإغواء عن الصراط، حارث للغواة إلى حزبه، وهذه الحراسة لعنة ورحمة، لعنة كما يعنيه إبليس ويحققه من إضلال المتطرقين للصراط المستقيم، ورحمة لا يعنيها وهي إخلاص الوافدين إلى اللّه، أن يغدوا إليه بمطاردة اللعين، وكافة الأهواء الحاجبة بينهم وبين اللّه، إذا «فأعطاه النظرة استحقاقا للسخطة، واستتماما للبلية، وإنجازا للعدة فقال:

فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلى‏ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» «1».

و قد تلمح «لهم» لما لم يقصده من الرحمة، ولما قصده من الزحمة إظهارا لها بمظهر الرحمة، حيث يزيّن لهم موقفه من «الصراط المستقيم» فإنه يزين لهم الباطل حتى يروه حقا، وكما وعد: «قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» (15:

29) وكأن اللّعين يعني بمكره هذا وإغواءه عذرا جزاء إغواءه من اللّه، رغم أن إغواءه عدل وإغواء الشيطان ظلم.

و على أية حال فقد كان قعوده على الصراط المستقيم لهم في ظاهر التصميم قصدا حيث يتظاهر به، ثم هو في الصميم دون قصد، وهو يخفي عنهم أنه قاعد الصراط المستقيم عليهم، فلذلك قال «لهم» دون «عليهم».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة من الخطبة القاصعة للإمام أمير المؤمنين علي (عليه السّلام) وقد أوردناها بتفسيرها في ج 14 ص 172 من الفرقان فراجع‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 72

و من أخطر ما يقعد لنا الصراط المستقيم ما يخيل إلينا في الصلاة من وجدان ما نفقده حالتها، حيث يزين لنا التفكر فيها لما هو خارج عنها حتى نحصل على بغية لنا عزيزة فنحظو به زاعمين أن الصلاة هي مجالة صالحة للحصول على ضالاتنا المنشودة، وكيف نعمل حتى نحصل على هذه الضالات؟ إنه يخليّ بيننا وبينها فترة مترقبة، فيزول حجابه من هذا البين، فيتبين لنا ما خفي عنا بحجابه هو، فإننا نطّلع على كثير من الحقائق لو لا الحجب بيننا وبينها، ومن أهمها حجاب الشيطان نفسه، فبزواله ومزاولة التفكير نحصل على البعض من الحقائق المحجوبة، فيخيّل إلينا أنّ الصلاة هي من أفضل المسارح للحصول على ضالاتنا المنشودة التي لا نحصل عليها في غيرها.

ثم و «أغويتني» ليست لتعني الإغواء البدائي دونما استحقاق، بل هو إغواء المكر الربّاني عدلا بمكره هو، أنه أمره على علمه أنه لا يأتمر فيهبط، وأمره لكي يظهر كفره، فلذلك هو يمكر عباده كما يمكرون «وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ».

ذلك! «فاحذروا عباد الله عدو الله أن يعديكم بدائه، وأن يستفزكم بندائه، وأن يجلب عليهم بخيله ورجله، فلعمري لقد فَوَّق لكم سهم الوعيد، وأعرق إليكم بالنزع الشديد، ورماكم من مكان قريب فقال: رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين، قذفا بغيب بعيد، ورجما بظن غير مصيب، صدقه به أبناء الحمية، وإخوان العصبية، وفرسان الكبر والجاهلية، حتى إذا انقادت له الجامحة منكم، واستحكمت الطاعية من فيكم، فنجمت الحال من السير الخفي إلى الأمر الجلي، استفحل. سلطانه عليكم، ودلف بجنوده نحوكم، فأقحموكم ولجات الذل، وأحلوكم ورطات القتل، وأوطؤوكم إثخان الجراحة، طعنا في عيونكم، وحزا في حلوقكم، ودقا لمناخركم، وقصدا لمقاتلكم، وسوقا بخزائم القهر إلى النار المعدة لكم، فأصبح أعظم في دينكم حرجا، وأورى‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 73

في دنياكم قدحا، من الذين أصبحتم لهم مناصبين، وعليهم متألبين، فاجعلوا عليه حدكم، وله جدكم، فلعمر الله لقد فخر على أصلكم، ووقع في حسبكم، ودفع في نسبكم، وأجلب بخيله عليكم، وقصد برجله سبيلكم، يقتنصونكم بكل مكان، ويضربون منكم كل بنان، لا تمتنعون بحيلة، ولا تدفعون بعزيمة، في حومة ذل، وحلقة ضيق، وعرصة موت، وجولة بلاء، فأطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية، وأحقاد الجاهلية، فإنما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته، و نزعاته ونفثاته، واعتمدوا وضع التذلل على رؤوسكم، وإلقاء التعزز تحت أقدامكم، وخلع التكبر من أعناقكم، واتخذوا التواضع مسلحة بينكم وبين عدوكم إبليس وجنوده، فإن له من كل أمة جنودا وأعوانا، ورجلاء فرسانا، ..» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة الخطبة (190) وفيه تحذيرا عن الكبر «ألا وقد أمعنتم في البغي، وأفسدتم في الأرض، مصارحة لله بالمناصبة، ومبارزة للمؤمنين بالمحاربة، فالله الله في كبر الحمية وفخر الجاهلية، فانه ملاقح الشن‏آن، ومنافخ الشيطان، التي خدع بها الأمم الماضية، و القرون الخالية، حتى أعنقوا في حنادس جهالته، ومهاوي ضلالته، ذللا عن سياقه، سلسا في قياده، أمرا تشابهت القلوب فيه، وتتابعت القرون عليه، وكبرا تضايقت الصدور به» (190). «ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم، الذين تكبروا عن حسبهم، وترفعوا فوق نسبهم، والقوا الهجينة على ربهم، وجاحدوا الله على ما صنع بهم، مكابرة لقضائه، ومغالبة لآلائه، فإنهم قواعد أساس العصبية، ودعائم أركان الفتنة، وسيوف اعتزاء الجاهلية .. ولا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم، وخلطتم بصحتكم مرضهم، و أدخلتم في حقكم باطلهم، وهم أساس الفسوق، واحلاس العقوق، اتخذهم إبليس مطايا ضلال، وجندا بهم يصول على الناس، وتراجمة ينطق على ألسنتهم، استراقا لعقولكم، ودخولا في عيونكم، ونفثا في أسماعكم، فجعلكم مرمى نبله، وموطئ قدمه، ومأخذ يده ..» (الخطبة 190).

و أستأدي اللّه سبحانه الملائكة وديعته لديهم وعهد وصيته إليهم في الإذعان بالسجود له والخشوع لتكرمته فقال سبحانه «اسْجُدُوا لآِدَمَ» فسجدوا إلا إبليس اعترته الحمية وغلبت عليه الشقوة وتعزز بخلقه من النار واستهون خلق الصلصال فأعطاه اللّه النظرة استحقاقا للسخطة واستتماما للبلية وإنجازا للعدة .. (الخطبة 1)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 74

هنا «صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» قد تعني الصراط المحيط بالإنسان حيث يبتلعه أو يبتلعه السالك، دون صراط الرب المخصوص به «إِنَّ رَبِّي عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (11: 56) فانما هو صراطه الذي قدره للسالكين إلى مرضاته.

إذاً فإتيان السالك لصده عن سلوكه بحاجة إلى حصر مربعة الجهات، وهي بطبيعة حال الصراط روحيا، وأن الإضلال ليس يتوجه إلا إلى الأرواح، ثم الجهات المحيطة بالجسم ست و ليست أربعا، فهي الجهات الروحية: صراط العلم والمعرفة به، وصراط الإيمان، والتصديق له، وصراط العبودية الخالصة، وبتعبير آخر صراطي المعرفة والعبودية فإنهما واحد حيث يشكلان الهدي إليه والزلفى دونما تفلّت أو تلفت عنه.

ف «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» بكل ما يستقبله السالك ويستقبل السالك من الآخرة والأولى وما بينهما، من أعمال وآمال وسائر الآماد المستقبلة، استخداما لها كلها لتضليله، صدا عن حاضره ومستقبله من صراط اللّه، ولكيلا يستقبل خيرا.

«وَ مِنْ خَلْفِهِمْ» مما يستدبره السالك من دنياه بأعماله المسلوكة سلك الصراط، هدما له و حبطا إياه، تزيينا لقبحه وتقبيحا لصالحه.

«وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ» وهي أيمان الدين حيث يأتي بنقاب القدسية الشرعية ويصد عنها، إلى أيمان الفطر والعقول والأفكار والصدور والقلوب، فتشل الأيمان التي هي ذرائع إلى الصراط المستقيم.

«وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ» وهي شهواتهم حيث يزينها لهم فيحسبون أنهم يحسنون صنعا «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عن مجمع البيان روي عن أبي جعفر (عليه السّلام) «ثُمَّ لآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» معناه أهوّن‏عليهم أمر الآخرة «وَ مِنْ خَلْفِهِمْ» آمرهم بجمع الأموال والبخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم «وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ» أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة وتحسين الشبهة «وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ» بتحبيب اللذات إليهم وتغليب الشهوات على قلوبهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 75

وإلى أنفسهم الأمارة بالسوء وأعمالهم السيئة، فالعقلية الإيمانية والشهوة الشيطانية هما من المداخل الأنفسية للشيطان، ثم الآخرة والأولى هما من المداخل الآفاقية إلى إضلال الإنسان، وحينئذ تنسد عليه كل منافذ الصراط المستقيم.

فقد يقعد لهم الشيطان «صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» قعدة شيطانية تحلّق على هذه الجهات الأربع، حصرا في الشهوات وحسرا عن العقليات، والنتيجة الحاسمة: «وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ» حيث يتلفتون إلى الشيطان ويتفلّتون عن الرحمن، ثم يبقى أقلهم وهم المخلَصون: «قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الُمخْلَصِينَ» (38: 82).

أجل، ولأن «صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» ليس طريقا حسيا، فالجهات الأربع في قعدة الصراط- الإبلسية- كذلك ليست هي الجهات الحسية الجغرافية- وهي ستة- بل هي الجهات المعنوية التي تعني الحياة الإنسانية، الناحية منحى الصراط المستقيم من تعمير مثلث زمان التكليف بإحكام العقلية الإنسانية وأحكامها على ضوء الفطرة والوحي، وحصر الأهواء الطائشة وأسرها عما لا يحل.

ذلك، وفي نظرة أوسع نرى «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ» تحلقان على كافة الآيات الآفاقية، ثم «عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ» تشملان كل الآيات الأنفسية، ثم «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» تعم كافة الآمال والأحوال المستقبلة، مقبولة لديك أو محتملة، واقعة أو متخيلة، فمنها الحياة البرزخية والحياة الأخرى حيث يأتينا منهما نكرانا لهما أم تزييفا لموقفهما حتى لا تؤثرا في صالح الأعمال.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 76

و «من خلفهم» تشمل كل خلف للكون، ومنها هل له من خالق؟

حيث يتفلسف ماديا لاثبات أزلية المادة، أم في تفلسف آخر يقرر أصول الفلسفة المنحرفة كالأزلية الزمانية للعالم، ووحدة حقيقة الوجود بين الخالق والمخلوق، ومسانختهما لأن فاقد الشي‏ء لا يعطيه، وغل يدي الخالق حيث الواحد لا يصدر منه إلا واحد، وما أشبه من خلاف العقل والنص كتابا وسنة.

أم القول بالتعدد اللاهوتي ثنويا أو ثالوثيا وما أشبه من الخرافات المحلقة على فكرة «اللّه».

ثم «عَنْ أَيْمانِهِمْ» تعم العقل بجنوده «وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ» تشمل الجهل وجنوده، إظهارا للعقل بجنوده جهلا، وللجهل بجنوده عقلا، وخلطا بين كل حق وباطل للبسطاء الذين لا يعقلون، بل والخلط على العلماء، اللهم إلا المخلِصون والمخلَصون.

و كما أن «مِنْ خَلْفِهِمْ» تشمل كل خلف قريب أو بعيد، كذلك «بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» بل وهي أشمل منها حيث تشمل الحاضر إلى المستقبل.

فقد يحلق الشيطان في إغوائه على كل الآيات الآفاقية والأنفسية «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هنا إجابة عن شطحات إبليسية سبع كلمة واحدة «لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ» بالمعترفون باللّه مشركين أو موحدين ليس لهم سؤال الاعتراض على اللّه حيث المسؤول إنما هو الظالم- الجاهل- القاصر أو المقصر، ولأننا لا نحيط علما وهو بكل شي‏ء محيط فلا سؤال إذا اللّهم ألا تفهما.

و الأمور أمامنا ثلاثة: منها ما نعرف حكمة لها، وأخرى لا نعرف، وثالثة يخيل إلينا أنها خلاف الحكمة، فلأن اللّه تعالى حكيم عليم لا يخطأ ونحن نخطأ فقضية العقل أن نتهم عقولنا المحدودة دون الحكمة الربانية الحكيمة العليمة.

فمهما جاز لنا أن نخطئ من هو أعلم منا بما علمناه خلافه، لا يجوز لنا أن نخطئ ربنا إذ لا يمكن منه الخطأ، فحتى إذا وصلنا بعقولنا أم علومنا أم حواسنا إلى خطأ في خلق.

فما لا ريب فيه جواز الخطأ لنا دون اللّه فلنخطئ آراءنا دون اللّه.

ثم الملحدون في اللّه الناكرون إياه لا مورد لهم لسؤال، اللهم إلا قولهم: إن كان اللّه هو الذي خلق ما خلق فلما ذا ..؟ والجواب انه لأنه اللّه الخالق المحيط بكل شي‏ء، الغني عن كل شي‏ء. فقد يجب عليكم أن تخطئوا حلومكم وعلومكم أمام علمه المحيط

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 77

و بصيغة أخرى الصراط هو الدين، ف «صراطك» هو دين اللّه، جعله اللّه طريقا للنجاة والمفاز، وإنما قال: «صراطك» حيث الدين هو الطريق المؤدية إلى مرضاته، إلى قربه و زلفاه ومثوبته، فكان إبليس لعنه اللّه إنما يوعد بالقعود على طريق الدين- الشاملة على الجهات الأربع- ليضل عنه كل قاصد، ويرد عنه كل وارد بمكره وخدائعه وتلبيساته، كالقاعد على مدرجة بعض السبل ليخوف السالكين منها، ويعدل بالقاصدين عنها، فهو «يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ليقتحم غفلته ويستنب غرته» «1».

و لماذا «من» في الأولين و «عن» في الآخرين، علّه لأن «بين أيديهم وخلفهم» هما جهات منفصلة عنا فهو يأتينا منهما إلينا حتى يضلنا عنهما، ولكن «أيمانهم وشمائلهم» هما فينا، فليأتنا تجاوزا عنهما، فالأيمان هي الفطر والعقول والأديان. والشمائل هي الأنفس الأمارة بالسوء والشهوات.

ثم وذلك الإتيان المربعة الجهات هو بوعده وتمنيّه: «يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً» (4: 120) وتخويفه عن سلوك الصراط: «إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 10 في نهج البلاغة من كتاب له (عليه السّلام) إلى زياد بن أبيه- وقد بلغه أن معاوية قد كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه- وقد عرفت أن معاوية كتب إليك يستنزل لبك ويستفلّ غربك فاحذره فإنما هو الشيطان يأتي المرء.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 78

أَوْلِياءَهُ» (3: 175) كما «الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ» (2: 268).

و على الجملة كلّ خطواته المحلّقة على مربعة الجهات: «وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ» (2: 168) وذلك هو احتناكه لهم كما وعد: «قالَ أَ رَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» (17: 62).

و قد تعني «شاكرين» ما يعم المخلِصين إلى المخلَصين، ويؤيده: «إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ» (15:) 42) والمخلِصون- كما المخلَصون- ليسوا من الغاوين مهما اختلفت الدرجات، فإتيان الشيطان عن اليمين: الدين، يعم الدينين وغير الدينين، فالأولون يؤتون بتشكيكات حول الدين، أو تأويلات بتسويلات،

و تسهيلات في الدين تلائم كافة التخلفات والتحذلقات كالصوفية العارمة التي لا تبقي للدين إلّا صورة خيالية لا واقع لها في واقع الحياة.

و الآخرون يؤتون بما يبعّدهم عن التحرّي عن الدين، مهما كان صورة له بلا سيرة.

وهكذا «شمائلهم» و «بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» و «خلفهم» فإن له خطوات للتضليل حسب القابليات، من ضيّقة إلى واسعة وإلى أوسع حتى يورد السالكين موارد الهالكين فضلا عمن سواهم، وكما قال أبو جعفر عليهما السّلام: «يا زرارة إنما عمد لك ولأصحابك فأما الآخرون فقد فرغ منهم» «1».

فقد يأتينا الشيطان بخيله ورجله من كافة المداخل الآفاقية والأنفسية، صدا عنهما خلاف ما أراده اللّه منا «سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الآْفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 10 في روضة الكافي ابن محبوب عن حنان وعلي بن رئاب عن زرارة قال: قلت له قوله عزّ وجلّ «لأقعدن ..» فقال:.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 79

وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ» ف «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» تعم الحاضر إلى المستقبل وهما النشآت الثلاث بما فيها. و «ما خلفهم» تعم في الغابر كلما حصل منه وممن سواه ومن اللّه، وهما مشركان في الانفصالية الآفاقية.

ثم «عن أيمانهم» تعم أيمان الفطر والعقول والعقيدة في مثلث الزمان، و «عن شمائلهم» تعم شمائل النفس الأمارة بالسوء ومخلفاتها، وهما العقل والجهل بجنودها، ويشتركان في الاتصالية الأنفسية، وهذا هو الفارق بين المعبر فيها ب «من» وأخرى ب «عن» حيث يختلف مجيئه «من» آفاقيا، عن مجيئه «عن» أنفسيا، هنا تجاوزا عنها إلى الأنفس، وهناك صدورا من آفاقها إليها.

و هؤلاء الذين يحيط بهم الشيطان من هذه الجهات الأربع فيضلهم هم الذين:

اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكا، واتخذهم له أشراكا، فباض وفرخ في صدورهم، ودبّ ودرج في حجورهم، فنظر بأعينهم، ونطق بألسنتهم، فركب بهم الزلل، وزيّن لهم الخطل، فعل من شركه الشيطان في سلطانه، ونطق بالباطل على لسانه (الخطبة 7).

ذلك، وفي توسع ل «صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» وهو شرعة اللّه، قد يعني إلى محمد صلى الله عليه و آله الدال على أعلى الصراط، آل محمد عليهم السّلام الدالون إلى الصراط المحمدي المستقيم. وذلك تأويل جميل بأصدق مصاديق «صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ملحقات احقاق الحق 14: 642 روى الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل 1: 61 بسند عن علي عن سعد عن أبي جعفر (عليه السّلام) قال: آل محمد الصراط الذي دل اللّه عليه، ورواه عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) مثله.

وفيه 4: 170 و 14: 378- 379 قوله صلى الله عليه و آله لعلي (عليه السّلام): أنت الطريق الواضح والصراط المستقيم والصراط المستقيم ولاية أمير المؤمنين (عليه السّلام) (14: 487) و «نحن الطريق الواضح والصراط المستقيم» (13: 83- 84) و «نحن أبواب الله ونحن الصراط المستقيم ونحن عيبة علم الله» (13: 82) و «من اقتدى بهم هدي إلى صراط مستقيم» (4: 59) ويا علي أنت صراط الحمية (4: 103 و 7: 125) و «حب آل محمد جواز على الصراط» (9: 494- 496 و 18: 496- 497) و «يا علي الصراط صراطك» (7: 124) و «علي يقعد على الصراط» (6: 212) و «لا يجوز أحد الصراط إلا بولاء علي عليه السلام» (7: 115- 121 و 17: 158- 162 و 21: 517- 521)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 80

قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18).

«مذؤما» من الذام: العيب، أخرج معيوبا بأنحسه، استكبارا على ربك، «مدحورا» مطرودا عن ساحة قربه وجنته «لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ» لحد يحسب بحسابك، ويدخل في حزبك «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ» تابعين ومتبوعين «أجمعين».

و هنا «أخرج» تعني أمرا تشريعيا فلإبليس ألا يأتمره وكما لم يخرج وقد تخلف عنه.

و لكن ذلك الخروج بالأمرين كان بعد فترة الابتلاء لآدم وزوجه وكما فصلناه في آية البقرة:

وَ يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (19).

و هذا السكون والسكن المسموح بصيغة الأمر هو دوامته ما قاما بشرطها أن: لا تقربا هذه الشجرة فتكونا- إذاً- من الظالمين شرعة اللّه، والظالمين أنفسكما، وقد مضى القول الفصل في البقرة أنه نهي باتّ تشريعي كان اقترافه ظلما وعصيانا وغواية وشقوة وضلالة وزلة وما أشبه، المسرودة بطيات آياتها.

فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَ قالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 81

عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ (20).

«فَوَسْوَسَ ... لِيُبْدِيَ» كغاية من غاياته الشيطانية المحلّقة على كل شيطناته المعنيّة من تلك الوسوسة، و «لهما» هنا كما «لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ» تعني ظاهرة النفع في وسوسته وكما قال: «ما نهاكما ..».

و ترى ما هي «سوآتهما» الموارى عنهما قبل الوسوسة البادية؟ إنها عوراتهما المواراة بلباس هذه الجنة- منذ خلقا- حيث هما بعد ظهورها بنزع لباس الجنة «طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ» (24) أم وسوآت أرواحهما إضافة إلى هذه السوآت وهي أحرى بهذا الكيد اللعين حيث عرفا أنهما عاصيان ربهما بعد ما خيّل إليهما العصمة بما أسجد اللّه له ملائكته وكرمه عليهم، ولكن ورق الجنة لا يخصف سوآت الروح، اللهم إلّا أن بوسع ورق الجنة بمطلق سترها عن عورات!.

و ليست من هذه السوآت عدم معرفة الحسن والقبيح لمكان المناهي المؤكدة المشددة عن هذه الشجرة، ولا موقع لها إلّا للعارف الحسن والقبيح، فتفسير السوآت بهذه المعرفة أمّا يشملها هي من سوآت التفسير

وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِ‏آياتِنا يَظْلِمُونَ (9).

«وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ».

و هل الوزن هنا الوازن أو الميزان أو الموزون أم نفس الوزن مصدرا؟ ثم الحق هل هو المعني من «حق» أو «الحق» اللّه، أم «الحق» المعروف من اللّه على العباد؟.

هنا احتمالات بضرب مثلث الحق المحتمل على الوزن فهي اثنتا عشرة. والصحيح منها أن ل «الوزن» هنا هو الميزان، حيث «وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 82

شَيْئاً» (21: 47) ثم الحق أن «الحق» هنا هو الثالث من محتملاته، حيث هو «القسط» في آية الأنبياء، كما «الوزن» هنا هو الموازين هناك.

و التعبير عن الميزان بالوزن عناية إلى حق الميزان، إنه خليصه دون خليطه، فكأنه هو الوزن بعينه لا يشوبه شائب غير الوزن.

كما وأن «الحق» هو خالص الحق المرغوب غير المشوب، إذا فالحق الحقيق بالاتباع من اللّه هو الميزان.

«فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ» جمع الموزون، لا الميزان، حيث الموازين هذه توزن وتقاس بالوزن الحق القسط.

ثم الحق أن «الحق» خبر لمحذوف معروف هو «هو» والجملة- على تنكرها أدبيا- خبر «الوزن» فلا تصلح «يومئذ» وما أشبه خبرا ل «الوزن»، ولو كان «الحق» خبرا «الوزن» بنفسه لكان الصحيح أدبيا «حق» ثم لا يتم المعنى حيث يعني أن «الوزن حق» ثابت لا حول عنه، وأما ما هو ذلك الوزن فلا خبر عنه اللّهم إلّا «هو الحق» الخالص غير الكالس، الفالس.

و لأن الخسران في التعارف إنما هو النقص في الأثمان، وهو يخص الأموال لا النفوس، فذكر الموازين هنا بثقلها وخفتها، إنما هو بمناسبة الخسران ليكون الكلام متفقا وقصص الحال متطابقا، فكأنه تعالى جعل نفوسهم لهم بمنزلة العروض المملوكة إذ كانوا يوصفون بأنهم يملكون أنفسهم كما يوصفون بأنهم يملكون أموالهم، وذكر خسرانهم لها لأنهم عرضوها للخسار والبوار فأوجبوا لها عذاب النار جهنم يصلونها وبئس القرا، فقد تجاوزوا حد الخسران في الأثمان إلى حد الخسران في الأعيان. ووجه آخر هو أن الوزن لا يختص بالأثقال الجسمانية، بل هو في الروحيات أوزن، فالخسران فيها أخسر، والربح‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 83

أمتن، فالحق- إذا- أن «الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ».

و ليس «الحق» هنا هو اللّه، إذ لو كان هو الميزان للموازين لم يك وزن لأحد حتى يوزن به، إضافة إلى أن ميزانية اللّه نفسه لموازين العباد ظلم بهم عظيم، إذ لا يستطيع أحد أن يشابهه في أيّ شأن من شؤونه!.

و لا هو «حق» حيث القصد تعريف الوزن: ما هو؟ لا تثبيت أصله دون معرفة بكيانه، ثم «فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ» تفرعا على «الحق» لا دور له إلّا بعد معرفة الحق بكيانه، لا التأكّد منه بكونه، مع أنه حق لا فقط «يومئذ» بل في كل الأيام.

كما وليس «الوزن» هو الوزن مصدريا حيث المصدر ليس هو «الحق» الواقع الموجود، فإنما يخبر «الحق» عن واقع وهو هنا «الميزان»، وليس هو الموزون حيث لا يوزن الموزون بالموزون.

فصالح المعنى الوحيد إذا أن «الوزن»: الميزان- هو «الحق» المقرر من اللّه لعباده، وحيا كأصل، ورسولا كمصداق واقعي عملي للوحي، وكما تعنيه «وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ» فالموازين هي الوزن هنا، كما القسط هو الحق هنا، ف: «الوزن الموازين» هو «الحق القسط» فلأن الموازين- جمع الموزون- عدة، كذلك الموازين- جمع الميزان- عدة، عدة بعدة ولا يظلمون نقيرا.

و كما الحق ليس هو صاحب الصالحات الموزونة، كذلك ليس هو الوزن، فإنما هو الحق علما وعقيدة ونية وعملا صالحا وحالا وقالا «1».

و الوزن الحق هنا وهناك هو كتاب اللّه وهو رسول اللّه المتمثل في أقواله وأفعاله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في البحار 7: 244: (سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عما يوزن يوم القيامة؟ فقال: الصحف» أقول: ولا تعني الصحف إلا الأعمال بأوصافها حيث تقاس بالحق و القسط

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 84

وأحواله كتاب اللّه‏ «1»، وقد يروى عنه صلى الله عليه و آله: «أنا ميزان العلم وعلي كفتاه» «2»، فقد يوزن الرسل بكتب الوحي، وتوزن الأمم بهما، دونما تخلّف عن حق اللّه قيد شعرة «3».

و ليس الأعمال توزن بسائر الموازين روحية وجسمية «4» إنما هو قسطاس الحق من اللّه، فإذا أردت أن تعلم أصادق أنت أم كاذب فانظر في قصد معناك وغور دعواك وغيّرهما بقسطاس من اللّه عزّ وجلّ كأنك في القيامة قال اللّه تعالى: «وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ» فإذا اعتدل معناك بدعواك ثبت لك الصدق. «5»

ذلك و «الموازين» هي جمع الميزان حقا وقسطا في آية الأنبياء: ما يوزن به، أو الموزون كما في آيتنا، وهي العلوم الربانية والعقائد والنيات والأقوال والأعمال الصالحة، فهي في صيغة جامعة «الحسنات» فقد يوزن بها بوزن «الحق» فيها، فكلّما كانت أقرب إلى الحق المرام فهي أثقل، وكلما كانت عنه أغرب فهي أخف وأسفل، حتى تكون خاوية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في المعاني باسناده عن المنقري عن هشام بن سالم قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السّلام) عن‏قول اللّه عزّ وجلّ: «وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ ..» قال: هم الأنبياء والأوصياء

(2). ملحقات إحقاق الحق 9: 209 و 18: 417 و 13: 79- 80

(3). تجد تفاصيل البحث حول الوزن والموازين في آيات الأنبياء والمؤمنون والقارعة والكهف، فراجع إلى مجالاتها في الفرقان‏

(4). نور الثقلين 2: 5 في كتاب الإحتجاج للطبرسي عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) حديث طويل‏وفيه: قال السائل: أو ليس توزن الأعمال؟ قال (عليه السّلام): لا- لأن الأعمال ليست بأجسام وإنما هي صفة ما عملوا، وإنما يحتاج إلى وزن الشي‏ء من جهل عدد الأشياء ولا يعرف ثقلها وخفتها وإن اللّه لا يخفى عليه شي‏ء، قال: فما معنى الميزان؟ قال: العدل، قال: فما معناه في كتابه «فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ»؟ قال: فمن رجح عمله‏

(5). مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السّلام) في كلام طويل: فإذا أردت، وفي الخصال عن محمد بن موسى قال سمعت أبا عبد اللّه (عليه السّلام) يقول: إن الخير ثقل على أهل الدنيا على قدر ثقله في موازينهم يوم القيامة وان الشر خف على أهل الدنيا على قدر خفته في موازينهم يوم القيامة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 85

عن الحق عن بكرته فهنالك خفة الموازين عن بكرتها، وبينهما عوان كما ولكل ميزان درجات، وهذه الآية وأضرابها تتحدث عمن محّض الإيمان محصنا أو محّض الكفر محضا، ثم العوان بينهما عوان في الإفلاح والإفلاج‏ «1».

و أثقل الثقل في الميزان هو التوحيد الحق وحق التوحيد «2»، كما أن أسفل السفل هو الإشراك باللّه.

و لأن الموازين: الحسنات، تعم الظاهر إلى الباطن والباطن إلى الظاهر، فثقلها يعمهما:

«فمن كان ظاهره أرجح من باطنه خف ميزانه يوم القيامة، ومن كان باطنه أرجح من ظاهره ثقل ميزانه يوم القيامة» «3» والقصد من الرجحان الثاني ما يترك به الرئاء، وإلّا فالسماوات بين الظاهر والباطن هي القصد والعدل.

ذلك، وفي مختلف الموازين بين أصحابها يقول الرسول صلى الله عليه و آله: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء» «4» و لأن مدادهم هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور: 71- أخرج أبو الشيخ عن جابر قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «يوضع الميزان يوم القيامة فيوزن الحسنات والسيئات فمن رجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة ومن رجحت سيئاته على حسناته دخل النار» أقول: قد ينافيه «فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً» وان الحسنات هي ثقل الميزان والسيئات هي خفتها، اللهم بتأويل أن الجامع بين الحسنات والسيئات له الموازنة بينهما دون أن يعني وزن السيئات‏

(2). المصدر أخرج الطبراني عن ابن عباس قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: والذي نفسي بيده لو جي‏ءبالسماوات والأرض ومن فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضعن في كفه الميزان ووضعت شهادة أن لا إله إلا اللّه في الكفة الأخرى لرجحت بهن‏

(3). الدر المنثور 3: 71- أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص عن علي بن أبي طالب (عليه‏السّلام): ..

(4). المصدر أخرج المرهبي في فضل العلم عن عمران بن حصين قال قال رسول اللّه (صلى اللّه‏عليه و آله و سلم): ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 86

الذي يمد المناضلين إلى خطوط النار بما وعوا منهم من آماد الإيمان.

فالعلماء هنا هم الربانيون بما استحفظوا من كتاب اللّه، الذين تمتد علومهم إلى صحائف الصدور وسواها، ومن حصائلها في ذلك المد المديد معرفة غالية عالية للممدود إليهم الذين يضحّون بأنفسهم في سبيل اللّه، إذا فمداد العلماء هو حقا أفضل وأوزن من دماء الشهداء، فأما إذا اجتمع العلم والشهادة فنور على نور، ثم العلم غير الممدود والشهادة الخالية عن شروطها المعرفية والشرعية، أو الجهل وعدم الشهادة، فهي أضلاع أخرى بعد صالح العلم والشهادة ليست بذلك النمط المرموق.

و لأن «الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ» «و نصنع الموازين القسط» إذا فلا وزن للباطل، وإنما يقام الوزن للحسنات، ثم لا وزن للسيئات فإنها خفة الميزان‏ «1»: (وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» ومنهم الأخسرون أعمالا: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً. أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ لِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً» (18:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في التوحيد باسناده عن أبي معمر السعداني عن أمير المؤمنين (عليه السّلام) في حديث قال: وأما قوله «فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ وخَفَّتْ مَوازِينُهُ» فإنما يعني: الحسنات توزن الحسنات والسيئات، فالحسنات ثقل الميزان والسيئات خفة الميزان.

وفي الكافي باسناده عن سعيد بن المسيب عن علي بن الحسين (عليهما السّلام) فيما كان يعظ به قال: ثم رجع القول من اللّه في الكتاب على أهل المعاصي والذنوب فقال عزّ وجلّ: «وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ» فان قلتم أيها الناس إن اللّه عزّ وجلّ إنما عنى بها أهل الشرك فكيف ذلك؟ وهو يقول: «وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ إِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَ كَفى‏ بِنا حاسِبِينَ» فاعلموا عباد اللّه أن أهل الشرك لا تنصب لهم الموازين ولا تنشر لهم الدواوين وإنما يحشرون إلى جهنم زمرا وإنما نصب الموازين ونشر الدواوين لأهل الإسلام- الخبر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 87

105).

ثم لكل ميزان وزن يخصه، فميزان التوحيد هو التوحيد الحق، وميزان الصلاة هي الصلاة الحقة، وهكذا كل ميزان بوزنه وكل وزن بميزانه، ويجمع الكل «الحق- و- القسط».

«فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ» المؤاتية للحق والقسط «فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» في الآخرة كما أفلحوا في الأولى، حيث يفلحون عقبات وعقوبات وصعوبات في الأخرى بثقل موازينهم التي هي أثقل من كل ثقل، فلا تبقى عقبة إلّا وهم يجتازونها، فقد ربحوا أنفسهم دون خسران.

«وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ» وهي كل موازينه، إذ لا موازين له حسنات «فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» بكل موازينها «بِما كانُوا بِآياتِنا» آفاقية وأنفسية «يظلمون»: «وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ» (23: 103).

و لأن الخسران في التعارف المتعوّد هو النقص في أثمان المبيعات وليست منها النفوس، فالإتيان به لها قد يعني مناسبة «الموازين» في عرصات الحساب ليكون الكلام متفقا، وقصص الحال متطابقا، فكأنه تعالى جعل نفوسهم لهم بمنزلة العروض المملوكة، إذ كانوا يوصفون بأنهم يملكون نفوسهم كما يملكون أموالهم، وقد عرضوا أنفسهم بكل نفائسهم للخسار، وأوجبوا لها البوار وعذاب النار «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ»، فصارت في حكم العروض المتلفة، وتجاوزوا حد الخسران في الأثمان إلى حد الخسران في الأعيان.

و بتعبير أعمق هو أليق بحق الكلام للّه الملك العلام نقول: كل إنسان يملك نفسه بما ملّكه اللّه إياه، وعلى ضوءه يملك ما سواها، ثم جعل في مختبر الحياة الدنيا ومتجرها لكي يتاجر بكل ما لديه من نفس ونفيس ليحصل على ما هو أنفس من النفس والنفيس،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 88

بثقل الموازين بعد خفتها، ولكنه باع نفسه بالأركس الأدنى وبقي صفر اليد عن كل نفسه ونفيسه، خفيفا عن كافة الموازين المعطاة والمكتسبة، فقد خلق في أحسن تقويم، وقرر له حسب مستواه أن يضيف تقويم كيانه إلى تقويم كونه، ولكنه رد نفسه إلى أسفل سائلين «فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِ‏آياتِنا يَظْلِمُونَ»- «.. فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ» وذلك من أخسر الخسران: «قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ» (39: 15).

«خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ». «أنفسهم» هنا هي حق «أنفسهم» وهي فطرهم، وعقولهم التي عليها أن تتبنى فطرهم، وحواسهم التي هي بطبيعة الحال تتبع عقولهم وفطرهم.

فالخاسر نفسه هو الذي ضل عنها متغافلا متجاهلا، فهو- إذا- خاسر ربه، فإن «من عرف نفسه فقد عرف ربه» وخاسر- كذلك- حياته الإنسانية التي خلق لأجلها، فقد وجد نفسه حيوانا سرشا حرصا على الحيوانات والشهوات، فهو منغمس فيها، تارك ما تعنيه الفطرة والعقلية السليمة من عنايات إنسانية على ضوء عنايات ربانية.

أجل فالخاسر نفسه خاسر كل موازين الإنسانية عن بكرتها، والواجد نفسه واجد لموازينها في مجالاتها الواسعة الفاسحة، فاحصة عما يجعلها وزينة متينة، فخسران النفس هو أساس كل خسران ووجدانها هو أساس كل وجدان.

ذلك، فلنجدّ المسير إلى مصير الحق ليكون لنا وزنا وإني أحذركم ونفسي هذه المنزلة، فلينتفع امرء بنفسه، فإنما البصير من سمع فتفكر، ونظر فأبصر، وانتفع بالعبر، ثم سلك جُددا واضحا يتجنب فيه الصرعة في المهاوي، والضلال في المغاوي، ولا يعين على نفسه الغواة بتعسّف في حق، أو تحريف في نطق، أو تخوف من صدق- فأفق أيها السامع من سكرتك، واستيقظ من غفلتك، واختصر من عجلتك، وأنعم الفكر فيما جاءك على لسان‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 89

النبي الأمي صلى الله عليه و آله مما لا بد منه، ولا محيص عنه، وخالف من خالف ذلك إلى غيره، ودعه وما رضي لنفسه، وضع فخرك، واحطط كبرك، واذكر قبرك، فإن عليه ممرّك، وكما تدين تدان، وكما تزرع تحصد، وما قدمت اليوم يقدم عليك غدا، فامهد لقدمك، و قدّم ليومك، فالحذر الحذر أيها المستمع، والجدّ الجدّ أيها الغافل «وَ لا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ»- إن من عزائم اللّه في الذكر الحكيم التي عليها يثب ويعاقب، ولها يرضى ويسخط، أنه لا ينفع عبدا- و إن أجهد نفسه وأخلص فعله- أن يخرج من الدنيا لاقيا ربه بخصلة من هذه الخصال لم يتب منها:

أن يشرك باللّه فيما افترض عليه من عبادته، أو يشفي غيظه بهلاك نفس، أو يغرّ بأمر فعلة غيره، أو يستنجح حاجة بإظهار بدعة في دينه، أو يلقى الناس بوجهين، أو يمشي فيهم بلسانين، إعقل ذلك فإن المثل دليل على شبهه .. (الخطبة 152).

فيا «عباد الله! زنوا أنفسكم من قبل أن توزنوا، وحاسبوها من قبل أن تحاسبوا، وتنفسوا قبل ضيق الخناق، وانقادوا قبل عنف السياق، واعلموا أنه من لم يعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر لم يكن له عن غيرها زاجر ولا واعظ» (الخطبة 89).

و هنا عرض للرحلة الإنسانية الكبرى منذ البداية حتى النهاية، مزودة برحمات ربانية مفاضة عليها، دون اختصاص بأمم دون أخرى، فإنما الإنسانية ككل هي المخاطبة بهذه الخطابات المنونة الحنونة، المندّدة بها لتخلفها عما فرض اللّه لصالحها:

وَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ (10).

.. إنها مقرة صالحة لهذا الجنس البشري بكل ما يصلحه ويصلح له من الحيوية الروحية و سواها إسكانا وتمكينا مكينا متينا أمينا في ذلك المهد المهيد غير الوهيد، بمعايش كأصلح ما يكون، ولكن «قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ» ربكم بذلك الإسكان والتمكين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 90

وتلكم المعايش، حيث التمكين يعني إلى الإسكان- مكانا- مكانة الإقدار والتسليط، بل هو أمكن من الإسكان، فكما «لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ» (2: 36) كذلك «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» (2: 29).

و قد يعني «مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ» إلى هذه الأرض وسائر الأرضين السبع، أرض الجنة التي أسكن فيها آدم وزوجه، و «كم» اعتبارا بأنهما الأصل الأول، الحامل لكل الأنسال الإنسانية، وسائر سكنة سائر الأرضين المكلفين كما لمحت لهم آية الطلاق «وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ».

ف «قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ» في الدور الأول لآدم الأول، ثم «قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ» لما بعد من أدوار الأنسال في هذه الأرض البلية الاختبار بالاختيار، كما و «قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ» لسائر المكلفين الساكنين في سائر الأرضين.

فليس ذلك التمكين- فقط- تمكين المكان، بل والمكانة الحيوية المعاشة بتمكين كل الموافقات التي تسمح بحياة الإنسان عليها، تمكينات متصلة فيها بما أودع اللّه لها من موافقات وخصائص، وأخرى منفصلة بفصائل خاصة قاصدة بينها وبين الشمس والقمر وسائر الأنجم، ودورتها حول الشمس كدوران الشمس، وميلها على محورها، وسرعة خاصة لهما في ذلك التداور، وإلى كافة التمكينات في كرتنا الأرضية التي إن تعدوها لا تحصوها «قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ»! لقد مكن اللّه أبوينا الأولين في الأرض، ثم مكّن ويمكّن نطفنا في قرار الرحم المكين: «أَ لَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ. فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ» (81:

20) ثم التمكين العام رحمانيا لكل الأجنَّة في قرار الأرض، ثم تمكينات خاصة رحيميا لعباد بدرجاته على درجاتهم «أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى‏ إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» (28: 57) وإلى تمكين ومكانة عامة: «وَ لُيمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى‏ لَهُمْ» (24:)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 91

55).

و هنا تصورات سخيفة تصوّر الكون عدوا للكائن الإنساني، وتصوّر كل تعرّف للكون و انتفاع منه تسخيرا له في صراع بينه وبين الإنسان؟

و لكنه صراع بين الإنسان ونفسه، أو سعي في سبيل الانتفاع مما سخر اللّه له، وأما الكون نفسه ف: «ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى‏ مِنْ فُطُورٍ» (67: 3).

فلو كانت النواميس الكونية معاكسة للإنسان فيما يمكّنه، ودون إرادة مدبرة له كما يزعمون، ما انتشأ هذا الإنسان في الأصل، ولما استطاع أن يمضي قدما في حياة، لو أنه وجد دون تلك الإرادة الربانية، أم أوجد دون حكمة عالية، ولكنه بما أعد اللّه ومكنّه في الأرض يتعامل مع الكون تعاملا عاقلا عادلا ويشكر اللّه على ما منحه ومكّنه ولكن «قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ».

و من هذه القلة القليلة العليلة غير الشاكرة مأساة الوجودية الكبرى في هذه التصورة الجاهلة البائسة اليائسة، أن الكون بكل ثقله الساحق يسعى إلى سحق هذا الكائن الإنساني ومحقه.

ذلك التصور الخائن الخاطئ عن هذا الكون المكين المتين تجاه الإنسان المخلوق في أحسن تقويم، الذي ينشئ- فيما ينشئ- حالة من الانزواء والالتواء والعدمية والانكماش، أو حالة فردية تمردية تنمردية مستهترة، نشرا في التيه بما فيه من الهلكة والانهيار!.

كلّا! إن الإنسان هو ابن هذه الأرض المستعمر هو فيها، ف: «هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ» (11: 61) و «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَ هُوَ بِكُلِ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 92

شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ» (2: 29).

فالأرض بنفسها موطئة مؤاتية مطيعة لاستعمارها العادل، ولكن المستعمرين الظالمين في صراع الاستعمار الغاشم هم الذين يخلقون جو الصراع والظلم والضيم في تطاولاتهم على الأرض وأهليها، ف «قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ» تصورا عن الحياة، وتعاملا مع أرض الحياة وعرضها، بعرضها، وتعاملا مع أحياء الأرض وإحياءها، ومواجهة لخالق الأرض ومن عليها.

ذلك، ومن الذكريات المخجلة ل «قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ» بداية العصيان من أبوينا الأولين الذين مكّنهما جنته، واسجد له ملائكته ثم نهاهما عن الشجرة فعصياه بإغواء الشيطان:

الشيطان والإنسان «2»

وَ لَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآِدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11).

من الأكيد أن «قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآِدَمَ» كان قبل «خلقناكم ..» كمجموعة، فكيف تأخر هنا في هذا العرض العريض؟.

أ فكان عرضا مشوشا خلاف واقع الترتيب؟ وهو مشوش من التأويل، يمس من كرامة القرآن الرتيب الأديب فوق القمم كلها في الأدب الأريب!.

قد تعني «خلقناكم» بما خلق أبوينا الأولين حيث كنا ذراً هناك، وكما «وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» (36: 41) بوجه الذرية الصحيح أنها هناك من إضافة الشي‏ء إلى نفسه باعتبارين:

حملناهم وهم ذرية في أصلاب وأرحام الآباء والأمهات المحمّلين في الفلك المشحون،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 93

وكما تشهد له: «و أنا لم طغى الماء حملناكم في الجارية» (69: 11).

فهنا «خلقناكم» بما خلقنا في صلب آدم وترائب زوجه «ثم صورناكم» تصويرا بدائيا إنسانيا هو الصورة الأولى الإنسانية، ثم: «النطفة» وما أشبه من سابقتها.

و علّ القصد من جمعية الخلق والتصوير هنا هو التلميح بأن سجود الملائكة لآدم بمعناه الصالح لم يكن- فقط- حرمة لشخصه الشخيص، ومن ذريته من هم أعلى منه محتدا وأهليه لذلك الاحترام، كالمعصومين المحمديين عليهم السلام الذين لم يكونوا يتركون الأولى بجنب اللّه فضلا عن عصيان. ذلك، وبوجه آخر ضمنه يلمح بالترتيب الثلاثي خلقا وتصويرا ومن ثم حرمة السجدة الملائكية لهذا الإنسان المخلوق في أحسن تقويم، والقصد هنا إلى الصورة الإنسانية الكاملة الواصلة إلى أحسن تقويم كيانا على ضوء شرعة اللّه بعد ما هو أحسن تقويم كونا بفضل خلق اللّه إياه.

فالكيان الإنساني المتكامل على ضوء الفطرة والعقلية السليمة والوحي، هو الكيان المسجود له بملائكة اللّه، ولا تعني «اسْجُدُوا لآِدَمَ»- كما فصلناه في آيات البقرة- إلّا سجدة الشكر للّه بما خلق آدم معلما لهم ومربيا، وليست سجدة الحرمة لآدم نفسه، فضلا عن سجدة العبودية، حيث التسوية باللّه محرمة في شرعة اللّه: «تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ» (26: 98).

و قد يتأيد كون المسجود له احتراما هو الإنسانية دون شخص خاص هو الأول، أن إبليس يهددهم أجمع بعد ما دحر بتخلفه عن السجود لآدم:

«لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» (17: 62) (قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» (15: 39) وهنا «فَبما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ..»، ولولا أن السجود كان لهم أجمعين بصورة إنسانية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 94

كاملة، لما هددهم بما هددهم أجمعين.

و كما أن خلق آدم كان خلقا لنا أجمعين، كذلك السجود له هو سجود لنا أجمعين، اللّهم من رد إلى أسفل سافلين، فانما هو سجود الاحترام بساحة الإنسانية الكبرى، ولا سيما أهل بيت الرسالة المحمدية كما يقول الإمام علي (عليه السّلام): «و أودعنا في صلبه وأمر الملائكة بالسجود له لكوننا في صلبه» «1».

و لقد جاءت قصة آدم وإبليس بحذافيرها جملة أو تفصيلا في سبعة مواطن: هنا وفي البقرة والحجر وبني إسرائيل والكهف وطه وص، والقول الفصل حولها آت وقد مضى في البقرة فلا نعيد هنا، اللّهم إلّا ميّزات تختص بها هذه الآيات: قالَ ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12).

«ما منعك» تلمح بأن طبيعة الحال وقضية المجال كانت السجدة دونما فتور، حيث الآمر هو اللّه المولى والمأمورون هم ذلك الحشد العظيم بمن فيهم إبليس، المولّى عليهم ربهم.

فلا بد- إذا- من مانع هو أقوى من دافع، كما هو قضية الحال في كل عصيان.

«قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» فكيف يسجد «خير منه» لمن هو أدنى؟ إذ «خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ»! والنار خير من الطين في كافة الفاعليات مهما كان الطين- علّه- خيرا منها في قابليات، ولكنها أيضا على ضوء فاعليات النار حيث تفعل آثارها فيه فتنبت منه نباتا وحيوانا وإنسانا.

ذلك ولكنه أخطأ في بعدين بعيدين، ثانيهما أنه رد على اللّه بذلك البرهان! وكأنه غافل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ملحقات إحقاق الحق 5: 92

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 95

عما خلق أو جاهل به، أم هو ظالم في تقديم المفضول على الفاضل، وكل ذلك إلحاد بل هو أنحس من الإلحاد في اللّه والإشراك باللّه، ولذلك استحق الدحر أبد الآبدين، كما وأنه أخطأ في أصل البرهان‏ «1».

حيث نظر إلى فعليته النارية ولم ينظر إلى نورانية ذلك التراب فعلية وقابلية. «و لو قاس نورية آدم بنورية النار عرف فصل ما بين النورين وصفا أحدهما على الآخر» «2»، وحتى لو كان هو خيرا منه، فخير منهما ومن كل خير هو إتباع أمر اللّه، وكما أمرنا بالسجود نحو الكعبة ولا ريب أن من الساجدين من هم أفضل من الكعبة المباركة.

فقد خلقنا بما خلق آدم من تراب هيكلا ترابيا إنسانيا، ثم صوّرنا بما صور آدم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و تقريرا لقياس إبليس يقال: إن النار مشرق علوي لطيف خفيف حار يابس مجاور لجواهر السماوات ملاصق لها، والطين مظلم سفلي كثيف ثقيل بارد يابس بعيد عن مجاورة السماوات- والنار قوية التأثير والفعل، والأرض ليس لها إلّا القبول والانفعال والفعل أشرف من الانفعال- والنار مناسبة للحرارة الغريزية وهي مادة الحياة، وأما الأرضية والبرد واليبس فهي تناسب الموت والحياة أشرف من الموت- ونضج الثمار متعلق بالحرارة وسن النمو من النبات لما كان وقت كمال الحرارة كان غاية كمال الحيوان حاصلا في هذين الوقتين، وأما وقت الشيخوخة فهو وقت البرد واليبس‏المناسب للأرضية، لا جرم كان هذا الوقت أردأ أوقات عمر الإنسان.

هذه أركان قياس إبليس المرتكنة كلها على الظاهر الحاضر، ولكنه غفل عن واقع هذا الكائن الطيني انه أشرف من الملائكة فضلا عن الجن‏

(2). نور الثقلين 2: 6 في العلل دخل أبو حنيفة على أبي عبد اللّه (عليه السّلام) فقال له يا أبا حنيفةبلغني أنك تقيس؟ قال: نعم أنا أقيس، قال: لا تقس فإن أول من قاس إبليس حين قال: «خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» فقاس ما بين النار والطين ...، وفيه أصول الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) قال: إن إبليس قاس نفسه ب‏آدم فقال «خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» فلو قاس الجوهر الذي خلق منه آدم بالنار كان ذلك أكثر نورا وضياء من النار.

وفي الدر المنثور 3: 72- أخرج أبو نعيم في الحلية والديلمي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده (عليهم السّلام) أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: أوّل من قاس أمر الدين برأيه إبليس .. قال جعفر فمن قاس أمر الدين برأيه قرنه اللّه تعالى يوم القيامة بإبليس لأنه أتبعه بالقياس‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 96

بالصورة الإنسانية جسمانيا، ثم بما صوره بالصورة نفسيا.

فلنا خلق وتصوير إجماليان هما في خلق آدم وتصويره، ثم خلق وتصوير تفصيليان هما في خلقنا أنسالا متتابعة، والقصد هنا من «خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ» هو الأولان، لمكان «ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآِدَمَ ..» إذ لم يأت ذلك الأمر إلّا بعد خلق آدم وقبل خلقنا تفصيليا، وقد يعنيهما «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ..» (23: 67).

فطليق التسليم لرب العالمين لا يعرف حكمة وبرهنة حاضرة معروفة، حيث الفرض تخطئة كافة الحِكَم والعلل المناحرة لأمر اللّه ونهيه إذ نجهل كثيرا وهو يعلمه، وخير برهان للحق هو أمر اللّه ونهيه.

و شر عصبية هي التي لا تعني أصلا مهما كان باطلا يعرف له هذا السبب:

فانظروا إلى ما في هذه الأفعال من قم نواجم الفخر، وقدع طوالع الكبر، ولقد نظرت فاوجدت أحدا من العالمين يتعصب لشي‏ء من الأشياء إلّا عن علّة تحتمل تمويه الجهلاء، أو حجة تليط بعقول السفهاء غيركم، فإنكم تتعصبون لأمر ما يعرف له سبب ولا علة، أما إبليس فتعصب على آدم لأصله، وطعن عليه في خلقته فقال: أنا ناري وأنت طيني- وأما الأغنياء من مترفة الأمم، فتعصبوا لآثار مواقع النعم فقالوا:

«نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ» فإن كان لا بد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأفعال، ومحاسن الأمور التي تفاضلت فها المجداء والنجداء، من بيوتات العرب، ويعاسيب القبائل، بالأخلاق الرغيبة، والأحلام العظيمة، والأخطار الجلية، والآثار المحمودة، فتعصبوا لخلال الحمد .. (الخطبة: 190).

هنا «ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ» وفي «ص»: «ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ» (75) ولم يكن‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 97

التنديد إلّا بواحدة منهما فكيف التوفيق؟ إضافة إلى أنه لم يمنعه شي‏ء عن عدم السجود حيث المنع عن عدمه واقع لمكان واقعه وهو تاركه!.

«ما منعك» تعني مانع السجود، ف «أن تسجد» هو الممنوع هنا: عن أن تسجد، و «ألا تسجد» هي نتيجة المنع عنه دون «عن» فان «أن» هنا مفسّرة وهناك مصدرية، فهما- إذا- عبارتان عن معنى واحد إيا كانت العبارة عنه.

ف «ما منعك» هنا يعني عن السجود، ثم «ألا تسجد» بيان لنتيجة المنع عن السجود ف «ما منعك عن السجود ألا تسجد». ومن الضوابط المستفادة هنا أن الأمر يفيد الوجوب فورا، فلولا الوجوب هنا لما صح تنديد، ولولا الفور فلما ذا فور التنديد، فهذه طبيعة حال أمر المولى أنه يفيد فور الوجوب، اللّهم إلّا أن تدل قرينة قاطعة على خلافه.

ثم وفي نظرة واقعية إلى طبيعة الأمر والنهي- بعد الدلالة القرآنية- نجد الإيجاب الطليق و المنع الطليق، اللّهم إلّا بقرينة قاطعة تقطع طبيعة الدلالة إلى سواها.

ثم «إذ أمرتك» تصريحة قاطعة أنه كان تحت الأمر بصورة خاصة مع عموم الملائكة، فلا يرد أنه «كانَ مِنَ الْجِنِّ» فلا يشمله أمر الملائكة، أو أنه أمر مرتين ثانيتهما في جمع الملائكة اعتبارا بانه كان محسوبا منهم لمشاركته إياهم في مظاهر الأعمال الصالحة في الملإ الأعلى.

فلقد ورطه الاستكبار إلى سحيق العذاب ومحيق المآب، فهذا إبليس «اعترضته الحمية فافتخر على آدم بخلقه، وتعصب عليه لأصله، فعدو الله إمام المتعصبين، وسلف المستكبرين الذي وضع أساس العصبية، ونازع الله رداء الجبرية، وادرع لباس التعزر، وخلع قناع التذلل، ألا ترون كيف صغره الله بتكبره، ووضعه بترفعه، فجعله في الدنيا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 98

مدحورا، وأعد له في الآخرة سعيرا» «1».

و إن أول معصية ظهرت الأنانية من إبليس اللعين حين أمر اللّه تعالى ذكره ملائكته بالسجود لآدم وأبى اللعين أن يسجد، فقال اللّه عزّ وجلّ: «ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» فطرده اللّه عزّ وجلّ عن جوار رحمته ولعنه وسماه رجيما وأقسم بعزته لا يقيس أحد في دينه إلا قرنه مع عدوه إبليس في أسفل درك من النار «2».

ذلك، ومن الإبلاس التأويلات القليلة لأحكام اللّه حسب الأهواء، كهؤلاء الذين يؤولون أوامر أو نواهي لا يرون تأكيداتها إلى أخلاقيات، وكأنها كلها من راجحات دون واجبات، فمن واجبات أخلاقية تحقيق الواجبات ومن محرماتها اقتراف محرمات، وحتى لوانحصرت الأخلاقيات في غير الملزمات سلبية أو إيجابية، لم يبرر حمل أوامر ونواهي- دون برهان- على هذه الراجحات!.

ذلك فلما هبط إبليس بما عصى واستكبر أهبطه اللّه من دار كرامته إلى دار البلية ف:

قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13).

«فَاهْبِطْ مِنْها» بما هبطت فأحبطت ما قدّمت «فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها»: الجنة، وهي دار الكرامة للمكرمين الصالحين «فاخرج» مع الأبد «إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ» المخرجين الهابطين الخابطين الذي يستكبرون عليّ إلى يوم الدين. و «الصاغر» هو الدني‏ء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة الخطبة 190/ 1/ 356، وفي نور الثقلين 2: 6 في علل الشرائع عن جعفر بن محمد عليهما السلام‏

(2). نور الثقلين 2: 6 في علل الشرائع‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 99

الرذيل.

ك «حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ» (9: 29) والعالون يقابلونهم:

«أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ» فقد استكبر صاغرا ولم يكن من العالين المكرمين، أم ومن العالين على آدم ولم يكن.

«فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهيد، وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة لا يدرى أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة، عن كبر ساعة واحدة، فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته، كلا ما كان الله سبحانه ليدخل الجنة بشرا بأمر أخرج به منها ملكا، إن حكمه في أهل السماء وأهل الأرض لواحد، وما بين الله وبين أحد من خلقه هوادة في إباحة حمى حرمه على العالمين» «1».

و ترى «فيها» تختص حرمة الاستكبار على اللّه بالجنة؟ فلا تحرم في غيرها! إنها تحرمه إلى المكانة مكانا في الجنة، أن المحرم ليس ليؤتى به في ذلك المكان مهما كان محظورا ككل، فإن للمكان دخلا في غلظ التحريم.

ثم ترى ذلك الهبوط هو من جزاء ذلك العصيان؟ فكيف أهبط معه آدم وزوجه وقد تابا! إنه من جزاء العصيان مهما كان آكد جزاء لمن لم يتب، أم إنه طبيعة الحال لمن عصى تاب أم لم يتب، قضية مكانة خاصة لهذه الجنة، والتائبون داخلون جنتي البرزخية والأخرى قضية الامتحان هنا، والنجاح فيه هناك.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة الخطبة 190/ 1/ 358، أقول «ملكا» فيها لإبليس ليس باعتبار جنسه وأصله، إنما هو باعتبار محتده الملائكي في عباده وكما أدخله اللّه فيهم فيما أمر إذ قلنا-- للملائكة ولكنه «كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ».

وفيه «و لو أراد الله أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضيائه، ويبهر العقول روائه وطيب يأخذ الأنفاس عرفه لفعل، ولو فعل لظلت له الأعناق خاضعة، ولخفت البلوى فيه على الملائكة، ولكن الله سبحانه يبتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله، تمييزا بالاختبار لهم، و نفيا للاستكبار عنهم، وإبعادا للخيلاء منهم- فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس، إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهيد، وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة ..» (الخطبة 190: 356)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 100

قالَ أَنْظِرْنِي إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15).

لقد تطلّب إنظاره «إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ» لمواصلة إضلاله، فأنظره اللّه، لا إكراما له وإجابة لدعائه، وإنما إملاءً له بمتين كيده، وإملاءً لعباده في دار الإختيار الاختبار.

و تراه أنظر إلى ما نظر واستنظر؟ قد تلمح لعنته إلى يوم الدين إلى تحقق ما نظر، وهو المعني- إذا- من يوم الوقت المعلوم: «قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى‏ يَوْمِ الدِّينِ. قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلى‏ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» (15: 38) فلعنته إلى يوم الدين قبل استنظاره إليه دليل إنظاره قبله، فإن مديد اللعنة هو قضية مديد الإنظار على سواء، وحديث إنظاره إلى يوم المهدي عليه السلام مأوّل بختام ثورته وفورته، قضية حق الدولة ودولة الحق التي لا تفسح له مجالا كما كان، حيث يضعف ساعده ويقل مساعده.

لكن هنا «يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» لا يعني «يَوْمِ يُبْعَثُونَ» استثناء له عن الموت في قيامة الإماتة، إنما هو إنظار إلى هذه القيامة الأولى حيث يموت مع كل من يموت، ثم يبعث مع سائر المبعوثين، فلم ترد إجابته في إنظاره إلى «يَوْمِ يُبْعَثُونَ» إنما هو «إِلى‏ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» وهو قيامة التدمير قبل قيامة التعمير «1» كما ولعنته إلى يوم الدين تعني حتى قيامة الإماتة، أم مع قيامة الإحياء حتى الأبد، اللهم إلا في حالة الصقعة حيث لا يشعر فيها لعنة.

ثم في تبديل «يَوْمِ يُبْعَثُونَ» ب «يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» وأنه ليس ممن شاء اللّه من المعنيين «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. لواسع الاطلاع على ذلك الإنظار راجع تفسير آية الحجر ج 14 ص 180 من الفرقان‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 101

(39: 68) تلميحة أخرى باهرة أنه لم ينظر إلى يوم الدين الإحياء، بل هو إلى آخر زمن التكليف، ولأن الإنظار إلى يوم الإحياء احترام كما لمن شاء اللّه حيث يبعث حيا، وهو إلى يوم قيامة الإماتة بلاء واخترام، ثم الغاية من ذلك الإنظار هو تداوم الإضلال ولا مورد له بين الصقعتين، فإن من دون المعصومين الأكارم مصقعون، وهؤلاء المخلصون ليس له عليهم من سلطان، فما هي الجدوى لإنظاره- إذا- إلى يوم الدين؟ إلا حياء.

ثم «المنظرين» قد تعم- إلى الإنظار المتصل للشيطان حيث يستمر حيا- الإنظار المتسلل في حلقات متتالية لسائر شياطين الجن والإنس، كلما مات منهم شيطان أو شياطين ناب عنه شيطان أو شياطين، أم هو إنظار جماعي لكل شياطين الجن أو بعضهم وهم حملة مشاكل الشيطنة، حيث الإنظار المتسلل ينعم شياطين الإنس، والقصد من «انظرني» و «مِنَ الْمُنْظَرِينَ» هو الإنظار المتسلسل، دون المتسلل.

قالَ فَبما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ (17).

لقد نلد اللعين حينما نفد جوار الرحمة، ودخل بوار الزحمة، فنسب غوايته إلى اللّه، أم قد يعني من هذه النسبة أنه تعالى ابتلاه بما أغواه وأهواه، وهو معترض على اللّه بما ابتلاه!.

«قالَ ... لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» كحارس على مدخل الصراط، حارص على الإغواء عن الصراط، حارث للغواة إلى حزبه، وهذه الحراسة لعنة ورحمة، لعنة كما يعنيه إبليس ويحققه من إضلال المتطرقين للصراط المستقيم، ورحمة لا يعنيها وهي إخلاص الوافدين إلى اللّه، أن يغدوا إليه بمطاردة اللعين، وكافة الأهواء الحاجبة بينهم وبين اللّه، إذا «فأعطاه النظرة استحقاقا للسخطة، واستتماما للبلية، وإنجازا للعدة فقال:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 102

فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلى‏ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» «1».

و قد تلمح «لهم» لما لم يقصده من الرحمة، ولما قصده من الزحمة إظهارا لها بمظهر الرحمة، حيث يزيّن لهم موقفه من «الصراط المستقيم» فإنه يزين لهم الباطل حتى يروه حقا، وكما وعد: «قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» (15:

29) وكأن اللّعين يعني بمكره هذا وإغواءه عذرا جزاء إغواءه من اللّه، رغم أن إغواءه عدل وإغواء الشيطان ظلم.

و على أية حال فقد كان قعوده على الصراط المستقيم لهم في ظاهر التصميم قصدا حيث يتظاهر به، ثم هو في الصميم دون قصد، وهو يخفي عنهم أنه قاعد الصراط المستقيم عليهم، فلذلك قال «لهم» دون «عليهم».

و من أخطر ما يقعد لنا الصراط المستقيم ما يخيل إلينا في الصلاة من وجدان ما نفقده حالتها، حيث يزين لنا التفكر فيها لما هو خارج عنها حتى نحصل على بغية لنا عزيزة فنحظوا به زاعمين أن الصلاة هي مجالة صالحة للحصول على ضالاتنا المنشودة، وكيف نعمل حتى نحصل على هذه الضالات؟ إنه يخليّ بيننا وبينها فترة مترقبة، فيزول حجابه من هذا البين، فيتبين لنا ما خفي عنا بحجابه هو، فإننا نطّلع على كثير من الحقائق لو لا الحجب بيننا وبينها، ومن أهمها حجاب الشيطان نفسه، فبزواله ومزاولة التفكير نحصل على البعض من الحقائق المحجوبة، فيخيّل إلينا أنّ الصلاة هي من أفضل المسارح للحصول على ضالاتنا المنشودة التي لا نحصل عليها في غيرها.

ثم و «أغويتني» ليست لتعني الإغواء البدائي دونما استحقاق، بل هو إغواء المكر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة من الخطبة القاصعة للإمام أمير المؤمنين علي (عليه السّلام) وقد أوردناها بتفسيرها في ج 14 ص 172 من الفرقان فراجع‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 103

الربّاني عدلا بمكره هو، أنه أمره على علمه أنه لا يأتمر فيهبط، وأمره لكي يظهر كفره، فلذلك هو يمكر عباده كما يمكرون «وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ».

ذلك! «فاحذروا عباد الله عدو الله أن يعديكم بدائه، وأن يستفزكم بندائه، وأن يجلب عليهم بخيله ورجله، فلعمري لقد فوّق لكم سهم الوعيد، وأعرق إليكم بالنزع الشديد، ورماكم من مكان قريب فقال: رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين، قذفا بغيب بعيد، ورجما بظن غير مصيب، صدقه به أبناء الحمية، وإخوان العصبية، وفرسان الكبر والجاهلية، حتى إذا انقادت له الجامحة منكم، واستحكمت الطاعية من فيكم، فنجمت الحال من السير الخفي إلى الأمر الجلي، استفحل سلطانه عليكم، ودلف بجنوده نحوكم، فأقحموكم ولجات الذل، وأحلوكم ورطات القتل، وأوطؤوكم إثخان الجراحة، طعنا في عيونكم، وحزا في حلوقكم، ودقا لمناخركم، وقصدا لمقاتلكم، وسوقا بخزائم القهر إلى النار المعدة لكم، فأصبح أعظم في دينكم حرجا، وأورى في دنياكم قدحا، من الذين أصبحتم لهم مناصبين، وعليهم متألبين، فاجعلوا عليه حدكم، وله جدكم، فلعمر الله لقد فخر على أصلكم، ووقع في حسبكم، ودفع في نسبكم، وأجلب بخيله عليكم، وقصد برجله سبيلكم، يقتنصونكم بكل مكان، ويضربون منكم كل بنان، لا تمتنعون بحيلة، ولا تدفعون بعزيمة، في حومة ذل، وحلقة ضيق، وعرصة موت، وجولة بلاء، فأطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية، وأحقاد الجاهلية، فإنما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته، و نزعاته ونفثاته، واعتمدوا وضع التذلل على رؤوسكم، وإلقاء التعزز تحت أقدامكم، وخلع التكبر من أعناقكم، واتخذوا التواضع مسلحة بينكم وبين عدوكم إبليس وجنوده، فإن له من كل أمة جنودا وأعوانا، ورجلاء

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 104

فرسانا، ..» «1».

هنا «صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» قد تعني الصراط المحيط بالإنسان حيث يبتلعه أو يبتلعه السالك، دون صراط الرب المخصوص به «إِنَّ رَبِّي عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (11: 56) فانما هو صراطه الذي قدره للسالكين إلى مرضاته.

إذا فإتيان السالك لصده عن سلوكه بحاجة إلى حصر مربعة الجهات، وهي بطبيعة حال الصراط روحيا، وأن الإضلال ليس يتوجه إلا إلى الأرواح، ثم الجهات المحيطة بالجسم ست و ليست أربعا، فهي الجهات الروحية: صراط العلم والمعرفة به، وصراط الإيمان، والتصديق له، وصراط العبودية الخالصة، وبتعبير آخر صراطي المعرفة والعبودية فإنهما واحد حيث يشكلان الهدي إليه والزلفى دونما تفلّت أو تلفت عنه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة الخطبة (190) وفيه تحذيرا عن الكبر «ألا وقد أمعنتم في البغي، وأفسدتم في الأرض، مصارحة لله بالمناصبة، ومبارزة للمؤمنين بالمحاربة، فالله الله في كبر الحمية وفخر الجاهلية، فانه ملاقح الشنآن، ومنافخ الشيطان، التي خدع بها الأمم الماضية، و القرون الخالية، حتى أعنقوا في حنادس جهالته، ومهاوي ضلالته، ذللا عن سياقه، سلسا في قياده، أمرا تشابهت القلوب فيه، وتتابعت القرون عليه، وكبرا تضايقت الصدور به» (190).

«ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم، الذين تكبروا عن حسبهم، وترفعوا فوق نسبهم، والقوا الهجينة على ربهم، وجاحدوا الله على ما صنع بهم، مكابرة لقضائه، ومغالبة لآلائه، فإنهم قواعد أساس العصبية، ودعائم أركان الفتنة، وسيوف اعتزاء الجاهلية .. ولا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم، وخلطتم بصحتكم مرضهم، و أدخلتم في حقكم باطلهم، وهم أساس الفسوق، واحلاس العقوق، اتخذهم إبليس مطايا ضلال، وجندا بهم يصول على الناس، وتراجمة ينطق على ألسنتهم، استراقا لعقولكم، ودخولا في عيونكم، ونفثا في أسماعكم، فجعلكم مرمى نبله، وموطئ قدمه، ومأخذ يده ..» (الخطبة 190).

و أستأدي اللّه سبحانه الملائكة وديعته لديهم وعهد وصيته إليهم في الإذعان بالسجود له والخشوع لتكرمته فقال سبحانه «اسْجُدُوا لآِدَمَ» فسجدوا إلا إبليس اعترته الحمية وغلبت عليه الشقوة وتعزز بخلقه النار واستهون خلق الصلصال فأعطاه اللّه النظرة استحقاقا للسخطة واستتماما للبلية وإنجازا للعدة .. (الخطبة 1)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 105

ف «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» بكل ما يستقبله السالك ويستقبل السالك من الآخرة والأولى وما بينهما، من أعمال وآمال وسائر الآماد المستقبلة، استخداما لها كلها لتضليله، صدا عن حاضره ومستقبله من صراط اللّه، ولكيلا يستقبل خيرا.

«وَ مِنْ خَلْفِهِمْ» مما يستدبره السالك من دنياه بأعماله المسلوكة سلك الصراط، هدما له و حبطا إياه، تزيينا لقبحه وتقبيحا لصالحه.

«وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ» وهي أيمان الدين حيث يأتي بنقاب القدسية الشرعية ويصد عنها، إلى أيمان الفِطَر والعقول والأفكار والصدور والقلوب، فتشل الأيمان التي هي ذرائع إلى الصراط المستقيم.

«وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ» وهي شهواتهم حيث يزينها لهم فيحسبون أنهم يحسنون صنعا «1» وإلى أنفسهم الأمارة بالسوء وأعمالهم السيئة، فالعقلية الإيمانية والشهوة الشيطانية هما من المداخل الأنفسية للشيطان، ثم الآخرة والأولى هما من المداخل الآفاقية إلى إضلال الإنسان، وحينئذ تنسد عليه كل منافذ الصراط المستقيم.

فقد يقعد لهم الشيطان «صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» قعدة شيطانية تحلّق على هذه الجهات الأربع، حصرا في الشهوات وحسرا عن العقليات، والنتيجة الحاسمة: «وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ» حيث يتلفتون إلى الشيطان ويتفلّتون عن الرحمن، ثم يبقى أقلهم وهم المخلصون: «قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الُمخْلَصِينَ» (38: 82).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. عن مجمع البيان روي عن أبي جعفر (عليه السّلام) «ثُمَّ لآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» معناه أهوّن‏عليهم أمر الآخرة «وَ مِنْ خَلْفِهِمْ» آمرهم بجمع الأموال والبخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم «وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ» أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة وتحسين الشبهة «وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ» بتحبيب اللذات إليهم وتغليب الشهوات على قلوبهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 106

أجل، ولأن «صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» ليس طريقا حسيا، فالجهات الأربع في قعدة الصراط- الإبلسية- كذلك ليست هي الجهات الحسية الجغرافية- وهي ستة- بل هي الجهات المعنوية التي تعني الحياة الإنسانية، الناحية منحى الصراط المستقيم من تعمير مثلث زمان التكليف بإحكام العقلية الإنسانية وأحكامها على ضوء الفطرة والوحي، وحصر الأهواء الطائشة وأسرها عما لا يحل.

ذلك، وفي نظرة أوسع نرى «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ» تحلقان على كافة الآيات الآفاقية، ثم «عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ» تشملان كل الآيات الأنفسية، ثم «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» تعم كافة الآمال والأحوال المستقبلة، مقبولة لديك أو محتملة، واقعة أو متخيلة، فمنها الحياة البرزخية والحياة الأخرى حيث يأتينا منهما نكرانا لهما أم تزييفا لموقفهما حتى لا تؤثرا في صالح الأعمال.

و «من خلفهم» تشمل كل خلف للكون، ومنها هل له من خالق؟

حيث يتفلسف ماديا لاثبات أزلية المادة، أم في تفلسف آخر يقرر أصول الفلسفة المنحرفة كالأزلية الزمانية للعالم، ووحدة حقيقة الوجود بين الخالق والمخلوق، ومسانختهما لأن فاقد الشي‏ء لا يعطيه، وغل يدي الخالق حيث الواحد لا يصدر منه إلا واحد، وما أشبه من خلاف العقل والنص كتابا وسنة.

أم القول بالتعدد اللاهوتي ثنويا أو ثالوثيا وما أشبه من الخرافات المحلقة على فكرة «اللّه».

ثم «عَنْ أَيْمانِهِمْ» تعم العقل بجنوده «وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ» تشمل الجهل وجنوده، إظهارا للعقل بجنوده جهلا، وللجهل بجنوده عقلا، وخلطا بين كل حق وباطل للبسطاء الذين لا يعقلون، بل والخلط على العلماء، اللهم إلا المخلصون والمخلصون.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 107

و كما أن «مِنْ خَلْفِهِمْ» تشمل كل خلف قريب أو بعيد، كذلك «بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» بل وهي أشمل منها حيث تشمل الحاضر إلى المستقبل.

فقد يحلق الشيطان في إغوائه على كل الآيات الآفاقية والأنفسية «1».

و بصيغة أخرى الصراط هو الدين، ف «صراطك» هو دين اللّه، جعله اللّه طريقا للنجاة والمفاز، وإنما قال: «صراطك» حيث الدين هو الطريق المؤدية إلى مرضاته، إلى قربه و زلفاه ومثوبته، فكان إبليس لعنه اللّه إنما يوعد بالقعود على طريق الدين- الشاملة على الجهات الأربع- ليضل عنه كل قاصد، ويرد عنه كل وارد بمكره وخدائعه وتلبيساته، كالقاعد على مدرجة بعض السبل ليخوف السالكين منها، ويعدل بالقاصدين عنها، فهو «يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ليقتحم غفلته ويستنب غرته» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هنا إجابة عن شطحات إبليسية سبع كلمة واحدة «لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ» بالمعترفون باللّه مشركين أو موحدين ليس لهم سؤال الاعتراض على اللّه حيث المسؤول إنما هو الظالم- الجاهل- القاصر أو المقصر، ولأننا لا نحيط علما وهو بكل شي‏ء محيط فلا سؤال إذا اللّهم ألا تفهما.

و الأمور أمامنا ثلاثة: منها ما نعرف حكمة لها، وأخرى لا نعرف، وثالثة يخيل إلينا أنها خلاف الحكمة، فلأن اللّه تعالى حكيم عليم لا يخطأ ونحن نخطأ فقضية العقل أن نتهم عقولنا المحدودة دون الحكمة الربانية الحكيمة العليمة.

فمهما جاز لنا أن نخطئ من هو أعلم منا بما علمناه خلافه، لا يجوز لنا أن نخطئ ربنا إذ لا يمكن منه الخطأ، فحتى إذا وصلنا بعقولنا أم علومنا أم حواسنا إلى خطأ في خلق.

فما لا ريب فيه جواز الخطأ لنا دون اللّه فلنخطئ آراءنا دون اللّه.

ثم الملحدون في اللّه الناكرون إياه لا مورد لهم لسؤال، اللهم إلا قولهم: إن كان اللّه هو الذي خلق ما خلق فلما ذا ..؟ والجواب انه لأنه اللّه الخالق المحيط بكل شي‏ء، الغني عن كل شي‏ء. فقد يجب عليكم أن تخطئوا حلومكم وعلومكم أمام علمه المحيط

(2). نور الثقلين 2: 10 في نهج البلاغة من كتاب له (عليه السّلام) إلى زياد بن أبيه- وقد بلغه أن معاوية قد كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه- وقد عرفت أن معاوية كتب إليك يستنزل لبك ويستفلّ غربك فاحذره فإنما هو الشيطان يأتي المرء.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 108

و لماذا «من» في الأولين و «عن» في الآخرين، علّه لأن «بين أيديهم وخلفهم» هما جهات منفصلة عنا فهو يأتينا منهما إلينا حتى يضلنا عنهما، ولكن «أيمانهم وشمائلهم» هما فينا، فليأتنا تجاوزا عنهما، فالأيمان هي الفطر والعقول والأديان. والشمائل هي الأنفس الأمارة بالسوء والشهوات.

ثم وذلك الإتيان المربعة الجهات هو بوعده وتمنيّه: «يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً» (4: 120) وتخويفه عن سلوك الصراط: «إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ» (3: 175) كما «الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ» (2: 268).

و على الجملة كلّ خطواته المحلّقة على مربعة الجهات: «وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ» (2: 168) وذلك هو احتناكه لهم كما وعد: «قالَ أَ رَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» (17: 62).

و قد تعني «شاكرين» ما يعم المخلصين إلى المخلصين، ويؤيده: «إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ» (15:) 42) والمخلصون- كما المخلصون- ليسوا من الغاوين مهما اختلفت الدرجات، فإتيان الشيطان عن اليمين: الدين، يعم الدينين وغير الدينين، فالأولون يؤتون بتشكيكات حول الدين، أو تأويلات بتسويلات، وتسهيلات في الدين تلائم كافة التخلفات والتحذلقات كالصوفية العارمة التي لا تبقي للدين إلّا صورة خيالية لا واقع لها في واقع الحياة.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 109

و الآخرون يؤتون بما يبعّدهم عن التحرّي عن الدين، مهما كان صورة له بلا سيرة.

وهكذا «شمائلهم» و «بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» و «خلفهم» فإن له خطوات للتضليل حسب القابليات، من ضيّقة إلى واسعة وإلى أوسع حتى يورد السالكين موارد الهالكين فضلا عمن سواهم، وكما قال أبو جعفر عليهما السّلام: «يا زرارة إنما عمد لك ولأصحابك فأما الآخرون فقد فرغ منهم» «1».

فقد يأتينا الشيطان بخيله ورجله من كافة المداخل الآفاقية والأنفسية، صدا عنهما خلاف ما أراده اللّه منا «سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الآْفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ» ف «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» تعم الحاضر إلى المستقبل وهما النشآت الثلاث بما فيها. و «ما خلفهم» تعم في الغابر كلما حصل منه وممن سواه ومن اللّه، وهما مشركان في الانفصالية الآفاقية.

ثم «عن أيمانهم» تعم أيمان الفطر والعقول والعقيدة في مثلث الزمان، و «عن شمائلهم» تعم شمائل النفس الأمارة بالسوء ومخلفاتها، وهما العقل والجهل بجنودها، ويشتركان في الاتصالية الأنفسية، وهذا هو الفارق بين المعبر فيها ب «من» وأخرى ب «عن» حيث يختلف مجيئه «من» آفاقيا، عن مجيئه «عن» أنفسيا، هنا تجاوزا عنها إلى الأنفس، وهناك صدورا من آفاقها إليها.

و هؤلاء الذين يحيط بهم الشيطان من هذه الجهات الأربع فيضلهم هم الذين: اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكا، واتخذهم له أشراكا، فباض وفرخ في صدورهم، ودبّ ودرج في حجورهم، فنظر بأعينهم، ونطق بألسنتهم، فركب بهم الزلل، وزيّن لهم الخطل، فعل من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 10 في روضة الكافي ابن محبوب عن حنان وعلي بن رئاب عن زرارة قال: قلت له قوله عزّ وجلّ «لأقعدن ..» فقال:.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 110

شركه الشيطان في سلطانه، ونطق بالباطل على لسانه (الخطبة 7).

ذلك، وفي توسع ل «صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» وهو شرعة اللّه، قد يعني إلى محمد صلى الله عليه و آله الدال على أعلى الصراط، آل محمد عليهم السّلام الدالون إلى الصراط المحمدي المستقيم. وذلك تأويل جميل بأصدق مصاديق «صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» «1».

قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18).

«مذؤما» من الذام: العيب، أخرج معيوبا بأنحسه، استكبارا على ربك، «مدحورا» مطرودا عن ساحة قربه وجنته «لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ» لحد يحسب بحسابك، ويدخل في حزبك «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ» تابعين ومتبوعين «أجمعين».

و هنا «أخرج» تعني أمرا تشريعياً، فلإبليس ألا يأتمره وكما لم يخرج وقد تخلف عنه (1، 21).

و لكن ذلك الخروج بالأمرين كان بعد فترة الابتلاء لآدم وزوجه وكما فصلناه في آية البقرة:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ملحقات احقاق الحق 14: 642 روى الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل 1: 61 بسند عن علي عن سعد عن أبي جعفر (عليه السّلام) قال: آل محمد الصراط الذي دل اللّه عليه، ورواه عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) مثله.

وفيه 4: 170 و 14: 378- 379 قوله صلى الله عليه و آله لعلي (عليه السّلام): أنت الطريق الواضح والصراط المستقيم والصراط المستقيم ولاية أمير المؤمنين (عليه السّلام) (14: 487) و «نحن الطريق الواضح والصراط المستقيم» (13: 83- 84) و «نحن أبواب الله ونحن الصراط المستقيم ونحن عيبة علم الله» (13: 82) و «من اقتدى بهم هدي إلى صراط مستقيم» (4: 59) ويا علي أنت صراط الحمية (4: 103 و 7: 125) و «حب آل محمد جواز على الصراط» (9: 494- 496 و 18: 496- 497) و «يا علي الصراط صراطك» (7: 124) و «علي يقعد على الصراط» (6: 212) و «لا يجوز أحد الصراط إلا بولاء علي عليه السلام» (7: 115- 121 و 17: 158- 162 و 21: 517- 521)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 111

وَ يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (19).

و هذا السكون والسكن المسموح بصيغة الأمر هو دوامته ما قاما بشرطها أن: لا تقربا هذه الشجرة فتكونا- إذا- من الظالمين شرعة اللّه، والظالمين أنفسكما، وقد مضى القول الفصل في البقرة أنه نهي باتّ تشريعي كان اقترافه ظلما وعصيانا وغواية وشقوة وضلالة وزلة وما أشبه، المسرودة بطيات آياتها.

فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَ قالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ (20).

«فَوَسْوَسَ ... لِيُبْدِيَ» كغاية من غاياته الشيطانية المحلّقة على كل شيطناته المعنيّة من تلك الوسوسة، و «لهما» هنا كما «لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ» تعني ظاهرة النفع في وسوسته وكما قال: «ما نهاكما ..».

و ترى ما هي «سوآتهما» الموارى عنهما قبل الوسوسة البادية؟ إنها عوراتهما المواراة بلباس هذه الجنة- منذ خلقا- حيث هما بعد ظهورها بنزع لباس الجنة «طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ» (24) أم وسوآت أرواحهما إضافة إلى هذه السوآت وهي أحرى بهذا الكيد اللعين حيث عرفا أنهما عاصيان ربهما بعد ما خيّل إليهما العصمة بما أسجد اللّه له ملائكته وكرمه عليهم، ولكن ورق الجنة لا يخصف سوآت الروح، اللهم إلّا أن بوسع ورق الجنة بمطلق سترها عن عورات!.

و ليست من هذه السوآت عدم معرفة الحسن والقبيح لمكان المناهي المؤكدة المشددة عن هذه الشجرة، ولا موقع لها إلّا للعارف الحسن والقبيح، فتفسير السوآت بهذه المعرفة أمّا يشملها هي من سوآت التفسير في حقل المعرفة.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 112

و ليس من البعيد خفاء عورات الجسم عمن هو في بداية خلقه ولمّا يفتش عن جسمه وهو موارى بلباس الجنة الذي لا داعي لأهلها أن ينزعه ليكشف ما تحته المجهول لديه، أم والمجهول أن تحته عورات، حيث انشغلا بنعيم الجنة وجوار الرب والرحمة عما سواه، حتى شغلهما الشيطان بما وسوس لهما وقاسمهما «لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما».

و ووري مجهول وارى، فقد فاعلت رحمة اللّه واتجاههما إلى نعيم الجنة في ستر عوراتهما فلم يفتشا عنها.

«و قال» في وسوسته لهما «ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ» لأن فيها مضرة بكما، أو معرّة عليكما «إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ» بذوقها تحولا بها عن الحالة البشرية إلى حالة الملكية «أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ» فيها.

و ترى هذا «أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ» مادّة هي مادة لهما تمدّهما إلى ذلك الغرور من الغَرور؟ فكيف مدهما إليه «إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ» وآدم هو فوق الملائكة إذ أسجدهم اللّه له، و عرفه كما عرفهم بتلك الفضيلة الكبرى وقمة المنزلة؟.

علّهما لم ينغرّا إلّا بالغرور الثاني، أم- فقط- بغرور المقاسمة بين ثالوثه كما تلمح له «فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ» بعد «و قاسمهما» أم- لو انغرا بغرور «أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ» فذلك لأن الملك خالد في الجنة مهما كان له تردد إليها في ذلك الخلود، فمادة الغرور الأول هي «الخلود» سواء أكان ب «أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ» أو بأن «تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ» غير ملكين.

و بوجه آخر إن «ملكين» هنا مضمّنة معنى الملك إلى الملكية، وقد يدل عليه «قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى‏ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى‏» (20:) 120).

ف «شَجَرَةِ الْخُلْدِ» عبارة أخرى عن «أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ» ف «مُلْكٍ لا يَبْلى‏»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 113

عبارة عن «أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ» فلم يكن القصد- إذا- مجرد الملكية، بل والسلطة الملكية، أن تكونا قادة في الجنة.

ثم وللملكية ميّزة عدم زحام النفس مع العقل إضافة إلى الخلود فقد يعني ب «أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ» زيادة هاتين الميّزتين إلى ميزة الإنسانية.

و مهما يكن من شي‏ء فظاهر الغرور الذي مدهما إلى عصيان هو ثالث ثلاثة، فإن ساحة آدم (عليه السّلام) بريئة عن تصديق الشيطان في تكذيب الرحمن، فإن في تصديقه الأوّل والثاني تكذيبا للّه حيث نهى وهدّد، بخلاف الخلود عصيانا فغواية وزلة وضلالة وشقاء وعناء، فلذلك:

وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21).

و لو كان لهذين الغرورين تأثير لما كان بحاجة إلى المقاسمة، إذ لا مجال لها إلّا عند فقدان البرهان، فلم يكن- إذا- في هذين برهان يقنعهما بغروره إياهما، مهما كان لهما تأثير ما لذلك المد المديد المنتهي دوره فيها بما قاسمهما.

هنا «قاسمهما» مفاعلة، دون «أقسم لهما» فعلا، دليل تعاطي الإقسام بينه وبينهما، بادئا منه كما هي قضية المفاعلة.

فقد بدء بالإقسام باللّه لهما «إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ» فطلبا منه مؤكّد الإقسام، فخيّل إليهما- بعد تمام المقاسمة بشروطها المرضية- كأن اللّه نسخ ما نهى إذ لم يكونا يظنان أن أحدا من خلق اللّه يقسم باللّه كاذبا، ولكن كان عليهما ألّا يصدقا الشيطان الذي استكبر على اللّه في تركه السجود له، وكما اللّه عرّفه إيّاه مرارا وتكرارا «إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى‏» وكيف يعتمد على قيلة النسخ بغيلة الشيطان وهو عدوّ للّه وعدو له، «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏» (20: 123).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 114

و قد يبقى هنا أن نتساءل جدنا الأوّل، هب إنك ما غرّك «إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ» فكيف غرك بعد «إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ»؟ فهل اعتبرت عصيان ربك نصيحة من الشيطان فاللّه نهاك- إذا- بخلاف النصح؟ وذلك كفر قاطع!.

علّه في تلك المقاسمة المكيدة حاول ليثبت أن ذلك النهي منسوخ حيث فلّ حرّاس الشجرة عما حولها بعد مااحتفوا بها- كما في الخبر- فقاسمهما أنني ناصح‏لكما بما نصح اللّه حيث نسخ النهي، ودليلا عليه تفرق الحرّاس! ولكن كيف يعتمد آدم على ذلك التفرق ولاينسخ قاطع النص إلّا بقاطع النص وليس فليس، فالقادر المعلوم في هذا المسرح أن آدم انغر بغُرور الغَرور حيث لم يكن يحسب أن أحدا من خلق اللّه يقسم كاذبا باللّه، إضافة إلى انجذابه إلى الشجرة إذ قد تخلده في دار الكرامة، فعلّ ربه نهاه عنها سلبا عنه هذه الكرامة إذ لا يليق لها، فقد اقترف عصيانا، لا كفرا كما يغل، ولا ترك الأولى كما قيل فيما غيل دون أي‏دليل.

إذا فاحتمال أن آدم إنما انغر بغُرور الغَرور، قضيةَ المقاسمة واحتمال أن نهيه عن الشجرة يعني نفيه عن الخلود في دار القرب والكرامة، فرجح القرب رغم النهي عن البعد إذا انتهى، فهي معصية غير كبيرة إذ لم تضمن تكبرا على اللّه، ولا تعمدا في اقتراف نهي اللّه، وإلّا لكان مصيره مصير الشيطان، إنما هو عصيان- فقط- للتخلف عن النهي، ويصغره أنه كان بين مقاسمة وأمل للبقاء في دار القرب والكرامة.

ذلك الاحتمال وارد لا مردّ له، كما لا مردّ لأصل عصيانه تخلفا عن النهي الصارم الحارم إياه عن هذه الشجرة.

فلا إفراط- إذا- بحقه أنه أتى بعصيان كبير يقارب عصيان الشيطان، ولا تفريط أنه ترك الأولى، بل هو عوان بينهما لا حول عنه إلى أحدهما.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 115

فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ ناداهُما رَبُّهُما أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ (22).

فيا ويلاه من ذلك الأوان ببداية العصيان من أبوينا الأولين، حيث «أسكن سبحانه آدم دارا أرغد فيها عيشه، وآمن فيها محلته، وحذره إبليس وعدواته، فاغتره عدوه نفاسة عليه بدار المقام، ومرافقة الأبرار، فباع اليقين بشكه، والعزيمة بوهنه، واستبدل بالجذل وجلًا، وبالاغترار ندما، ثم بسط الله سبحانه له في توبته ولقاه كلمة رحمته، ووعده المرد إلى جنته، و أهبطه إلى دار البلية، وتناسل الذرية» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة (الخطبة 1/ 28) وفيه «فلما مهد أرضه وأنفذ أمره اختار آدم عليه السلام خيرة من خلقه وجعله أول جبلته، واسكنه جنته، وأرغد فيها أكله، وأوعز إليه فيما نهاه عنه، وأعلمه أن في الإقدام عليه التعرض لمعصيته، والمخاطرة بمنزلته، فأقدم على ما نهاه عنه- موافاة لسابق علمه- فأهبطه بعد التوبة ليعمر أرضه بنسله، وليقيم الحجة به على عباده» (الخطبة 89/ 3/ 174).

وفي نور الثقلين 2: 11 عن عيون أخبار الرضا (عليه السّلام) من حديثه حول عصيان آدم وزوجه ولم يكن آدم وحواء شاهدا قبل ذلك من يحلف باللّه كاذبا «فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ» «فأكلا منها ثقة بيمينه بالله، وكان ذلك من آدم قبل النبوة ولم يكن ذلك بذنب كبير استحق به دخول النار، وإنما كان من الصغائر الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم، فلما اجتباه الله تعالى وجعله نبيا كان معصوما لا يذنب صغيرة ولا كبيرة» قال اللّه تعالى: «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏. ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» وقال عزّ وجلّ «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ».

وفيه عن تفسير القمي روي عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) قال: لما أخرج اللّه آدم من الجنة نزل عليه جبرئيل (عليه السّلام) فقال: يا آدم أليس اللّه خلقك بيده ونفخ فيك من روحه واسجد لك ملائكته وزوجك أمته حواء وأسكنك الجنة وأباحها لك ونهاك مشافهة أن لا تأكل من هذه الشجرة فأكلت منها وعصيت اللّه؟ فقال آدم: يا جبرئيل ان إبليس حلف لي باللّه انه لي ناصح فما ظننت أن أحدا من خلق اللّه يحلف باللّه كاذبا.

أقول: لمزيد الاطلاع على تفاصيل القصة راجع تفسير الآيات في البقرة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 116

«فدلاهما» أنفسهما الغَرور بدلائه الثلاثة «بغُرور» فأصبحا دلوين دلاهما بحبل الغَرور كالأرشية في هذه الطوى البعيدة! بما وعدهما وقاسمهما «فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ» المنهية «بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما- الخفية- وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ» حيث نزع عنهما لباسهما بما غرهما «وَ ناداهُما رَبُّهُما أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ..».

قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (23).

اعتراف بالظلم العصيان، وتطلّب للغفران، وإلا فورد الخسران، وقد غفر لهما واجتبى آدم بعد ما تاب عليه وهدى: «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏. ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» (20: 121) ولكنه لم يرجعهما إلى جنته بتوبته: قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ (24).

هبوط جمعي يضم إبليس إليهما ويضمهما إلى إبليس، فله هبوط حابط خابط، ولهما هبوط عن الجنة إلى دار المحنة والبلية: «فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (2:) 38).

و هنا «لَكُمْ فِي الْأَرْضِ» دليل أن الهبوط كان من عل فوق الأرض، فهو هبوط في المكان كما المكانة، وأما «اهْبِطُوا مِصْراً» في أخرى، فهو هبوط عن مكانة الدعة والراحة، ولا يدل هذا الهبوط بقرينته القاطعة على أنه من أرض إلى أرض، على أن «اهبطوا» أيضا هكذا وقرينته مضادة لتلك!.

و القدر المعلوم من العداوة في «بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» هو المعلوم بين الشيطان والإنسان، عداوة لا تزول فانها لا تزال بينهما قائمة طول زمن التكليف، فلا تعني العداء بين الناس أنفسهم، فانها مرفوضة وأحيانية، وتلك العداء مفروضة وفي كل الأحيان، اللّهم إلا عداء ضمن عداء، بما هو قضية ذلك العداء، حيث «قل لعبادي يقول التي هي‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 117

أحسن إن الشيطان ينزع بينهم» (17: 53).

و أما «قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» (20: 23) فقد يعني هبوط قبيلي الشيطان والإنسان، أم قبيل الإنسان، والمحصور إذاً فيهما قضية دار البلية والامتحان، و «إن الشيطان ينزع بينهم» (17: 53).

و على أية حال «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (2: 38) وهي بعد «قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ».

فالهبوط الجمعي بعد ذكر الشيطان وآدم وزوجه، إنه نصّ في هبوطهم جميعا دون ريب.

و هنا «مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ» يعني حين الموت وحين قيامة الإماتة، وهذه لمحة أخرى إلى مديد إنظار الشيطان أنه كان إلى هذه القيامة، دون «يَوْمِ يُبْعَثُونَ» خلافا لما تطلّبه ألا يموت مع الموتى.

قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَ فِيها تَمُوتُونَ وَ مِنْها تُخْرَجُونَ (25).

فأرض التكليف البلية، والاختبار الإختيار، هي المحيى والممات والمخرج إلى القيامة الكبرى، سفرة مثلثة الجهات فيها.

و إلى هنا انتهت التجربة الأولى في حق الإنسان الأوّل بحقل الجنة، وتكشفت خصائص الإنسان الكبرى، واستعد- إذا- لخصائصه الكامنة لمزاولة خلافته الأرضية عن الغابرين، و للدخول في معركته المصيرية مع عدوه المعلن في بداية القضية، فالعداوة مستمرة بينه وبين الشيطان، ثم وبين بني الإنسان أنفسهم بنوازع شيطانية.

فلقد هبطوا إلى الأرض، أرض الصراع الدائم والنزاع القائم، بين محض الشر،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 118

ومزدوج الاستعداد لكلي الخير والشر، فانتهت الجولة الأولى تتبعها جولات وجولات على مدى هذه الحياة.

و إليكم على ضوء هذه الآيات الناصعة القاصعة الخطبة القاصعة لعلي أمير المؤمنين (عليه السّلام) حيث يعرض فيها مداخل الشيطان ومخارجه من الإنسان: «الحمد للّه الذي لبس العز والكبرياء، واختارها لنفسه دون خلقه، وجعلها حمى وحرما على غيره، واصطفاهما لجلاله، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده، ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين، فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب: «إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ. فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ» اعترضته الحمية، فافتخر على آدم بخلقه، وتعصب عليه لأصله، فعدو اللّه إمام المتعصبين، وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية، ونازع اللّه رداء الجبرية، وأدرع لباس التعزز، وخلع قناع التذلل- ألا ترون كيف صغّره اللّه بتكبره، ووضعه اللّه بترفّعه، فجعله في الدنيا مدحورا، وأعدّ له في الآخرة سعيرا، ولو أراد اللّه أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضياءه، ويبهر العقول رواءه، وطيب يأخذ الأنفاس عرفه لفعل، ولو فعل لظّلت له الأعناق خاضعة، ولخفّت البلوى فيه على الملائكة، ولكن اللّه سبحانه ابتلى خلقه ببعض ما يجهلون أصله تمييزا بالاختبار لهم، ونفيا للاستكبار عنهم، وإبعادا للخيلاء منهم- فاعتبروا بما كان من فعل اللّه بإبليس، إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهيد، وقد كان عبد اللّه ستة آلاف سنة لا يدرى أمن سنيّ الدنيا أم من سنيّ الآخرة عن كبر ساعة- فمن ذا بعد إبليس يسلم على اللّه بمثل معصيته؟ كلّا! ما كان اللّه سبحانه ليدخل الجنة بشرا بأمر أخرج به منها ملكا، إن حكمه في أهل السماء وأهل الأرض لواحد، وما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 119

بين اللّه وبين أحد من خلقه هوادة في إباحة حمى حرّمه على العالمين-.

فاحذروا عباد اللّه عدو اللّه أن يعديكم بدائه، وأن يستفزكم بندائه، وأن يجلب عليكم بخيله ورجله، فلعمري لقد فوّق لكم سهم الوعيد، وأغرق لكم بالنزع الشديد، ورماكم من مكان قريب وقال: «رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» قذفا بغيب بعيد، ورجما بظن غير مصيب، صدّقه به أبناء الحمية، وإخوان العصبية، وفرسان الكبر والجاهلية، حتى إذا انقادت له الجامحة منكم، واستحكمت الطاعية منه فيكم، فنجمت الحال من السر الخفي إلى الأمر الجلي، استفحل سلطانه عليكم، ودلف بجنوده نحوكم، فأقحموكم ولجات الذل، وأحلّوكم ورطات القتل، وأوطأوكم إثخان الجراحة، طعنا في عيونكم، وحزّا في حلوقكم، ودقّا لمناخركم، وقصدا لمقاتلكم، وسوقا بخرائم القهر إلى النار المعدة لكم، فأصبح أعظم في دينكم جرحا، وأورى في دنياكم قدحا، من الذين أصبحتم لهم مناصبين، وعليهم متألبين، فاجعلوا عليه حدّكم، وله جدكم، فلعمر اللّه لقد فخر على أصلكم، ووقع في حسبكم، ودفع في نسبكم، وأجلب بخيله عليكم، وقصد برجله سبيلكم، يقتنصونكم بكل مكان، ويضربون منكم كل بنان، لا تمتنعون بحيلة، ولا تدفعون بعزيمة في حومة ذل، وحلقة ضيق، وعرصة موت، وجولة بلاء، فأطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية، وأحقاد الجاهلية، فإنما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته ونزعاته و نفثاته، واعتمدوا وضع التذلل على رؤوسكم، وإبقاء التعزز تحت أقدامكم، وخلع التكبر من أعناقكم، واتخذوا التواضع مسلحة بينكم وبين عدوكم إبليس وجنوده، فإن له من كل أمة جنودا وأعوانا ورجلا وفرسانا، ولا تكونوا كالمتكبر على ابن امه من غير ما فضل جعله اللّه فيه، سوى ما ألحقت العظمة بنفسه من عداوة الحسد، وقدحت الحمية في قلبه من نار الغضب، ونفخ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 120

الشيطان في أنفه من ربح الكبر الذي أعقبه اللّه به الندامة، وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة .. (الخطبة 234).

ذلك، وقد يعني «ملكا» تعبيرا عن إبليس عبادته الملائكية وكونه فيهم آلافا من السنين لحد شمله أمر الملائكة: «إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآِدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ» فلا ينافي- إذا- «كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» (18: 15).

استحوذ الشيطان‏

اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ:

الحوذ أن يتبع السائق حاذيي البعير أي‏أدبار فخذيه فيعنّف في سوقه، فاستحواذ الشيطان على حزبه أن يركب أدبارهم معنّفا في سوقهم وكما وعد: «لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» (17: 62) والاستحواذ أشد ألوان الاحتناك، إذاً فهم سيّقة الشيطان: يسوقهم حيثما يريد، فقد يبدأ اللعين بتمشيتهم وراءه:

أن يتبعوا خطواته، ثم يركبهم محتنكا إياهم، ثم يستحوذ عليهم، وبهذا الثالوث اللعين يفقدهم مشاعرهم كأنهم ظلاله في ضلاله «فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ» ولحد الإعراض، «أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ»: خالصين له مخلصين، واقفين تحت لوائه، عاملين باسمه، منفذين غاياته، وهو الشر الخالص الواصب الذي ينتهي إلى الخسران الخالص.

و للشيطان في كافة الأحزاب- إلا حزب اللّه- أعوان بمختلف الألوان وإن كانوا دركات، كما ان حزب اللّه درجات «كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى‏ شاكِلَتِهِ» ومن دركات حزب الشيطان التفرقات عن الوحدة الايمانية، عقائديا وعمليا، ومنها ترك الجماعات في الصلاة،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 121

وعلى حد قول الرسول صلى الله عليه و آله (ما من ثلاثة في قرية ولا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية) «1». وكما ان من ظروفها ومصائدها: (أهواء تتبع وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب اللّه ويتولى عليها رجال رجالا) على حد قول الإمام علي عليه السلام‏ «2».

ان القلوب تحيى وتطمئن بذكر اللّه، والشيطان يستحوذ على أوليائه ينسيهم ذكر اللّه، يجعل أعينهم في غشاء وغطاء عن ذكر اللّه «الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي» (18: 101): ذكر اللّه الذي يذهب بالحجب والأدران عن العقول والصدور والقلوب والألباب، فيعيش ذووا الألباب ذكر اللّه إسرارا وإعلانا، عملا ولسانا، فلا يعنى من ذكر اللّه لقلقة اللسان ولا خبر عنه في الجنان، فإنما اللسان آلة لذكر القلب وليس هو ذاكرا في الحق: «أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» وأرفع المقامات في ذكر اللّه أن ينسى الذاكر من سوى اللّه حتى نفسه «فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى‏».

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور أخرج ابو داود والنسائي والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي الدرداء قال‏سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول:

(2). اصول الكافي باسناده عن محمد بن مسلم عن الباقر عليه السلام قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام الناس فقال: «أيها الناس إنما بدء وقوع الفتن- إلى قوله- يخالف فيها كتاب اللّه يتولى فيهارجال رجالا فلو ان الباطل خلص لم يخف على ذي حجى ولو ان الحق خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معا فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من اللّه الحسنى».

و في خطبة للإمام الحسين عليه السلام خطب بها لما رأى صفوف أهل الكوفة بكربلاء كالليل والسيل وفيها: فنعم الرب ربنا وبئس العباد أنتم، أقررتم بالطاعة وآمنتم بالرسول محمد ثم انكم رجعتم إلى ذريته وعترته تريدون قتلهم، لقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر اللّه العظيم فتبا لكم ولما تريدون إنا للّه وأنا إليه راجعون، هؤلاء قوم كفروا بعد ايمانهم فبعدا للقوم الظالمين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 122

فهناك أذلاء وهم عصاة أمر اللّه، على مدى عصيانهم، وقد يكونون من المؤمنين، وهناك أذلون وهم الذين ينعزلون الى حزب الشيطان محادّين اللّه ورسوله: أن له ولرسوله حدّه، ولنا حدودنا، كأن لا سلطان له عليهم، وهم آلهة أنفسهم، أم الشيطان إلههم! فبمقدار ما يكون اللّه وحزبه أعز، فالشيطان وحزبه كذلك- أذلّون- في كافة الحقول، مهما كثرت وطاشت شهواتهم، أذلّون في محكمة الفطرة والعقل والواقع، في الدنيا والآخرة.

فمهما ذل المؤمنون أحيانا في هجمات الكافرين فهم أعزة بإيمانهم، تزول عنهم الذلة الظاهرة: «وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ» (3: 123) (وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ» (63: 8)، ولكنما المحادّين للّه ورسوله، الذلة لزامهم إذ لا مولى لهم: «أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ»: غريقون في الذل دائبا لا يزول، ولكنما المؤمن له العز والغلبة مهما بلغت به الصعوبات واصطدمته العرقلات في سبيل اللّه: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ:

«كتب اللّه»: إن كتابة الغلبة الإلهية لا تغني نقشا على ورق: إنشاء أو إخبارا، إنما هي تثبيت الغلبة بمثبتاتها ومعداتها: غلبة في التكوين والتشريع، وفي التشريع غلبة في الحجة والمهجة، وغلبة في التطبيق، وكل ذلك نتيجة الارادة الإلهية وتأييده رسله في غلبهم بحجج الرسالات وبيناته.

«لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي»: لا «لنغلبن» رغم واقع الجمع، إنما «لأغلبن» لأن اللّه لا يعد ويردف نفسه المقدسة في عداد خلقه وحتى رسله، وأن غلَب الرسل من غلَبه، فإنهم لايغلبون إلا بما يحملون من الرسالات وإثباتاتها ومعجزاتها، ولو لا فضل من اللّه ورحمة لكانوا كسواهم من الأذلين المغلوبين «إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» فرسل اللّه بقوة اللّه وعزته‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 123

يغلبون، وإلا فهم الفقراء لا يملكون شيئا! «وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» (3: 126).

أجل «و رسلي» المختصون في تحقيق رسالات اللّه، حاصرين طاقاتهم كلها في وجه اللّه، لا يبتغون إلا مرضاة اللّه فلهم سابق كلمة النصر: «وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ» (37: 172) كما والمؤمنون كذلك منصورون غالبون بنصر اللّه على قدر إيمانهم باللّه: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» (40: 51) نصرة في الدنيا تناسب الرسالة والإيمان، ونصرة في الآخرة هي تحقيق وعد اللّه لهم بالجنة، ولقد كتب على نفسه نصرهم حقا: كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ» (30: 47). إن الغلب والنصر هنا وهناك للمرسلين والمؤمنين ليسا في الشهوات والمغريات، وإنما في بلاغ الرسالات وتطبيقها، مهما كانت التضحيات في هذه السبيل الشائكة المزدحمة بالعرقلات.

ففكرة الإله منتصرة في كافة الميادين، بعساكر الفلسفات العقلية والعلوم التجريبية، تتقدم على تقدمها قدما الى الأمام، مهما حاول الملحدون إطفاء نور اللّه، ومع صراعهم الطويل، فإن العقيدة في اللّه ظلت هي السائدة المسيطرة الثابتة، رغم أن الإلحاد الى زوال مؤكد مهما أبرق وعربد، فالبشرية تهتدي كل يوم الى أدلة جديدة تهدي: ان اللّه هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

و رسل اللّه والمؤمنون الحقيقيون لا يقفون لحد في تضحياتهم بمبدئهم المجيد: «إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ»: نحن من أهل الجنة قاتلين ومقتولين، وأعدائنا من أهل النار قاتلين و مقتولين، فثباتهم على الدفاع لا يتقيد بقيد الحفاظ على النفس والنفيس، دون حزب الشيطان، فإن مهمتهم التي يعملون لها ويأملونها، هي الدنيا برغباتها وشهواتها، فلو

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 124

أشرفوا على خطورة أو مهلكة انهزموا مدبرين، أو استسلموا أذلة وآمنوا مقبلين، كما تشهد بذلك غزوات الرسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم بما أدت اليه من الفتح المبين، رغم كونها سجالا، لكنها ما انتهت إلا الى تقدم المسلمين وغلبهم، إلا فيما ضعف الإيمان، فامتحان بامتهان الهزيمة لكي يجدد دور الإيمان، إذا فهم الأعلون: «وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (3: 139) فلم تقف الفتوحات الاسلامية ولا تفرقت جموع المسلمين أيادي سبأ إلا نتيجة ضعف الايمان، ولا يزال، إلا أن يستحكموا عرى الإيمان والوحدة الاسلامية فهم الأعلون وأعدائهم هم الأذلون.

فليس حرمان المؤمنين عن ملذات الحياة، وزجهم في السجون، وتسفيرهم وتقتيلهم والتنكيل بهم، ليست هذه العقبات الشائكة الصعبة الملتوية، ذلّا لهم وغلبا لأعدائهم، وإنما هي صورة اخرى لانتصار الايمان في معركته مع الكفر، كما وأن استسلام البعض منهم- وهم ضعفاء الايمان- لدولة الكفر والطغيان، بغية الحفاظ على أنفسهم ونفائسهم، ليس هذا انتصارا لهم، فإنما الغلبة الايمانيةتظهر في مختلف وجوه المناضلات في مختلف ميادين النضال: إن قَتلوا انتصروا، وان قُتلوا انتصروا، فهم أعزة منتصرون قاتلين ومقتولين، شاردين ومشرودين، حاكمين ومحكومين، فقراء ومثرين، كما وأن المحادّين للّه ورسوله هم في الأذلين، في ميزان الحق، في كافة الصور، وكفى المؤمنين غلبا- بين أسبابه-: ان للحق دولة وللباطل جولة!.

ترى إن حادثة الطفّ صورة من غلب الفي‏ء الطغيان الأموي على أهل بيت الرسالة المحمدية صلّى اللّه عليه وآله وسلّم؟ كلا، فإن قتل حسين وذووه في الجسد، فقد قتل يزيد وحزبه في كافة الموازين الإنسانية، يزيد يقتل حسينا في جسده، وحسين يقتل يزيد في روحه، إذ إن حادثة الطفّ أثبتت للعالم أن يد الإثم والطغيان فيها لم تك يد انسان،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 125

وإنما أيدي وحوش مجانين وأضل سبيلا، حيث لم ترحم الأطفال الرضّع والنساء والضعفاء: قد غير الطعن منهم كل جارحة. سوى المكارم في أمن من الغير.

أجل وان صمود المؤمنين في وجه الطغاة، إذ يحميهم إيمانهم من الانهيار، ويحمي زملائهم في حزب اللّه من ضياع الشخصية، ومن خضوعها للطغيان، إن هذا الصمود الصارم غلَبٌ لهم وانتصار على الكفار، بجنب سائر الانتصارات التي تختصهم دونهم.

لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الآْخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ: إن الإيمان الصحيح باللّه دخول في حدّ اللّه وحزبه، وخروج عن محادّة اللّه وحزب الشيطان، فلا ملتقى بينهما، ولا أنصاف حلول ولا موادّة ولا مواربة ولا مسايرة، فإنهما بين طرفي النقيض فكيف يجتمعان؟.

فأسباب الموادّة بين الحزبين فاشلة، وإنما الحاكم اللازم بينهما المحادّة، ولو كانوا من كانوا من الأقارب الأدنين آباء وأبناء وإخوانا وعشيرة، فإنها المفاصلة القاطعة بين حزب اللّه وحزب الشيطان، والتجرّد من كل جاذب وجامع، فروابط الدم والقرابة كلها منهارة عند حد الإيمان، تتقطع هذه الأواصر التي لا ترتبط بعروة الإيمان ولا تنبع منها، فهناك يقتل علي عليه السلام وحمزة أقاربهما في حروب عدة، ويقتل أبو عبيدة أباه يوم بدر، ويقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير، متحللين من أواصر القرابة إلى آصرة الإيمان، فتنزل في شأنهم هذه الآية، ف (إن أوثق عرى الإيمان الحب في اللّه والبغض في اللّه) كما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 126

عن الرسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم‏ «1».

فما هي حدود هذه الموادة اللاإيمانية الممنوعة للمؤمنين؟ نقول: منها ولاية من يستحبون الكفر على الإيمان: «لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَ إِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ» (9: 23) هذا ولا سيما إذا كان ابتغاءَ العزة:

«الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» (4: 139) (وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» (5: 51) ولكنما الولاية والموادة توحيان بالمحبة وآثارها، فأما أن نعاشرهم بحسن الخلق علهم يؤمنون، أو يميلون إلى الإيمان، أو نأمن بأسهم، فلا محظور بالنسبة لمن لم يحاربنا في الدين: «لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَ ظاهَرُوا عَلى‏ إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (60: 9).

«أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ»: «أولئك» المؤمنون الصامدون غير الموادّين لمن حادّ اللّه ورسوله، «كتب» اللّه «فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ»: ثبّته في قلوبهم وقرّره في ضمائرهم، فصار كالكتابة الباقية، والرقوم الثابتة، ولكنها كتابة إلهية ما لها من زوال، فإنها بيمين القدرة والرحمة، فقلبت قلوبهم عن التقلبات إلى الثبات، وإنما تتقلب تدرّجا إلى الكمال‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 187- أخرج الطيالسي وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: ... وأخرج الديلمي من طريق الحسن عن معاذ قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: اللهم لا تجعل لفاجر عندي يدا ولا نعمة فيوده قلبي فإني قد وجدت فيما أوحيت إلي: «لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الآْخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ ...» الآية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 127

والأكمل، و لحد تتهيأ لوحي الرسالة الإلهية لو شاء اللّه، وليست كتابة الإيمان في قلب فوضى دون شرط، إنما هي بين الإيمان والعمل وفقه، ومن ثم تأييد اللّه فكتابة الإيمان، وهذه هي زيادة الهدى من اللّه بعد الاهتداء بسعي المهتدي: «إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً» (18: 13) (وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ» (47: 17) فليس لهم صنع في زيادة الهدى، اللهم إلا في سببه بفضل من اللّه‏ «1».

فهذا الإيمان المكتوب في القلوب، المؤيد بروح من اللّه، إنه صدّ رصين متين يسدّ عن الإنسان هجمات الشيطان، ويصدّه عن اتباعه في مزالق الشك واللاإيمان، وكما في زمن الغيبة التامة إذ لا إمام حاضرا نلجأ اليه (فنكفأ تكفّأ السفينة في أمواج البحر، لا ينجو إلا من أخذ اللّه ميثاقه وكتب في قلبه الإيمان وأيّده بروح منه) «2».

«وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ» تشرق قلوبهم بهذه الروح النورانية، فالروح- بوجه شامل- ما به الحياة، نباتية وحيوانية وعقلانية إنسانية، وإيمانية، وإلهامية مسددة للإيمان، وقدسية بالوحي، فالأخيرة خاصة برسل الوحي، وهي روح في روح الإلهام، كما أن هذه خاصة بالرعيل الأعلى من المؤمنين، وهي روح في روح الإيمان، وهذه عامة لمختلف درجات المؤمنين، وهي روح في روح الإنسان، كما أنها عامة لبني الإنسان العقلاء، وهي روح في روح الحيوان، وهذه عامة لمطلق الحيوان كما هي روح لروح النبات، فالروح القدسية هي روح الأرواح كلها، وقس عليها ما قبلها لما دونها في المكانة من الأرواح، فكل روح كجسد لما فوقه، وهي كروح لما دونه من أرواح.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اصول الكافي عن الصادق عليه السلام سئل عن هذه الآية: هل لهم فيما كتب في قلوبهم صنع؟ قال: لا

(2). اصول الكافي عن مفضل بن عمر قال: كنت عند أبي عبد اللّه عليه السلام وعنده في البيت أناس، فظننت انه إنما أراد بذلك غيري، فقال عليه السلام: أما واللّه ليغيبن عنكم صاحب هذا الأمر و ليخملن حتى يقال مات، هلك، في أي‏واد سلك (و تتمة الحديث في المتن) (نور الثقلين 5: 268)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 128

فالإيمان المكتوب المستقر في القلب هو يستحق روح الإلهام، دون المستودع:

«وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ» (6: 98) كما ان الايمان المستقر الملهم قد يصطفى لرسالة السماء فيزوّد صاحبه بروح القدس:

روح النبوة وروح الوحي‏

و قد يعبر عن روح الإلهام بفرقان من اللّه نتيجة التقوى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً» (8: 29) وهو نور في القلب يفرق بين الحق والباطل إذا اختلطا وضاق المخرج: «وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً. وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ» (65: 3) فهذه الروح- دوماً- شريطتها التقوى وعلى حدّ تفسير الإمام الرضا عليه السلام‏ «1».

ثم كان عاقبة هؤلاء الأماجد بما آمنوا واتقوا: «و يدخلهم» اللّه «جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها» دخول الجنة في الجنة وخلودها فيها «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ» بما اتقوا وتحللوا عن إنياتهم وأنانياتهم، فنسوا أنفسهم دون مرضاة اللّه «وَ رَضُوا عَنْهُ» حينما اتقوه، وإذ يدخلون الجنة ف «أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ» جماعته الخاصون به، الخالصون له، المتجمعون تحت لوائه، المنقادون بقيادته، دون أن يكون للشيطان وحزبه منهم نصيب «أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» دنيا و عقبى، مهما اختلفت ألوانه وظروفه، اختلاف‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اصول الكافي بإسناده الى أبي خديجة قال: دخلت على أبي الحسن عليه السلام فقال لي: «إن اللّه‏تبارك وتعالى أيد المؤمن بروح منه تحضره في كل وقت يحسن فيه ويتقي، ويغيب عنه في كل وقت يذنب فيه ويعتدي، فهي معه تهتز سرورا عند إحسانه، وتسيخ في الثرى عند إساءته، فتعاهدوا عباد اللّه نعمه بإصلاحكم أنفسكم تزدادوا يقينا وتربحوا نفيسا ثمينا، رحم اللّه امرءًا هم بخير ففعله، او هم بشر فارتدع عنه، ثم قال: نحن نؤيد بالروح بالطاعة للّه والعمل له» (نور الثقلين 5: 269)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 129

الدنيا والآخرة.

و الإفلاح هو شق الطريق الشاق الملتوي، نحو الهدف المرمي، فحزب اللّه يشقون أمواج الفتن في معارك الحياة بسفن النجاة، فلا يغرقون، إنما يفلحون هم ويفلجون خصومهم، ولأنهم حزب اللّه «وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى‏ أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ».

أجل- ولأنهم أهل معرفته ومحبته وأهل توحيده، يفوزون بنصر اللّه من مصارع المحن والمهن، فاللّه تعالى أسبل على وجوههم نور هيبته، وأعطى لهم أعلاما من عظمته وكلأهم بحسن رعايته.

إن حزب اللّه يلتقون في الرابطة التي تؤلفهم، في وحدة متراصّة متينة رصينة، فتذوب كافة الفوارق تحت هذه الراية، دون أن يتحكم فيهم أحد إلا اللّه، أو يبتغون إلا مرضاة اللّه، محادين حزب الشيطان.

فهذان حزبان متناقضان لا يختلطان ولا يتميّعان ويستحيل اجتماعهما استحالةَ اجتماع النقيضين.

ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد اذاعة شيطانية يوم القيامة

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) وَ ما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (20).

«الم تر» يا رسول الهدى- استفهام تقرير-: رؤية المعرفة اليقين القمة وهو حق اليقين ببصيرة الفطرة والعقل، المزودة بالوحي، و «الم تر» ايها المخاطب العاقل رؤية دون الوحي من انسان وجان وسواهما من العالمين المكلفين الصالحين لخطابات اللَّه شرعة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 130

وتكليفا، «أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ» وهما الكون كله «بالحق»: اللَّه بالحق، خلق بسبب الحق و مصاحبته ولغايته، وبالارادة الحقة والنظام الحق، دون فوضى جزاف في كمّ الخلق وكيفه، في بدايته او غايته ونهايته، ومن هذا الخلق أنتم المخاطبون المكلفون من الجنة والناس واضرابكم.

فالخطاب هنا مطلق لا يقيد بالناس، مهما يخص في الفاطر بالناس كأصدق مصاديقه:

«يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ» (16) والخلق الجديد هنا- أعم من الناس.

«خَلَقَ .. بِالْحَقِّ» فان اخلدتم الى الباطل «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ» جديد قد لا يكون هم من الناس: «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَ يَأْتِ بِآخَرِينَ» (4:

133) ام جديدهم من الناس ولكنهم قرن آخرون: «وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ» (6: 133).

و هكذا يتهددنا ربنا إن عشنا خلاف الحق «وَ ما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ» وكما قضى على قوم نوح أجمعين إلا شرذمة صالحين، ثم أتى منهم بآخرين.

وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ سَواءٌ عَلَيْنا أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ (21).

ترى ومتى برزوا للَّه جميعا وهم بارزون منذ كونهم في كونهم وقبل كونهم في علم اللَّه بكيانهم، هل هو يوم القيامة؟: «يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى‏ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْ‏ءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ» (40: 16) وهم في مثلث الزمان، وفي اللازمان بارزون للَّه جميعا!: «إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى‏ عَلَيْهِ شَيْ‏ءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ» (3: 5).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 131

ان واقع بروزهم للَّه كائن على أية حال، ولكنهم لكفرهم باللَّه يخفى عنهم يوم الدنيا بروزهم للَّه، ثم هم بعد الدنيا بارزون في اعترافهم باللَّه:

«لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ»! ومن «هذا» بروزهم بأعمالهم للَّه سرا وعلانية.

بارزون لا يقدرون على تستر واستخفاء رغم ما كانوا يظنون: «بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ» (6: 28) (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى‏ مِنْكُمْ خافِيَةٌ» (69: 18) ثم وصيغة الماضي «و برزوا» تبرز مضي واقع البروز للَّه منذ برزوا الى الوجود وبروزهم لعلمه قبل الوجود مهما كان البروز هو الظهور بعد الاستتار، فحين كانوا مستترين عن اصل الوجود كانوا بارزين للَّه كعلم سابق، وحين أوجدهم كانوا بارزين كما كانوا على سواء مهما خيل إليهم انهم بأعمالهم مستورون عن اللَّه، وحين يردون على اللَّه في يوم اللَّه يتحقق بروزهم بكل زواياه، حيث هم يعلمون بروزهم للَّه، فهم بارزون للَّه قبل بروزهم الى الوجود وبعد موتهم وبعد بعثهم وبعد موت من في النار مع النار، وبقاء من الجنة في الجنة عطاء غير مجذوذ «لا تَخْفى‏ مِنْكُمْ خافِيَةٌ».

كما وأن هذه الصيغة الماضية بجنب هذه اللمحة اللامعة، تحقّق مستقبل بروزهم كأنه ماض، فقد كانوا بارزين للَّه لا يخفى عليه منهم شي‏ء، وسوف يبرزون دون أية غطاء ولا في أنفسهم أنهم بارزون للَّه!.

و لما «بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً» كافة المكلفين، وفيهم الضعفاء والذين استكبروا، «فَقالَ الضُّعَفاءُ» تقصيرا دون قصور، حيث الضعف القاصر عاذر كما «الْمُسْتَضْعَفِينَ ... لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا» وانما ضعف من ضعيف مقصر، حيث سامح عن عقله، و تغافل عن فطرته، وتغرّب عن إنسانيته، تنازلا عامدا عن أخص خصائص‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 132

الإنسان وهو الحرية والاستقلال في التفكير وانتخاب المسير والمصير، فقصارى ما يملكه المستكبرون هي تحديد الحياة المادية وتحبيسها، اما الحياة الروحية والفطرية والعقلية فلا مدخل لاي مستكبر إليها إلّا من الضعفاء الذين يفتحون أبواب أرواحهم بمصارعها لاي غادر مغادر.

إن المستضعفين هم ثلة على طول الخط، والمستكبرون قلة، فلما ذا تخضع تلك الثلة لهذه القلة، إلا لضعف الروح، وسقوط الهمة، وعدم استقلال الارادة، والتنازل الداخلي عن اية كرامة انسانية موهوبة لكل إنسان.

و لقد بلغ بهؤلاء الأنذال الذل وحياة التبعية اللاشعورية لحدّ يستطير الى مسرح الآخرة حيث يسألونهم «إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً» عرضا لموقفهم المتخاذل أمامهم كأنه يحرضهم او يمكّنهم لمقابلة الحسنى بالحسنى وهنا «تبعا» مصدرا مفردا دون: أتباع جمع «تابع» وقضية الجمع في «انا كنا» هي «أتباع»؟ عله تأشيرا إلى مبلغ هذه التبعية اللعينة الأعمى كأنهم نفسها دون فاعل لها، فهم كأنهم تجسيد لأصل التبعية، إذ لم يبق من كيانهم إلّا هيه «فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ» ذلك العذاب الأليم الذي هو من خلفيات تلك التبعية الملعونة المرذولة، وقد تلمح «فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ» بمقال سابق للمستكبرين وكما كانوا يقولون للمؤمنين: «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ، وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ» (29: 13)

ثم «مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ» وتثنية «من» المبعّضة تثنّي التبعيض، عناية إلى بعض من بعض، استئصالا لإغنائهم‏عنهم شيئا من عذاب اللَّه وان قليلا في ذلك اليوم العصيب:

«وَ إِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 133

عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ. قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ» (40:

48) فحين «كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً» في مطلق التبعية كالعبودية المطلقة، فهل يقابلها هنا- وفي كمال الحاجة و الاضطرار- أن تغنوا عنا شيئا وإن ضئيلا قليلا من عذاب اللَّه؟! «قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ» وعلّها هدى الأولى والأخرى، إلا أن «لو» في الأولى إحالة للهدى بما زاغوا فأزاغ اللَّه قلوبهم، فلما لم يهتدوا لم يكن منهم إلا الإضلال لأتباعهم وامتناع الهدى باختيار لا ينافي الإختيار حيث اختاروا الضلال فلم يكن اللَّه ليهديهم سبيلا إلا سبيل جهنم، ثم «لو» في الأخرى إحالة لهدى الثواب، او التنحي عن العقاب، فمثلنا كمثلكم سواء «سَواءٌ عَلَيْنا» جميعا ضعيفا ومستكبرا «أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ».

ان الضال في طبعه، هو من طبعه الإضلال، كما المهتدي في طبعه من طبعه الإهداء، فكونكم تبعا لنا ككوننا جميعا تبعا للشيطان لا يبرّر لنا حياة التبعية الضالة، فكما كان مسيرنا واحدا في ضلال، كذلك مصيرنا و «ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ» حيث الآخرة هي مثال الدنيا في ضلال وهدى: «وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَ ما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ» (7: 43).

لقد قضي الأمر، وانتهى الجدال، وما كاد تنفع الحوار، وبجنبنا الشيطان هاتف الغواية لنا جميعا يعترف بمثواه ومأواه، محلقا في إذاعة جهنمية على كافة الضالين من الضعفاء والمستكبرين، منددا بهما جميعا، ومرددا ضلاله وضلالهم جميعا، كافرا بما اشركتموه من قبل «إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ»:

وَ قالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 134

أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (22).

اجل! «إنه يعظم إبليس لجهنم» «1» ويقول قولته النادمة، الصارخة الصارحة للحق، إذاعة بمذياعه الحاشر أتباعه، الحاسر عن مكائده ومصائده وعن كل شيطناته طول حياة التكليف، فتبدو شخصيته هناك على أتمها كما بدت شخصية الضعفاء والمستكبرين، في طعنة اليمة نافذة ناشزة، حيث لا يملكون عليه ردا، ولا لأنفسهم مردا، فانه مصارحة له «لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ» وما هو هذا الأمر؟ هل إنه أمر حياة التكليف منذ الموت في الحياة البرزخية؟

و لما يقض كل الأمر إلا إشخاص الأمر لأشخاصه! «و قال» تلمح لمرة واحدة في ذلك الخطاب للضالين كلهم! والحساب فيه مؤقت برزخ! أم إنه أمر التكليف ككل عند قيامة الإحياء قبل الحساب؟ ولم يقض كل الأمر، فان امر الحساب إمر هو امرّ من أصل القيامة!

ام انه امر الحساب حين استقر اهل الجنة في الجنة واهل النار في النار؟ وهنالك امر لم يقض بعد وهو خروج جمع من اهل النار من النار! وإمر الخطاب هذا لأتباعه عذابا فوق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 74- اخرج ابن المبارك في الزهد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن‏مردويه وابن عساكر عن عقبة بن عامر قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله وسلم) وقضى بينهم- وفيه ذكر تسلسل الشفاعة من آدم الى محمد (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) ثم: ويقول الكافرون عند ذلك قد وجد المؤمنون من يشفع لهم ما هو الا إبليس فهو الذي أضلنا فيأتون إبليس فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم قم أنت فاشفع لنا فانك أنت اضللتنا فيقوم إبليس فيثور مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط ثم يعظم لجهنم ويقول عند ذلك: ان اللَّه وعدكم وعد الحق.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 135

العذاب ليس إلّا بعد قضاء كل أمر! قد يجمع الأمر هنا كل أمر يرجع إلى أهل الجمع وقد قضي الأمر كله، وكما يلمح له لام الاستغراق في الأمر، مهما شمل مثلث الأمر قبله، ورباعية الأمر لا تنافي «و قال» فانه كل قالة من الشيطان تختصر وتحتصر في هذه القالة.

و ترى «الشيطان» هنا تعم شياطين الجن والإنس؟ وظاهر الصيغة إفراده، وإلّا لكان «الشياطين» كما في أمثالها السبعة عشر الأخرى! وانه رئيس الشياطين المضللين: «قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» (38: 83)! وان «كم» في «وعدكم» و «وعدتكم» تشمل كافة الضالين من مستكبرين ومستضعفين من الجنة والناس أجمعين! ولم يذكر «الشيطان» في موارده السبعين إلّا ويعني إبليس- فقط- دون حزبه، اللهم إلا بقرينة، ك «طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ» (7: 201) و «شَيْطاناً مَرِيداً» (4: 117) و «نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً» (43: 36).

فالشيطان- إذا- هو الشيطان، رئيس المضلين والضالين منذ التكليف الى يوم الدين.

في هذه المحاضرة الشيطانية- المحاذرة، ينهار سائر الشياطين صغارا وكبارا، وعلى هامشهم كل من استجاب له.

و يا لها من كلمة قصيرة الأداء طويلة المدى، بعيدة الصدى، تضرب الى الاعماق، وتخرق الآفاق، فتضيف الى جحيم النار لأتباعه جحيم الندامة والحسرة الحاسرة، حيث يعرّف بنفسه هناك كما عرّف اللَّه به هنا، والقرآن يجمع بين ما هنا وهناك، حجة قارعة بارعة لمن القى السمع وهو شهيد.

«قالَ .. إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ» وعدا يملك كل مؤشرات وبراهين الحق من برهان الواقع وواقع البرهان، دونما تخلف لوعده عن حكم الفطرة والعقل والشرعة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 136

والواقع يوم الدنيا، والذي سوف يقع يوم الدين.

و قد يعني المضي في «قال» إضافة الى مستقبل متحقق الوقوع، قاله في ماضيه منذ اصطكاكه بالمكلفين، وطبعا لا يتفهمه إلا من يعتقد في قضاء الأمر، حيث يتعرف الى قاله من أفعاله، والى أفعاله من قاله.

ثم «وَعْدَ الْحَقِّ» دون «الْوَعْدُ الْحَقُّ» يلمح لتحقيق الوعد الحق في كل حقوله، دون الوعد فقط، فمن الواعدين من يعد حقا ثم يمنعه مانع ام يقضي نحبه قبل قضاء وعده، وقد لا يعد أمرا ثم يحققه، ولكن وعد اللَّه هو وعد الحق.

و قد تعني اضافة «وعد» ب «الحق» كل تقديراتها، وعدا بالحق ووعدا في الحق ووعدا للحق والى الحق، حقا في الوعد وفي تحقيقه وفي تطابقه لقضية الفطر والعقول، فلا تجد اي تخلف في وعد اللَّه الحق، مستغرقا كل حق موعود دونما استثناء، حقا في الأولى وفي البرزخ و الأخرى، وقد تبين لهم كله في الأخرى، وهنالك يخسر المبطلون.

«وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ» إخلافا في اصل الوعد لكذبه، وإخلافا في تحقيقه حيث لا يقدر عليه ولو صدق، إذ لا يملك من دون اللَّه من شي‏ء.

و ذلك الإخلاف ليس- فقط- يظهر «لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ» بل ويوم الدنيا لمن أبصر بها فبصّرته، دون من أبصر إليها فأعمته.

فوعده- إذا- وعد الباطل، وِجاه وعد الحق للَّه، وكان وعد اللَّه مفعولا ومقرونا بكل مؤشرات الصدق وبينات الحق، دون وعد الشيطان إذ ليس له من سلطان:

«وَ ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ» سلطان البرهان، ام سلطان القوة السالبة الإختيار فانه- ككل- من السلاطة وهو الممكن من القهر أيا كان، كما وقد يلمح «من» لاستئصال اي سلطان للشيطان، وليس له إلّا كيد و «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً» (4:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 137

76) (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ».

ثم «وَ ما كانَ» تضرب الى اعماق المضي مهما مضى ولا قل تقدير منذ التكليف لأهله.

«ما كانَ .. إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي»: دعوة فاضية خاوية، دون ان تملك اي برهان في اي حقل من الحقول، اللّهم الا مصائد ومكائد، لا يصاد بها ولا يكاد إلا من تناسى كرامة العقل والفطرة وهدي الشرعة، وبصيغة عامة، من تغافل عن آيات اللَّه آفاقية وانفسية، وأخلد إلى الأرض واتبع هواه وكان أمره فرطا: «إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ» (15: 42).

فهنا الاستثناء منقطع، حيث السلطان السالب للاختيار ينافي تكليف الاختبار، والدعوة الكائدة الصائدة السائدة في كل حركات الشيطان لا تجد سبيلا لتحقيقها في «الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»: «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ» (16: 100) سلطان ليس إلّا استجابة من الذين يتولونه ويتقبلونه، فليس- إذا- سلطانا مستقلا قاهرا، بل مستغلا ظاهرا حين يجد له ظرفا مطاوعا.

فلان سلطانه على الذين يتولونه تابع لمطاوعتهم فليس هو سلطانا له عليهم، بل تسليطا له منهم عليهم. فان صدق عليه سلطان- ولا يصدق- فهو سلطان لا ينافي التكليف، والاستثناء إذاً متصل، ولكنه لا يلائم معناه لغويا وهو التمكن من القهر إذ لا قهر في سلطانه، إلا تجريدا له عن القهر في المستثنى، فهو مطلق التأثير، إذا فلا فرق معنويا بين انقطاع الاستثناء واتصاله ما لم يكن له سلطان القهر.

و هذه وخزة معيرة مغيرة على أتباعه إذ قضي الأمر فلا مناص ولات حين خلاص:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 138

«إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي».

دعوة تزيّن لهم الباطل فيحسبونه حقا، وتصوّر لهم الحق باطلا، فهنالك استحوذ الشيطان على أولياءه ونجى الذين سبقت لهم من اللَّه الحسنى.

و للشيطان دعوات عدة في مختلف الحقول، ولمختلف العقول، لا تملك أية برهنة وسلطان إلّا نفسها بكل زور وغُرور فانه غَرور.

«إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي» تشمل كافة دعواته وكافة الإجابات له على طول الخط، مهما اختلفت في الصورة، فانها سيرة واحدة.

ليست دعوة الشيطان لغير المخلصين على حدّ سواء، بل له خطوات يخطو بها الى أهدافه حسب الظروف والإمكانيات.

فقد يدعو ويستجاب بسهولة، وهذه لمن يتولونه وهم به مشركون، وأخرى بصعوبة ومحاولات عدة وهي لمن يؤمنون باللَّه، وهنالك صراعات وصدامات بين الشيطان بخيله ورجله وبين هؤلاء قد يغلبون وقد يغلبون وأخرى عوان بين ذلك، وثالثة مستحيلة وهي بالنسبة للمخلصين من عباد اللَّه حيث أخلصوا أنفسهم فأخلصهم اللَّه، فلا سبيل إليهم من الشيطان.

و بصيغة جامعة الغاوون هم الذين له إليهم سبيل وعليهم سلطان حسب دركات الغواية مهما كانوا من المؤمنين: «إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ» (15: 42).

و اما «الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» و «المخلَصون» فليس له عليهم اي سلطان: «قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الُمخْلَصِينَ» (38: 82).

و هذه تعابير ثلاث عن ثالث ثلاثة من المكلفين: «غير الغاوين» «الَّذِينَ آمَنُوا وَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 139

عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» «المخلِصين» وليخصص الأولان بكونهم من المخلصين، فهم المؤمنون المتوكلون القمة، وغير الغاوين القمة، وهم المعصومون، ام يعني من سلطانه السلطة الإلحادية أو الشركية فيعم «الَّذِينَ آمَنُوا ...» كل المؤمنين المتوكلين وكما قد يستفاد من آيات سلب السلطان.

«فَلا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ» ... أفلا لوم على الشيطان في إضلاله الدائب، وإنما هو على المضلّلين المستضعفين؟ أجل إنه ملوم بما أضل، وهم ملومون بما ضلوا، ولكن حجر الأساس في ذلك اللوم هو الذي تولاه وتقبل سلطانه عليه، فهم بالنسبة لأنفسهم أظلم وأشطن من الشيطان حين يحنون ظهورهم ليركبهم كما توعدهم: «لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا».

«ما أنا بمصرخكم ولا أنتم بمصرخي» خلاف ما وعدتكم أني مصرخكم يوم الصرخة: «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ ..».

انه لا إصراخ هنا او هناك إلّا صراخا أجرد عن اي مصرخ، وترى هذا الشيطان لا يصرخ خلاف ما وعد، «ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ» فما هو موقف «وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ» ولم يكن فيه وعد لا من الشيطان ولا من أولياءه؟. علّه تتمة لاستئصال أي‏إصراخ من الجانبين، موعودا وغير موعود، ولان الأتباع قد ينفعون المتبوعين يوم الدنيا ويظن كذلك يوم الدين، فلسلبية الإصراخ منهم موقع كما منه.

ثم استئصالا لأية صلة مصرخة بينه وبينهم يكفر بما أشركوه: «إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ» مما يدل على أن كل اتّباع للشيطان فيه إشراك له باللَّه مهما اختلفت الدركات.

و مهما كان «إِنِّي كَفَرْتُ» هنالك إيمانا منه ولكنه لا يقبل منه، وإنما هو تبكيت وتنديد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 140

بالذين يتولونه والذين هم به مشركون.

«إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» وذلك من أظلم الظلم أن يتسامح الإنسان عن كل ما منحه اللَّه من ضمير وعقلية وشرعة، أمام من؟

الشيطان عدو اللَّه وعدو الإنسان‏

وَ أُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ (23).

و إذا كان تحية أهل الجنة «سلام» فهي هي التحية الإيمانية لهم يوم الدنيا، حيث الأخرى مثال للأولى، وأين تحية سلام للذين يتولون الرحمن وتحية سام للمتولين الشيطان «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»؟

و الخلود بإذن الرب يؤذن بأنه رحمة فائضة زائدة على التي يستحقونها، وإنما الربوبية الرحيمية هي الموجبة لفائضة الرحمة الخالدة اللانهائية.

أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25) وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ (26).

«كَلِمَةً طَيِّبَةً» بتنكرها تعم كل كلمة طيبة في كافة حقولها الدلالية والواقعية، من لفظة تقال، او عقيدة وعلم، اوعمل صالح أو حال، أم اشخاص خصوص من سائرالمعصومين ومن يحذو محذاهم، حيث الكلمة هي كل ما تدل مهما اختلفت الدالات والدلالات قوة وضعفا، ومن أقواها الكلمة المحمدية العليا فانها جامعة الكلمات الطيبات‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 141

لأعلى قيمها وقممها «1».

ففي حقل اللفظ نرى كلمة التوحيد رأس الزاوية «2» ومنطلق الطيبة لكل كلمة طيّبة، وقد يحملها داعية التوحيد العليا الرسول الأقدس محمد (صلى اللَّه عليه وآله) والمحمديون من عترته المعصومين عليهم السلام يحملونها لفظيا وعقيديا وعلميا وعمليا وعينيا، دون إبقاء لمدرجة منها إلا درجوها وعرجوها لحدّ لا يعرجها لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا مؤمن امتحن اللَّه قلبه للايمان.

و هذه الكلمة الطيبة هي القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة كما في تالية الآية.

و هل لهذه الشجرة الطيبة التي هي مثل لتلك الكلمة الطيبة واقع خارجي نعرفه او نتعرف اليه؟ الظاهر نعم حيث الواقعية في أمثال القرآن واقع لا مرد لها، فانها بعيدة عن الافتراضات الخاوية والخيالات الفاضية، ولان المثل ليس موقعه إلّا تقريب الممثّل له، فليكن اقرب منه الى المعرفة، وأقربه ما يعرفه الممثّل لهم بسهولة مهما لم يكن المثل بتمامه واقعا ملموسا، ما هو واقع بشطر منه معروف.

إذا فما هي هذه الشجرة، هل هي الكرمة؟ وهي لا تؤتي أكلها كل حين، وانما في فصلها ام فصولها ما يتعدد إثمارها! ام هي النخلة «3»؟ فكذلك الأمر! إلّا ان يعني «كل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لقد تظافرت الرواية من طريق الفريقين في تطبيق الكلمة الطيبة على الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) واهل بيته المعصومين عليهم السلام‏

(2). الدر المنثور 4: 76- اخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ان رجلا قال يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه‏وآله وسلم) ذهب اهل الدثور بالاجور فقال: أرأيت لو عمد الى متاع الدنيا فركب بعضها الى بعض أكان يبلغ السماء أفلا أخبرك بعمل أصله في الأرض وفرعه في السماء تقول: لا اله الا اللَّه واللَّه اكبر وسبحان اللَّه والحمد للَّه عشر مرات دبر كل صلاة فذلك أصله في الأرض وفرعه في السماء

(3). الدر المنثور 4: 76- اخرج الترمذي والنسائي والبزاز وابو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم‏وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن انس قال أتي رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) بقناع من بسر فقال: مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة- حتى بلغ- تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها قال: هي النخلة، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة- حتى بلغ- ما لها من قرار قال: هي الحنظلة.

واخرج احمد وابن مردويه بسند جيد عن ابن عمر عن النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) في قوله كشجرة طيبة قال: هي التي لا ينقص ورقها هي النخلة. أقول ورواية النخلة متظافرة عن النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وعلّها لأنها المعروفة في محط الوحي، والمفضلة على سائر الشجرة الطيبة زيتونة وسواها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 142

حين» أحيان بقاء الثمر، سواء التي يكون على الشجر رطبا او يابسا، ام التي ليس على الشجر، كما الزبيب والتمر ومنتوجاتهما.

إذا فتشمل هذه الشجرة الزيتونة، واضرابها من الشجرات التي تبقى أثمارها مهما اختلفت درجاتها.

و هنا مواصفات اربع لمثل الكلمة هي: طيبة- أصلها ثابت- وفرعها في السماء- تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها- وهذه هي قمة الكمال للشجرة المثل وللكلمة الممثّل لها، ولا تنطبق هذه المواصفات تماما على أية شجرة معروفة نخلة ام زيتونة إمّا هيه، حيث هي بأصولها وفروعها وأثمارها غير ثابتة، و «كل حين» تعم كافة احيانها منذ كونها حتى القيامة الكبرى والى غير النهاية، ولا شجرة هكذا اللّهم إلّا شجرات الجنة، فقد يأخذ ذلك المثل حصة من الواقع المعروف كالنخلة والزيتونة، ثم تكملة لها هي غير معروف حتى يكمل المثل بيانا للمثّل.

و هذان المثلان لا يحلّقان على كل كلمة طيبة او خبيثة، بل الطيبة المطلقة التي لا خبث فيها او زوال، والخبيثة المطلقة التي لا طيبة فيها ولا بقاء، فالمزيجة من طيبة وخبيثة هي عوان بينهما، ولكنها إذا غلبت طيبتها على خبثها تحسب بحساب الطيبة في هامشها،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 143

وإذا عكست فبحساب الخبيثة في هامشها، وإذا تساوت الكفتان فهي- إذا- طيبة وخبيثة- خبيثة وطيبة، وكل واجهة منها محسوبة بحسابها نفسها دون تخالط بينهما، اللهم فيما يحبط خبثها طيبتها.

و كلمة التوحيد بمصاديقها هي «طيبة» مصدرا وموردا، فاعلا ومفعولا، لا خبث فيها ولا قيد شعرة، طيبة في كافة وجهاتها كما الشجرة الطيبة، منظرا بنضارتها، وطيبة برائحتها، و لذة بطعمها، وكذلك كلمة التوحيد، الصادرة من مصدر طيب، الواردة في مورد طيب، الفاعلة مفعولة طيبة علميا وعقيديا وعمليا.

«أَصْلُها ثابِتٌ» بجذور عريقة عميقة في ارضها، راسية في عمقها، جاسية في مختلف أطرافها، لا تزعزعها الأعاصير العواصف، ولا تزيلها القواصف، ولا تقوى عليها معاول الطغوى، شامخة سامقة متعالية.

و هكذا تكون كلمة التوحيد، مهما زاحمتها كلمة الشرك، فإنها تظل في زحامها ذاهبة جفاء، نافشة هشّة، ثم لا تبقي إلّا هيه «و أما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض». فالكلمة الطيبة التي لا ثبات لأصلها، هي خبيثة الآمل مهما كانت طيبة في الحال، حيث الدوام هو أطيب الطيب لكل طيب، فالطيّب درجات كما الخبيث دركات.

«وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ» فالأصل الذي لا فرع له ام هو خامل واطئ ليس هو في كمال الطيب، كالمؤمن الذي لا ينفع بإيمانه مهما ينتفع هو في نفسه قدره، وقد يزول من أصله حين لا فرع له في سماء الدعوة والدعاية الحقة.

«تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها» إيتاء في كل الأحيان، بإذن اللَّه الملك العلام، فلا إيتاء هنا دون إذن، ولا أن الإذن يخص أحيانا دون اخرى، من ستة أشهر وما دونها أو ما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 144

فوقها، حيث الكل المضاف يستغرق الأحيان كلها، والممثل له لا فترة او فطرة في إيتاءه اكله، مهما اختلف حين عن حين وثمر عن ثمر.

فحين اتصال الثمرة الناضجة بالشجرة هو أفضل الأحيان، ثم تتلوه سائر الأحيان في الثمرة المنفصلة، فحين الرسالة والإمامة، المنقسم الى عهد الرسول والائمة وبعده، يقسم ثمرة الرسالة والنبوة إلى عهديهما وبعدهما، مهما اختلف العهدان قربا وبعدا، إلّا أنهما في خط واحد تربطه كلمة القرآن وهي المحور الأصيل والثقل الأكبر، ولا تنقص الثمرة المنفصلة إلّا عدم اتصالها بالشجرة الثانية وهم الحملة المعصومون.

و إذن الرب زمن الحضور اثنان هما القرآن وحملته المعصومان، وزمن الغياب واحد هو وفقها للقرآن.

فكما اللَّه ثابت في أصل الالوهية السرمدية، والربوبية الدائبة، لا تأخذه سنة ولا نوم، وكل يوم هو في شأن، وهو معكم أينما كنتم، كذلك تكون كلمة اللَّه، مختصرة في «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» ومفصلة في القرآن العظيم، شجرة طيبة متشجرة الى ارجاء الكون وأجوائه، في الطول التاريخي والعرض الجغرافي «أَصْلُها ثابِتٌ» دون‏تزعزع بنسخ او تحريف او تجديف وتزييف، «وَفَرْعُها فِي السَّماءِ» حيث يحلّق على سماوات الدعوات، دائبا مشرفا مشرّفا مشرقا.

و قد اذن اللَّه لدائب الدعوة القرآنية على محور التوحيد، بكل داعية لها حقه، معصومة كأهل بيت الرسالة القدسية، ام دونها كما في العلماء الربانيين الذين يحملون دعوة القرآن في كل عصر ومصر، وعلى طول خط الرسالة.

و انها تطمئن كل دعوة حقة بداعيتها على مر الزمن، وهي- مهما صعبت الظروف والتوت- ثابتة ناجحة «وَ الْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى‏».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 145

و كلمة خبيثة هي ما تناحر الطيبة، وانها كشجرة خبيثة كما الحنظلة «اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ» فلا اصل لها راكزا في الأرض ولا فرع، وحتى إذا كان لها اصل وفرع فإنهما خبيثان «ما لَها مِنْ قَرارٍ»: ليس لها اي قرار في قرارة الأرض فضلا عن فرع في السماء، وليس لها اكُل، و لو كان فهو زقوم من حنظلة، وهكذا يكون دور كلمة خبيثة، ف «لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ»! يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الآْخِرَةِ وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ (27).

«بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ»- وليس فقط من مقولة القول- هو كلمة التوحيد «1»، كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، الثابت في مثلث الزمان وقبله وبعده، وليس «فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الآْخِرَةِ» إلّا قرارا على غرار الموحدين، فإنهم لا يتخطون الزمان أيا كان.

و قد تعني «الآخرة» هنا منذ الموت برزخا والى قيامة الإحياء الى ما لا نهاية له، لأنها تقابل- ككل- الحياة الدنيا «2» وفي التعلقات الادبية ل «بالقول- في الحياة ..»

اختلافات معنوية لعلها كلها معنية إلّا «آمنوا في الآخرة» حيث لا يقبل فيها حتى يثبت.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. الدر المنثور 4: 78- اخرج الطيالسي والبخاري ومسلم وابو داود والترمذي‏و النسائي وابن‏ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن البراء بن عازب ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) قال: المسلم إذا سئل في القبر يشهد ان لا إله إلا اللَّه وان محمدا رسول اللَّه فذلك قوله سبحانه: يثبت اللَّه الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة

(2). الدر المنثور 4: 79- اخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري سمعت‏رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) يقول في هذه الآية قال: وفي الآخرة القبر- أقول: لقد تظافرت أحاديث الفريقين ان ذلك عند المسائلة في القبر وهو تفسير لاقرب المصاديق‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 146

فالباء في «بالقول» للتعدية او السببية، والظروف على الحالين قد يتعلق ب «يثبت» «1» واخرى ب «آمنوا» و «فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الآْخِرَةِ» متعلقة ب «يثبت» ام «الثابت» ام «آمنوا»، ولا يطرح منها إلّا «آمنوا في الآخرة».

فالإيمان هنا مبدء للتثبيت وسبب له، وجامع المعنى الذي يجمع صالحة المحتملات انه:

يثبت اللَّه الذين آمنوا بالقول الثابت، يثبتهم بسبب القول الثابت، تثبيتا في الحياة الدنيا وفي الآخرة، تثبيتهم للقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فان كلمة التوحيد الثابتة في الحياة الدنيا هي أثبت في الآخرة، لأنها يوم تبلى السرائر كما هي، وهي مثال الدنيا باعمالها كما هي، وبصرك اليوم حديد.

«وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ» عن القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ومن أظلمهم المشركون ف «إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» اضلالا بما زلوا وضلوا: «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» إضلالا في الحياة الدنيا فلا يهتدون، وفي الآخرة فيضلون طريق الجنة كما ضلوا عن طريقها في الحياة الدنيا «وَ يَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ» ولا يشاء إلا صالح العباد، فرحمة بتثبيته لصالحهم، وإضلالا لطالحهم، عدلا هنا وفضلا هناك ولا يظلمون نقيرا.

ثم الايمان بالقول الثابت- وهو اصل المعني بين المحتملات- هو ايمان بما تقتضيه كلمة التوحيد من ملاحقة واستقامة: «إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ ..» (41: 30).

و لو لا تثبيت من اللَّه بالقول الثابت لم يكن ثبات حيث الزلات والضلالات كثرة، والطاقة الانسانية قلة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. تعلق «بالقول» ب «يثبت» لا يصح الا ضمن تعلقه ب «آمنوا» حيث الصحيح في الاول «على‏القول الثابت»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 147

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ (28) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ (29).

«نِعْمَتَ اللَّهِ» هنا هي الإيمان إذ قوبلت بالكفر، وأنه قمة النعمة، فهم بدلوا الايمان كفرا، ثم «أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ» أن بدلوا إيمانهم كفرا كما بدلوا على أنفسهم، تبديلا ذا بعدين بعيدين عن «نِعْمَتَ اللَّهِ» فلذلك «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها» إيقادا لها لأنهم أئمة الكفر «وَ بِئْسَ الْقَرارُ».

أ ترى أئمة الكفر كانوا مؤمنين ثم بدلوه كفرا، وهم ما آمنوا من ذي قبل حتى يبدلوه كفرا، اللهم إلّا بعضا منهم بإيمان النفاق وليس إيمانا؟.

هذه الآية على غرار آية البقرة «اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى‏» قد تعني- فيما عنت- الايمان الكامن في فطرهم، المصدّق بعقولهم، الكائن بآياته الآفاقية والأنفسية بمحضرهم، فهم بدلوه. كفرا تعاميا عنه وتناكرا له وتغافلا: «وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ» (2: 211) (وَ مَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ» (2: 108)، والنعم الآفاقية من رسل وبينات هي ايضا مما تبدّل كفرا ف «نِعْمَتَ اللَّهِ» تعم الأنفسية فطرية وعقلية وايمانية، وتبديل الأخيرة هو بالارتداد، وآفاقية وهي كل النعم المنفصلة المفصلة في الكائنات، وكلّ هذه النعم تتمحور توحيدا للَّه فإنه نعمت اللَّه الوحيدة غير الوهيدة، المحلّقة دلاليا ومدلوليا على كافة الآيات الآفاقية والأنفسية.

ثم إن نعمت اللَّه ولا سيما الإيمان تتطلب شكرا، ولكنهم لم يشكروا، بل وبدلوه كفرا، فلو أنهم لم يكفروا، أم كفروا ولم يحلوا قومهم دار البوار، لم يكن لهم صلي جهنم وبئس القرار، مهما دخلوها على هوامش من هم صالوا النار.

و لان البوار هو فرط الكساد لحد الفساد، كما يقال كسد حتى فسد، فدار البوار لهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 148

تشمل الآخرة والأولى، فقد أحلوهم بداية دار البوار الدنيا، إذ حملوهم على الإخلاد إلى الأرض واتباع الهوى وفرط الأمر، ومن جرّاءها دار البوار الأخرى، بوار أبور من الأولى، حيث «يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ما هُوَ بِمَيِّتٍ».

الدنيا وأهلوها

وَ إِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَ إِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى‏ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68):

«وَ إِذا رَأَيْتَ» أنت الرسول‏ «1» أو أي‏من المرسل إليهم‏ «2» فانها رؤية المسؤولية السلبية «الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا» خوض التشكيك والتكذيب والتجديف والتجديل والتحريف، إثارة لأحاديثها ليستشفوا بواطنها ويعلموا حقائقها، تحميلا عليها ما يهونها تكذيبا لها وتشكيكا فيها كالخابط في غمرة الماء لأنه يثير قعرها ويسبر غمرها فيغرق في أعماقها وأغوارها.

«فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ» حين لا تنفعهم الذكرى التي بها ينتفعون اهتداء أو يتركون بقاء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 20- اخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريح قال: كان‏المشركون يجلسون إلى النبي صلى الله عليه و آله يحبون ان يسمعوا منه فإذا سمعوا استهزءوا فنزلت «وَ إِذا رَأَيْتَ ...» قال: فجعلوا إذا استهزءوا قام فحذروا وقالوا: لا تستهزأوا فيقوم فذلك قوله: لعلهم يتقون ان يخوضوا فيقوم ونزل: «وَ ما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ ...» وفي تفسير العياشي عن أبي جعفر عليهما السلام في الآية قال: الكلام في اللّه والجدال في القرآن»

(2). المصدر اخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: لما هاجر المسلمون إلى المدينة جعل المنافقون يجالسونهم فإذا سمعوا القرآن خاضوا واستهزءوا كفعل المشركين بمكة فقال المسلمون لا حرج علينا قد رخص اللّه لنا في مجالستهم وما علينا من خوضهم فنزلت بالمدينة «وَ إِذا رَأَيْتَ ..»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 149

على كفرهم دون خوض ودعاية على آياتنا.

و جامع الخوض في آياتنا «يُكْفَرُ بِها وَ يُسْتَهْزَأُ» بها كما في آية النساء:

«وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَ يُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا» (140) والنازل في الكتاب هناك هو النازل هنا في الأنعام، و «عليكم» فيها تحول الخطاب هنا إلى غير الرسول صلى الله عليه و آله.

ذلك، و «الكفر على أربع دعائم، على التعمق والتنازع والزيغ والشقاق، فمن تعمق لم ينب إلى الحق، ومن كثر نزاعه بالجهل دام عماه عن الحق، ومن زاغ ساءت عنده الحسنة وحسنت عنده السيئة وسكر سكر الضلالة، ومن شاق وعرت عليه طرقه، وضاق عليه مخرجه».

فالقعود مع الخائضين في آيات اللّه تسالما أو استسلاما نفاق مع هؤلاء الرفاق، اللّهم إلّا عند الضرورات التي تبيح المحضورات تقية على الأهم بترك المهم.

«وَ إِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ» تعني- فقط- من قد ينسيه الشيطان، وليس منهم رسول الهدى فانه ليس له عليه سلطان نسيانا وغير نسيان، وهو خارج- كأصل- عن ذلك الخطاب وكما دلت عليه آية النساء «عليكم» ولا نجد آية تحمل ذلك النهي إلّا هيه، «فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى‏ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

و ترى كيف تتجاوب «إما» الشرطية المخالفة للبت مع «ينسينك»؟.

إنها شرطية يحاول صاحب شرطها مؤكدا للإنساء، فليحاول كفاحا صارما من ينسيه الشيطان ألّا ينسيه، وإذا أنساه فليجبره ألّا يقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين»، ف «إمّا» تشكيك حيث واقع الإنساء غير محتوم بل وسلبه محتوم للمخلصين.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 150

و ترى النسيان هنا بإنساء الشيطان هو نسيان الحظر بعد علمه؟ فعنده يسقط التكليف! إنه في الأصل نسيان التناسي فإنه من عمل الشيطان، دون أصل النسيان ككلّ، الذي هو طبيعة الحال في الإنسان، مهما شملته «إِمَّا يُنْسِيَنَّكَ» فإن إنساءه محظور القعود معهم ليس إلّا بتساهل المكلف عن مسئوليته وإلّا فكيف ينساها! وللذكر بعد النسيان أيّا كان سبب رباني هو الرجوع إلى اللّه‏ «1» ثم ترى «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ» هل تختص بالقيام عنهم خروجا عن جمعهم- فقط- وكما تدل عليه «فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى‏»؟.

و لكن «أعرض» يعم القيام عنهم إلى سائر معارض الإعراض، فالقعود المحظور معهم هو المتحلل عن الإعراض، فإن قمت عنهم دون إعراض فقد تركته إلى القعود معهم في مسايرتهم مهما قمت عنهم.

و هنا «الظالمين» توسعة لحكم التحريم ببيان حكمته، أن القعود معهم محظور مهما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 728 في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى داود بن القاسم الجعفري‏عن محمد بن علي الثاني عليهما السلام قال اقبل امير المؤمنين عليه السلام ذات يوم ومعه الحسن بن علي عليهما السلام وسلمان الفارسي وامير المؤمنين عليه السلام متك على يد سلمان فدخل المسجد الحرام فجلس إذ أقبل رجل حسن الهيئة واللباس فسلم على امير المؤمنين عليه السلام فرد عليه فجلس ثم قال يا أمير المؤمنين اسألك عن ثلاث مسائل ان اخبرتني بهن علمت أن القوم ارتكبوا من أمرك ما قضى عليهم انهم ليسوا بمأمونين في دنياهم ولا في آخرتهم وان تكن الأخرى علمت انك وهم شرع سواء فقال له امير المؤمنين عليه السلام سلني عما بدا لك قال: اخبرني عن الرجل إذا نام أين تذهب روحه؟ وعن الرجل كيف يذكر وينسى؟ و عن الرجل كيف يشبه الأعمام والأخوال؟ قال: فالتفت امير المؤمنين عليه السلام الى أبي محمد الحسن ولده عليه السلام فقال يا أبا محمد أجبه فقال عليه السلام أما ما ذكرت من أمر النسيان فان قلب الرجل في حق وعلى الحق طبق فان صلى الرجل عند ذلك على محمد وآل محمد صلاة تامة انكشف ذلك الطبق عن ذلك الحق فأضاء القلب فذكر الرجل ما نسيه وإن هو لم يصل على محمد وآل محمد أو نقص من الصلاة عليهم انطبق ذلك الطبق على ذلك الحق فأظلم القلب ونسي الرجل ما كان ذكر ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 151

كانوا خائضين في آيات اللّه مكذبين ومستهزئين كأنحس الظلم، أم كانوا فاسقين، فالقعود في مجلس الظالمين محظور في كلّ دركات الظلم‏ «1» إلّا نهيا عن المنكر فمحبور «2»، فإنما المحظور هو قعود النفاق وما أشبه من سائر الوفاق معهم كالرفاق، سواء تأثر بخوضهم وظلمهم فأنحسه، أم لا يتأثر كما لا يؤثر فدونه نفاقا، فلا يبرّر القعود في مجلس الظلم إلّا واجب النهي عن المنكر أو محظور الاضطرار فيما يتقدم على محظور القعود معهم.

ثم وليس فحسب، بل ومجالسة العصاة وإن فيما لا يعصون اللّه فيه محظور مهما كان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 725 في اصول الكافي بسند متصل عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: ثلاثة مجالس‏يمقتها اللّه ويرسل نقمته على أهلها فلا تقاعدوهم ولا تجالسوهم، مجلسا فيه من يصف لسانه كذبا في فتياه ومجلسا ذكر أعدائنا فيه جديد وذكرنا فيه رث ومجلسا فيه من يصد عنا وأنت تعلم، ثم تلا عليه السلام ثلاث آيات من كتاب اللّه كأنما كن في فيه- أو قال- كفه: «وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ»- «وَ إِذا رَأَيْتَ ...»- «وَ لا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَ هذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ».

أقول: هذه مصاديق ثلاث من مجالس الظلم، وهي تؤيد طليق الظلم في الآية.

وفي نور الثقلين 1: 726 عن العلل عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: ليس لك ان تقعد مع من شئت ..» ثم استند الى هذه الآية «وَ إِذا رَأَيْتَ ..» وفيه عن تفسير القمي بسند متصل عن عبد الأعلى بن أعين قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فلا يجلس في مجلس يسب فيه امام او يغتاب فيه مسلم إن اللّه يقول في كتابه: «وَ إِذا رَأَيْتَ ..» وفيه عن الكافي عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: ما اجتمع ثلاثة من الجاحدين الّا حضرهم عشرة أضعافهم من الشياطين فان تكلموا تكلم الشياطين بنحو كلامهم وإذا ضحكوا ضحكوا معهم وإذا نالوا من اولياء اللّه نالوا معهم فمن ابتلي من المؤمنين بهم فإذا خاضوا في ذلك فليقم ولا يكن شرك شيطان ولا جليسه فإن غضب اللّه عزّ وجلّ لا يقوم له شي‏ء ولعنته لا يردها شي‏ء ثم قال عليه السلام: «فإن لم يستطع فلينكر بقلبه وليقم ولو حلب شاة أو فواق ناقة». وفيه في الفقيه قال امير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه محمد بن الحنفية: ففرض على السمع ان لا تصغى به إلى المعاصي فقال عزّ وجلّ: «وَ إِذا رَأَيْتَ ..» ثم استثنى موضع النسيان فقال: «و أما ينسيك ..»

(2). المصدر عن الكافي عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: لا ينبغي للمؤمن ان يجلس مجلسا يعصى اللّه فيه ولا يقدر على تغييره‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 152

أقل حظرا من مجلس الظلم‏ «1» فإن في ترك مجالستهم مرحلة حاسمة من النهي عن المنكر، ومن ثم ف «مجالسة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار» و «إياك ومصاحبة الفساق فإن الشر بالشر ملحق» «2» ف «مجالسة أهل الهوى منسأة للإيمان ومحضرة للشيطان» «3».

و ترى «حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ» تسمح للقعود معهم إذا تركوا الخوض بالفعل مهما ظلوا ظالمين؟ الظاهر نعم، ولكن بالنسبة لشديد الحظر المهدد بكونه نفاقا عارما، وأما حظر مجالسة الظالمين نهيا عن المنكر فهو عنوان آخر له حكمه دون تناحر بينهما.

ذلك، وهل على الذين يتقون الخوض والقعود مع الخائضين من حسابهم من شي‏ء وكما قد يخيل إليهم، كلّا، فإنما عليهم الذكرى لعلهم يتقون: وَ ما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ وَ لكِنْ ذِكْرى‏ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69):

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر عن الكافي عدة من أصحابنا عن احمد بن محمد عن بكر بن محمد عن الجعفري‏قال سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: مالي رأيتك عند عبد الرحمن بن يعقوب؟ فقال: إنه خالي، فقال: إنه يقول في اللّه قولا عظيما يصف اللّه بما لا يوصف فإما جلست معه وتركتنا وإما جلست معنا وتركته فقلت هو يقول ما شاء اي شي‏ء عليّ منه إذا لم اقل ما يقول؟ فقال أبو الحسن عليه السلام أما تخاف ان تنزل به نقمة فتصيبكم جميعا»؟.

وفيه عن الفقيه روى محمد بن مسلم قال: مر بي ابو جعفر وأنا جالس عند القاضي بالمدينة فدخلت عليه من الغد فقال لي: ما مجلس رأيتك فيه أمس؟ قال قلت: جعلت فداك ان هذا القاضي لي مكرم فربما جلست إليه فقال لي: وما يؤمنك ان تنزل اللعنة فتعمك معه‏

(2). المصدر ينقل الحديث الأول عن عيون الأخبار باسناده إلى عبد العظيم بن عبد اللّه الحسني‏قال قلت لأبي جعفر محمد بن علي عليهما السلام يا ابن رسول اللّه صلى الله عليه و آله حدثني عن آباءك عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: مجالسة ..» والثاني عن نهج البلاغة عنه عليه السلام‏

(3). نهج البلاغة الخطبة 84/ 152

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 153

ليس من حساب هؤلاء الخائضين شي‏ء على الذين يتقون كلّ المحاظير، «وَ لكِنْ ذِكْرى‏» أن يذكّروهم عظة وحكمة نهيا عن المنكر «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» فإذا تأكدوا من إصرارهم فلا ذكرى أيضا فلا قعود معهم لذكراهم فإنهم لا يتقون.

فمن لا يجد من نفسه احتمال التأثير، أم ويجد محتمل التأثر لنفسه من مجلس الظلم، فقعوده محظور، ومن يجد من نفسه محتمل التأثير، وان بمزيد البلاغ وبيان الحجة لهم فقعوده معهم محبور، فالقعود مع الظالمين تأثرا أو تأثيرا بين محظور ومحبور، فحتى إذا لم يتأثروا ولم يؤثروا فهو أيضا محظور لأنه مسايرة معهم فيما هم يعملون.

ذلك وكضابطة- إلّا ما يستثنى- القعود مع الظالمين وان في غير ظلمهم محظور، فإنه مجاراة معهم، ثم التأثر بظلمهم هو طبيعة الحال من عشرتهم، ولا أقل من أن يصبح الظلم هينا في نظره ومنظره، وان يكسب الظالم شرفا ومددا من عشرته، وأن يتهم عند المتقين منها، وأنها ترك لمرحلة أخيرة من النهي عن المنكر.

و كلّ من هذه الزوايا الخمس من مخمس عشرتهم، تكفي بنفسها لحظرها، اللهم إلّا أن تجبر بالنهي عن المنكر وإلقاء الحجة وإنارة المحجة، القاضية على هذه الزوايا، الماضية في الدعوة إلى اللّه.

ذلك، وكما «ما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ» فعلى الذين لا يتقون، قعودا معهم وتركا لنهيهم «من حسابهم شي‏ء» وكما في آية النساء «إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ» وشي‏ء حسابهم الذي هو عليهم ليس نفس حسابهم، فإنما هو مثله قدر ما اكتسبوا من الإثم معهم حيث «لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى‏، وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏ ..».

و هنا احتمال ثان أن ضمير الجمع في «مِنْ حِسابِهِمْ» راجع إلى «الَّذِينَ يَتَّقُونَ» أنهم لا يحاسبون على أعمالهم أبدا إكراما لتقواهم، وكما:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 154

«إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً» (4:

31) و لكنه معنى هامشي على أصله المذكور.

فالذين حياتهم حياة التقوى كأصل لا يحاسبون على شي‏ء من أعمالهم مهما تفلتت منهم سيئات، وهم في صورتهم الوضاءة الخاصة أحرى من عامة مجتنبي الكبائر.

و من حسابهم الذي ما عليهم منه من شي‏ء هو القعود مع الظالمين إذا اتقوا ظلمهم وملابسات القعود معهم، ولا سيما إذا تركوه بعد ما نسوه:

«وَ إِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى‏ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» وبالأخص إذا كان القعود معهم لأداء فريضة أو سنة إسلامية دون تقصد لمجالستهم، كالدخول في المسجد الحرام للطواف والسعي، والذهاب إلى سائر المشاعر لأداء سائر المناسك ف «ما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ» حين يكون جلوسهم معهم بطابع التقوى «و لكن» يبرز ذلك القعود «ذكرى» لهم «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ».

و لأن الآية تحتمل المعنيين- إذا- فهما معا معنّيان، إلّا أن «يتقون» في الأول أوسع من الثاني حيث شملت التقوى عن القعود مع الظالمين، ولكنه- شرط أن يتقوا عن ظلمهم بملابساته- خارج عن الكبائر فداخل في الصغائر المكفرة بترك الكبائر، كما وهم يتقون بنفس الدخول معهم لتحقيق فرائضهم.

ذلك، وترى الرسول حين يؤمر ألا يقعد مع الخائضين، كذلك يؤمر بترك تذكيرهم، المأمور به «عُذْراً أَوْ نُذْراً» فمهما كان «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» ولكنه ليس سواء عليه، فعليه الاستمرار في الإنذار مهما كان عليهم سواء ولكنه لا يقعد معهم فيه فيذرهم من هذه الناحية ولا يذرهم في حقل الإنذار، وهو لأقل تقدير لا يقدر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 155

أن يترك المسجد الحرام لأنهم فيه كما المسلمون‏ «1».

وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ ذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ وَ إِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (70): البسل في الأصل هو المنع والحبس، ومنه يقول العرب للحرام بسل، كما البسالة: الشجاعة هي المناعة، ف «أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ» تعني أن تحرم نفس وتحبس عما تعني وترهن ف «كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلَّا أَصْحابَ الَيمِينِ» (74: 39)- إذا- ف «ذكر به» تمحور غير أصحاب اليمين، المرتهنين بما كسبوا حتى يصبحوا منهم فلا يرتهنوا.

و الإبسال بالكسب هو أن يحرم نفسه من الصلاح والفلاح بمكاسب السوء، التي ترين القلب: «كَلَّا بَلْ رانَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ» (83: 14): (بَلى‏ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ» (2: 81).

ف «ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا» متحكما عليهم ذلك الثالوث المنحوس التي هي من أشر وأخطر مكاسب السوء.

ذرهم أن تقعد معهم، ولكن لا تذرهم عن الّذكرى، بل «و ذكر به»: القرآن، مهما لايتذكر به إلّا من يخاف وعيد.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 728 عن المجمع قال ابو جعفر عليهما السلام لما نزل «فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى‏ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» قال المسلمون كيف نصنع ان كان كلما استهزأ المشركون بالقرآن قمنا وتركناهم فلا ندخل إذا المسجد الحرام ولا نطوف بالبيت الحرام فأنزل اللّه «وَ ما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ»- «امر بتذكيرهم وتبصرهم ما استطاعوا»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 156

«ذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ» قطعا لها وحرمانا بأشده قضية ما كسبت من سوء فإن للذكرى محاصيلها في كلّ الظروف والملابسات اللهم إلّا! وهي لأقل تقدير حجة متواصلة على هؤلاء الّذين «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ»، فإنما على المنذرين إلقاء الّذكر متواصلا دون إلغاءه «فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً. عُذْراً أَوْ نُذْراً» (77: 6).

إذا فعليه صلى الله عليه و آله بالنسبة لهؤلاء الأغباش الأوباش جامع الإعراض عنهم عشرة وملاطفة وقعودا معهم، تركا لمسايرتهم وتحفظا على كرامة الإيمان ونهيا عمليا عن منكراتهم، ثم وذكراهم رغم إعراضهم عنها كمسؤولية رسولية، وأما الرسالية فهي أخف وطأة منها.

و ترى «الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ ..» يختص بالمشركين بدينهم الإشراك؟

و النص يعمهم إلى سواهم، فالذين يدينون دين الحق في ظاهر الحال ولكنهم يتذرعون بها إلى أهواءهم الساقطة الماقتة، يلعبون بدينهم ويلتهون عنه إلى أهواءهم «وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا» عن الحياة العليا «ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» ولكن لاتترك ذكراهم «أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ ..».

«أن تبسل» إقفالا على نفسه وإغفالا عما يعنى لها «بما كسبت» من أسباب الإغفال الإقفال، وهي حال إبساله «لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ» من دون اللّه فاللّه هو الولي «وَ لا شَفِيعٌ» عند اللّه إذ لا يشفعون إلّا باذنه و «إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى‏» «وَ إِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ» وفداء عما أبسلت بما كسبت «لا يُؤْخَذْ مِنْها» أي‏عدل وفداء، فإن «أولئك» هم «الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا» لا بما فعل اللّه، ف «لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ» باللّه، أو «يكفرون» بنعمة اللّه، كفرا أو كفرانا قد تعنيهما «يكفرون».

صحيح أن مصب هذه الآيات- الأصيل- هم المشركون الوثنيون، ولكن ساير المشركين كتابيين كانوا أو مسلمين أليسوا هم مبسلين بما كسبوا من تطرفات إلى‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 157

الإشراك؟!.

سواء أكان إشراكا بتقديم شعائر تعبدية لأحد مع اللّه كأن يسجدوا أو يركعوا لغير اللّه احتراما فإنه اخترام لساحة اللّه، أو بتقبل الحاكمية والشرعة من أحد مع اللّه؟.

قُلْ أَ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَ لا يَضُرُّنا وَ نُرَدُّ عَلى‏ أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرانَ لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى‏ وَ أُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (71):

«قل» لهؤلاء الداعين من دون اللّه «أَ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ» من أو «ما لا يَنْفَعُنا» حتى ندعوه تحببا «وَ لا يَضُرُّنا» حتى ندعوه تجنّبا «وَ نُرَدُّ عَلى‏ أَعْقابِنا» من جاهلية الإشراك باللّه.

«بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ» الّذي ينفعنا ويضرنا، فمثلنا إذا في السقوط في هوّات الضلالة والمتاهة الحائرة المائرة «كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ» من الجن والإنس «في الأرض» أرض المسؤولية والتكليف حالكونه «حيران» من ذلك الاستهواء الاستغواء، وحال أن «لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى» بمختلف الدعوات الصالحة قائلين «ائتنا» كما كنتم ردحا معنا، رجوعا إلى ما كنتم من‏الهدى «قل» لهؤلاء وهؤلاء «إِنَّ هُدَى اللَّهِ» لا سواه «هو الهدى» لاسواه «وَ أُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ» فإنه الهدى.

فالرجوع إلى دعوة غير اللّه هو الرجعية السوداء مهما كان من الحضاريين، والانقلاب إلى دعوة اللّه هو التقدمية البيضاء مهما كان من القدامى الماضين.

و ترى «نُرَدُّ عَلى‏ أَعْقابِنا» تدل على أعقاب الشرك لهم وفيهم الرسول صلى الله عليه و آله الّذي ما زال و لم يزل موحدا كأحسنه وأكمله؟.

كلّا! فإن «أعقابنا» قد تعني الانقلاب إلى واقع الشرك الماضي، وأخرى إلى حالة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 158

الشرك مهما لم تسبق له سابقة حيث يقال لكلّ معرض عن الحق أنه رجعي راجع إلى الوراء، فإن الوراء لا تعني- فقط- كونه في زمنه، بل وكيانه، وهو الانتقاص بعد الكمال والانتقاض بعد الاستحكام في النوال.

ذلك، وكما تعني «قل» القول الرسالي عن المجموعة المؤمنة، دون القول الرسولي عن نفسه المقدسة التي كونت على التوحيد الوطيد، وذلك قضية اصطفاءه على العالمين، فكيف يصطفى من له سابقة إشراك على من لم تسبق له من الناشئين على التوحيد الحق وحق التوحيد.

فهنا «بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ» تعم هدى الفطرة والعقلية والوحي، المجتمعة في رسول الهدى صلى الله عليه و آله منذ ولاده، والمتفرقة فيمن سواه ممن آمن ثم كفر، أو كان كافرا ثم آمن، أو من يمكن في حقه الانقلاب من إيمان إلى كفر أو من كفر إلى إيمان، وليس منهم رسول الهدى صلى الله عليه و آله ومن يحذوا محذاه ويرمي مرماه. والاستهواء هنا من كلا الهويّ والهوى، فما لم يستهو الشيطان هوى لم يكن ليستهوي هويّا، فالخطوات الأولى من الشياطين هي تتركز على استهواء الهوى، طلبا لها لكي تهوى ما تهوى، ثم تتبع هوى الشياطين ومن ثم تستهوي هويّا في الأرض من كلّ على إلى كلّ سفل: «.. وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ» (22: 31).

إذاً، ف «اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ» هويا، هي تطلّب سقوطهم من المكانة العالية الانسانية والايمانية الى هوات ساقطة وهيدة بعيدة في ظلمات الأرض، فهم- إذا- سيّقة الشيطان وكرة لأقدامه، أينما يستهويهم يهوونه، وذلك هو الضلال البعيد، والحيرة الحائرة المائرة، والأرض تعني أرض حياة الأهواء والشهوات.

ذلك، وأخيرا نسأل أدبيا: كيف «هو الهدى» و «هدى اللّه» مؤنث لغويا؟ والجواب‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 159

أنه يجوز أدبيا حين يكون الضمير ضمير فصل و «هو» هنا فصل، ومن ثم لا سؤال اعتراضا على اللّه فيما يفعل أو يقول حيث القرآن هو المحور الأصيل لكلّ أدب وأديب أريب، فإنه الصادر عن خالق الإرب الآداب، فهو المصدر لكلّ أديب وآداب.

فحتى إن لم يكن «هو» هنا ضمير فصل لكان برهانا أدبيا على سماح رجوع ضمير المذكر إلى مرجع مؤنث مجازي، وقد قال اللّه: «وَ قالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ..» مما يسمح لتذكير الفعل للمؤنث الحقيقي فضلا عن المجازي.

ذلك، ومن ثم «أُمِرْنا لِنُسْلِمَ» متحولة إلى أمرنا بالإسلام لرب العالمين، تقديرا ل «أن» الناصبة.

و لأن الإسلام للّه درجات فالمسلمون للّه- كذلك- درجات «وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا» إسلام للوجه بكلّ الوجوه: الظاهرة والباطنة «لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ».

ذلك، وكما أمرنا- كأبرز مصاديق الإسلام جانحة وجارحة-: وَ أَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ اتَّقُوهُ وَ هُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (72):

فإقام الصِلاة إقام لكلّ الصِلات باللّه، زلفى إليه بالصَلاة التي هي أقرب الصِلات.

و يا للصلاة من وسط بارع بين «لنسلم» و «و اتقوه» فالصلاة تضمّ في جبناتها إسلاما للّه وتقوى اللّه، فهي خير موضوع حين تقام بكلّ قواماتها في صورتها وسيرتها.

ثم «وَ هُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» دون من سواه وإن كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله فإنه أيضا من المحشرين إلى اللّه.

وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ. قَوْلُهُ الْحَقُّ وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73):

فلأنه «هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ» ف «هُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» فلو

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 160

لاالحشر إلى اللّه لكان خلق السماوات والأرض باطلا: «وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ» (38: 27)- (وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ» (44: 38).

فذلك الخلق الشاسع الواسع، بذلك النظام البارع، وتلكم المظلمات الواقعة غير المنجبرة من أحسن المخلوقين، إنه- لو لا الحشر إلى ربهم- لعاطل باطل، ولعب لاغ بالخلق ما حل!. «وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ» بعد قيامة التدمير للكون، يقول قولا تكوينيا لما دمّر «كن» كونا لصالح الحشر والحساب «فيكون» كما قال، «فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ» الّذي قاله وعدا قبل الحشر زمن التكليف، والّذي يقوله في قيامة التعمير، حقا في واقعه كما كان حقا في نبإه.

«وَ لَهُ الْمُلْكُ» هنا وهناك، ولكنه لا يبرز لأهل الحشر تماما إلّا فيه، فهو «مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» مهما كان مالكا يوم الدنيا، والفارق هو الخفاء يوم الدنيا والبروز يوم الدين: ف «لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ» نفخة الإحياء في الناقور: «فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ. فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ. عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ» (74: 9).

و لا تعني «الصور» هنا الصور وهي جمع الصورة، لمكان رجوع ضمير الإفراد إليه «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏» (39: 68) وكما الأولى وهي نفخة الإماتة لا تناسب النفخ في صور الأحياء في نفخة الإحياء كما هنا، ولا صور لمن في الأجداث حتى ينفخ فيها الأرواح، «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى‏ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ» (36: 51) «1»:

«و كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته وأصغى بسمعه ينتظر متى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ح 30: 34- 36 تجد تفصيل البحث حول النفخ في الصور والنقر في الناقور

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 161

يؤمر فينفخ ..» «1».

«عالِمُ الْغَيْبِ» كله «وَ الشَّهادَةِ» كلها «وَ هُوَ الْحَكِيمُ» بما يفعل «الخبير» بما يفعل.

من حرم زينة اللّه‏

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآْياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32).

«زينة اللّه» هي التي خلقها اللّه لعباده لكي ينتفعوا بها وفق شرعة اللّه، والضابطة العامة- إذا- فيها هي الحلّ، إلّا ما أخرجه قاطع النص، ف «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» (2: 29)، كضابطة الحل العامة، وهنا «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ» استنكار شديد على من حرم زينة اللّه كأصل تقشفا ورهبانية جاهلة قاحلة كما حصل من جمع من المسلمين، فنزلت الآية تنديدا بهم، وعلى حد تعبير الرسول صلى الله عليه و آله و سلم) توبيخا لهم:

«لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء» «2».

ذلك، والأصل في «زِينَةَ اللَّهِ ... وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ» أنها «هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 22 عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه و آله قال: كيف أنعم .. قالوا فما نقول يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا» وفيه عن عبد اللّه بن عمر قال: سئل النبي صلى الله عليه و آله عن الصور فقال: هو قرن ينفخ فيه‏

(2). مفتاح كنوز السنة نقلا عن بخ- ك 67 ب 1 و 89، ك 78 ب 84، مس- ك 16 ح 5- 8 تر- ك 9 ب 2، نس- ك 26 ب 4 مج- ك 9 ب 2، مى- ك 11 ب 3 عد- ج 1 ق 2 ص 95 ج 3 ق 1 ص 287 ج 4 ق 2 ص 8 حم- أول ص 175 و 176 و 183 ثان ص 158 و 187 3 و 194 و 195 و 197 و 198 و 199 و 200 3 و 216 و 245 و 289، ثالث ص 158 و 241 و 285 خامس ص 17 و 28 و 40 و 48 2 و 52 و 409 سادس ص 91 و 97 و 106 2 و 112 و 125 و 157 و 226 و 252 و 268 2 وط- ح 32 و 219

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 162

الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ» مهما كانت خليطة غير خليصة في الحياة الدنيا، ف «هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» في الحياة الدنيا كأصل مرضي حالكونها «خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ» «1».

فالحياة الدنيا برمتها الزينة «إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (18: 7) إنها كما يروى عن إمام المتقين علي (عليه السّلام): «من أبصر بها بصرته ومن أبصر إليها أعمته» فالتذرع بزينة الحياة الدنيا لزينة الحياة الأخرى محبور، والإقبال عليها والإخلاد إليها محظور.

ذلك ولقد وبخ مجاهيل من المتقشفين البعض من أئمة الدين على جميل الثياب فانعكس عليهم الأمر بتوبيخ اللّه في هذه الآية «2» مما يدل على أن الانتفاع من زينة اللّه في غير محظور محبور، مأكلا ومشربا وملبسا ومسكنا ومنكحا.

ف «اعلموا يا عباد الله أن المتقين جازوا عاجل الخير وآجله، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، أباحهم الله في الدنيا ما كفاهم به وأغناهم ...

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فهنا «فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» كما هي ظرف ل «لِلَّذِينَ آمَنُوا» كذلك خبر ل «هي»

(2). نور الثقلين 2: 21 عن الكافي علي بن محمد بن بندار عن أحمد بن أبي عبد اللّه عن محمدبن علي رفعه قال: مر سفيان الثوري في المسجد الحرام فرأى أبا عبد اللّه (عليه السّلام) و عليه ثياب كثيرة القيمة حسان، فقال: واللّه لآتينه ولأوبخنّه فدنا منه فقال: يا ابن رسول اللّه صلى الله عليه و آله ما لبس رسول اللّه مثل هذا اللباس ولا علي (عليه السّلام) ولا أحد من آبائك، فقال له أبو عبد اللّه (عليه السّلام) كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله في زمان قتر مقتر وكان يأخذ لقتره وقتاره وان الدنيا بعد ذلك أرخت عزاليها فأحق أهلها بها أبرارها ثم تلا «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ» فنحن أحق من أخذ منها ما أعطاه اللّه، غير أني يا ثوري على ما ترى عليّ من ثياب إنما لبسته للناس، ثم اجتذب يد سفيان فجرها ثم رفع الثوب الأعلى وأخرج ثوبا تحت ذلك على جلده غليظا فقال: هذا لبسته لنفسي غليظا وما أريته للناس، ثم اجتذب ثوبا على سفيان أعلاه غليظ خشن وداخل الثوب لين فقال: لبست هذا الأعلى للناس ولبست هذا لنفسك تسترها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 163

سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم فأكلوا معهم طيبات ما يأكلون وشربوا من طيبات ما يشربون، ولبسوا أفضل ما يلبسون، وسكنوا من أفضل ما يسكنون، وتزجوا من أفضل ما يتزوجون، وركبوا من أفضل ما يركبون، وأصابوا اللذة مع أهل الدنيا وهم غدا جيران الله، يتمنون عليه فيعطيهم ما يتمنون، لا ترد لهم دعوة، ولا ينقص لهم نصيب من اللذة، فإلى هذا يا عباد الله يشتاق إليه من كان له عقل» «1».

ذلك، ولما يسئل الإمام علي (عليه السّلام): فعلى ما اقتصرت في مطمعك على الجشوبة، و في ملبسك على الخشونة؟ يقول: ويحك إن اللّه عزّ وجلّ فرض على أئمة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره .. «2».

ويقول عن نفسه: ألا وإن لكل مأموم إماما يقتدي به، ويستضي‏ء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياكم بطهريه- ثوبيه الباليين- ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنكم لاتقدرون على ذلك ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد، فو اللّه ما كنزت من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 23 في آمالي الشيخ الطوسي باسناده إلى أمير المؤمنين (عليه السّلام) حديث طويل يقول فيه:.

(2). المصدر 24 عن الكافي في احتجاج أمير المؤمنين (عليه السّلام) على عاصم بن زياد حين لبس العبا وترك الملا وشكاه أخوه الربيع بن زياد إلى أمير المؤمنين (عليه السّلام) انه قد غم أهله وأحزن ولده بذلك، فقال أمير المؤمنين (عليه السّلام) عليّ بعاصم بن زياد فجي‏ء به فلما رآه عبس في وجهه فقال له: أما استحييت من أهلك، أما رحمت ولدك، أترى اللّه أحل لك الطيبات وهو يكره أخذك منها؟ أنت أهون على اللّه من ذلك، أو ليس اللّه يقول: «وَ الْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ. فِيها فاكِهَةٌ وَ النَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ» أو ليس يقول: «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ. بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ» إلى قوله: «يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ» فباللّه لابتذال نعم اللّه بالفعال أحب إليه من ابتذالها بالمقال وقد قال عزّ وجلّ: «وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ» فقال عاصم: ... وفي نهج البلاغة مثله بزيادة: يا عديّ نفسه لقد استهان بك الخبيث ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 164

دنياكم تبرا، ولا ادّخرت من غنائمها وفرا، ولا أعددت لبالي ثوبي طهرا، ولا حزت من أرضها شبرا، ولا أخذت منه إلّا كقوت أتان دبرة، ولهي في عيني أوهى وأهون من عفصة مقرة ... ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطانا وحولي بطون غرثى، وأكباد حرّى، أو أكون كما قال القائل:

و حسبك داء أن تبيت ببطنة. وحولك أكباد تحنّ إلى القدّ، أقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش، فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات، كالبهيمة المربوطة همها علفها، أو المرسلة شغلها تقمّمها، تكترش من أعلافها، وتلهو عما يراد بها، أو أترك سدى وأهمل عابثا، أو أجرّ حبل الضلالة، أو أعتسف طريق المتاهة .. (284)- ذلك، وفيما يروى عن رسول الهدى (صلى اللّه عليه وآله و سلم): «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» حيث شبه الدنيا بالسجن للمؤمن إذ قصر فيها خطوة عن اللذات المرسلة، وكبح لجامه عن الشهوات المقبلة، وحصر نفسه عن التسرع إلى ما تدعو إليه الدواعي، والأهواء المردية، وكان زمام نفسه وخطامها وهاويها وإمامها خائفا خوف الجاني المرعوب، والطريد المطلوب، في عصبته عملوا للمعاد، وقطفوا للزاد، تحسبهم من طول سجودهم أمواتا، ومن طول قيامهم نباتا.

و شبهها صلى الله عليه و آله بالجنة للكافر من حيث استوعب فيها شهواته، واستفرغ لذاته، وقضى فيها الأوطار، وتعجّل المسارّ، واستهواه عاجل حطامها، وريق جماعها، فنسي العاقبة،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 165

واستهان بالمغبة، فكان ميّت الأحياء، كما كان المؤمن حي الأموات‏ «1».

و إليكم من زهادة المرسلين (عليهم السّلام) برواية علي أمير المؤمنين (عليه السّلام):

«و إن شئت ثنيت بموسى كليم الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث يقول: رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير» واللّه ما سأله إلّا خبزا يأكله لأنه كان يأكل بقلة الأرض، ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزاله وتشدّب لحمه (الخطبة 158)- «و لقد دخل موسى بن عمران- ومعه أخوه هارون عليهما السلام على فرعون وعليما مدارع الصوف وبأيديهما العِصي، فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزه فقال: ألا تعجبون من هذين يشرطان لي دوام العز وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذل؟ فهلا ألقي عليهما أساور من ذهب، إعظاما للذهب وجمعه واحتقارا للصوف ولبسه» (190)- (و إن شئت ثلثت بداود- صلى الله عليه وسلم- صاحب المزامير وقارئ أهل الجنة، فلقد كان يعمل سفاسف الخصو بيده ويقول لجلسائه: أيكم يكفيني بيعها؟ ويأكل قرص الشعير من ثمنها» (158)- (و إن شئت قلت في عيسى بن مريم عليهما السلام، فلقد كان يتوسد الحجر، ويلبس الخشن ويأكل الجشب، وكان إدامه الجوع، وسراجه بالليل القمر، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانته ما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يذله، دابته رجلاه، وخادمه يداه»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). يقول السيد الشريف الرضي في المجازات النبوية (36) بعد هذا التفسير للحديث: من أحسن ما سمعته في هذا المعنى أن بعض الزهاد المنقطعين طلب القوت من بعض الراغبين المفتونين، فقيل له في ذلك، فقال: أنا مسجون وهو مطلق، وهل يأكل المسجون إلّا من يد المطلق‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 166

(158)- ومن ثم نبينا صلى الله عليه و آله ف «قد حقر الدنيا وصغرها، وأهون بها و هونها، وعلم أن الله زواها عنه اختيارا، وبسطها لغيره احتقارا، فأعرض عن الدنيا بقلبه، و أمات ذكرها عن نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها رياشا، أو يرجوفيها مقاما بلغ عن ربه معذرا، ونصح لأمته منذرا، ودعا إلى الجنة مبشرا، وخوف من النار محذرا» (107)- (.. خرج من الدنيا خميصا، وورد الآخرة سليما، لم يضع حجرا على حجر حتى مضى لسبيله وأجاب داعي ربه ..» (158)-

«و لقد كان في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كاف لك في الأسوة، ودليل لك على ذم الدنيا وعيبها، وكثرة مخازيها ومساويها، إذ قبضت عنه أطرافها، ووطئت لغيره أكنافها، وفطم عن رضاعها، وزوي عن زخارفها» (158)- (قضم الدنيا قضما، ولم يعيرها طرفا، أهضم أهل الدنيا كشحا، وأخمصهم من الدنيا بطنا، عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها، وعلم أن الله سبحانه أبغض شيئا فأبغضه، وحقر شيئا فحقره، وصغر شيئا فصغره .. و لقد كان (صلى الله عليه وآله وسلم) يأكل على الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرفع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري ويردف خلفه، ويكون الستر على باب بيته فتكون فيه التصاوير فيقول يا فلانة- لإحدى أزواجه- غيبيه عني فإني إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها، فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها من نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه ..» (88 ح)- ذلك، وهذه سنة الأنبياء مصلحية صالح الدعوة المستقيمة «و لو أراد الله سبحانه لأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان، ومعادن العيقان، ومغارس الجنان، وأن يحشر معهم طيور السماء ووحوش الأرض لفعل، ولو فعل لسقط البلاء، وبطل الجزاء، واضمحلت الأنباء، ولما وجب للقابلين أجور المبتلين، ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين، ولا لزمت الأسماء معانيها- ولكن الله سبحانه جعل رسله أولى قوة في عزائمهم، وضعفا فيما ترى الأعين من‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 167

حالاتهم، مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنى، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذى- ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا ترام، وعزة لاتضام، وملك تمتد نحوه أعناق الرجال، وتشد إليه عقد الرحال، لكان ذلك أهون على الخلق في الإعتبار، وأبعد لهم من الاستكبار، ولأمنوا عن رهبة قاهرة لهم، أو رغبة مائلة بهم، فكانت النيات مشتركة، والحسنات مقتسمة، ولكن الله سبحانه أراد أن يكون الإتباع لرسله، والتصديق بكتبه، والخشوع لوجهه، والاستطانة لأمره، والاستسلام لطاعته، أمورا له خاصة لا تشوبها من غيرها شائبة، وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم، كانت المثوبة والجزاء أجزل» (الخطبة القاصعة 234).

ذلك! وجمعا بين الأمرين، انتفاعا من زينة اللّه، وإنفاقا منها على عباد اللّه «كان علي بن الحسين عليهما السلام يلبس الثوب بخمسمائة دينار والمطرف بخمسين دينارا يشتوا فيه فإذا ذهب الشتاء باعه وتصدق بثمنه» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 23 في تفسير العياشي عن أحمد بن محمد عن أبي الحسن (عليه السّلام) قال: .. وفيه عن يوسف بن إبراهيم قال: دخلت على أبي عبد اللّه (عليه السّلام) وعليّ جبة خز وطليسان خز، ما تقول فيه؟ قال: ولا بأس بالخز، قلت: وسداه إبريسم فقال: لا بأس به فقد أصيب الحسين بن علي (عليهما السّلام) وعليه جبة خز.

وفيه عن الوشا عن الرضا (عليه السّلام) قال: كان علي بن الحسين (عليهما السّلام) يلبس الجبة والمطرف من الخز والقلنسوة ويبيع المطرف ويتصدق بثمنه ويقول: قل من حرم زينة اللّه .. وفيه عن الكافي عن ابن القداح قال: كان أبو عبد اللّه (عليه السّلام) متكيا علي- أو قال: على أبي- فلقيه عباد بن كثير وعليه ثياب مرويّة حسان فقال: يا أبا عبد اللّه إنك من أهل بيت النبوة وكان أبوك وكان؟ فما هذه الثياب المزينة عليك فلو لبست دون هذه الثياب؟ فقال أبو عبد اللّه (عليه السّلام): ويلك يا عباد من حرم زينة اللّه التي أخرج لعباده و الطيبات من الرزق وان اللّه عزّ وجلّ إذا أنعم على عبده نعمة أحب أن يراها عليه، ليس به بأس ويلك يا عباد إنما أنا بضعة من رسول اللّه صلى الله عليه و آله فلا تؤذني وكان عباد يلبس ثوبين قطنين.

وفيه عن العياشي عن الحكم بن عيينة قال: رأيت أبا جعفر (عليه السّلام) وعليه إزار أحمر، قال: فأحددت النظر إليه فقال: يا أبا محمد ان هذا ليست به بأس ثم تلا «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ ..»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 168

إذا فلا محظور في أصل الزينة ما لم يكن هناك محظور آخر، بل هي محبورة مشكورة اللّهم إلّا لطوارى وملابسات محظورة وكما هي الضابطة في كافة النعم الربانية، بل هي لهم بأحرى ممن لا يؤمن باللّه، فهم أولاء مغتصِبون وهؤلاء الأكارم هم مغتصَبون و «كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآْياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

ذلك، وإخراج زينة اللّه يعم الزينة المحاولة بما يسعى لها الإنسان إلى سواها، حيث الإنسان هو نفسه مخرج من الأرض بمشيئة اللّه ومنبت منها، وكذلك كل طاقاته هي كمثله مخرجة اللّه.

فتلك حضارة إسلامية سامية أن يشجع القرآن على كل زينة محبورة تزين حياة الإنسان وعيشته فرديا وجماعيا، وعلى «الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ».

الحياة الدنيا «1»

وهنا «الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها» قد تكون مستقِلة مستَغلة بعمل الدنيا أو الآخرة «أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآْخِرَةِ إِلَّا النَّارُ»، أم مشتركة بينهما أن يعمل لهما، أم هو خارج عن الإخلاص في أعماله للأخرى فأدنى عذابا إذ لا يسوّى بمن هو ملحد في أعماله «وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ» (6: 132) «1» والمعني من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 323- أخرج الترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في شعب‏الإيمان عن أبي هريرة سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: أوّل من يدعى يوم القيامة رجل جمع القرآن يقول اللّه تعالى له: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ فيقول: بلى، فيقول فما ذا عملت فيما علمتك فيقول يا رب كنت أقوم به الليل والنهار فيقول اللّه له: كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال: فلان قارى فقد قيل. اذهب ليس لك اليوم عندنا شي‏ء ثم يدعى صاحب المال فيقول عبدي: ألم أنعم عليك ألم أوسع عليك؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول: فما ذا عملت فيما آتيتك؟ فيقول: يا رب كنت أصل الأرحام وأتصدق وأفعل فيقول اللّه له: كذبت بل أردت أن يقال: فلان جواد فقد قيل ذلك اذهب فليس لك اليوم عندنا شي‏ء، ويدعى المقتول فيقول اللّه له: عبدي فيم قتلت؟ فيقول: يا رب فيك وفي سبيلك فيقول اللّه له: كذبت وتقول الملائكة: كذبت بل أردت أن يقال: فلان جري‏ء فقد قيل ذلك، اذهب فليس لك اليوم عندنا شي‏ء ثم قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله وسلم): أولئك شر خلق اللّه يسعر بهم النار يوم القيامة.

و في نور الثقلين 2: 344 عن تفسير القمي في الآية قال: من عمل الخير على أن يعطيه اللّه ثوابه في الدنيا أعطاه اللّه ثوابه في الدنيا وكان له في الآخرة النار، وعن المجمع في الحديث أن النبي صلى الله عليه و آله قال: بشر أمتي بالسناء والتمكين في الأرض فمن عمل منهم عملا للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب» أقول: يعني من هذا العمل، وأما العمل الذي يعمله للآخرة فله فيها منه نصيب‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 169

حديث الرسول صلى الله عليه و آله أن العمل الذي ليس إلّا للحياة الدنيا وزينتها هو حابط باطل في الأخرى وليس يعني أن بعض الأعمال الطالحة يحبط سائر الأعمال الصالحة وإنما لكلّ عمل أجره قدر قدره للآخرة، «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» فإن كان سعيه للدنيا فله ما سعى فيها، وإن كان للآخرة فله سعيه فيها وعند اللّه مزيد.

فمحور القصد في الآية هم الكفار الذين لا يعملون إلّا للحياة الدنيا، لمكان «من كان» الدالة على الاستمرار في كل الأعمال، و «ليس لهم إلا النار» وعلى هوامشهم المسلمون الذين قد يعملون أعمالا صالحة يقصدون بها الحياة الدنيا.

ذلك، ولأن سنة اللّه جارية على الجزاء بالأعمال صالحة وطالحة هنا وفي الأخرى، فلا تعجبك الأموال الوفيرة والقدرات والإمكانيات الكثيرة للذين يريدون بأعمالهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 170

الحياة الدنيا وزينتها.

فلأن أكثر الجزاء للمؤمن هو في الآخرة، وكل جزاء الكافر في الدنيا، لذلك نرى زهر الحياة الدنيا لأهليها أكثر من أهل الآخرة، وهنا نعرف المعني مما يروى أن «الدنيا سجن للمؤمن وجنة للكافر».

ذلك «و إنما الدنيا منتهى بصر الأعمى، لا يبصر مما وراءها شيئا، والبصير ينفذها بصره، ويعلم أن الدار وراءها، فالبصير منها شاخص، والأعمى إليها شاخص، والبصير منها متزود والأعمى لها متزود» (الخطبة 133).

فالحياة الدنيا هي لأهلها المبصرين إليها معمية، وللمتذرعين بها إلى الحياة الأخرى المبصرين بها مبصرة، فالدنيا في حد ذاتها ليست بمذمومة ولا ممدوحة، وإنما هي مدرسة ينجح فيها جماعة ويسقط آخرون، ف: «أيها الذام للدنيا، المغتر بغرورها، المنخدع بأباطيلها، أتغتر بالدنيا ثم تذمها؟ أنت المتجرم عليها أم هي المتجرمة عليك؟ متى استهوتك أم متى غرتك؟ أبمصارع آباءك من البلى، أم بمصارع أمهاتك تحت الثرى؟ كم عللت بكفيك؟ و كم مرضت بيديك تبتغي لهم الشفاء، وتستوصف لهم الأطباء، غداة لا يغني عنهم دواءك، و لا يجدي عليهم بكاءك، لم ينفع أحدهم إشفاقك، ولم تسعف فيه بطلبتك، ولم تدفع عنه بقوتك، وقد مثلت لك به الدنيا نفسك، بمصرعه مصرعك- إن الدنيا دار صدق لمن صدقها، و دار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد أحباء اللّه، ومصلّى ملائكة اللّه، ومهبط وحي اللّه، ومتجر أولياء اللّه- اكتسبوا فيها الرحمة، و ربحوا فيها الجنة، فمن ذا يذّمها وقد آذنت ببينها، ونادت بفراقها، ونعت نفسها وأهلها، فمثّلت لهم ببلائها البلاء، وشوقتهم بسرورها إلى السرور؟ راحت بعافية، وابتكرت بفجيعة، ترغيبا وترهيبا وتخويفا وتحذيرا، فذمها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 171

رجال غداة الندامة، وحمدها آخرون يوم القيامة، ذكّرتهم الدنيا فتذكروا، وحدثتهم فصدقوا، ووعظتهم فاتعظوا» «1».

ذلك، ومما يروى عن الرسول صلى الله عليه و آله في همّ الدنيا: «من كانت الدنيا همه وسدمه جعل اللّه فقرا بين عينيه» حيث يعني:

«من جعل الدنيا همه، وقرّ عليها باله، وأعرض عن الآخرة بوجهه، وأخرج ذكرها من قلبه، وأقبل على تثمير الأموال، واستضحام الأحوال، عاقبة اللّه على ذلك بأن يزيده فقر نفس، وضرع خد، فلا تسد مفاقره كثرة ما جمع وعدد، وعظيم ما أثل وثمر، فكأنه يرى الفقر بين عينيه، فهو أبدا خائف من الوقوع فيه، والانتهاء إليه، فلا يزال آكلا لا يشبع، وشاربا لاينفع، فمعه حرص الفقراء، وله مال الأغنياء» «2».

أجل «و هذه الخطوط إلى جنبها الأعراض تنهشها» «3» فهي أعراض الدنيا التي تعرض فيها من المصائب، وتطرق من النوائب، تشبيها لها بالحيات الناهشة، والذؤبان الناهسة، لأخذها من لحم الإنسان ودمه، وتأثيرها في نفسه وجسمه.

أجل، أولئك الأنكاد، الأعمون البعاد: «آثروا عاجلا، وأخروا آجلا، وتركوا صافيا، وشربوا آجنا، كأني أنظر إلى فاسقهم وقد صحب المنكر فألفه، وبسي‏ء به ووافقه، حتى شابت عليه مفارقه، وصبغت به خلائقه، ثم أقبل مزيدا كالتيار لا يبالي ما غرّق، أو كوقع النار في الهشيم لا يحفل ما حرّق- أين العقول المستصبحة بمصابيح الهدى، والأبصار اللامحة إلى منار التقوى؟- أين القلوب التي وهبت وعوقدت على طاعة اللّه- ازدحموا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة الحكمة 127 قالها عليه السلام وقد سمع رجلا يذم الدنيا: أيها الذام ..

(2). المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي (75)

(3). المصدر 77 عن النبي صلى الله عليه و آله‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 172

على الحطام، و تشاحوا على الحرام، ورفع لهم علم الجنة والنار فعرفوا عن الجنة وجوههم وأقبلوا إلى النار بأعمالهم، ودعاهم ربهم فنفروا وولّوا، ودعاهم الشيطان فاستجابوا واقبلوا» (الخطبة 144).

الحياة الدنيا «2»

أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32).

فهل إن اللَّه يعجز أن يقسم رحمته الرسالية وهم قادرون؟ أو يجهل وهم عالمون، أو يبخل وهم لا يبخلون، أمّاذا من عطب أو نقص يقتضي أن يتوكلوا عنه قسمة رحمته دون توكيل «أهم» أولاء الحماقى الجهال، العجزة البخال، الأوغال البطال الرّذال «يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ»؟ «نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» وهم يتطلبون قسمة في الحياة العليا، فهم أولاء أهل الدنيا يجهلون قسمة معيشتهم الدنيا، فكيف يطلبون قسمة لمعيشتهم العليا؟! وتفصيل الجواب عن هذه الهرطقة نجدها في مناظرة الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) معهم‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 597 ح 28 في كتاب الاحتجاج عن أبي محمد الحسن العسكري عن أبيه عليه السلام قال: ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) كان قاعدا ذات يوم بفناء الكعبة إذ قال له عبد اللَّه بن امية المخزومي: لو أراد اللَّه ان يبعث إلينا رسولا لبعث اجل من فيما بيننا مالا واحسن حالا فهلا نزل القرآن الذي تزعم قرآن ان اللَّه أنزله عليك وابتعثك به رسولا على رجل من القريتين عظيم: إما الوليد بن المغيرة بمكةو إما عروة بن مسعود الثقفي بالطائف؟ فقال (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): اما قولك: لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم الوليد او عروة فان اللَّه ليس يستعظم مال الدنيا كما تستعظم أنت ولا خطر له عنده كما له عندك، بل لو كانت الدنيا عنده تعدل جناح بعوضة ما سقى كافرا به مخالفا شربة ماء، وليس قسمة رحمة اللَّه إليك بل اللَّه القاسم للرحمات والفاعل لما يشاء في عبيده وامائه وليس هو عز وجل ممن يخاف أحدا كما تخافه أنت لما له وحاله فعرفته بالنبوة لذلك، ولا ممن يطمع في احد في ماله او حاله كما تطمع أنت فتخصه بالنبوة لذلك، ولا ممن يحب أحدا محبة الهوى كما تحب فيقدم من لا يستحق التقديم، وانما معاملته بالعدل فلا يؤثر لأفضل مراتب الدين وخلاله الا الأفضل في طاعته والأجدّ في خدمته، وكذا لا يؤخر في مراتب الدين وجلاله الا أشدهم تباطئا عن طاعته وإذا كان هذا صفته لم ينظر الى مال ولا الى حال، بل هذا المال والحال من تفضله وليس لأحد اكراهه من عباده عليه ضريبة لازب فلا يقال له: إذا تفضلت بالمال على عبد فلا بد ان تتفضل عليه بالنبوة ايضا لأنه ليس لأحد اكراهه على خلاف مراده، ولا إلزامه تفضلا، لأنه تفضل قبله بنعمة، الا ترى يا عبد اللَّه كيف اغنى واحدا وقبح صورته وكيف حسن صورة واحد وأفقره، وكيف شرف واحدا و أفقره وكيف أغنى واحدا ووضعه؟ ثم ليس لهذا الغني ان يقول: هلّا أضيف الى يساري جمال فلان، ولا للجميل ان يقول: هلا أضيف الى جمالي مال فلان؟ ولا للشريف ان يقول: هلا أضيف الى شرفي مال فلان؟ ولا للوضيع ان يقول: هلا أضيف الى مالي شرف فلان؟ ولكن الحكم للَّه يقسم كيف يشاء ويفعل كما يشاء، وهو حكيم في أفعاله محمود في اعماله وذلك قوله: وقالوا لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم- قال اللَّه:- أهم يقسمون رحمة ربك- يا محمد- نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا- فأحوجنا بعضا الى بعض، أحوج هذا الى مال ذلك وأحوج ذلك الى سلعة هذا والى خدمته فترى اجلّ الملوك واغنى الأغنياء محتاجا الى أفقر الفقراء في ضرب من الضروب إما سلعة معه ليست معه وإما خدمة يصلح لا يتهيأ لذلك الملك ان يستغني الا به، وإما باب من العلوم والحكم هو فقير الى ان يستفيدها من هذا الفقير الذي يحتاج الى مال ذلك الملك الغني وذلك الملك يحتاج الى علم هذا الفقير او رأيه او معرفته ثم ليس للملك ان يقول: هلا اجتمع الى مالي علم هذا الفقير؟ ولا للفقير ان يقول: هلا اجتمع الى رأيي ومعرفتي وعلمي وما أتصرف فيه من فنون الحكم مال هذا الملك الغني؟

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 173

«نَحْنُ قَسَمْنا ..» «وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ» في المعيشة الدنيا لغاية أسمى هي في تنظيم حياتهم الدنيا عادلة عاقلة:

«لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا» جملة من آية منقطعة النظير ويتيمة في سائر القرآن،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 174

تبين حقيقة ثابتة من النواميس الإلهية في هذا الكون، أن هناك طبقية بارادة الرحمن الرحيم لتنظيم الحياة حيث يدور دولابها.

هنالك معيشة في الحياة العليا، الرسالة الإلهية، و «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ» في قلوب صافية ضافية تفيض كما تستفيض دونما خيانة.

و هناك عيشة في الحياة الدنيا، كسائر ما يعيّش الإنسان فيما سوى الروحية والمعنوية، من عقلية علمية واستعدادات في تحصيل المال والمنال أم في صناعات أم ماذا مما تدير شؤون هذه الحياة، «لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا» دون أن يكون جميع الناس على سواء في معيشتهم نسخا متماثلة مكرورة تحيل أن تقوم معيشة وحياة في هذه الأرض.

ما هي الطبقية المرفوضة والمفروضة؟

نجد مثلثة من الطبقيات بين المجتمعات، من ظالمة وعادلة وفاضلة، فالطبقية الحصيلة من المظلمات، من أكلة الأرض ومصّاصي الدماء، من هؤلاء الظالمين بحقوق المستضعفين، تلك الطبقية ظالمة تطاردها التشاريع الإلهية، حيث تقرر «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» «وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ» أما ذا من ضوابط اقتصادية عادلة تحارب الفقر المظلوم والغنى الظالمة، وأما الغنى عن سعي فلا، أو الفقر عن تقصير وعطالة فتحارب فقيره الذي ظلم نفسه، لا الغني الذي لا يظلمه، كما يندد بالفقير المتخاذل الذي يتكاسل عن الأخذ بحقه.

هذه الطبقية ليست من فعل اللَّه لا تكوينا ولا تشريعا، وإنما هي من مظلمات الناس النسناس، دون الناس العدول ولا إله الناس ومن ثم طبقية عادلة في مراعات الناس، إعطاء كل ذي حق حقه، وإعطاء سعي كل ساع حقه، فإن زاد سعيه عن حاجته فإنفاقا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 175

على من نقص، وإن نقص سعيه عن حاجته فرحمة عليه ممن زاد دون منّ ولا أذى.

هذه طبقية عادلة تقرّب بين الساعين في عيشتهم رغم اختلافهم في مساعيهم، وهكذا تقرّر الشريعة الإلهية، سعيا حسب المستطاع وتراحما بين الساعين حسب المستطاع! وهذه طبقية الناس.

ثم طبقية فاضلة هي من إله الناس، لا من عدل الناس ولا ظلم النسناس، وهي الحصيلة من مختلف المواهب والاستعدادات: «وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا» فسمة التفاوت في مقادير الرزق، نتيجة تفاوت الدرجات في استعدادات وفعليات، هذه السمة لا تتخلف أبدا حتى في المجتمعات المصطنعة المحكومة بمذاهب موجّهة أن تساوي جميع الأفراد في هذا الرزق أبدا! والحكمة الأصيلة الإلهية في هذه السمة هي «التسخير» وطبعا التسخير العادل المتعادل، لا الاستثمار الظالم او الاستعمار والاستكبار والاستحمار والاستبداد والاستضعاف والاستخفاف: سخريا ظالما هاتكا حُرم الإنسانية في أبوابه السبع الجهنمية، حيث التشاريع الإلهية تحاربها وتغلقها دون مواربة ولا مسايرة.

أجل إن «سخريا» لا يعني طبقيا مشكّلا من مسخِّر ومسخَّر دائبين، فإنه سخري جانبي من النسناس، وإنما السخري من كل الجوانب عدلا وفضلا، فالعامل مسخر للمهندس ولصاحب العمل، والمهندس مسخر للعامل ولصاحب العمل، وصاحب العمل مسخر للمهندس وللعامل على سواء، فكلّ مفضّل على الآخر بما عنده كما الآخر مفضل عليه بما عنده، فلو كان الكل على سواء في المواهب والاستعدادات لما مكّن أحد نفسه في شغل لآخر مثله، ولما تمكن‏أحد من تسخير أحد هو مثله، وحالة الاستغناءهذه تمنع الحياة الجماعية والتساخر بين الأفراد في حاجياتهم فتقف عجلة الحياة.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 176

ف «سخريا» هذه هي التعامل اللازم واللائق بشأن الحياة كما تقتضيه الشرعة العادلة الإلهية: أن لكل ساع سعيه، ثم الزائد والناقص في سعيه دون تقصير يتعاملان تعاملا آخر، أن يفيد الأول من سعيه الآخر، ويستفيد الآخر من سعي الأول، إنفاقا دون منّ ولا أذى حتى تحصل طبقية الناس.

فطبقية النسناس تعم ما تحصل من ظلامات، ومن ترك الإنفاقات الواجبة والراجحة، وطبقية الناس تطردهما في ترك الظلامات وفعل الإنفاقات، على ضوء الطبقية الفاضلة من إله الناس!.

فليست الطبقية كلها ظالمة، كما اللّاطبقية ليست كلها عادلة، وإنما الظلم مرفوض في طبقية ام لا طبقية، والعدل مطلوب مفروض- والفضل- في طبقية أولا طبقية.

أ ترى لو تغاضينا عن آماد المساعي فأعطينا عمالا على اختلاف مساعيهم أجورا متساوية أم قدر الحاجة لإزالة الطبقية بينهم، ولكي لا تحصل، هل هو إذا عدل،؟ ف «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» إذا ظلم؟ كما يقوله الإقتصاد الشيوعي.

أم لو أعطينا كلا كما سعى دون رعاية لقصور الضعاف أن نزيدهم لحد الكفاف، ودون أخذ الضرائب من الأقوياء إنفاقا للضعاف، تطبيقا مكانيكيا لقاعدة السعي، فهل عدلنا ام كما تقول الاشتراكية أم ظلمنا؟. أم إذ نجمع- على ضوء الإقتصاد الإسلامي- بين قاعدة السعي وبين رعاية الضعاف القصّر بفرض ضرائب الكفاف على الأثرياء رعاية للمحاويج أفرادا أو جماعات فهل ظلمنا أم عدلنا؟ وهذا ما يقوله الإسلام: «وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا» على ضوء قاعدة السعي والإنفاق المستحق، لتتقارب الجماعة المسلمة ماديا ومعنويا، فسماحة الإنفاق ربوة روحية بين الناس، وتطبيق قاعدة السعي عدل واقعي، وفي اختلاف المواهب والاستعدادات‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 177

تمازج في تعاون دائب بين الناس، حيث الكل محاويج بعضهم إلى بعض نتيجة اختلاف الدرجات والموهبات والحاجيات.

آية السخري تجعل مباعضة في بني الإنسان كافة كأنهم أبعاض لشخص واحد «لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا» وكما أن هناك سخري التساخر العادل المتعادل المتكامل بين أعضاء الفرد الإنساني على درجات في الموهبات والاستعدادات في هذه الأعضاء، تحكمها روح واحدة باتجاه واحد هو صالح المجموعة، فلتكن كذلك المجموعة الإنسانية بأفرادها، فيعني كلّ كادح صالح حياته ضمن المجموعة، في سخري الترابط التضامن العادل المتكامل قضاء لحاجيات الأفراد ضمن المجموعة والمجموعة ضمن الأفراد.

لا تجد في أية شرعة إلهية سماحا لسخري الاستبداد والاستكبار والاستخفاف والاستعمار والاستثمار والاستضعاف والاستحمار، حيث أغلقت هذه الأبواب السبعة الجهنمية بمصراعيها على بني الإنسان، فاتحة أبواب التعايش العادل السلمي والحياة التضامنية العادلة الفاضلة.

فلا تجد تسخيرا مسيّرا على عمل، أم مخيرا في سعي لا يوازيه أجره، فحرية العمل وحرية الانتخاب في العمل لا يسلبها «سخريا» إلا عادلا يرجع إلى صالح الأفراد والمجتمعات، تقديما لصالحها على صالح الأفراد، دون تأصّل للأفراد والمجتمع على هامشها، أو تأصّل للمجتمع والأفراد على هامشه، بل الأصلان مرعيّان تفضيلا لصالح المجتمع عند التعارض، وكما تجده في الحقل الاقتصادي الإسلامي كأفضل ما يمكن على ضوء الكتاب والسنة! ثم إن في اتخاذ بعضهم بعضا سخريا حسب اختلاف الدرجات ومقتضاها منتوجة أخرى بعد قضاء هذه الحاجيات، هي درك الإنسان للكمال والأكمل فالتحري عنه والالتذاذ به، ولو كان الناس على سواء جمالا وكمالا وفي كافة المتطلبات فغضّا عن‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 178

شلّ الحركة التضامنية حينذاك، لم يحظ الإنسان حظوة بما عنده حيث يراه عند سائر الناس على سواء، ولم يلتذّ إنسان بنعمة عنده لما يراها عند سائر الناس على سواء، إذا لزالت اللّذات ومرّت الحياة مرّة دون حراك، لو أنها مرت دون تضامن التساخر والتعامل! فالاشتراكية المتساوية خلقة وفي استعدادات هي هادمة اللذات، موقفة عجلة السير الدائب المتسابق في الحياة، ولكنما الطبقية العادلة المتعادلة المتكاملة على ضوء التشاريع الإلهية، إنها تضمن عجلة دائبة في صراع عجلة الحياة وسرعتها في صراعها، سباقا سائغا سابغا في ميادينها وسراعا «سابِقُوا إِلى‏ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ .. وَ سارِعُوا إِلى‏ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ ..».

«وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ» الروحية الرسالية «خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» من المادية الدنيوية.

فإن اللَّه يختار ل «رَحْمَةِ رَبِّكَ» وهي الخير المطلق نسبيا إلى سائر الخير، يختار لها من يناسبها وتناسبه، من يحتضنها وتحتضنه، من يعمل بها ويبلغها كما هو أحرى، ولا صلة بينها و بين عرض هذا الأدنى، بل الدنيا بزهرتها وزخرفتها تنافرها وتتعارض معها، كما الرسالة الإلهية بغيتها الرئيسية هي التزهيد في الدنيا، التحديد لشهواتها، أترى المترفين أولي النعمة يتقبلون رسالة تقضي على ترفهم لصالح المحاويج من طرفهم، أم لو تقبلوها يبلغونها كما هو أحرى بلاغا يضاد كيانهم، أم لو سلمت الرسالة من هذا وذاك، أليست هذه الرسالة نفسها بالتي تقرب أهل الدنيا وتبعد أهل الآخرة أم تغري الناس بمغريات الرسول أم ماذا؟

«رَحْمَةِ رَبِّكَ» تلمح إلى قمة الرحمة الروحية في الحياة العليا، وأين هي من معيشة الحياة الدنيا، وإذا هم لا يصلحون لقسمة الحياة الدنيا وهم من أهلها، فكيف يصلحون لقسمة الحياة العليا وهم ليسوا من أهلها، ولا أن لأهليها أن يقتسموها، إنها الربوبية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 179

الوحيدة المطلقة في قسمة الحياة دنياها وعلياها ف «لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ» حيث السؤال الإستنكار يخص من يجوز عليه الخطأ، والسؤال الاستعلام لا يجوز في كل صغيرة وكبيرة إلا ما عرّفنا ربّنا بحكمته ورحمته «وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ» العليا «خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» من الدنيا والتي لم ينظر اللَّه إليها منذ خلقها! وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ 33 وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَ سُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ 34 وَ زُخْرُفاً وَ إِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الآْخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35).

إن قاعدتي السّخري والسعي تقتضيان خليطا من الفقر والغني في قبيلي الإيمان والكفر، دون اختصاص لأحدهما بأحدهما، مهما كان الكفار بطبيعة الحال أغنى من المؤمنين لأنهم مكبون على الحياة الدنيا دون الأخرى، ثم الإيمان قيد الفتك!.

إلا أن قاعدة ثالثة تناحرهما هي رخاصة الدنيا ودنائتها، وهي مجلبة الشهوات ومدحرة الطاعات فلا تناسب في ميزان اللَّه إلا لمن يكفر بالرحمن دون المؤمنين، إلا أن فريق الإيمان‏ليسوا على السواء، صابرين على الفقر المطلق‏لهم والغنى المطلقة لفريق الكفر، فهناك قد يتفلت الإيمان، فكرّ على ما يفر منه، خروجا عن الحفرة إلى البئر! لذلك اختلط الفريقان في الفقر والغنى، وفي قبيل الكفر مزيد الغنى في أبعاد: إخلادهم إلى الدنيا فيعطون منها كما أخلدوا: «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ..» (17: 18)

(مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ.

أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآْخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ..» (11: 15) وأن «الايمان قيد الفتك» والبعدان هما قضية الكفر والإيمان، ومن ثم بعد ثالث من رحمة الرحمن على المؤمنين أنه لا يغنيهم كأصل كما يسعون لكي لا تلهيهم، وأنها لا وزن لها في ميزان اللَّه، كما يروى عن‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 180

رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): «لو كانت الدنيا تزن جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء» «1».

«وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً» كما كانوا قبل البعثات الرسالية ضلّالا «لجعلنا ..» إلا أن جعلا هكذا يجعل الناس أمة واحدة بعد الرسالات كما قبلها و «لو» تحيل بقاء فريق المؤمنين على الإيمان، أو رغبة المتحرين عن الإيمان في الإيمان، رغم أن هذا الجعل قضية خسة الكافرين وخسة الدنيا! دون تبعيد لمن يتحرّى عن إيمان.

و قد تعني «لو لا ..» معنى ثانيا: لو لا السنة الدائبة الإلهية على كون الناس أمة واحدة في قاعدي السخري والسعي، لجعلنا .. رفضا لهما حيث خسة الدنيا وزهادتها؟

ولكنما استثناء القواعد التي جعلها اللَّه تعالى كونية وتشريعية، إذا كان لصالح الكتلة المؤمنة، هذا الاستثناء راجحة أم لازمة، لو لا مانعة أخرى ك «أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً» ضلّالا بعد الرسالة وبها كما قبلها.

و قد تعنيهما الآية وما أحسنهما متضامنين، فإن هكذا جعل لمن يكفر بالرحمن خروج عن قاعدتي السخري والسعي، وجعل للناس كلهم ضلّالا لا يحنون إلى إيمان! و «أُمَّةً واحِدَةً» تعنيهما معا، ولكنما الأصل هو الثاني وعلى هامشه الأول‏ «2» مهما كان الثاني هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 17- أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجة عن سهل بن سعد قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) ..

(2). نور الثقلين 4: 599 ح 31- القمي عن الصادق عليه السلام في تفسير الآية «لو فعل اللَّه ذلك لماآمن من أحد ولكنه جعل في المؤمنين أغنياء وفي الكافرين فقراء وجعل في الكافرين أغنياء وفي المؤمنين فقراء ثم امتحنهم بالأمر والنهي والصبر والرضا.

وح 32 في كتاب علل الشرايع باسناده الى سعيد بن المسيب قال: سألت علي بن الحسين عليه السلام عن الآية قال: عنى بذلك امة محمد (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) ان يكونوا على دين واحد كفارا كلهم «لجعلنا ..» ولو فعل ذلك بامة محمد (صلى اللَّه عليه وآله و سلم) لحزن المؤمنين وغمهم ذلك ولم يناكحوهم ولم يوارثوهم: أقول: امة محمد (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) هنا المصداق الاجلى والآية بإطلاقها تعني كل الناس: وفيه (34) باسناده الى منصور بن يونس قال قال ابو عبد اللَّه عليه السلام قال اللَّه عز وجل: لو لا ان يجد عبدي المؤمن في نفسه لعصبت الكافر بعصابة من ذهب‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 181

الأول والأول هو الثاني حصولا! إن الثراء بلاء للمؤمن لا بد منها تمشية للحياة الدنيا، وإنفاقا على محاويجها، وأن لا يكون الناس أمة واحدة فما أقل المؤمنين الأثرياء أن يكونوا بمؤمنين صادقين ملتزمين بإيمانهم، وما أكثر المؤمنين الفقراء أن يظلوا صادقين، حتى أن أحدهم قد لا يتقبل الثراء كيلا يبتلى ببلاء الأثرياء «1».

و لكن الثراء بنفسها ليست بلاء، وإنما لضعاف الإيمان، فمن قوة الإيمان أن يحاول المؤمن في تحصيل المال توسعة على العيال وإنفاقا للمحاويج وتمشية لعجلة الحياة الجماعية للكتلة المؤمنة.

فالمؤمن بين تزهيد عن الثراء كيلا تلهيه عما يعنيه، وبين تزويد للثراء لكي يطبق ما يعنيه من صالح الجماعة المؤمنة وصالحه في سبيل اللَّه.

فليست الثراء- إذا- مرغوبا عنها بإطلاقها في ميزان اللَّه، كما ليس الفقر مرغوبا فيه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 601 باسناده عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: جاء رجل موسر الى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) نقي الثوب فجلس الى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) فجاء رجل معسر درن الثوب فجلس الى جنب الموسرفقبض الموسر ثيابه من تحت فخديه فقال له رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم):

أ خفت ان يمسّك من فقره شي‏ء؟ قال: لا، قال: فخفت ان يصيبه من غناك شي‏ء؟

قال: لا- قال: فخفت ان يوسخ ثيابك؟ قال: لا، قال (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): فما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم)! ان لي قرينا يزين لي كل قبيح ويقبح لي كل حسن وقد جعلت له نصف مالي فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) للمعسر: أتقبل؟ قال: لا- فقال له الرجل: ولم؟ قال: أخاف ان يدخلني ما دخلك!:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 182

بهذا الميزان فقد «كاد الفقر أن يكون كفرا»! أو قد يعكس الأمر، ولكنما الأكثرية الساحقة أن الثراء بلاء أكثر مما الفقر بلاء! فليست الغنى لصاحبه كرامة كما ليس الفقر عليه مهانة، فهما لأصحابهما بلاء وابتلاء: «فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَ أَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ. كَلَّا ..» (89:

17)!.

«وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ ... لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ» ولماذا الكفر بالرحمن، دون اللَّه أو الرحيم؟ عله لأن الرحمن أعم الصفات الإلهية التي تشمل عامة رحماته وخاصتها، فالكفر باللَّه خاص بالملحدين فيه او المشركين به، والكفر بالرحيم خاص برحماته الخاصة، ولكلّ من هذه الثلاث أهل، وأما الكفر بالرحمن فهو يعمها كلها، كفرا باللَّه في شقيه، وكفرا بالرحيم في شقه، وكفرا بالربوبية دون الخالقية او الخالقية دون الربوبية، أم كفرا بالعبودية دونهما أمّا هيه؟ من كفر بأية رحمة من رحمات الرحمن «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»! «لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ» وما ألطفها وأنضرها نظرة إليها كأنما ينظر إلى السماء اللؤلؤية البيضاء «وَ مَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ» والمعارج وهي ما يعرج بها تعم المعارج الأرضية وفوق الأرضية من طائرات أم ماذا «عَلَيْها يَظْهَرُونَ»: يطّلعون ظاهرين غالبين على ما يهوون من التطلّع إلى سقف أرضية أم ما فوق الأرضية أم ماذا؟

«وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً» كما تناسب ذوات السقف الفضّية «و سررا عليها يتكؤون» كما تناسب تلك البيوت «زخرفا»: زينة من ذهب أو فضة أم زمردة ام أية زينة من الزين من نابتات: «حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّيَّنَتْ ..» (10: 23) أو مصطنعات «أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ..» (17: 93) وإلى «زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً» (6: 112) وهو صوت الشيطان: «وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ» (17: 64) ف «زخرفا» هي‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 183

مطلق الزينة للبيوت وسواها، عموما بعد خصوص، والحياة الدنيا كلها زخرف، ولذلك تسمت هذه السورة بالزخرف وصيغتها الأخرى سورة الدنيا، حيث تمثّلها كما هيه.

الحياة الدنيا «3»

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَ فِي الآْخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٌ وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ:

ان الحقيقة في الحياة الدنيا، وراء كل ما يبدو فيها هي الحياة الخماسية الزهيدة الجوفاء، دون بقاء ولا وفاء، تجمعها «انها حياة الغرور»: غرور لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر، ومن ثم هي (فِي الآْخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ) لمن أبصر إليها فأعمته عن حقيقتها، وهي هي (مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٌ) لمن أبصر بها فبصرته، فهي من طبعها حياة الغرور لمن لا يحدّ البصر، وهي ثانية حياة المغفرة والرضوان لحديدي البصر! فعلى السالك السبيل من هذه القنطرة الخطرة أن يعمق النظر ويحد البصر، لكي لا يغره باللّه الغَرور في هذه الحياة الغُرور.

انها حياة ذات وجهين ووجهتين: باطنها فيه الرحمة وظاهرها من قبله العذاب، وكما تضرب هي سورا بين أهل الجنة والنار يوم القرار.

فبإمكان الإنسان أن يجعل من الحياة الدنيا حياة عليا، أن يقنطرها للأخرى، ويستخدمها للارتقاء في مراقي العبودية والتقى، فان الدنيا مدرسة الآخرة!. يجعل بدل اللعب الطفولي، العمل البناء البطولي، وبدل اللهو عن ذكر اللّه لهوا عما سوى اللّه وعيشة مع اللّه، وبدل زينة الحياة الدنيا، زينة الحياة العليا: الإيمان والتقوى، وبدل التفاخر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 184

بالأرذل الأدنى، التناصر فيما يحب اللّه ويرضى، وبدل التكاثر في الأموال والأولاد، التكاثر في المثل العليا.

ان دور اللعب هو دور الطفولة، يتعبون أنفسهم فيما لا يعنى، فتذهب أتعابهم سدى، واللهو دور الشبان، إذ يلتهون عن مهمات الحياة الى ملذاتها وملماتها، وعن عقلياتها الى شهواتها، ثم لا يبقى لهم بعد انقضاءها إلا حسرات، إذ يرى تقضّي العمر والمال واللذة العمياء، والزينة في الملابس والمراكب والمساكن دور الكهولة أو ما يشارفها، بعد ما انقضى ثورة اللهو والشهوة، ثم بعد الكهولة دور التفاخر بالأحساب والأنساب والمناصب والألقاب الفارغة الجوفاء، وأخيرا دور التكاثر في الأموال والأولاد وقد يتخطى الأحياء الى الأموات: (أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ. حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ).

و من الناس النسناس من يعيش هذه الأدوار طول حياته، صبيا في كهولته، شابا في طفولته، طفلا في رجولته، يلعب ويلهو وهو شيخ هرم، ويلعب دور الزينة والتفاخر والتكاثر في سني عمره كلها (فأولى لهم ثم أولى لهم)!.

و هنا الآية تمثل خير الأمثال للحياة الدنيا (كمثل غيث) مثلا عن الحياة العليا، الخليطة بزخارف الدنيا: (إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآْياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (10: 24).

و الغيث من الغوث: المطر المغيث العطشى، والمغيث الحب والنوى، وكذلك الحياة العليا الإيمانية تغيث أصحابها عن غرور الدنيا وزخرفاتها، وهي الحياة المستجيبة لنداء الفطرة ورسالات السماء. كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ: هل الكفار هنا هم الزرّاع إذ يكفرون‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 185

البذر ويسترونه تحت التراب؟ وقد يناسبه الغيث والنبات! ولكنها إذا آية يتيمة في هكذا كفر بين آيات الكفار كلها «1»! أم هم الكافرون الساترون الحاجبون الفطرة عن نور الحق، والساترون سائر الحق بحجب التكذيب والإنكار؟

قد يلائمه سائر آيات الكفار، وغير فصيح ولا صحيح أن يعني به في هذه اليتيمة غير ما عنى به في سائر العشرين آية، فلما ذا لم يقل الزرّاع لو كان معنيا من الكفار، كما في سائر آيات الزرّاع‏ «2»؟ وقد قورن بالكفار في واحدة منها: «يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ» (48: 29)! ولكنما العجاب من نبات الغيث لا يخص الكفار، زرّاعا أم غير زرّاع، بل يعجب المؤمن و الكافر، ولا سيما الزرّاع مؤمنين أو كافرين! قد يعني به الزرّاع هنا مضمّنا الكفار، تورية وإلماعا الى إعجابهم بالحياة الدنيا، فالغيث يعجب الزراع وأحرى، ويعجب الكفار زراعا وسواهم، وأين عجب من عجب؟ عجب كافر وهو عجاب كافر، وعجب مؤمن وهو عجاب مؤمن، عجب لاه، وعجب من رحمة اللّه.

«ثُمَّ يَهِيجُ» النبات «فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً»: كسرا هشيما تذروه الرياح، وهكذا ينتهي شريط الحياة الدنيا العاجلة الزهيدة، ثم هي «وَ فِي الآْخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ» للزراع الكافرين المعجبين بظاهر الحياة الدنيا، اللاعبين اللاهين المتزينين المتفاخرين المتكاثرين «وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٌ» للزراع المؤمنين، الذين استفادوا من غيث الحياة إغاثة لها عن دنياها، فما زخرفوها أو دنّسوها بغرورها وزورها، بل أنبتوها من هذه الممرة الكأداء نباتا حسنا، فهي في الآخرة «مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ» لمن قصر قليلا وجاهد كثيرا «وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ» لمن عاش حياته رضوان اللّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. و هي احدى وعشرون آية لا يحتمل معنى الزرع إلا في هذه‏

(2). و هي اربعة عشر آية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 186

فانما الدنيا مزرعة الآخرة، وأهلها كلهم زراع، فمنهم من يَخسر زرعه ويُخسر كالزراع الكفار، ومنهم من يَربح ويُربح كالزراع المؤمنين.

«وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ»: إنها متاع يتمتع به الى حين: «وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ» (2: 36) دون استمرار ليوم الدين، وهي كذلك متاع يشترى به غفران من اللّه ورضوان، وإن كان قليلا بجنب ما يبدل عنه: «فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الآْخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» (6: 38) فلا أصالة للحياة الدنيا القلة إلا متاعا في الآخرة: (وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الآْخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ) (13: 26) أجل انها متاع ولكنها تغري المتمتعين بها انها أصيل، يبصرون إليها كغاية فتعميهم عماية عن حقيقتها المتاع الزهيد، (وَ فِي الآْخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ) و لو أبصروا بها فهي «في الآخرة مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٌ»!.

و لو استعلمنا بعيد النظر في هذه العِبَر وجدنا أن القرآن لا يقصد بهذه المهانة للحياة الدنيا إهمالها والعزلة عنها فنعيش حياة الرهبان والدراويش، وإنما يقصد تصحيح المقاييس في استعمال هذه الحياة لتتخطى الدنيا إلى العليا، والاستعلاء على غُرور هذا المتاع الغَرور، لنستبدل بها حياة أبقى وأرقى في الآخرة والاولى، فالدين يستعمر الاولى قبل الاخرى ويستمر بالإنسان في حياة عليا وهو في الدنيا، ويصنع ميادين السباق للرفاق في هذه القنطرة إلى مغفرة وجنة:

سابِقُوا إِلى‏ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ.

آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ: نؤمر هنا بالسباق، وفي غيرها بالسراع: (وَ سارِعُوا إِلى‏ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) (3: 132).

و هكذا يجب أن تكون مسارع الحياة ومصارعها إلى اللّه، لا إلى اللهو.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 187

و هل هناك من فرق بين آيتي آل عمران والحديد؟ إن هذه تقدّر عرض الجنة كعرض السماء والأرض، إذاً فليست هي في السماوات والأرض، ولا كعرضها، وإنما كعرض السماء والأرض، وعلّها السماء الاولى أو أية سماء؟ ولأنها للمتقين.

و تلك تقدّر عرضها السماوات والأرض، فهي إذاً فيهما وكسعتهما، بالسماوات السبع، ولأنها للسابقين فهي أوسع؟.

أقول: لا هذا ولا ذاك، فان جنة المتقين والسابقين وأيّ من المؤمنين هي فوق السماء السابعة: (وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى‏. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى‏. عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى‏) (53: 15) مهما كانت لها درجات حسب الدرجات، وسدرة المنتهى هي منتهى الكون المحيط بسائر الكون، و من الأفق الأعلى لصاحب المعراج قبل مقام أو أدنى، هذه الجنة فرشها عرش السماء السابعة و (سقفها عرش الرحمان) «1».

و لو كانت هي في السماء والأرض لم يكن عرضها كعرض السماء والأرض، ولا عرض السماوات والأرض، وإنما (جنة هي السماوات والأرض) فالسماء هناك هي السماوات هنا وكما في غيرها، إلا إذا قيّدت بالدنيا (السماء الدنيا) أم ماذا، والعرض هو السعة، لا ما يقابل الطول، فان السماوات والأرض ليست عرضا مقابل الطول، وإنما هي سعة جامعة للعرض والطول، ف (جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ) تعني سعتها ليس إلا.

و بعد كل ذلك فشكل السماوات والأرض دائري كروي لا طول له ولا عرض، وإنما محيط وسطح وحجم، وإن الجنة معدّة الآن للمتقين والذين آمنوا باللّه ورسله، ولا نرى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما يروى عن الرسول صلى الله عليه و آله تفسير الفخر الرازي ج 29 ص 253

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 188

إعدادا في الأرض أن تصبح من الجنة، ولا في السماء.

إذا فسؤال: إذا كان عرض الجنة كعرض السماوات والأرض، فأين النار؟ هذا السؤال ساقط لا جواب له إلا اختلاف المكان. وما يعزى من جواب إلى النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم:

(سبحان اللّه إذا جاء النهار فأين الليل؟) مختلق، فمن المحال اجتماع الليل والنهار في أفق وجو واحد، فكيف تجتمع الجنة والنار في السماوات والأرض؟ وساحة الرسول بريئة من هذه الهرطقات!.

ثم المسابقة المسارعة إلى مغفرة من الرب هي في الدنيا، ومن أعمالنا، وهما الى الجنة- منذ الموت الى ما يعلم اللّه- من فضل اللّه نتيجة أعمالنا بما وعدنا اللّه: (ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ).

فالمسابقة الى مغفرة مسابقة- بالآمل- الى الجنة، فالدنيا هي ميدان سباق الى الجنة، يجعلها أهلها سباقا الى النار، فأين سباق من سباق، وجنة من نار؟.

ترى وكيف السباق الى غفران اللّه، وبأية وسيلة؟ إنها ترك كبائر السيئات والإتيان بكبائر الحسنات، والإنابة إلى اللّه، والتوبة النصوح، وتبنّي الحياة إيمانية مهما تسرّ بتها أخطاء صغار، فهنا لك الشفاعة، وهنا لك قبول التوبة، وهنا لك تكفير السيئات، ومن ثمّ جنة عرضها الأرض والسماوات، أعدّت للذين آمنوا وعملوا الصالحات، فليست الجنة حصرة على المقربين، وحسرة على من سواهم من المؤمنين.

توحي المسارعة إلى مغفرة، أنه كما التوبة واجبة، كذلك السرعة لها والمسارعة إليها واجبة، فان في تأجيلها قسوة فحسرة وندامة، وفي تعجيلها تنوير للقلب المظلم ورجعة الى الرب وكرامة.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 189

ترى ولماذا (إِلى‏ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) وهو من فعل اللّه لا المستغفر؟ ولم يقل:

(إلى استغفار ربكم)! لأن كل استغفار لا تتبعه المغفرة، وإنما استغفار التوبة النصوح:

(أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ...) (11: 3). فالواجب تهيئة الوسائل لغفران اللّه كما يحق، وبما يشاء اللّه ويرضى، ف (أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ (3: 136) (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (5: 9) (أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى‏ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (49: 3) (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ) (67: 12) ...

هؤلاء ممن تحق لهم المغفرة فالجنة.

و ترى ان الإيمان باللّه ورسله كتقوى عقائدي كاف في استحقاق فضل الجنة؟ كلا، اللهم إلا بتقوى عملية وكما في آية آل عمران: (أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) وان آية الصدّيقين والشهداء اكتفت بذكر الإيمان باللّه ورسله، ولا ريب أن إيمانهم قمة الإيمان، وإن كانوا أيضا درجات.

ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى‏ ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (23) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24) لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَ إِبْراهِيمَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (26) ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى‏ آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَ قَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ وَ جَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً وَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 190

رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (27) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (28) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلى‏ شَيْ‏ءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29) ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى‏ ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ:

فما هي المصيبة المعنية هنا؟ وما هو الكتاب؟ وما هو الرباط بين ترك الأسى والفرح وبين المصيبة المكتوبة؟: المصيبة هي النائبة النازلة التي تصيب دون خطأ، الرامية المصيبة الهدف، و هي الرحمة المصيبة أهلها، من الصّوب: نزول المطر، فهي تجمع إصابة الحسنة والسيئة: «ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَ ما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ» (4: 79).

و هذه الإصابات كل بإذن اللّه: «ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» (64: 11) و «كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» (78: 4) ولكنما الحسنة من اللّه كما هي من عند اللّه، والسيئة من نفسك وان كانت بإذن اللّه ومن عند اللّه، فاللّه أولى منا بحسناتنا، ونحن أولى منه بسيئاتنا.

و إصابة السيئات قد تكون لأهلها بما كسبت أيديهم: «وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» (42: 30) إصابة بذنوبهم: «أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ» (7: 100): (ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (30: 41).

و إذا تصيب المصيبة السوء غير أهلها، فقد تكون امتهانا لهم بما لم ينهوا وسكتوا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 191

ورضوا، كالتاركين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهم قد تصيبهم ما تصيب أهل السوء من إصابات السوء، وقد تكون امتحانا وتكفيرا عن سيئات كما لأصحاب اليمين، أو تكون ترفيعا لدرجات كما للسابقين المقربين، وكل ذلك تشمله آيتنا هذه، وآيات الكسب تخص غيرهم ممن لهم يد في السوء مباشرة أم سواها «1».

و أما «كتاب» فيه المصيبات، فهل هو كتاب الإذن التكوين؟ اللهم نعم! إذن التكوين بعد إذن التقدير، وبعد ما اختار أهل السوء سوءا، أم وكتاب الإذن التشريع؟ اللهم لا! فانه لا يأذن بالشر أو يشرعه، أم وكتاب العلم بما يأذن‏ «2» ويكون؟ طبعا، فانه بكل شي‏ء عليم، فأحرى به أن يعلم بما يأذن.

و بما أن الإصابة- أيا كان- هي من خارج، تصيب الإنسان في الأرض أو في نفسه، وليست من أفعاله، فكونها في كتاب لا يعني الجبر، بل وإذا شملت أفعاله فكتابه المسبق لاينافي الاختيار في الأفعال التكليفية، لأن كتاب العلم انكشاف عما سيكون، لا تسيير لما يكون، وكتاب التقدير يكون على قدر ما يكون بسوء الاختيار، وكتاب الإذن إبرام لما تتحقق مقدماته بالاختيار، وان كان كتاب الاذن والتقدير تسييرا بالنسبة لنتائج السيئات و عكسياتها إذ لا مفر عنها، بل وهي أيضا مختارة، فالامتناع بالاختيار لا ينافي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اصول الكافي عن علي بن ابراهيم عن الصادق عليه السلام «لما حمل علي بن الحسين عليه السلام الى يزيد بن معاوية فأوقف بين يديه قال يزيد لعنه اللّه: «وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» فقال علي بن الحسين عليه السلام ليست هذه الآية فينا، ان فينا قول اللّه عز وجل: «ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» فنحن الذين لا ناسى على ما فاتنا ولا نفرح بما أوتينا منها

(2). علي بن ابراهيم باسناده الى عبد الرحمان بن كثير عن أبي عبد اللّه عليه السلام في هذه الآية: صدق‏اللّه وبلغت رسله كتابه في السماء، علمه بها وكتابه في الأرض علومنا في ليلة القدر وغيرها، ان ذلك على اللّه يسير

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 192

الإختيار، اللهم إلا لمن تصيبه المصيبة تذكيرا وامتحانا، وبأحرى من تصيبه ترفيعا لدرجاته كالسابقين المقربين.

فأنت وأعمالك ومصائبك حسنة وسيئة، وأرضك، كلها «فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها»: الأرض والنفس والمصيبة، فلا يخفى منك على اللّه شي‏ء، ولاتتغلب على مشيئته في شي‏ء، ولا تجبر على شي‏ء، اللهم إلا في أجلك المحتوم، أو المعلق على غير عملك وفعلك، أو اصابتك بما أنت السبب، أو ما ليس لك نصيب في السبب، فإنها كلها «فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها» وهذا إعلام من اللّه مسبقا:

لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى‏ ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ:

و لماذا الأسى على ما فات ومضى، وهو مقدر كائن بحساب دون فوضى، فان كان الفوت بسيئة منك فهذا شي‏ء مرتقب، فلا تأس، وإنما غيّر سيرتك، وان كان من غيرك فاعتبره لك عبرة وذكرى أو تكفيرا عن سيئات، أو ترفيعا لدرجات، إذا فلما ذا الأسى على ما فات؟!.

ثم ولماذا الفرح والمرح بما آتاك اللّه، فلعله نعمة تضم نقمة فاستعذ منه باللّه، أو تجربة فاستعن فيه باللّه، أو كرامة من اللّه امتحانا فلما ذا الفرح؟ فهل تلهيك نعمة؟ وكثير هؤلاء الذين يلتهون! وليس الامتحان في النعمة أهون منه في النقمة: «وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ» (21: 35).

فلا تحسبن النعمة لباقة منك ولياقة، ولا النقمة عذابا وآفة، فقد تكون النعمة نقمة والنقمة نعمة، وقد تكون غير ذلك «و الدهر لك يومان يوم لك ويوم عليك فإذا كان لك‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 193

فلا تبطر وإذا كان عليك فاصبر فبكلاهما ستختبر» «1».

و هذه الآية تمثل أزهد الزهد في الدنيا لأهل الدين وكما عن علي أمير المؤمنين عليه السلام:

«الزهد كله بين كلمتين من القرآن: «لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى‏ ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ» ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه» «2» .. وما من أحد إلا وهو يحزن أحيانا ويفرح اخرى، فليكن صابرا عند الإصابة السوء، وشاكرا عند الخير، دون جزع ولا بطر.

فليست هذه الآية بالتي تجمد الطاقات، وتدعو للاتكاليات، تعطيلا للمساعي وإبطالا لها مغبة الأقدار، لأنها ليست إلا حسب المكاسب، أو المصالح واللياقات، وما الخارج الناتج عن كسبه وسعيه ليخطئه لو قدر له امتهانا أو امتحانا، فعليه أن يعيش سعيا وكدحا الى خير، وراء أقداره العاكسة في كتاب، ولكي تصبح مصائبه خيرات وسيئاته حسنات.

هذه الآية تستجيش الإنسان وتستصلبه في الأحداث لكي لا يجزع ويستطار فتسحقه الأحداث، وتعصف به عواصف الزمن وقواصفه، بل يصمد عند الحوادث فيتغلبها دون أن تغلبه، وليستمر في نشاطه وكدحه تخفيفا عنها أو قضاء عليها أم صبرا حيث لا مندوحة إلا إياه، فيتعامل مع الأحداث كأنها مرتقبة طول الحياة، فيعالجها بنفسه لا أن يخالجها في نفسه تقسّما وانهزاما، فالأسى على الفائت تشغل البال، والفرح‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عن علي أمير المؤمنين عليه السلام‏

(2). في نهج البلاغة عن علي عليه السلام وفي اصول الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام أن الناس ثلاثة: زاهدوصابر وراغب، فاما الزاهد فقد خرجت الأحزان والأفراح من قلبه، فلا يفرح بشي‏ء من الدنيا ولا يأسى على شي‏ء منها فاته فهو مستريح‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 194

بالآتي يفسد الآمل، وهما من سوء الحال، فليكن المؤمن ثابت الحال في كل مجال، كالجبل الراسخ لا تزيله القواصف ولا تحركه العواصف، وهو عماد الزهد وسناد الكدح.

و لماذا «فاتكم» لفوات الحسنات، و «آتاكم»: اللّه لما اوتي من رغبات؟ ...

لأن فوت الحسنات مما كسبت أيديكم، والحسنات مما آتاها اللّه، فالخير كله بيديه والشر ليس اليه.

«وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ» فالمختال هو مفتعل الخيال والخيلاء والكبرياء،

المنافقون «1»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ (1) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (2) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (3) وَ إِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (4) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5) سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (6) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى‏ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (7) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (8) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (9) وَ أَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 195

أَخَّرْتَنِي إِلى‏ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10) وَ لَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (11)

سورة تحمل اسم المنافقين ثم وصماتهم وسماتهم، كما أن سورة اخرى تحمل اسم المؤمنين، ثم لا تحمل ثالثة اسم المسلمين، ولأنهم بين مؤمنين- بمختلف درجاتهم- ومنافقين- بشتات دركاتهم- فالمسلم إما منافق: ينافق ويناقض باطنه ظاهره، أو مؤمن يوافق باطنه ظاهره، هذا يعيش وفاقا وذاك نفاقا، فأين منافق من موافق؟.

فالمنافقون يندد بهم في مئات الآيات القرآنية بمعاصيهم وأخطارهم ومكائدهم ومآسيهم ضد الإسلام والمسلمين، منها سبعة وثلاثون آية، مصرّحة بنفاقهم، أكثرها في ثلاثة عشر سورة «1» تكر عليهم كرات عنيفة بتكرار مخازيهم والفتن التي أقاموها ضد الرسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم والرسالة الإسلامية، وتحذّر المؤمنين عنهم اكثر من سائر الكفار والمشركين، إذ كانوا عملاء وهمزات وصل بين مختلف الفئات الكافرة، ولحدّ تحصر العداء فيهم «هم العدو» كما هنا، وتخلدهم في الدرك الأسفل من النار في غيرها.

فقد انسلّوا من الجند الإسلامي يوم أحد، التحاقا بعدوهم، وتوهينا لعزمهم، وعقدوا أحلافا مع اليهود استنهاضا على المسلمين، وبنوا مسجد ضرار تفريقا بينهم وإرصادا لمن حارب اللّه ورسوله، واختلقوا وأشاعوا حديث الإفك، وأثاروا الفتنة في قصة السقاية والعقبة، وأرجفوا المدينة ضد الرسول والمؤمنين، وإلى غير ذلك من تحركاتهم المنافقة ضد الرسالة الإسلامية، فهم كانوا أصلاء في هذه المؤامرات من جهة، وعملاء من أخرى، قاتلهم اللّه فأنى يؤفكون.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. و هي سورة البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، العنكبوت، الأحزاب، الفتح، الحديد، الحشر، التحريم، المنافقون‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 196

إن كفار مكة لم يكونوا لينافقوا الرسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم إذ لم يكن المسلمون فيها من القوة بحيث يرهبون، فيتملّق لهم في الظاهر، فإنما كانوا يناوئونهم جهارا، ويقاومون الدعوة بكل ما لديهم من طاقات دونما تحرز أو تحفظ، وأما في المدينة فقد كان للنبي أنصار أقوياء إضافة إلى من هاجر من المؤمنين الأصفياء، فلم يكن- إذا- من الهيّن أن يقف البقية الباقية من الكفار، في وجه الدعوة، إلا بألوان النفاق والمكيدة- وكما هي شأن التغلب وجاه الأسد- لذلك تجد آيات المنافقين مدنية كلها، إلا ما يلمح للنفاق بمعنى أوسع.

و لكي يكيدوا الرسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم والمؤمنين، ويشاركوهم فيما يدر عليهم الإسلام ويحذروا عما يتحذّرون، كانوا إذا جاءوا الرسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم يشهدون بأنه رسول اللّه: إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ: شهادة السر والعلن وهي أثبت لهم من العلم (نعلم انك لرسول اللّه) فإن المنافق يعلم الرسالة وينكرها وقولة الشهادة منهم تعني اننا لسنا بمنافقين: أن نعلم الحق ثم نخالفه، ومما يشهد لميزة الشهادة هذه اتخاذ أيمانهم جنة، إذ كانوا يرمون بالنفاق.

وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ: فإنه الذي بعثك برسالته فعلمه بها كاف لك كرسول، وإن كان اللّه يشهد لمن أرسل إليهم بهذه الرسالة السامية، بمختلف الشهادات القاطعة، فما لك وشهادتهم الزور والغرور.

وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ: يخفون ما لا يبدون، ويبدون ما لا يخفون، فعلمه تعالى في نفسه بكذبهم لا يكفي تكذيبا لهم، وإنما يشهد، وكما في آيات تفضحهم، فهم حذرون دائما أن تنزل آية أو سورة تنبئهم بما في قلوبهم، وهذه هي الحكمة الموسّطة للعلم بين الشهادتين: «يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ ..» (9: 64)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 197

ولعلها هذه السورة: «المنافقون».

فالقول الكذب هو المخالف المنافق، إما للواقع، أو للعقيدة، أو لهما، ثالوث الكذب والنفاق وِ جاه الصدق والوفاق، فمن صدق مطلق وهو الموافق لهما، ومن كذب مطلق يخالفهما، ومن صدق من جهة وكذب من اخرى، فالمقالة الموافقة للواقع، المنافقة للعقيدة، وإن كانت صدقا و جاه الواقع، ولكنها كذب لمنافقة العقيدة، وهي من أخطر الكذب:

كذب المنافقين، والمقالة المنافقة للواقع، الموافقة للعقيدة، إنها دونها في الخطر، سواء من الكافر الذي يشهد بعقيدته الكافرة، أو المؤمن الخاطئ الذي يشهد بما يؤمن به ولكنه خلاف الواقع، وإن كان بين الكاذبين بون، كذب كافر عامد، وكذب مؤمن غير عامد، فأحرى أن يسمى هذا جهلا لاكذبا.

فالقولة غير الموافقة لواقعي العقيدة والحقيقة معا، إنها قولة منافقة كاذبة تماما، والموافقة لهما صادقة تماما، ثم بينهما متوسطات، وإن كانت المنافقة للعقيدة، الموافقة للواقع أخطرها مسّا من كرامة الحقيقة. فموقع الجملة المعترضة «وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ» هو الحفاظ على صدق شهادة المنافقين وِجاه الواقع، فشهادته ثانية بكذبهم المؤكد بأداته:

«ان .. ل» لتثبت كذبهم بالنسبة لواقع العقيدة، لا واقع الحق.

و هكذا يكون دور المنافقين في كذبهم أنه أخطره إذ يغرّ غير النابهين.

و لأن المؤمن ينظر بنور اللّه فلا يصدّق قولة الزور المنافقة، لذلك يتشبث المنافقون بأيمانهم المغلظة علّهم يصدّقون فعن سبيل اللّه يصدون، نفاقا على نفاق وكذبا على كذب:

اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ:

توحي الجنة أن نفاقهم كان يظهر أحيانا من صفحات الوجه وفلتات اللسان أو بما يظهر اللّه- نبيه والمؤمنين- عليه، فيضطرون إلى جنة: ترس- يدافعون بها عن أنفسهم،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 198

وكما تصرح بذلك آيات: «إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى‏ ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً. فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا إِحْساناً وَ تَوْفِيقاً. أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ عِظْهُمْ وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً» (4: 63) (لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَ لكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» (9: 42) (وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ» (9: 56) (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ» (9: 62) (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَ لَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا ..» (9: 74) (ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لا مِنْهُمْ وَ يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» (58: 14).

و هكذا نرى حياتهم الشريرة المنافقة حياة الكذب، والحلف الكذب، ليتخذوه جُنة، فيصدوا عن سبيل اللّه بجنة اللّه (الحلف) ولا يصدون إلا أنفسهم، وجهّالا بلُها لا يعرفون، و اللّه يعرّفهم كيانهم ليفضحوا على رؤوس الأشهاد، ولكي يستوي المؤمنون النابهون والبله في التعرف إلى كذب هؤلاء المناكيد، و لذلك نراهم حذرين عن الآيات والسور التي تفضحهم: «يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ» (9: 64).

و قد أخرج اللّه ما كانوا يحذرون بهذه السورة، حاملة الثورة الماحقة كيانهم الساحقة معنوياتهم، الفاضحة مكائدهم: «وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ .. إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ»:

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 199

«ذلك» الكذب البعيد البعيد في شهادتهم، وذلك السوء البعيد في عملهم «بأنهم آمنوا» إذ أظهروه، أن عقد به قلوب البعض منهم، وأن طبّقه عمليا كذلك البعض منهم، «ثم كفروا» ارتجعوا عما تقدموا فيه من الإيمان، أيا كان، وهذا الكفر العامد المعاند بعد الإيمان طبع على قلوبهم المقلوبة، طبع اللّه عليها بكفرهم، «فهم لا يفقهون» بعد الطبع، وقد كانوا يفقهون قبله، وإنما زال عنهم فقه الحق وإدراكه فالتعلق به، بما اختاروه من الكفر بعد الإيمان، فجازاهم اللّه بذلك الطبع المظلم في قلوبهم، امتناع للفقه بالاختيار، دون تسيير وإجبار: أجل: «فَطُبِعَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ» «.. فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» (9:

93) (.. فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ» (7: 100) فكما القلب إمام لسائر المدارك والحواس والأعضاء، كذلك طبعه طبع عليها جمعاء ف «لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ.

ان الكفر بعد الإسلام هو الخروج عن الشهادة باللسان بإنكاره كذلك باللسان «وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ» (9: 77) وهو بعد الإيمان خروج عنه، إما إلى الكفر المطلق، أم إلى الكفر النفاق، وهو المعني هنا، فمن المنافقين من يسلم منذ البداية نفاقا، أو هو غير مؤمن بقلبه: «قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ» (49: 14) والمسلم الخاوي قلبه عن الإيمان قد يتدرج إلى الإيمان، فهو مسلم غير منافق ولا مؤمن، وقد يثبت على الكفر على علمه بالإيمان، فهو منافق، وقد يؤمن ثم ينافق، وهو أخطر النفاق، فإن ايمانهم الأول يطمئن المؤمنين انهم منهم، ثم خروجهم خفية إلى النفاق يرجع لهم بأخطر الأضرار وهم لا يعلمون، ثم خروجهم إلى الكفر المطلق يوهن ضعفاء الإيمان عن ايمانهم. وإنهم إضافة إلى مظاهرهم الخلابة الجلابة، ومقالاتهم الحلوة البراقة، التي تغر من لايعلم السرائر:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 200

وَ إِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ:

إن حياتهم الظاهرة، بأجسامهم: أعمالهم الجسدانية وأقوالهم وأموالهم وأولادهم، إنها حياة الإعجاب والإغراء: «فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ» (9: 55) (وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يُشْهِدُ اللَّهَ عَلى‏ ما فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ» (2: 204).

فأجسامهم هي التي تعجب، دون أرواحهم وضمائرهم الخاوية من كافة معاني الحياة والإنسانية، أجسام وقوالب نضرة، كأنها على قلوب رائعة عطرة، ولكنها خشب مسندة خاوية، وحتى كأنها عن الأرواح النباتية أيضا، ولا يعنى من عجاب أجسامهم سمنها وجمالها فقط، فكثير من المؤمنين لهم أجسام حسنة، وإنما يعنى أن المعجب فيهم- إذا كان- ليس إلا أجسامهم وأعمالهم الجسدانية.

ثم وأقوالهم التي تنبئ عن الضمائر والحقائق، هي أيضا معجبة لحدّ تسمع- أنت الرسول- لقولهم، لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم وحلاوة كلامهم، إضافة إلى أيمانهم الجِنة التي تصد عن سبيل الجنة، فكلامهم يوحي الصم الصلاب، وفعلهم يطمع فيكم زملائهم الأعداء، ولكنما الظاهرتان هاتان ليس ورائهما إلا كل خواء وبلاء، كالخشب المسندة: فهم أشباح بلا أرواح، و تجار بلا أرباح، ونساك بلا صلاح، قوالبهم قوالب الآدميين، وقلوبهم قلوب الشياطين.

فکما الخشب المسنّدة- وهي الخشب النخرة المت‏آكلة البالية الجوفاء، كثيرة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 201

السناد «1» إلى غيرها لتقوم كالأخشاب السليمة أو كالأشجار- كما انها يحسبها الجاهل أشجارا كأنها مثمرة، رغم موتها وجمودها عن الروح النباتية، وحتى عن الفوائد الجمادية أيضا، فالخشب السليم ينتفع به في سقف أو جدار، ولكن الخشب المسنّد لا نفع فيه أللهم إلا حرقه، أو يسند إلى أسناد ليخيّل إلى الجهال أنه خشب أو شجر، كذلك هؤلاء المعجبة بأجسامهم، المسموعة أقوالهم، يحسبون أوتادا وأوتارا للحركة الحيوية الإنسانية، وإذا بقلوبهم نتنة ميتة، لا تحكم فيها أرواح الحياة وحتى النباتية، فإنها تنمو لصالح الحياة، وهم ليسوا إلا عراقيل دون الوصول إلى الحياة! فهم أجسام تعجب، لا أناسي تتجاوب، هم خشب مسنّدة ملطوعة بسواها من جدار وسواه، لا حراك لها، وإنما حياتهم التجسس عن كل حركة، والتوجّس من كل صوت عال «يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ» لما ترقبهم من فضيحة بأعمالهم، وما يفضحهم اللّه به، كالقصبة المرتجفة في مهب الريح، التي تجعل كل ريح عابرة صوتا في قلبها، كذلك هؤلاء الخشب المسندة الجوفاء، يحسبون كل صيحة ضدهم.

و إذا أردت أن تعرف العداء كل العداء ف «هُمُ الْعَدُوُّ»: العدو الأكثر خطورة، الكامن داخل المعسكر الإسلامي، ومجتمعه السامي، وهو أخطر من العدو الصريح الخارج، فكأنما العداء محصور فيهم‏ «2»، ثم هم على كثرتهم كأنهم عدو واحد «العدو»، لتحالفهم على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كثرة السناد مستفادة من «مسندة» فإن التسنيد تكثير الاسناد بكثرة المحال‏

(2). الحصر مستفاد من تقديم «هم» على «العدو» ولمكان «ال» الاستغراق‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 202

عداء الحق دون تخالف، عداوة موحدة تصدر عنهم في كافة مواردهم ومصادرهم، حلّهم وترحالهم، حالهم ومقالهم «فاحذرهم» بكل ما يستطاع من وسائل وأسباب «قاتلهم اللّه» قتالا نفسيا بسحق معنوياتهم، وتكذيب مدعياتهم، وفضحهم على رؤوس الأشهاد، وكما يستحقون دعاءك والمؤمنين: أن يقاتلهم اللّه على طول الخط هكذا.

ف «قاتلهم اللّه» كأمثالها، ليست دعاء من اللّه، وإنما إخبار انه يكفيهم قتالا، وإن كانت تتحمل بضمن الإخبار دعاء: ان اللّه ينقل حال المؤمنين وجاه هؤلاء المنافقين أن يقولوا: «قاتلهم اللّه».

«أنى يؤفكون» هذه المقاتلة الواقعية، والمستدعاة أيضا، هي دائبة «أنى يؤفكون»:

أي زمان وفي أي‏مكان يعيشون الإفك والزور والغرور، وقد تكون «أنى» استفهاما توبيخيا: أنى يصرفون في الإفك؟ فمن يكرس حياته في سبيل الإفك والصرف عن الحق، فاللّه هو مقاتله، وجملة الإفك تتحمل كليهما.

ثم انهم- بعد فضحهم- يطالبون بالاستغفار، وأنى لهم الغفر؟ وهم مستهزءون مستكبرون:

وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ:

ان الاستغفار يتطلب حالة خاذلة بجنب اللّه، راجعة عما فرّط في جنب اللّه، وإذا كان أمر الذنب متفاقما فليشفع باستغفار رسول اللّه: «وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً» (4: 64).

و لكنهم على تفاقم كفرهم بنفاقهم العارم، وأنهم طولبوا بالاستغفار وأن يستغفر لهم الرسول، يلوون رؤوسهم مستهزئين، إشارة الصدّ والاستكبار، صدّا وإعراضا عن الاستغفار، واستكبارا على اللّه، وعلى إتيان رسول اللّه، رغم اتخاذهم أيمانهم جنة عما يعرف عنهم من الكفر والإدبار، وكان لزام تلكم الايمان تقبل الاستغفار وان‏في نفاق، ولكي يستحكموا وثائق مكرهم وأوتادنفاقهم، ولكنهم قوم لا يفقهون، وبما ان قبول‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 203

الاستغفار هداية إلهية، واللّه لا يهدي الفاسقين المصرين على فسقهم، لذلك:

سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ:

سواء عليهم استغفار الرسول وعدمه فلن يغفر اللّه لهم، وإن استغفر لهم ما يشاء:

«اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ» (9: 80) فسواء هذا وذاك عليهم، أللهم إلا المنافق التائب، كغيره من الكافرين، أو الفاسقين التائبين، فإن اللّه يتوب عليهم ان شاء: «لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ أو يتوب عليهم ان شاء» (33: 73) ولكن منافقي هذه السورة ليسوا منهم، فإنهم الثابتون على نفاقهم ويزدادون عتوا ونفورا، ف «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ»،: فهل إنه سواء على الرسول أو له، أيضا؟

فهل يسمح له بالاستغفار لقوم منافقين مستكبرين، وهم أخطر وأشر من المشركين بعد ما تبين له أنهم أصحاب الجحيم؟ كلا! ف: «ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى‏ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ» (9: 113) ولم يكن المطالب منهم، أن يستغفر لهم رسول اللّه هو الرسول نفسه، حتى يكون طلبا للمحظور، وإنما هم «عشائر المنافقين إذ قالوا لهم: لقد افتضحتم ويلكم فاتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم يستغفر لكم فلووا رؤوسهم وزهدوا في الاستغفار» «1».

و عموم التعليل في عدم قبول توبة «الفاسقين» يعمه لكل من ثبت على فسقه وان أتى بلفظة الاستغفار، من كافر أو منافق أو فاسق غيرهما، دون اختصاص الحرمان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 204

بالمنافقين، فكل خارج عن طور العبودية، منفلت عن طاعة اللّه، انه لا يهديه اللّه بغفر ذنوبه، ما دام ثابتا على فسقه لا يغيّر، فالخروج عما يستغفر عنه، هو من اصول قبول التوبة، وهي التوبة النصوح.

ثم ومن مكائدهم ضد الرسول محاولة انفضاض المؤمنين عنه بالضغط المالي:

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى‏ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ:

هذه الخطة المنافقة في المدينة سبقتها خطة كافرة في مكة، وهي تقاطع بني هاشم في شعب أبي طالب ليظلوا جياعا حرجين في لزامات الحياة، حتى ينفضوا عن رسول اللّه، ولكنها كانت خطة خاسرة، ما استطاعت أن تزلزل من إيمان المؤمنين قيد شعرة وهم تحت وطأة الضيق والجوع وألوان النكال العضال.

فليس المؤمنون بالرسالة حقا ممن ينفضون عن الرسول فرارا عن الجوع، وطلبا للشبع، طالما قدموا أنفسهم وأموالهم وهاجروا معه في سبيل اللّه، أللهم إلا منافقون أسلموا مغبة المال، كهؤلاء الأوغاد.

ثم هذه المقالة الخسيسة اللئيمة من المنافقين لمن تتجه؟ أمثالهم؟ وهم لم يكونوا من المنفقين على من عند رسول اللّه! أم للمؤمنين الأثرياء؟ فأقويائهم في الإيمان لا يتأثرون بمقالات المنافقين! أم الضعفاء منهم؟ علّهم! ولكن عدم إنفاقهم لا يؤثر إلا في ضعفاء كأمثالهم، ثم اللّه الذي له خزائن السماوات والأرض:

من مواضع أرزاق العباد، ومدارّ السحاب، ومخارج الأعشاب وما يجري مجراها من الأرفاق: ما خزن فيهما وبطن، واللّه مخرجه بقدر معلوم، وينزله بقدر معلوم، إنه لا يعجز عن جبر كسرهم وفقرهم، وعن تأييدهم في صبرهم، وهو الرازق لمن آمن وكفر، فهل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 205

يحصر رزقه للمؤمنين بالأثرياء الضعفاء في الإيمان؟ ومن خزائن اللّه يرتزق هؤلاء وهؤلاء، فليسوا هم رازقي أنفسهم، وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين! «وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ» فالذي يعطي أعدائه لا ينسى أوليائه، فليست هذه الخطة اللئيمة إلا لأنهم لا يفقهون: ان خزائن الأرزاق بيد اللّه، وان اللّه ناصر المؤمنين، وانه خاذل المنافقين، وانه موهن كيد الكافرين، ولأنهم لا يفقهون بما طبع على قلوبهم، فهم لايزالون يحاولون في إطفاء نور اللّه، واللّه متم نوره ولو كره الفاسقون.

فالفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد، ولم يتوصل المنافقون بشاهدهم على غائب معرفة اللّه، وان له ما في السماوات وما في الأرض.

ثم هم من غيّهم واستكبارهم، وأن حسبوا أنفسهم أعزة غالبين، والمؤمنين أذلة مغلوبين:

يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ:

هناك «لا يفقهون» لفقدهم العلم الغائب، وهنا «لا يعلمون» لفقدهم العلم الحاضر أيضا إذ لا يشعرون، وكأنهم لا يحسون أنهم الأذلة وهؤلاء الأعزة، والعلم أعم من الفقه وهم يفقدونهما بما طبع على قلوبهم.

أ هؤلاء الخشب المسندة، والحمر المستنفرة أعزة، ثم أولئك الأولياء المكرمون أذلة؟! كلا! و لكن المنافقين لا يعلمون، جهلا عن تقصير.

توحي الآية بأن جماعة من المنافقين كانوا وقتئذ خارج المدينة، فأخذوا عدتهم- في زعمهم- لإخراج المؤمنين عنها لئن رجعوا هم إليها، معتبرين أنفسهم الأعز، والمؤمنين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 206

الأذلّ، والعزة هي الغلبة بحق بالمنعة التي تمنع أن يمسه ذلّ، فليست إلا للحق وأهله، دون ناكريه والمكذبين به، وأية عزة لمن ينافق ويماكر كالثعلب لضعفه وخوفه؟ وأية ذلة للمؤمن الصامد الصريح الذي لا يخاف إلا اللّه، فيخافه ويهابه من لا يعبد اللّه، «أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» (4: 139) ولقد أراهم اللّه تعالى عكس ما ادعوا، فلم يدخلوا المدينة هؤلاء الأذلة المنافقون، إلا بإذن الأعزة المؤمنين وقد سلّ مؤمن عزيز سيفه على منافق بباب المدينة- وهو أبوه: رأس المنافقين- قائلا: واللّه لا تدخل المدينة أبدا حتى تقول: رسول اللّه الأعز وأنا الأذل‏ «1»! وما أعز المؤمن إذ يثني بعزة الرسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم وما أعز الرسول والمؤمنين إذ يقرئها اللّه بعزته، ولأن عزتهم مستمدة من عزته، فلا تهن ولا تهون، ولا تزايل صاحبه في أحرج العقبات «وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ».

(و إن اللّه تعالى فوّض الى المؤمن أموره كلها ولم يفوّض إليه أن يذلّ نفسه، فالمؤمن يكون عزيزا ولا يكون ذليلا، المؤمن أصلب من الجبل، إن الجبل يستفلّ منه بالمعاول، والمؤمن لا يستفلّ من دينه شي‏ء) «2»، (و من إذلاله نفسه أن يتعرض لما لا يطيق) «3»، (و يدخل فيما يعتذر منه) «4»، وليس من الذلّ أن يؤخذ ماله، أو يضيق على معيشته، أو يقتل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ان رأس المنافقين هؤلاء هو عبد اللّه ابن أبي بن سلول إذ أراد أن يشعل نيران الحرب بين‏المهاجرين والأنصار وهم خارج المدينة في غزوة بني المصطلق بقيادة الرسول صلى الله عليه و آله فأخذ ابنه سيفه بمدخل المدينة على أبيه فلا يدعه يدخل ليعكس مقاله: ليخرجن الأعز منها الأذل، فيوقفه خارج المدينة حتى يأذن الرسول صلى الله عليه و آله بدخوله‏

(2). الكافي بإسناده الى الحسن الأحمسي عن أبي عبد اللّه عليه السلام في تفسير آية العزة

(3). الكافي بإسناده الى داود الرقي قال قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: ..

(4). الكافي بإسناده الى مفضل بن عمر قال قال أبو عبد اللّه عليه السلام: ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 207

في سبيل اللّه، وإنما ذلّه خروجه عن طاعة اللّه.

و لتستحكم عرى الإيمان في المؤمنين وجاه عراقيل الأموال والأولاد التي تلهي عن ذكر اللّه، يوصيهم اللّه ألا تلهيهم:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ:

فمن الملهيات عن ذكر اللّه ما تلهي على أية حال كالغنا والرقص وموسيقاه، فهي لاتستعمل بحال، ومنها ما تلهي بطبيعة الحال، وللإنسان أن يحوّلها إلى أحسن حال، كالأولاد و الأهلين والأموال التي تعتبر جسرا يعبر عليه في سبيل اللّه، وهكذا يكون دور المؤمن مع المغريات والملهيات أنه يحوّلها إلى مذكرات باللّه، ويخطوا بها خطوات في سبيل اللّه، فليست الأموال والأولاد ملهاة لمستيقظي القلوب النابهين، الذين ينظرون الى الدنيا نظرة عبرة وعابرة، يبصرون بها الحياة الآخرة، وإنما هي ملهاة ومزلات لمن يبصرون إليها نظرة قاصرة لا يعدوها الى مغزاها ومنتهاها.

«وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ» التصرف البعيد البعيد في أمواله وأولاده «فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ»: يخسرون سمتهم الإنسانية، فيخسرون كل ما للإنسان في دنيا الحياة وعقباها، مهما ربحوا حيوانيا لفترة قصيرة زهيدة!.

و من آثار الأموال والأولاد غير الملهية عن ذكر اللّه، إنفاقها في سبيل اللّه، دونما ابتغاء جزاء أو شكور ممن سوى اللّه، بإزالة كافة التعلقات بالأموال والأولاد، إلا ما يحصل بها مرضاة اللّه: وَ أَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى‏ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ:

و طالما الإنسان بنفسه ونفيسه، بما له وأولاده، وبكافة معطياته، انه هو من رزق اللّه،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 208

فليكن كله كذلك إنفاقا في سبيل اللّه، فلا يملك هو لنفسه شيئا، وإنما هو مستخلف فيما رزقه اللّه، فإذا أنفق فإنما ينفق من مال اللّه: «وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ» (57:

7). وليكن الإنفاق قبل أن يأتي الموت، فإن الإنفاق عنك بعد الموت، وإن كان بوصية منك، هذا لا يزيل تحسّرك بعدم الإنفاق، إلا قليلا لا يغني، وإن كان الوصي والمنفق عنك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم بمئات الأضعاف مما لو كنت تنفقه.

فإذا أتى أحدكم الموت ولم ينفق واجبه، طلب متحسرا تمديد أجله، بقدر ما يتصدق فيكون من الصالحين، «رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى‏ أَجَلٍ قَرِيبٍ» لكي أصلح ما أفسدت، وبقدر ما أنفق واجبي، فلتتصدق أنت بنفسك قبل الموت تكن من الصالحين دون تحسّر بعده ولاتأثّر.

أنت تموت ولم تنفق ما عليك؟ وتترك كل شي‏ء وراءك؟ فتنظر بعد الموت أن ليس معك شي‏ء مما ادّخرت؟ وهذا من أحمق الحمق وأخسر الخسران! وأنت تطلب تمديد أجلك:

وَ لَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ:

فالأجل المحتوم المسمّى لن يؤخر لأيّ كان، صالحا أم طالحا، والأجل المعلق لن يؤخر للطالحين الذين «إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ» فيجاب «كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها» (23: 155) (رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» (35: 37) فالعادلون لهم نصير، ينصرهم اللّه إن شاء في تأجيل آجالهم المعلقة ليزدادوا خيرا، فعدم الإجابة في تأجيل الأجل المعلق ليس إلا لعدم أهلية المستأجل وأنه كاذب فيما يقول «وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ» أن عملكم لا يصلح ما عمّرتم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 209

وأجّلتم ما شئتم.

و بما أن المخاطبين هنا المؤمنون، فهنا إيحاء أن المقصرين منهم في الإنفاق سوف يطلبون الرجعة ولن يرجعوا، وكما يروى عن الرسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم‏ «1»، وإن كان بين هؤلاء وبين الكفار بون بعيد.

و كما أن هنا إيحاء أن المؤمن الصالح، غير المقصر، قد يستجاب له في تمديد الأجل المعلق، لا ليعمل صالحا فيما ترك، بل ليحقق الأمل في تكميل الإيمان، وكما أن الراجعين بالاستدعاء، في دولة المهدي عليه السّلام يجابون في إحيائهم بعد موتهم، وليستكملوا بمناصرة المهدي عليه السّلام.

دركات النفاق الثلاثة عشرة

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْيَوْمِ الآْخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ ما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (9) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ (10) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ (12) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ قالُوا أَ نُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ (13) وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا إِلى‏ شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى‏ فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ (16) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 226- عن ابن عباس قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: (من كان له مال يبلغه حج بيت‏ربه أو تجب عليه فيه الزكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 210

اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ (17) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (18) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ (19) يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (2: 20)

هنا- بعد هذه الآيات وقبل تفسيرها- نقدم تفسيرا للنفاق‏

عن الإمام امير المؤمنين علي عليه السلام «النفاق على اربع دعائم: على الهوى والهوينا «1» والحفيظة والطمع، فالهوى على أربع شعب: على البغي والعدوان والشهوة والطغيان، فمن بغى كثرت غوائله وعلّاته‏ «2»، ومن اعتدى لم تؤمن بوائقه ولم يسلم قلبه، ومن لم يعزل نفسه عن الشهوات خاض في الخبيثات، ومن طغى ضل على غير يقين ولاحجة له- وشعب الهوينا: الهيبة والغرّة والمماطلة والأمل، وذلك لأن الهيبة ترد على دين الحق، وتفرط المماطلة في العمل حتى يقدم الأجل، ولو لا الأمل علم الإنسان حسب ما هو فيه، ولو علم حسب ما هو فيه مات من الهول والوجل- وشعب الحفيظة: الكبر والفخر والحميّة والعصبية، فمن استكبر أدبر، ومن فخر فجر، ومن حمى أصرّ، ومن أخذته العصبية جار، فبئس الأمر أمر بين الاستكبار والإدبار، وفجور وجور- وشعب الطمع اربع: الفرح والمرح واللجاجة والتكاثر، فالفرح مكروه عند اللّه عز وجل، والمرح خيلاء، واللجاجة بلاء لمن اضطرته الى حبائل الآثام، والتكاثر لهو وشغل، واستبدال الذي هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الهوينا تصغير الهونى مؤنث الأهوان، اي التهاون في امر الدين‏

(2). علات جمع العلة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 211

أدنى بالذي هو خير، فذلك النفاق ودعائمه وشعبه» «1».

.. وفي الحق إن دور المنافقين هو أخطر الأدوار ضد الرسالات الإلهية ولا سيما الرسالة الإسلامية، وأخطر من الكافرين ايضا، ترى عرض حالهم في سورة تخصهم:

«المنافقون» وفي عامة القرآن نلمس خاص الاهتمام بعرض قضاياهم ورزاياهم كثيرا وكما هنا، فبعد آيات اربع تستعرض حال المتقين، وآيتين تخصان الكافرين، نجد ثلاثة عشر تخص المنافقين، وكما تتحدث عنهم ثلاثة عشر سورة في مآت الآيات مصرحة بهم أحيانا (1) وملمّحة، أخرى تفضحهم في عرض حالهم وم‏آلهم، وثالثة تدخلهم في الدرك الأسفل من النار: (4: 145).

تخطّينا شفافية الصورة الأولى إلى عتامة الظلامة الثانية، فإذا الثالثة ليست كالأولى ولاكالثانية، فإنها صورة صلتة ملتوية خادعة خائنة لا تقف لحد لكي نعرفها، ألا وهي الصورة المنافقة، لاذات شجاعة وانطلاقة في الضمير لتواجه الحق بصريح الإيمان وخالصه، ولا ذات جرأة لتواجهه بالنكران، ثعلبة تماكر بغية البقاء على كيانها، عميلة في عملياتها للكلاب و الذئاب، مظهرة إخلاصها للأسد في الغاب، جاسوسة لهذه عن تلك، لا صورة لها ثابتة تعرف اللّهم إلّا مما كرات ومخادعات، وادعاءات- مع ذلك- أنهم أذكياء دهاة، عقلاء مصلحون، مترفعون على البسطاء أم ماذا! ولكن اللّه يواصفهم بواقعهم المكر الخداع، الخلاء الخواء عن كل حقيقة إلّا ادعاء! وهم يعيشون بنفاقهم ثالوث: 1- مشاركة المؤمنين فيما يمن اللّه عليهم دنياً، 2- اتقاء ما يحكم به على الكافر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 34 عن كتاب الخصال للصدوق عن الأصبغ بن نباتة عنه عليه السلام ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 212

كذلك 3- التجسس عن أحوالهم الى شياطينهم، إلّا ان ثالوثهم هالك مفضوح بما يفضحهم اللّه وينبه الرسول والمؤمنين! وهنا استعراض لأبواب سبعة من جحيم المنافقين يغلقها اللّه على المؤمنين: «1» وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْيَوْمِ الآْخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8).

باب اوّل: ناس في الحق هم نسناس «يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ» (48:

11) (يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ»: وهو حالة تصديق في القلب «وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ»: حال أن قلوبهم خاوية عن الإيمان، كافرة بمبادئ الإيمان، فقد يوافق القلب اللسان في دعوى الإيمان فهو إيمان، وقد ينافقه فهو الكفر النفاق، وآخر لا ينافقه إذ لا يعانده ولا يوافقه إذ لم يعرفه فلمّا لم يدخل الإيمان فيه وهو يتروّيه، فهذا إسلام بلا ايمان: «قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ» (49:) 14) فهي عائشة حالة الانتظار حتى تؤمن كما النص فيه «و لمّا» دون استهتار المنافق ولعبته حيث فيه «وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ»: ليسوا ممن يؤمن و لا يتروّى الايمان، فأولاء هم المندّد بهم دون هؤلاء، إلّا تجهيلا تخطئة في التعبير «آمنا» بل «قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا ..»!

و هذه حالات أربع حاضرة في مواجهات الإيمان: كفرا ونفاقا أو إسلاما مترويّا أو إيمانا، و مهما سمي المنافق مسلما فإن إسلامه استسلام لا إسلام‏ «2».

(2) يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ ما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (9).

باب ثان وهي الخداع: إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يبديه على خلاف ما يخفيه،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في سبعة وثلاثين آية، راجع تفسير سورة المنافقين ج 28: 355.

(2). ان للسان والقلب والأركان احوال: فقد يقر اللسان بالحق وقد ينكر او يسكت، ثم قد يوافقه القلب في الإقرار او ينافقه او يتردد مترويا الحجة للكفر او الايمان، ثم قد يوافقها العمل او ينافقهما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 213

والمخادعة خداع بين طرفين، ابتداء من طرف وانتهاء الى آخر، كفاحا ضد الخداع: «إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ» (4: 142) واين خداع من خداع، خداع اوّل كلّه عجز ومكر وكذب ونفاق كما المخادعين اللّه، وخداع ثان لا تحمل إلّا اسمه فإنها عن قدرة وصدق جزاءً الوفاق، كما اللّه: حيث يأمر بجري أحكام الإسلام عليهم هنا، وفي الآخرة لهم عذاب اليم، ويكشف أسرارهم للنبي والمؤمنين حيث يخادعون ثم يوم القيامة يريهم جناته كأنهم واردوها ثم ينأون عنها مهانين كما «يفتح لهم باب جهنم فيظنون أنهم يخرجون منها فيزدحمون للخروج فإذا انتهوا إلى الباب ردتهم الملائكة حتى يرجعوا» «1»: «كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها» (22: 22).

فجزاء الخداع خداع مثله فإنه حق، إلّا في باطله، وفي عجزه فإنه قدرة، وفي كذبه فإنه صدق، وإنما التموية والإخفاء في الخداع الجزاء إيلام كما آلموا المؤمنين جزاء وفاقا «2».

إنهم كما يزعمون «يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِينَ آمنوا» وفي الحق «ما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 30- اخرج احمد بن منيع عن رجل من الصحابة أن قائلا من المسلمين قال يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله! ما النجاة غدا؟ قال: لا تخادع اللّه- قال: وكيف نخادع اللّه؟ قال: ان تعمل بما أمرك اللّه به تريد به غيره، فاتقوا الرياء فانه الشرك باللّه فان المرائي ينادي به يوم القيامة على رؤس الخلائق باربعة اسماء: يا كافر! يا فاجر! يا خاسر! يا غادر! ضل عملك وبطل أجرك فلا خلاق لك اليوم عند اللّه فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع وقرأ آيات من القرآن: «فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً» الآية و «إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ» الآية، وفي تفسير البرهان عن ابن بابويه باسناده عن جعفر بن محمد عليه السلام عن أبيه مثله‏

(2). نور الثقلين 1: 35 عن العيون عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في حديث: ان اللّه تعالى لا يسخر ولا يستهزأ ولا يمكر ولا يخادع ولكنه يجازيهم جزاء السخرية وجزاء الاستهزاء وجزاء المكر والخديعة تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

وفي مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام: واعلم انك لا تقدر على إخفاء شي‏ء من باطنك عليه تعالى فتصير مخدوعا بنفسك- قال اللّه تعالى: يخادعون اللّه ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 214

إذ لن تؤثر خداعهم في اللّه، ولا تؤثر في المؤمنين باللّه، اللّهم إلّا قليلا يرجع بضرر كثير عليهم أنفسهم، فهم بخداعهم مفضوحون يوم الدنيا بما يفضحهم اللّه، ويفضحون أنفسهم حيث يعرفون في لحن القول: «وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ» (47: 30)- فما أضمر احد أمرا إلّا وقد يظهر في صفحات وجهه وفلتأت لسانه- ثم «هم يوم القيامة من المفضوحين».

«و» لكنهم «ما يَشْعُرُونَ» أن خداعهم راجعة إليهم فلو شعروا ما خادعوا.

ثم النفاق وخداعه دركات صاعدة الى الكفر النفاق ونازلة الى السمعة والرئاء، كما جزاءه دركات حسب الدركات طبقا عن طبق.

و لماذا «وَ ما يَخْدَعُونَ» دون «و ما يخادعون» نفيا لما حاولوا طبقا عن طبق؟

علّه لان الواقع من فعلهم لم يكن مخادعة، حيث اللّه لا يخادع، والمؤمنون لا يخدعون بما يفضح اللّه المخادعين، فلا تبقى في ميدان الخداع إلّا أنفسهم «وَ ما يَشْعُرُونَ» والخادع لايخادع نفسه لوحدته، وإنما يخدعها، ويا ويلاه إذا كانت مخادعتهم تبوء بالخدعة لأنفسهم و «ما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ»!.

و ترى إذا «ما يَشْعُرُونَ» فكيف التنديد بهم والعذاب، والشعور مدار التكليف فالثواب و العقاب؟

الجواب: أن النص لا ينفي عنهم الشعور، وإنما إعماله وأعماله بسوء الإختيار، وحتى إذا فقدوا الشعور لأنهم أبطلوه إذ لم يستعملوه، وبقي التنديد والعذاب على مبدء اللّاشعور المختار، فالامتناع بالاختيار لا ينافي الإختيار! فأولئك الحماقى الأغفال يظنونهم رابحين بهذا النفاق الإغفال «وَ ما يَشْعُرُونَ» أنهم خاسرون، لا في العقبى فحسب، ففي الدنيا ايضا حيث يوردون أنفسهم بالكفر المضمر موارد التهلكة بما يفضحهم اللّه ويفضحون‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 215

أنفسهم، إذ تظهر مظاهر من كفرهم من صفحات الوجوه وفلتات الألسن.

و من مخادعتهم للّه قولهم «آمنا بالله وما هم بمؤمنين» ومن مخادعتهم للمؤمنين:

«إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا إِلى‏ شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ».

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ (10): باب ثالث من أبواب جحيم المنافقين: «مرض القلوب»: قلوب الأرواح لا الأجساد، فالقلب بيده ازمة العقول والأفكار والصدور والحواسّ والأعضاء، الزعامة العليا في مملكة الكون الإنساني، فإذا مرض مرض الإنسان في كيانه الإنساني ككلّ، فالمرض في القلوب حقيقة، وفي الجسد مجاز أم حقيقة ثانوية.

و لان المرض- الذي لا يحاول شفاءه يزداد دوما، إن في الجسم او في الروح سواء، سنة دائبة في الكائنات كلها، أن تنفرج زاويته في كل خطوة فتزداد من حيث لا يشعرون او يشعرون.

فمرض الجسم يشعر فيدرك فيتدارك مغبّة الحفاظ عليه، ومرض الروح قد لا يدرك وكثير ما هو، فلا يتدارك فيزداد، ثم القلب ومكاسب السوء يتعاملان في زيادته: «كَلَّا بَلْ رانَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ». فهناك مرضان اثنان كلاهما في القلوب: 1- (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»- 2- (فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً-» ومن ثم «لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ»:

و طالما المرض الأول أجمل عن فاعله، ففاعل الثاني «اللّه» فهل «لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» بالمرض الاول، ام وبالثاني ايضا، او «بِما كانُوا يَكْذِبُونَ» هنا وهناك حصيلة المرض، ونفاقا في دعوى الإيمان؟

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 216

المرض الأوّل هو مرض الكفر والعناد للحق بما كانوا يكسبون، والثاني هو ازدياد الاوّل منذ بزوغ الرسالة الإسلامية تداوما فيه ونتاجا عنه كما توحيه الفاء: فزادهم ..

فرغم انهم كانوا يأملون لهم زعامات في الجزيرة، ويعملون لإزالة عقباتها وتعبيد طريقها، إذ فاجأتهم الدعوة الإسلامية، فأخرجت شطأها فآزرها فاستوت على سوقها يعجب الزارع ليغيظ بهم الكفار، منذ العهد المدني بعد ما أصيبت بجوارف الإصابات في العهد المكي.

إن ذلك الازدهار والتقدم في الدعوة زاد في مرضهم، فهذه الزيادة هي منهم إذ انفرجت زاويته لمّا انفجرت الدعوة، حسدا من عند أنفسهم.

و هي من عند اللّه إذ بعث صاحب هذه الدعوة، ولم يكن من اللّه إلّا كلّ خير ورحمة، ولكنهم لمرضهم بدّلوه الى كل شر ونقمة: «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً» مرضا الى مرض ورجسا الى رجس: «وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ» (9: 125) فان دعاء الكافر المعاند لا يزيد إلّا فرارا: «إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهاراً. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً»

و هكذا تكون دعوات الرسالات الإلهية قد تزيد في ايمان لمن يؤمن، وكثيرا ما تزيد طغيانا وكفرا لمن لا يؤمن: «وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً» (5: 64):

ف: «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» أوّل عاشوه قبل الدعوة «فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً» عند الدعوة حيث كذّبوها «وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ» كما «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»- «بِما كانُوا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 217

يَكْذِبُونَ»- «فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً»- «بِما كانُوا يَكْذِبُونَ» «1»:

فثالوث المرض الاوّل وما زادهم اللّه وعذاب اليم- كل ذلك: «بِما كانُوا يَكْذِبُونَ»:

بالدعوة والداعية، وفي دعوى الإيمان.

و لماذا «مرضا» دون «المرض» طالما الثاني استمرار بزيادة في الاوّل؟ .. علّه لان الثاني مزدوج: من نوع الاوّل، زيادة في الكفر، ومن سواه: حسدا منهم في مواجهة الدعوة، وطبعا على قلوبهم لمّا كذبوا الداعية-: «فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً» على مرض «بِما كانُوا يَكْذِبُونَ».

و عذابهم الأليم يعم يوم الدنيا ويوم الدين، فهنا أن زادهم اللّه مرضا وفضحهم بنفاقهم، ثم يوم القيامة هم من المفضوحين.

(4) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ (12): باب رابع من أبواب جحيم المنافقين: دعوى الإصلاح في إفسادهم!

«وَ إِذا قِيلَ»: قيل إلهي بلسان النبي او المؤمنين المصلحين الذين يحق لهم نهي المفسدين- قيل لهؤلاء المنافقين: «لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ» وقولة فارغة جوفاء منهم:

«إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ» ثم فضيحة لهم عالمية في إذاعة قرآنية: «أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ»! وهكذا يكون دوما دور المنافقين في كلّ عصر ومصر أنهم يحسبون أنفسهم من المصلحين، وغيرهم مفسدين، حيث الموازين مختلة عندهم، فإنها تتأرجح مع أهوائهم الذاتية، بعيدة عن الواقع والميزان الرباني، او الإنساني.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ف «بما كانوا يكذبون» يعلل ثالوث المرضين والعذاب الأليم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 218

إنهم يحسبون المكر والخداع شطارة ولباقة، سياسة يتذرعونها الى ما يهوون، فان الغاية عندهم تبرّر الوسيلة، ولأن الأصل من الحياة عندهم حيوانيتها وشهواتها، والوصول الى بغيتهم ومصالحهم الشخصية، او الجماعية التي تبوء إليها، يحسبونها إصلاحها وفلاحها، لذلك يعدّون فسادهم صلاحا وإفسادهم إصلاحا: «إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ»: لا شغل لنا إلّا الإصلاح، وهم صادقون في إصلاح حيونة الحياة لهم، وكاذبون في إنسانيتها وقيمها وقوامها.

إنهم يتبجهون بثرواتهم ونزواتهم، طنطناتهم وعربداتهم، زهواتهم وزهزاتهم، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا «أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ» فقط- كأن لا مفسد سواهم، إذ ينافقون دوما ولا يوافقون، «وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ» أنهم هم المفسدون، حيث رأوا الصلاح فسادا، والفساد صلاحا: «و لكنه أخلد إلى الأرض هواه وكان امره فرطا».

إنهم لا شغل لهم إلّا الإفساد: في الحرث والنسل، في الثقافة والعقيدة، في الإقتصاد والسياسة، وفي كافة الحقول الحيوية، محتلّين ساحاتها، طاردين أصحابها، متدخلين في كل رطب ويابس وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا: أنهم هم المصلحون ومن سواهم مفسدون!: وحتى النبيين: «وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسى‏ وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ» (7: 127) رغم أنهم هم: «.. الْمُسْرِفِينَ. الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ» (26: 152) وقد يوجهون نفاقهم العارم بمسايرة الكافرين حفاظا على المؤمنين: «وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى‏ ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً، فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا إِحْساناً وَ تَوْفِيقاً» (4: 62).

فهم يعتبرون صدّهم عن رسول اللّه إحسانا إليه وتوفيقا بينه وبين الكافرين، اقتساما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 219

للبلد نصفين، وجعلا للحكم شطرين، رعاية للقبيلين!:

«وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ» وليسوا بتلك البلادة حتى يفقدوا مطلق الشعور وإنما يشعرون من الحياة حيوانيتها فيحتالون ويمكرون بكل شطارة وشعور لبغيتها وهم أنفسهم لا يشعرون عمق الحياة وقيمها وواقعيتها، ومهما لم يشعروا فيما يجب على الإنسان شعوره فكأنهم لايشعرون! إذ لا يستعملون الشعور حقه الإنساني وإنما إدراكه الحيواني! ثم الإفساد منه شخصي كالمعاصي التي لا تتجاوز العاصي، ومنه جماعي كالتي تتعداها الى غير العاصي، ومنها حكومي تشمل من يعيش في ظل الحكم، ثم منها مادي تشمل الناحية الاقتصادية، و منها عقيدي تفسد العقائد ومنها .. وأفسدها كلها ما يشمل الإفسادين بقوة الحكم: «قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ» (27: 34) (وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يُشْهِدُ اللَّهَ عَلى‏ ما فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ. وَ إِذا تَوَلَّى سَعى‏ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ. وَ إِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ» (2: 206).

هنا نهوا عن منكر الفساد، ومن ثم يؤمرون بمعروف الإيمان: حيث النهي عن المنكر يتقدم على الأمر بالمعروف، إذ ما دام الناكر مكبا على المنكر لا يتأتى منه المعروف، فإذا ترك المنكر او نهي فهنالك المجال لفعل المعروف والأمر به، حيث التزكية تتقدم التحلية في كافة المجالات، مادية ومعنوية!: 5 وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ قالُوا أَ نُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ، وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ (13).

باب خامس من أبواب جحيم المنافقين «تسفيه المؤمنين» وأنهم هم العقلاء النابهون من دون المؤمنين! «وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ» لا كما استسلم النسناس-

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 220

والقائل هو الرسول ومن معه- «قالوا» في جفوة وغرور واستعجاب وهزء وزور: «أَ نُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ» فإن هذا الإيمان خاص بفقراء الناس وأراذلهم دون الأغنياء العليّة ذوي المقام- فجاء الجواب الحاسم: «أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ».

و السفه هو خفة العقل وبلادته، حيث السفيه يفسد ويحسبه مصلحا، ويضيع ويراه حافظا، لجهله بموارد الإصلاح وموازينه، وخفة عقله، مهما كان مثقفا في مختلف العلوم الزمنية- ف «رب عالم قتله جهله»! فهم يعتبرون الإيمان الصادق سفها، والنفاق عقلا، إذ يمكّن العشرة مع المؤمن والكافر فيربح الجوّين، ويؤمن الخطرين، وهذه هي الحياة العاقلة عند هؤلاء المجاهيل، وحياة الايمان عندهم سفيهة! تخص المجاهيل. وهكذا يكون دوما دور غير المؤمنين: منافقين وكافرين، أن الايمان سفه ورجعية سوداء وتأخر عن الحياة في زعمهم، والكفر والنفاق سياسة حيوية وشطارة، وأن موافقة السر والعلن. تفسد الحياة، ومنافقتهما تصلحها، حيث اختلف لديهم موازين الحياة الصالحة، إذا أخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهوائهم فكان أمرهم فرطا!:

و لماذا هنا «الناس» لا «المؤمنون» وهم ناس خصوص دون سائر الناس، وقد ذكر «الناس» في القرآن اكثر بكثير من المؤمنين والمتقين- وحتى المسلمين: الذين هم أعم من المؤمنين- فانه (241) مرة وهي كلها خطابات عامة؟

علّه لأن المطلوب منهم فعلا أقل درجات الإيمان التي تخرجهم- لأقل تقدير- عن كفر النفاق، وأن هذا الإيمان لا يكلّفهم إلّا أن يكونوا من سواد الناس، ولهم ما لسائر الناس من عقل وإدراك، فإذا لم يؤمنوا كما الناس فهم أولاء إذا نسناس، فاقدين ما للناس من عقل، «أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ» علم الناس، حيث الإيمان هكذا لا يتطلب براعة في العلم والعقل، وإنما يكفيه كونك على مشارف العقل دون أشرافه! وترى‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 221

أن الإيمان الصادق القرين بكافة البراهين سفه، ثم الكفر والنفاق اللذان ترفضهما البراهين عقل؟ ما هذه إلّا دعاية غوغائية ضد المؤمنين، لكي لا يرغب في الايمان من يحبون العقل المتين! ولماذا هنا «لا يَعْلَمُونَ» وهناك وهنالك «لا يَشْعُرُونَ»؟

علّه لأن الوقوف على حق المؤمنين وعقلهم، وباطل المنافقين وسفههم بحاجة إلى علم زيادة على شعورهم فاقدوه، ولكن التمييز بين الصلاح والفساد، وبين ربح الخداع وضرره يكفيه الشعور، فهم هناك وهنالك «لا يَشْعُرُونَ» وهم هنا «لا يَعْلَمُونَ» مدعين كل علم وشعور! ناسبين إلى هداة العقول أنهم سفهاء: «قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ ... قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَ لكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ» (7:) 67) فلأنه يحمل رسالة اللّه، وهم حاملون رسالة الشيطان، يرونهم عقلاء، ثم العقلاء هم سفهاء! كلمات فقدت معانيها، كما هم فقدوا عقولهم الى أحلامهم، ومشاعرهم الى أهوائهم! «أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ» فلا سفيه مقصرا إلّا إياهم، ولا عاقل حقيقا إلا هو مؤمن، فان الايمان من حصائل العقل، حيث «هم» هنا دليل الحصر، أن السفاهة المقصرة محصورة فيهم.

فمتى علم السفيه أنه سفيه، وهو بحاجة الى عقل راجح وعلم رامح؟

و لكنه مقصّر دون سفهه إذ قصر في عقله فلم يستعمله لما يحقّ حتى خفّ عقله، واللّه «يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ».

(6) وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا إِلى‏ شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15).

باب سادس من أبواب جحيم المنافقين: «آمَنَّا ... إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ».

فهؤلاء الأوغاد المناكيد ليسوا ليقفوا عند حد الكذب والخداع والسفاهة بالادعاء

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 222

الجوفاء، بل ويتترّسون في الظلام خفية، خيفة من المؤمنين، ومغبّة جلب الكافرين، ثعالب مكارين لا اسد يسفرون عن وجوههم في الميادين، وهكذا يكون دوما دور الساسة الشياطين!. إنهم في لقاءاتهم ذووا وجوه، ففي لقاءهم المؤمنين «قالُوا آمَنَّا» ليخدعوهم، وليس إلّا لقاءً عابرا دون خلوة واطمئنان «وَ إِذا خَلَوْا إِلى‏ شَياطِينِهِمْ قالُوا» معتذرين إليهم «إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ» ليست لقاءنا المؤمنين إلّا استهزاء وتجسسا دون تحسّس لهم، إلّا عليهم ولكم.

فشياطينهم: رؤوس الضلالة، هم الأصلاء ضد المؤمنين، وهؤلاء الجواسيس وسائطهم، فهم يخلون بهم دوما- إلا في لقاءات عابرة مع المؤمنين- فيشاورونهم كيف يلاقون المؤمنين، وكيف يضللونهم وكيف؟.

و هؤلاء الشياطين- على الأكثر- كانوا ولا يزالون هم اليهود، الذين يجدون في المنافقين أداة لتمزيق الصف الإسلامي وتفتيته، وتوهين العقيدة الإسلامية وتبكيتها، طالما أصول المنافقين كذلك منهم ف «شياطينهم» يعم كبراءهم المنافقين ورؤوس الكفر والضلالة مشركين وكتابيين: شياطين أصول، وشياطين أذناب عملاء يصدرون عنهم ويردون إليهم.

و «خلوا إلى» دون «خلوا بهم» تلمح أنهم مراجعهم وملاجئهم، حيث الخلّو به لقاء منفرد، والخلو إليه اطمئنان والتجاء، فإنهم يشمئزون وحتى من مجرد لقاء المؤمنين وان كان استهزاء، فيخلون إلى الشياطين، حاملين معهم أسرار المؤمنين.

ثم وقولهم في خلوّهم إليهم: «إنا معكم» تثبيت لكفرهم السابق، ردا للمحة اللقاء إلى الإيمان و «إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ» نفي صريح لإيمانهم، أن ليس إلّا استهزاء بالمؤمنين، تأكيدا لهذه المعية الكافرة، وتوطيدا لعلاقة العمالة المنافقة.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 223

و الاستهزاء البادي هو من الجهل: «قالُوا أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ» (2: 67) حيث العالم يرشد ما أثّر، ويترك ما لم يؤثّر، وأما أن يستهزأ فهذا جهل وسوء خلق.

و أما جزاء الاستهزاء باستهزاء فهو جزاء وفاق، يوافق العلم والعدل، لذلك ف «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» يوم الدنيا ويوم الدين، فهنا يجري عليهم أحكام الإسلام وهناك هم في الدرك الأسفل من النار، وما إلى ذلك من تمويه يستحقونه بما كانوا يموّهون «وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ» ف «جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها» (42: 40) وهكذا يكون دوما دور الناكرين للرسالات الإلهية، المعاندين، أن يجابوها باستهزاء واستخفاف دونما حجة يواجهون بها حج الرسالات: «وَ إِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَ هذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا» (25: 41).

و «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» هنا بما يهزء ويسخر منهم عذاب الاولى:

«فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» (6: 10)، وأخرى في الأخرى:

«وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» (39: 48) وكما سخرت أمواج الطوفان بقوم نوح الذين كانوا منه يسخرون: «وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ ... حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ ..» (11: 40).

و القول: ان «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» دعاء من اللّه على المنافقين، هراء جارف خارف، فمن ذا الذي يدعوه اللّه عليهم، ويرجو منه أن يستهزأ بهم؟

فإنما اللّه يدعى ولا يدعو، إذ لا إله يدعى إلّا هو! .. فإنما هو إخبار من اللّه انه يستهزأ بهم في الأولى والأخرى.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 224

و من استهزاءه بهم في الأولى: «وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ»: مدا في حياتهم وزهواتهم، زعاماتهم وثرواتهم، فيحسبونهم أنهم كرماء يستحقون هذه التكريمات، فيمدون بها في طغيانهم يعمهون، كما «وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ» (7:

202): (أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ. نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ» (23: 56) وهكذا يستدرجهم من حيث لا يعلمون: «وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِ‏آياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ. وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» (7: 183).

فهم أولاء في طغيانهم يعمهون بين مدّين: إلهي حيث يمهلهم ويمدّهم بأموال وبنين، وشيطاني حيث إخوانهم في كفرهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون، وهذان المدّان من مخلّفات إصرارهم على الكفر باللّه وهزءهم برسالات اللّه! «و ما الله يريد ظلما بالعباد»! ثم و فرق بين المدّ والإمداد، أنّ المدّ زيادة في الشي‏ء من نفسه والإمداد زيادته من غيره، واللّه يمدهم: يزيدهم في طغيانهم بما طغوا وبغوا، أن يتركهم دون إمداد للخير حيث عاندوا الحق و أصروا على الباطل ف «يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ» بمعنى: «وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ» (7: 186) فمجرد تركهم في طغيانهم ومدّهم بأموال وبنين يزيدهم طغيانا وعمها.

إنه يمد لهم كأنه يخلّيهم والامتداد في عمههم والجماح في غيّهم، إيجابا للحجة، وانتظارا للمراجعة بعد وضوح المحجة، تشبيها بمن أرخى الطول للفرس، ليتنفس خناقها، ويتسع مجالها.

و ترى وماذا «يعمهون»؟ إنه عذاب فوق العذاب، وتباب في الحياة أيّ تباب؟ فهو التردد والتحيّر في الضلالة دون أن يعرف الحجة، ولا أين يتوجه في مهجّة، والعمه في البصيرة كالعمى في البصر، فمن عمهت بصيرته عميت سيرته، وشملته حيرته، يعيش‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 225

محتارا، يتخبط في مشيته ويمشي مكبّا على وجهه.

و ما أورع استهزاء اللّه وأروعه بهؤلاء الهزالى التائهين، حيث يدعهم يتخبطون على غير هدى، في طريق ضلت غايته، وفي النهاية تتلقفهم اليد الجبارة، أخذ عزيز مقتدر، حيث تواثبوا في فخّهم بذات أيديهم كالفئران الغافلة عن المقبض المكين! 7- أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى‏ فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ (16).

باب سابع من أبواب جحيم المنافقين هو الدرك الأسفل حيث تتشعب عنه الأبواب الستة السابقة «اشتراء الضلالة بالهدى»! وترى متى كانوا على «الهدى» حتى يشتروا «الضلالة» بها، والتجارة بحاجة الى رأس مال هو هنا الهدى وهم فاقدوها؟! أقول: إن رءوس أموالهم هنا في معترك تجارة الضلالة والهدى، هي العقول والفطر، حيث الفطرة كما فطرها اللّه منطلقة الى الهدى، إلى الدين حنيفا: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (30: 30).

كما والعقول من شؤونها الأولية ان تعقل أحكام الفطر، المنبثقة من أعماقها بما فطر اللّه، ولكن «إنارة العقل مكسوف بطوع الهوى»! ثم الهدايات الإلهية التي تترى لهم وتتوارد، مؤيدة مكملة للفطر والعقول، هي الزاوية الثالثة من مثلث الهدى التي يملكونها، ولكن هم رغم الهداية المثلثة باعوها واشتروا الضلالة «فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ»:

كيف يتاجرون إذ استبدلوا الأركس الأدنى بما أمكنهم من الغالية الأعلى! ف «أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالآْخِرَةِ» (2: 86) وقد كانوا يملكون الحياة الآخرة بما ملّكوا من أسبابها- «أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى‏ وَ الْعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ» (2: 175) و «إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيْمانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَ لَهُمْ عَذابٌ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 226

أَلِيمٌ» (3: 177)! ف «أولئك» المنافقون هم «الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ»: الدنيا والعذاب بشهواتها ولهواتها «بالهدى»: هدى العقول والفطر وهدى الأنبياء، فالمغفرة والأخرى «فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ» فقد خسرت، حيث التجارة بين ربح وخسران، وهم خسروا عقولهم وفطرهم وخسروا أنبياءهم ف: «خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» (6: 12) حيث خفت موازينهم في إنسانيتهم: «وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ» (23: 103) (أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ» (58: 19)! (وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ»: ما هي التجارة الرابحة، فلم يكونوا ليهتدوا منذ كانوا حيث انحرفوا عنها مبصرين، وانجرفوا في ضلالهم عمهين! ولكنهم استبدلوا الغي بالرشاد، والكفر بالايمان فخسرت صفقتهم ولم تربح تجارتهم.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ (17) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (18):

هذا والمثل الذي يتلوه لا بد وأن يمثّل حالات المنافقين المسرودة من ذي قبل، جامعة لأصل النفاق.

فكما الذي يستوقد نارا ليستفيد من نورها ويضر بنارها، ترى لو ذهب نورها وبقيت نارها بحرّها، فلا يبصر وقد يحرق هو بما أوقد: كذلك المنافقون، فنفاقهم نار موقدة ليستضيئوا بنور الإسلام ويحرقوا المؤمنين بنار النفاق «فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ» حيث استفادوا قليلا، فعمر الدنيا قليل بجنب الآخرة ولو عمّروها كلها، كيف وهم لا يعمّرون منها إلّا قليلا «ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ» حيث يفضحهم هنا فلا نور به يستضيئون كما يذهب به يوم يقوم الأشهاد، إذ لم يبق من نور إسلامهم ولا ظاهر مدعى «وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ» فلم يبق هنا وهناك إلّا نار مظلمة بلا نور، فنار الجحيم لا نور

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 227

فيها، وكذلك نار الفضيحة هنا! ويا له من مثل يمثّل حقيقة حالهم هنا ومآلهم هناك، إن النفاق نار مظلمة تحرقهم في ظلماتها يوم الدنيا ويوم الدين، وهم ليسوا ليستفيدوا من نورها إلّا ظاهرا ضئيلا مؤقتا يوم الدنيا، ثم لا يطول إلا قليلا وقد «ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ»:

«صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ»: «صمّ» وهم يسمعون إذ عطلوا آذانهم الإنسانية عن سماع الحق «بكم» وهم ينطقون إذ عطلوا ألسنتهم عن كلام الحق «عمّى» وهم يبصرون إذ غطوا أعينهم عن مشاهدة الحق «فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ» إلى الحق: «لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ» (7: 179).

و من لطيف الأمر في تمثيلات القرآن أنها كلها حقائق بعيدة عن التخيلات والأوهام، لحدّ نراها تقحم في ممثلاتها كما هنا: يبتدء المثل ب «الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً ..» وهو فرد، ثم ينتهي عند الاستنتاج إلى الممثل نفسه وهو جمع: «ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ» وليس المثل بالذي يقرب الممثل عن بعده إلّا إذا كان واقعا ملموسا كما هنا، دون الأمثال البعيدة عن الواقع التي تبعّد ممثّلاتها اكثر واكثر!.

هذا المثل الاول يمثل جماع حال المنافقين أنفسهم واما الثاني: أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ (19) يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (20).

ف «او» هنا للتقسيم حيث هذا القسم يختلف عن الاوّل تمثيلا، فانه مثلهم أنفسهم فيما يفعلون، وهذا مثلهم وِجاه صيّب الدعوة السماوية الإسلامية، مثل يبدأ بهذه الدعوة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 228

الصارمة: «او كصيب ..» وينتهي إلى: كيف يعاملونها ويتأثرون بها! ويتطلعون إليها! و «كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ» هو غزير المطر حيث يصبّ من السماء في ثورة الأمطار، طوفانية المصدر، بحرية المورد، حاوية- رغم حياتها المائية- مثلث الإرهاب:

«ظُلُماتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ»: ظلمات السحاب والغيوم المتراكبة التي تحول دون ضوء الشمس نهارا، ودون أنوار نجوم السماء وقمرها ليلا، ويواكبها «رَعْدٌ وَ بَرْقٌ» رعد هو صوت قوي تحدث عن اصطكاك السحاب، وبرق: هو نور يذهب بالأبصار نتيجة الاصطكاك، والصواعق هي نوازل الرعد والبرق: قصف رعد ينقض منها شعلة من نار لطيفة لا تمر بشي‏ء إلّا أتت عليه وهي مع قوتها سريعة الخمود! وهكذا تمثل الرسالة القرآنية أنها «صيب من السماء» مطر غزير تسقي أراضي القلوب لتحييها، نازلة من سماء الوحي الأخير، ساترة على كافة الأنوار، فانها نور الأنوار، وشمس مضيئة لا قبل لها، وهذه من ظلماتها، وأخرى أنها تظلم على القلوب الخاوية الظالمة الخاسرة: «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً» ومنها القلوب المقلوبة المنافقة! وثالثة أنها تصاحبها ظلمات العرقلات ممن يقفون لها بالمرصاد، ورابعة أنها هطلت ونزلت في أجواء مظلمة من أضغاث أحلام وخرافات أوهام! ومن ثم رعدها هو صوتها الجلي العالي، الواصل إلى آذان من لهم آذان، الصارخ فيها صرخة الحق النافذة في الأنفس: «وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً» (4: 63) فهذه آذان الناس، وأما النسناس: ف «يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ»: حيث «يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ»: فيجعلون أصابعهم في آذانهم من صيحة الحق وصرخته حذر الموت، وهي التي تحييهم، وهذه الحيطة الإلهية حيطة عذاب بعلم محيط وقدرة محيطة، فرغم نفاقهم العارم، ليس اللّه بغافل عما يعملون: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ. وَ اللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ» (85: 20) فهنا اللّه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 229

يحيط بهم حيطة عذاب عن علم وقدرة، وللمؤمنين حيطة رحمة عن علم وقدرة: «أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ مُحِيطٌ» (41: 54) مهما اختلفت الحيطة نقمة ورحمة، فإنها من مصدر علم وقدرة! ومن ثمّ برقها: نورها الشامل كالشمس في رايعة النهار، النافذ إلى الأعماق، حيث نور البرق تختلف عن سائر النور، ولأن أبصارهم كليلة وأنفسهم عليلة «يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ» هذا البرق المنير، الهادي لكل بصير في الظلمات، يكاد يخطف أبصارهم: يأخذها بسرعة حسدا منهم وخوفا «كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ»: إضاءة في ظل إسلامهم الظاهر، وإفادة من ميّزاته في حال او مال او منال «مشوا فيه» منتفعين كأنهم من المسلمين «وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ» ببلايا او رزاياللمسلمين، في حروب دامية فنقص من الأموال و الأنفس والثمرات- «قاموا»: وقفوا عن كل حراك، وتنحّوا عن العراك فرارا دون قرار، زحفا عن معتركات الحروب.

فالإسلام مطر غزير دائم، إلّا ان فيه ظلمات العقبات في حروب ومعاركات سجال:

غالبين أحيانا فبرق، ومغلوبين أخرى فظلمات، كما فيه نور الخيرات وكلها خيرات! هؤلاء المنافقون هكذا يعاملون مطر الإسلام الغزير بظلماته ورعده وبرقه، فبرقه لهم خاطف الأبصار. ورعد الصاعقة منه صامة الأسماع، أترى هذه أبصار وأسماع الإنسان! وإذ لا ينتفعون بها «وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» «1» ولكنه يبقيها لدوامة الحجة عليهم.

و إنه مشهد عجيب رهيب، حافل بالحركة الثورة، مشيج باضطراب، فيه أضواء وأصداء، وفيه ظلمات وعماء.

فهناك ظلمات طامة عامة كانت شاملة للعالم أجمع قبل بزوغ الإسلام، وفي هذه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع الجزء: 29 ص 5- 10 كلام في القدرة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 230

الظلمات المتراكمة هطلت غزيرة أمطار وحي القرآن «كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ» لتسقي أراضي القلوب الواعية، فمن خلال هذه الظلمات أرعد القرآن وأبرق، فتجاوبا في صاعقة نورانية روحانية، و تتفتح الآذان الصاغية، وتتصدع بها القلوب الواعية وتتصدى لها، وهي القلوب المؤمنة.

و لكنما المنافقين «يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ... يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ» إذ لا يريدون إبصاره ولا يحبون قراره ف «كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ» إضاءة خاصة للمتاجرين بالدين، المتظاهرين بالإسلام مغبّة الانتفاع «مَشَوْا فِيهِ» مستفيدين، كما في حالات الصلح او الحرب الإسلامية الغالبة، وفي سائر الميّزات الإسلامية- «و» أما «إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ» في حرب مغلوبة، او فضيحة لهم بما يعرّفهم اللّه «قاموا» وقفة عن كل حراك اللّهم إلّا ضد الدعوة! فهذا الصيّب البرق الصاعقة للمؤمنين به ضوء دائب، ونور واصب، في الصلح والحرب، غالبين ومغلوبين، في الأفراح والأتراح، ولكنه بالنسبة للمنافقين ضوء أحياني وظلمة أخرى، حسب مختلف الحالات «كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ ... وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ»! حيث الإضاءة والإظلام، هي فقط بالنسبة لهم، فانه للمؤمنين إضاءة على طول الخط وفي كافة الأحوال.

مشهد حسي واقعي يمثّل حالة نفسيه عن المنافقين كأنها محسوسة، تجسيما لأحوال هذه النفوس البئيسة في كافة حالاتها وتصرفاتها ومواجهاتها للصيّب الهاطل القرآني، الراعد البارق الصاعق!: «يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ»: من قوة إيماضه وشدة التماعه:

«يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ».

هنا يتم استعراض الصور الثلاث: المتقين- الكافرين- المنافقين- ومن ثمّ خطاب عام للناس أجمعين لكي يصبحوا من المتقين.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 231

نفاق بطراً ورئاء الناس‏

وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَ رِئاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (47).

هنا المعنيون بهؤلاء هم المنافقون الذين خرجوا مع المؤمنين بظاهرة الجهاد في سبيل اللّه، و لكنهم خرجوا بثالوث منحوس من «بَطَراً وَ رِئاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ»! وهكذا المشركون الذين خرجوا في حرب المؤمنين «و ذكر لنا أن نبي الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال يومئذ: اللهم إن قريشا قد أقبلت بفخرها وخيلاءها لتجادل رسولك، اللهم إن قريشا جاءت من مكة بأفلاذها» «1».

و هنا «رِئاءَ النَّاسِ» مما يؤيد أن المنافقين والذين في قلوبهم مرض هم من المعنيين مع المشركين الرسميين، حيث المشرك يخرج قضية مبدءه فلا رئاء لخروجه، وقد يعني مع المنافقين جماعة من الذين ظلوا بعد الهجرة في مكة رئاء الناس المشركين وكأنهم منهم، أم خرجوا معهم في قتال المؤمنين كأنهم معهم.

ف «بطرا» هو الطغيان في النعمة، فهو هنا بطر الخروج بكل رعونة وتفرّح وتفرّج تبديلا لنعمة اللّه نعمة ونقمة: «وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ» و «رِئاءَ النَّاسِ» لكي يراهم الناس وهو شرك خفي مع جلية للمشركين والمنافقين، وخفي كما الجلي للذين في قلوبهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 190- أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في الآية كان مشركو قريش الذين قاتلوا نبي اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) يوم بدر خرجوا و لهم بغي وفخر وقد قيل لهم يومئذ ارجعوا فقد انطلقت عيركم وقد ظفرتم فقالوا: لا واللّه حتى يتحدث أهل الحجاز بمسيرنا وعددنا وذكر لنا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 232

مرض من المؤمنين.

ثم «وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» صدا ظاهرا جاهرا كالمشركين، أم صدا منافقا خفيا كغيرهم من هؤلاء الخارجين «وَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ».

و هنا «بطرا و» لهؤلاء الأنكاد الأغباش تقابل «وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً» و «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَ اصْبِرُوا» هناك، ولا يخلو الخروج للقتال من كونه في سبيل اللّه أم في سبيل اللهو، فثالوث «بَطَراً وَ رِئاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» هو سبيل اللهو، ومثمّن «فاثبتوا ولا تكذبوا» هو سبيل اللّه، وأين سبيل من سبيل؟

وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَ قالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى‏ عَقِبَيْهِ وَ قالَ إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى‏ ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (48).

هنا مسرح للشيطان صارح وهو صارخ، قائلا لجنده المشركين: «لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ» وإنما قال «وَ إِنِّي جارٌ لَكُمْ» حيث ظهر بصورة سراقة ولكي يصدقوه فيما يقول‏ «1» وذلك قبل أن تراءى الفئتان «فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى‏ عَقِبَيْهِ وَ قالَ إِنِّي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 190- أخرج الواقدي وابن مردويه عن ابن عباس قال: لما تواقف الناس‏أغمى على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ساعة ثم سرى عنه فبشر الناس بجبرئيل (عليه السلام) في جند من الملائكة ميمنة الناس وميكائيل في جند آخر ميسرة-- و إسرافيل في جند آخر ألف وإبليس قد تصور في صورة سراقة بن جعشم المدلجي يجير المشركين ويخبرهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس فلما أبصر عدو اللّه الملائكة نكص على عقبيه وقال إني برى‏ء منكم إني أرى ما لا ترون فتشبث به الحارث وانطلق إبليس لا يرى حتى سقط في البحر ورفع يديه وقال: يا رب موعدك الذي وعدتني.

وفيه أخرج الطبراني وأبو نعيم في الدلائل عن رفاعة بن رافع الأنصاري قال: لما رأى إبليس ما يفعل الملائكة بالمشركين يوم بدر اشفق أن يخلص القتل إليه فتشبث به الحارث بن هشام وهو يظن أنه سراقة بن مالك فوكز في صدر الحارث فألقاه ثم خرج هاربا حتى ألقى نفسه في البحر فرفع يديه فقال: اللّهم إني أسألك نظرتك إياي.

وفي نور الثقلين 2: 161 عن المجمع بعد ذكر القصة: فلما قدموا مكة قالوا: هزم الناس سراقة فبلغ ذلك سراقة فقال: واللّه ما شعرت بمسيركم حتى بلغني هزيمتكم فقالوا: إنك أتيتنا يوم كذا فحلف لهم فلما اسلموا علموا أن ذلك كان الشيطان- عن الكلبي وروى ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد اللّه (عليهما السلام).

وعن تفسير العياشي عن عمرو بن أبي مقدام عن أبيه عن علي بن الحسين (عليهما السلام) قال: لما عطش القوم يوم بدر انطلق علي (عليه السلام) بالقربة يستقي وهو على القليب إذ جاءت ريح شديدة ثم مضت فلبث ما بدا له ثم جاءت ريح أخرى ثم مضت ثم جائته أخرى كان أن يشغله وهو على القليب ثم جلس حتى مضى فلما رجع إلى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) أخبره بذلك فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) أما الريح الأول فيها جبرئيل مع ألف من الملائكة والثانية فيها ميكائيل مع ألف من الملائكة والثالثة فيها إسرافيل مع ألف من الملائكة وقد سلموا عليك وهو مدد لنا وهم الذين رآهم إبليس فنكص على عقبيه يمشي القهقري حين يقول: «إِنِّي أَرى‏ ما لا تَرَوْنَ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 233

بَرِي‏ءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى‏ ما لا تَرَوْنَ» وهم جنود الملائكة «إِنِّي أَخافُ اللَّهَ» أن يعاقبني ويعجل في أجلي الموعود «وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ».

فلقد «زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ» ومنها كافة قدراتهم لمواجهة المؤمنين، زين بما ألقى في صدورهم ثم زوّده بقوله: «لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ» خلافا لما أري رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) وقد يروى عنه (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) قوله: ما رئي إبليس يوما هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة وذلك مما يرى من تنزيل الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر، قالوا يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 234

وآله وسلم) وما رأى يوم بدر؟ قال: أما إنه رأى جبريل يزع الملائكة «1».

و قد تأبى نصوص من الآية أن يكون موقف الشيطان من المشركين في بدر كمواقفه الأخرى معهم بأن وسوس إليهم، لمكان: «و قال لا غالب لكم اليوم- وإني جار لكم- إني بري‏ء منكم- إني أخاف الله» حيث الوساوس الشيطانية عامة ليست فيها كهذه القالات الخاصة، ثم كيف ينكص الشيطان على عقبيه وهو غير ظاهر، فمم يخاف إذاً حتى ينكص إلّا إذا كان ظاهرا في المسرح، وبكل مصرح من قاله وفعاله.

و هل ترى للشيطان هذه القوة القاهرة أن يتصور بصورة الإنسان فيضلّه ويدلّه؟ إذاً فله أن يجند جنوده كما اللّه يجند الملائكة فيهزم المؤمنين! كلّا، فإن اللّه لم يخوّله من ذلك شيئا ولن، وهنا تصوّره بصورة الإنسان كان لطالح المشركين أن انغرّوا به، ولصالح المسلمين أن تغلّبوا عليهم، ثم هو حجة زائدة على المشركين حيث ظنوه سراقة ثم تبين أنه غيره «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيى‏ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ».

و لقد كانت هنا مقارنة في ثالوث: الشيطان- المشركين- والمنافقين:

إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (49).

هنا المقابلة بين المنافقين والذين في قلوبهم مرض تعني ذكر العام بعد الخاص، فالآخرون- إذا- هم المشركون، والمنافقون غير الرسميين من ضعفاء الإيمان، أم هؤلاء الذين أسلموا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم قائلين «غَرَّ هؤُلاءِ» المؤمنين «دينهم» إذ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رواه مالك في الموطأ بسند متصل عن طلحة ابن عبيد الله بن كريز

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 235

يقابلون على قلتهم عَددا وعُددا هؤلاء الكثرة القوية من المشركين، والجواب كلمة واحدة «وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» فقد ينصر هؤلاء القلة المؤمنة على هؤلاء الكثرة الكافرة كما فعل.

أجل والفئة الكثيرة غير المتوكلة على اللّه ليست لتتغلب على الفئة القليلة المتوكلة على اللّه، «فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ» يعز المتوكلين عليه «حكيم» يضع النصرة مواضعها الصالحة، فالمنافقون والذين في قلوبهم مرض هم مع المشركين ليسوا ليدركوا أسباب الإنتصار والهزيمة المستورة وراء الأستار، وإنما يرون مظاهر دون أن تهديهم بصيرة إلى مسايرها ومصايرها «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الآْخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ» فلا جرم- إذا- يظنون المؤمنين في مسرح بدر وما أشبه مغرورين مخدوعين بالدين، واردين موارد الهلكة بتعرضهم لقتال المشركين.

حلفٌ للمنافقين خُلف‏

لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَ لكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (42).

العرض هو العارض الزائل دون أصالة ذاتية، فهو مقابل الذات الأصيلة: «تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ» (4: 94) (يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى‏ وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا» (7: 169) (تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَ اللَّهُ يُرِيدُ الآْخِرَةَ» (8: 67).

والعرض القريب هو السهل التناول، قربا في زمان ومكان ومكانة دون أي‏بعد وأية صعوبة.

ف «لو» أن ذلك الجهاد «كانَ عَرَضاً»: غنيمة «قريبا»: بمتناول أيديهم طمعا فيه «وَ سَفَراً قاصِداً» قريبا سهلا يسيرا فيه غنيمة وغلبة، لكان يقصد بطبيعة الحال- فلا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 236

تعني «مقتصدا» حيث الأقل من المقتصد أقرب للإتباع، إنما «قاصدا» يقصد وكأنه بنفسه يقصد، إذا «لاتبعوك» في جهاد العدو «وَ لكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ» في هذه السفرة إلى تبوك الروم شقة في المسافة وشقة في المصافة حيث شاع بالمدينة أن الروم قد اجتمعوا يريدون غزو رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) في عسكر عظيم، وأن هرقل قد سار في جنوده وجلب معهم غسان وجذام وبهراء وعاملة، وقد قدم عساكره البلقاء، ونزل هو حمص فأمر رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) التهيؤ إلى تبوك .. «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 222 عن تفسير القمي في قوله تعالى «وَ لكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ» يعني إلى تبوك وذلك أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) لم يسافر سفرا أبعد منه ولا أشد منه وكان سبب ذلك أن الضيافة كانوا يقدمون المدينة من الشام معهم الدرموك والطعام و هم الأنباط فأشاعوا بالمدينة .. فأمر رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) التهيؤ إلى تبوك وهي من بلاد البلقاء وبعث إلى القبائل حوله وإلى مكة وإلى من أسلم من خزاعة ومزينة وجهينة وحثهم على الجهاد وأمر رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) بعسكره فضرب في ثنيته الوداع وأمر أهل الجدة أن يعينوا من لا قوة به ومن كان عنده شي‏ء أخرجه و حملوا وقووا وحثوا على ذلك وخطب رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) فقال بعد أن حمد اللَّه وأثنى عليه: أيها الناس إن أصدق الحديث كتاب اللَّه ... قال: فرغب الناس لما سمعوا هذا من رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وقدمت القبائل من العرب من استنفرهم وقعد عنه قوم من المنافقين وغيرهم ولقى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) الجد بن قيس فقال له: يا با وهب ألا تنفر معنا في هذه الغزاة لعلك أن تحتفد من بنات الأصفر؟ فقال: يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) إن قومي ليعلمون أنه ليس فيهم أحد أشد عجبا بالنساء مني وأخاف إن خرجت معك أن لا أصبر إذ رأيت بنات الأصفر فلا تفتني وائذن لي أن أقيم، وقال لجماعة من قومه: لا تخرجوا في الحر، فقال ابنه: ترد على رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) و تقول ما تقول ثم تقول لقومك: لا تنفروا في الحر واللَّه لينزلن اللَّه في هذا قرآنا يقرءه الناس إلى يوم القيامة فأنزل اللَّه على رسوله في ذلك: ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة بالكافرين، ثم قال الجد بن قيس: أيطمع محمد أن حرب الروم مثل حرب غيرهم؟ لا يرجع من هؤلاء أحد أبدا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 237

فهذه الشقة مسافة ومصافة خاوية عن عرض قريب ومرض غريب كانت تمنعهم عن هذه الغزوة، وهنا المندّد بهم هم جمع منهم لا كلهم أو كثير منهم لمكان: «سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ» إذا رجعتم إليهم: «سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ» فهم الذين في قلوبهم مرض من المنافقين وأضرابهم، و «إِلَّا تَنْصُرُوهُ» تعمهم دون صالحي المؤمنين المناصرين إياه على أية حال.

هؤلاء الهلكى الأنكاد «يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ» إعذارا لا يقبل، وتخلفا عن المفروض واستحقاقا للعذاب «وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» في قالتهم:

«لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ» وأمثالها «1».

و هذه السلسلة من آيات الجهاد هي منقطعة النظير في مسارحه، إذ كانت غزوة تبوك هي من أشد الغزوات عليهم وأحدّها فيهم، حيث «بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ» كل البعد من جهات عدة تمنع هؤلاء عن تلك العدّة.

و لقد ركزت الآيات السورة منذ الثامنة والثلاثين حتى الأخيرة- وهي أكثر من ثلثي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 212 في كتاب التوحيد عن أبي عبد اللَّه عليه السلام في الآية قال: اكذبهم اللَّه عزّ وجلّ في قولهم: «لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ» وقد كانوا مستطيعين للخروج، و في تفسير العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد اللَّه في الآية، انهم يستطيعون وقد كان في علم اللَّه لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لفعلوا.

وفي الدر المنثور 3: 246- أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) قيل له: ألا تغزو بني الأصفر لعلك أن تصيب ابنة عظيم الروم؟ فقال رجلان: قد علمت يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) أن النساء فتنة فلا تفتنا بهن فائذن لنا فأذن لهما فلما انطلقا قال أحدهما إن هو الأشحمة لأول آكل فسار رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) ولم ينزل عليه شي‏ء في ذلك فلما كان ببعض الطريق نزل عليه و هو على بعض المياه «لَوْ كانَ عَرَضاً ..» ونزل عليه «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ..» ونزل عليه «لا يَسْتَأْذِنُكَ ..» ونزل عليه «إِنَّهُمْ رِجْسٌ ..»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 238

آياتها- ركزت على حث الجهاد والتنديد بالمتكاسلين عنه من المنافقين والذين في قلوبهم مرض، مما يبين شدة وطأتهم وتواطئهم ضد الإسلام، وتباطئهم عن مشاركة الجهاد.

فهؤلاء هم المندّد بهم طيلة هذه الآيات ومنها «إلا تنصروه» دون كافة المؤمنين كما قد يزعمه أصحاب صاحب الغار، تبجيلا لصاحبهم وتخجيلا لسائر الأصحاب، فما أجهلهم في ذلك التفسير التعتير التعيير، إزراء بكافة المؤمنين بمن فيهم من أفاضلهم كالإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام ومن أشبه.

و لأن شؤون نزول الآيات ليست لتحددها بحدودها السابقة، فهي- إذا- مطلقة منطلقة- مطبقة على كافة الموارد المشابهة من الحروب القاصية العاصية، فكلما كان الخطر أعظم فالمسئولية لدفعه أهم وأضخم على مدار الزمن الرسالي، دون اختصاص بالزمن الرسولي.

لذلك لا تجد في ذلك المسرح الطائل ولا لمحة لخصوص غزوة تبوك، مع العلم أن اللَّه صرح بمسرح بدر وحنين والأحزاب وما أشبه، على أن هذه المصرح بها أيضا ليست لتقف بخاصة مواقفها، حيث التاريخ يتجدد دونما وقفة أبدا، فلتجدّد المسؤوليات أمام حوادثها وكوارثها على طول الخط.

أجل و «لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً» معروضا عليهم من قرب «وَ سَفَراً قاصِداً» يقصد لكل قاصد «لاتبعوك» لمكان الأريحية القاصدة لهؤلاء المنافقين، وسترا على كفرهم كأنهم من الموافقين «وَ لكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ» الشقة الشاقة البعيدة التي تتقاصر دونها الهمم الساقطة وتتعاسر العزائم الهابطة.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 239

المنافقون والموافقون‏

وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (61).

هنا «و يقولون» المضارعة تعم كافة القيلات- منذ نزول هذه الآية حتى القيامة الكبرى- حول أنه «أذن» من أذن الوحي نكاية عليه أنه لا يصدر عن عقليته الإنسانية ولا سائر العقول، بل «هو أذن» فقط لوحي السماء؟.

و ذلك- رغم ما يزعم- ليس له إلّا فضيلة، حيث إن أذن الوحي لا يخطأ قصورا ولاتقصيرا، وسائر الأذن خاطئة تقصيرا أو قصورا.

ثم «هو أذن» صاغ لكلّ من يكلمه، فليس له رأي تصديقا أو تكذيبا، ف «هو أذن» مهانة وإهانة بساحة النبوة كأنه يتقبل ما يسمح دون تحرّ عن حق القول وباطله، وهكذا «أذن» شر حيث يجتمع في تقبل صاحبه شرا إلى خير، والمتضادات بل والمتناقضات، والجواب كلمة واحدة «قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ» عاقلا فيما يسمع، عادلا فيما يقبل أم يرد، وهو في كونه «أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ» فلا يسمع إلا بإذن اللَّه على ضوء الإيمان باللَّه، أو يسلب أو يوجب ما يسمعه إلّا بإذن اللَّه، فهو اذن لوحي اللَّه ولكلام الناس، وأين أذن من أذن؟ «وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» باللَّه.

و ترى ذلك «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ» كافيا عما سواه من إيمان، فما هو دور «وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» «يؤمن له» هو إيمان لصالح من يؤمن له، إيمانا باللَّه لصالح المؤمنين، وأنه يؤمن المؤمنين عن كل بأس وبؤس وخوف، فهو- إذا- للمؤمنين حيث يجعلهم في أمنه لما يسمع منهم قضية إيمانهم فيما يقولون، وعناية أخرى هي تصديقة المؤمنين ك «ما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 240

«فَما آمَنَ لِمُوسى‏ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ» «أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ» «آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ» ثم «و رحمة» ككل، بأذنه ولسانه وكل أحواله وأعماله «لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» أيها المنافقون، فهو «أُذُنُ خَيْرٍ» للمؤمنين باللَّه، و «أذن خير للذين آمنوا منكم» باللَّه ف «يؤمن. يؤمن. رحمة» هي من أدلة أنه «أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ» حيث المؤمن باللَّه والمؤمن للمؤمنين ورحمة لهم، هو بطبيعة الحال «أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ».

و لأن المفعول به في «يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» محذوف، فقد يعني فيما يعنيه يؤمن المنافقين أن يجعلهم في أمن من صراح التكذيب لصالح المؤمنين، حتى يقفوا عند حدهم، تخفيفا عن جزرهم ومدهم، أو يؤمنوا كما آمن هؤلاء، إذا ف «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ» أن يجعل نفسه في أمن باللَّه، و يؤمن للمؤمنين، أن يجعل أذنه صاغيا طليقا لصالح المؤمنين، صغيا لأقوالهم الصادقة فهو لصالحهم، وصغيا لأقوال المنافقين الكاذبة، وهو أيضا لصالحهم، حيث القسوة في المواجهة ترجع بالضرر عليهم، ثم في تصليحه غير الصالح من أقاويل المؤمنين وسواهم «يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» أمنا للمتكلم بإجابة صالحة لصالح المؤمنين، وقد يعني «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ» إضافة إلى إيمانه نفسه باللَّه، إيمان الأمة أن يجعلهم في أمن باللَّه، ثم «و يؤمن» جو الحياة «للمؤمنين» بذلك الإيمان المزدوج باللَّه، مع جعل المنافقين أيضا في أمن دون قسوة زائدة، لصالح المؤمنين، إلا إذا لزم الأمر أن يقسوا معهم.

ثم «وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ» بقولهم «هو اذن» وما أشبه «لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» في الدنيا والآخرة.

و هكذا يكون داعية الحق أنه يسمع إلى كل قائل صادق فيصدقه أم كاذب فيرشده‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 241

دونما غلظة كيلا يفلت، فيخيّل إلى البسطاء أنه مصدق كلما يسمعه‏ «1».

فمن الناس من لا يسمع إلى أي‏قائل فلا يهتدي به ضال، أو يسمع إلى أي‏قائل فيه خلط للحق بالباطل، وهذان هما أذنا شر، وأما الداعية الرسالية فهو «أذن خير» ليس في سماعه إلى كل أحد إلّا خير، فإن كان حقا يصدفه ويزيده، وإن كان باطلا يرشده.

أجل انه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) أذن صاغ طليق لمثل الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام إذ لا يقول إلا حقا مستحقا للإصغاء ولذلك أيضا سموه أذنا إزراء بساحته ومسا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 253 عن ابن عباس في الآية يعني انه يسمع كل أحد قال اللَّه عزّ وجل: «قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ ..».

وفي نور الثقلين 2: 236 عن تفسير القمي كان سبب نزولها أن عبد اللَّه بن نفيل كان منافقاو كان يقعد إلى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) فيسمع كلامه وينقله إلى المنافقين وينّم عليه فنزل جبرئيل عليه السلام على رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) فقال يا رسول اللَّه إن رجلا ينم عليك وينقل حديثك إلى المنافقين فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): من هو؟ فقال: الرجل الأسود الكثير شعر الرأس ينظر بعينين كأنهما قدران وينطق بلسان الشيطان فدعاه رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) فأخبره فحلف باللَّه انه لم يفعل فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) قد قبلت ذلك منك فلا تقعد فرجع إلى أصحابه فقال: إن محمدا اذناً أخبره اللَّه أني أنم عليه وأنقل أخباره فقبل وأخبرته أني لم أفعل ذلك فقبل فأنزل اللَّه على نبيه «وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ» أي‏يصدق اللَّه فيما يقول له ويصدقك فيما تعتذر إليه في الظاهر ولا يصدقك في الباطن أقول: دليلا على عدم تصديقه في الباطن ظاهر قوله (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) له: «فلا تقعد» فلو كان تصديقا له في براءته لم يكن إذا دور ل «لا تقعد» فهذا إذا تكذيب بلسان التصديق لكيلا ينفضوا من حوله.

وفي تفسير الفخر الرازي 16: 116 روى الأصم أن رجلا منهم قال لقومه: إن كان ما يقول محمد حقا فنحن شر من الحمير فسمعها ابن امرأته فقال: واللَّه إنه لحق وإنك أشر من حمارك، ثم بلغ النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) ذلك فقال بعضهم: إنما محمد اذن ولو لقيته وحلفت له ليصدقنك فنزلت الآية على وفق قوله فقال القائل يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله وسلم): لم أسلم قط قبل اليوم وإن هذا الغلام لعظيم الثمن علي واللَّه لأشكرنه ثم قال الأصم: أظهر اللَّه تعالى عن المنافقين وجوه كفرهم التي كانوا يرونها لتكون حجة للرسول ولينزجروا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 242

بكرامته، فقد ذكر (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) عليا وما أوصى اللَّه فيه وذكر المنافقين والآثمين والمستهزئين بالإسلام وكثرة أذاهم لي حتى سموني أذنا وزعموا أني كذلك لكثرة ملازمته إياي وإقبالي عليه حتى أنزل اللَّه‏ «1».

ذلك، فأذن شر أو خليط بينه وبين خير خارج عن مثلث الإيمانين ورحمة، فعلى الدعاة إلى اللَّه أن يكونوا «أُذُنُ خَيْرٍ» حتى للمنافقين والكافرين، أن يصغوا إليهم لصالحهم المرام عند اللَّه، فكما على الطبيب أن يسمع إلى المريض ليعرف علته، وإلى الصحيح ليعرف صحته، فيصلح المريض إلى الصحيح، كذلك وبأحرى «طبيب دوار بطبه» عليه أن يكون «أُذُنُ خَيْرٍ» صاغيا صغي خير للمؤمنين، ورحمة للذين آمنوا وهدى للآخرين.

أجل، إنه أذن طليق لوحي اللَّه ليبلغه إلى الناس، وأذن يستمع إلى المؤمنين ليرشدهم إلى الأصلح في حالهم، وأذن يستمع إلى المتحرّين عن الحق ليوصلهم إليه، وأذن للآخرين علّه يردهم عن الردى ويهديهم إلى سبيل الرشاد والهدى.

فليس «هُوَ أُذُنٌ» سمعا لكل قول تصديقا دون تفطن إلى غش القول وزوره وغروره.

ذلك، وقد تعني «أُذُنُ خَيْرٍ» كلا وجهي إضافة الموصوف إلى صفته وسواها، فعلى الأولى هو خير أذن، وعلى الأخرى أذن لخير لكم وليس أذنا لشر لكم، والفرق بينهما أن الأولى تعني خير الأذن وإن سمع كذبا، والثانية أذنا لخير فلا يسمع كذبا، والجمع أجمع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 236 في كتاب الإحتجاج للطبرسي باسناده إلى محمد بن علي الباقر عن النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) حديث طويل يقول فيه وقد ذكر عليا عليه السلام ... حتى أنزل اللَّه ... على الذين يزعمون أني أذن ولو شئت أن أسمي بأسمائهم لسميت وان أومي إليهم بأعيانهم لأومأت وأن أدل عليهم لدللت ولكني واللَّه في أمورهم قد تكرمت‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 243

وأجمل.

و قد تلمح «وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» أن صغي قول هو لصالح المؤمنين محبور دون محظور، مهما كان اغتيابا، وكما استثني في نصح المستشير وما أشبه، وهكذا يصدق المروي عن باقر العلوم عليه السلام‏ «1» فالصاغي قولا لصالح المؤمنين أو الأصلح لهم محبور مهما كان القول اغتيابا أو اعتيابا، والصاغي لطالحهم محظور مهما كان القول صادقا.

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ (62).

«.. ليرضوكم» تصديقا لهم أنهم موافقون وليسوا بمنافقين‏ «2» (و اللَّه» أصالة «و رسوله» رسالة «أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ» هو، حيث الرسول لا يستقل أمامه وبجنبه، فلذلك يصح إفراد الضمير رغم عديد المرجع «إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ» باللَّه كما يدعون، فليصلحوا فيما بينهم وبين اللَّه يصلح اللَّه بينهم وبين الناس.

و هنا «أحق» تفضيلا هو في موقف المجازاة، أن لو كان لغير اللَّه حق أمام اللَّه فهو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كمافي تفسير العياشي عن حماد بن سنان عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: إني أردت أن أستبضع‏فلانا بضاعة إلى اليمن فأتيت إلى أبي جعفر عليه السلام فقلت له: إني أريد أن أستبضع فلانا فقال لي: أما علمت أنه يشرب الخمر؟ فقلت: قد بلغني من المؤمنين أنهم يقولون ذلك فقال صدقهم أن اللَّه عزّ وجلّ يقول: «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» فقال: يعني يصدق اللَّه ويصدق المؤمنين لأنه كان رؤوفا رحيما بالمؤمنين‏

(2). الدر المنثور 3: 253- أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلا من‏المنافقين قال: واللَّه ان هؤلاء لخيارنا وأشرافنا وإن كان ما يقول محمد حقا لهم شر من الخمر فسمعها رجل من المسلمين فقال: واللَّه أن ما يقول محمد لحق ولأنت شر من الحمار فسعى بها الرجل إلى نبي اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) فأخبره فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: ما حملك على الذين قلت؟ فجعل يلتعن ويحلف باللَّه ما قال ذلك وجعل الرجل المسلم يقول: اللّهم صدق الصادق وكذب الكاذب فانزل اللَّه تعالى في ذلك: «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ..» وفيه عن السدي مثله وسمى الرجل المسلم: عامر بن قيس من الأنصار

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 244

أحق، أم على الحقيقة إذ للمؤمنين حق لإيمانهم باللَّه، ولكن اللَّه أحق أن ترضوه لأنه محور الحق والإيمان، فما ذا يكون الناس- وإن كانوا مؤمنين- أمام اللَّه، ولكن الذي لا يؤمن باللَّه ولا يعفو له، هو بطبيعة الحال تختص عنايته بالناس، وقضية الإيمان باللَّه هي التوحيد في الرضاءه كعبادته وطاعته، فإن مرضات الناس لا تحقق، لاختلافهم فيها بمناقضات ومضادات، ومرضات اللَّه موحّدة في عبادته وطاعته دون سواه، فالعقل يحكم ولا سيما على ضوء الإيمان باللَّه أن توحّد مرضات اللَّه دون عناية لمرضات من سواه أيا كان، إلّا من هو مرضاته مرضات اللَّه ومشيته مشية اللَّه «وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ» فقد تطلب مرضاتهم على هامش مرضات اللَّه، ولأنها أيضا من مرضات اللَّه كما و «إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ».

فمحاولة إرضاء الناس خبل وجِنَّة إذ إن مرضات الناس مختلفة أو متناقضة، ولو حصلت على مرضاتهم جميعا فليس لك إلا رضاهم جميعا ثم محاولة إرضاء اللَّه هي عقل ورحمة، فإن مرضاته واحدة غير متفرقة، إذا فالعقل يحكم كما الشرع أن نحاول في تحصيل إرضاء اللَّه، رضي ناس أم سخطوا، ولو أسخطت بمرضاة اللَّه كل الناس لم يضروك شيئا، وإن أسخطت اللَّه بمرضات من الناس فهو كل الضرر.

فالأصل في الحياة العاقلة الإيمانية تحصيل مرضات اللَّه بتطبيق شرعته بلسان رسوله في وحي الكتاب والسنة ف «اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ» يفرد فيها الضمير لإفراد الرضا للَّه وحده، حيث الرسول ليس يستقل أمام اللَّه حتى يستغل مرضاته أمامه.

و كيف نحصل على مرضات اللَّه؟.

أن نكون من الصادقين: «قالَ اللَّهُ هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (5:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 245

119).

و من السابقين بإحسان: «وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (9: 100). والمبايعين الرسول شرط عدم النقض:

«لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ..» (48: 18).

و ألّا يوادّوا من حاد اللَّه ورسوله: «.. أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (58: 22).

ذلك «وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» ضابطة ثابتة إلى يوم الدين، وقد تواتر عن النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) قوله في أهل بيته المعصومين عليهم السلام: «من آذاني في عترتي فعليه لعنة الله» «1»

«اشتد غضب الله على من آذاني في عترتي» (2) «حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وآذاني في عترتي» (3) «من آذى أحدا من أهل بيتي قطع ما بيني وبينه» (4) وبخصوص علي عليه السلام: «من آذاه هذا فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله» (5) «من آذى عليا بعث يوم القيامة يهوديا أو نصرانيا» (6) «من آذى عليا فقد آذاني» (7)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). (1- 9) هذه على الترتيب تجدها في ملحقات إحقاق الحق 18: 458- 18: 439- 440، 544 و 9: 518، 520- 18: 461- 5: 73- 11: 47- 48 و 19: 317- 4: 233 و 6: 390 و 7: 384 و 461 و 5- 6: 380- 394 و 16: 588- 599 و 21: 537- 543- 10: 187- 199، 209- 211- 19: 83- 84. أخرج في هذه المجلدات متواتر الروآيات حول هذه المضامين عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 246

وبخصوص فاطمة سلام اللَّه عليها «من آذاها فقد آذاني» (8) «يؤذيني ما آذاها» (9).

و «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ. جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ» (98: 8).

و النفوس المطمئنة باللَّه: «يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى‏ رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَ ادْخُلِي جَنَّتِي» (89: 28).

فالمؤمنون العاملون الصالحات الصادقون السابقون في الإيمان، المبايعون الرسول، الذين يخشون ربهم فهم من حزب اللَّه، ولا يوادون من حاد اللَّه ورسوله ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، ولهم نفوس مطمئنة باللَّه، أولئك الذين رضي اللَّه عنهم ورضوا عنه.

و هذه درجات سبع تغلق على دركات سبع من جحيم التخلفات عن مرضات اللَّه.

أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها ذلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63).

محادة اللَّه هي اعتباره في حد دون حدودهم، في كل قضايا الربوبية أم بعضها، وكأنهم آلهة من دون اللَّه، وإن في قضية واحدة من قضايا الربوبية، كطليق العبودية والطاعة، فهم ممن «اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ» «وَ قالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ»!.

و محادة الرسول هي اعتباره في حد دون حدودهم، وكأنهم يوحى إليهم كما هو، فلا عليهم أن يتبعوه «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ»!.

و لأن المحادة تحديد من ناحية فاعلها المحاد، ثم اللَّه ليس ليحاد، فقد تعني أن هؤلاء يجعلون للَّه حدا كما اللَّه جاعل لهم حدا، وليس للَّه حد في ألوهيته أو ربوبيته وعبادته‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 247

وطاعته، إذا فالمحادة تعني في مغزاها التفوق على اللَّه تعالى في قرار حد من ناحية العبد كأنه إله للَّه، يملك اللَّه أن يحد له ربوبيته، ومن ذلك محادته بحد الخلق كوحدة حقيقة الوجود وما أشبه!.

و المحادة الإلهية والرسولية، ومن ثم الرسالية، تعني استقلالا بجنب اللَّه ورسله ورسالاته، فاستغلالا لطائشة الأهواء بحريتها الطليقة، وإذاً «فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ» فإنه بنفسه جهنم هنا، ثم في الأخرى يؤجج بنيرانها «خالِداً فِيها ذلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ».

أجل و «إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» (58: 5) «إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ» (58: 20).

فحين تعني المحادة- مفاعلة- أنهم يحاولون أن يجعلوا للَّه حدا في الألوهية والربوبية، وللرسول حدا في الرسالة كما يشتهون، بديلا عما يجعل اللَّه لهم حدا على أية حال، ويجعل لهم الرسول حدا في رسالته- حدا بحد- فهم من أنحس مصاديق «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى‏ حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى‏ وَجْهِهِ ..» (22:)

11).

متاجرة مهاترة بينهم وبين اللَّه ورسوله وكأنهم إلهة للَّه كما اللَّه إلههم، وأنهم رسل إلى الرسول كما الرسول رسول إليهم، أخذا للعصا من البين وجعلا للبلد شطرين!.

فمن هو العبد حتى يحاد اللَّه ورسوله أو يشاقق اللَّه ورسوله، تنزيلا لساحة الربوبية والرسالة وترفيعا لقاعة العبودية.

يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ (64).

«سورة» هنا تعني إلى سورة المنافقين الخاصة بفضحهم، هذه السورة التي ثلثا آياتها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 248

أم تزيد نازلة بشأنهم الشائن، فقد جربوا خلال أعمالهم المنافقة أن اللَّه ليس ليذرهم يفتنون المؤمنين عن دينهم، وهكذا سائر السور التي تتحدث عنهم في آيات، وقد تشمل «سورة» جموع آيات سواء أكانت سورة مصطلحة أم أية سورة هي من السور المحيط بما يحيط، فإن آيات المنافقين بارزة الدلالة، ظاهرة المدلول، مهما تفرقت بين سائر الآيات، فضلا عما اجتمعت كما هنا في ثمان وأربعين آية «1» تتوارد على فضحهم بما يقولون، أو ما ينوون وما يفعلون وما يضمرون من عداء عارم ضد المؤمنين، ولقد سميت التوبة البراءة- فيما سميت- ب «الفاضحة» حيث تحمل فضحهم أكثر من كل سورة في القرآن، فلذلك لا حرج هنا ولا حذر على المؤمنين، فليكيدوا هم كيدهم ويميدوا ميدهم، ف «قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ» «2».

ثم «سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ» لا تعني التي تختص بهم، وإنما ما تحمل فضحهم بكثير أو قليل، إذا فكل السورة التي تتحدث عنهم هي معنية ب «سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ».

و هنا «عليهم» لا تعني نزول سورة وحيا إليهم، وإنما تعني «على» فضحا وإضرارا بهم، و لقد جربوا أن اللَّه ليس ليخفي على رسوله مكائدهم الظاهرة بينهم ضد المؤمنين،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هي الآيات التالية التي تخصهم 38- 44- الى- 50- 52- إلى- 54- 56- 58- 61- إلى- 69- 73- 74- 76- 77- 79- 80- إلى- 87- 90- 93- إلى- 96- 101- 107

(2). نور الثقلين 2: 236 عن تفسير القمي في الآية قال: كان قوم من المنافقين لما خرج رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) إلى تبوك يتحدثون فيما بينهم ويقولون: أيرى محمد أن حرب الروم مثل حرب غيرهم لا يرجع منهم أحد أبدا، فقال بعضهم: ما أخلفه أن يخبر اللَّه محمدا بما كنا فيه وبما في قلوبنا وينزل عليه قرآنا يقرأه الناس وقالوا هذا على حد الاستهزاء فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) لعمار بن ياسر: ألحق القوم فإنهم قد احترقوا فلحقهم عمار فقال: ما قلتم؟ قالوا: ما قلنا شيئا إنما كنا نقول شيئا على حد اللعب والمزاح فأنزل اللَّه «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أَ بِاللَّهِ وَ آياتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 249

والمبطنة عندهم، فالرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) هو نفسه يعرفهم في لحن القول:

«وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ» (47: 30).

ذلك، فلا يرد على الآية ما خيّل إلى ناس بسطاء أم شياطين أن كيف «يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ» وهم لا يؤمنون بالوحي فضلا «أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ» وهي لا تنزل إلّا على رسول الوحي؟.

هذا لأنهم «جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا» فهم على استيقانهم بحق الوحي يجحدونه ظالمين، واللَّه يخبر عن طويتهم أنهم يحذرون بما هم يعرفون الوحي وما هم مجربون، حيث تكرر إنباءات اللَّه ورسوله والمؤمنين عن نياتهم وطوياتهم، وعن قالاتهم سابقة ولا حقة.

و هنا «اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ» يعني إخراجه عن مخبئه، فإخراجا لمخبئه، والأمر الظاهر الذي يمكن الحصول عليه بتجسس وتحسس ليس ليخرج، إنما يخرج المكتوم غير المعلوم، ولقد بلغ من حذرهم أن تنزل عليهم سورة تنبئهم أنهم «يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ» (63: 4).

ذلك، ثم الحذر لا يلازم العلم بالمحذور المحظور، فقد يكفيه مجرد احتمال، فهب إن هؤلاء المنافقين لم يكونوا على يقين بصدق الوحي، ولكن احتماله على أية حال وارد، إذ لا يملكون برهانا على كذبه، وساطعة البراهين على صدقه ظاهرة باهرة.

و قد يحتمل إضافة إلى ما قدمناه أن ضمير الجمع الغائب في «عليهم- تنبئهم» راجع إلى المؤمنين وفي «قلوبهم» إليهم أنفسهم، والأول أرجح والجمع أنجح.

و من ناحية أخرى في «عليهم» قد يوجه بأنهم عائشون خلال المؤمنين، فالآيات‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 250

التي تعنيهم كأنها منزلة عليهم، وقد يقربه «وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ ما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ وَ الْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ» (2:) 231) حيث تعني «على» نزولا بشأنهم دون أن يوحي إليهم تنزيلا لوحي الكتاب- دون وسيط الرسول- عليهم‏ «1».

و وجه آخر في ذلك الحذر أنه كان على سبيل الاستهزاء كما يؤيده «قُلِ اسْتَهْزِؤُا ..».

ذلك حذرهم في أنفسهم فحظرهم فيما ينزل عليهم ثم هم يتساءلون: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أَ بِاللَّهِ وَ آياتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ (65).

«لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ» عن هزءهم بالرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) والذين معه، وما في قلوبهم من طويات خبيثة «ليقولن ..» وهذا إخبار يغيب مستقبل، وكان لهم ألا يقولوه لمّا سمعوا الوحي هكذا يفضحهم، ولكنهم قالوه كما قال اللَّه عنهم «إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ» وهل الخوض في آيات اللَّه واللعب باللَّه ورسوله يبرره أي‏مبرر، وذلك استهزاء صريخ صريح: «قُلْ أَ بِاللَّهِ وَ آياتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ»؟ وقد قال (صلى اللَّه عليه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في تفسير الفخر الرازي 16: 120 قال الحسن اجتمع اثنا عشر رجلا من المنافقين على أمر من النفاق فأخبر جبريل الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) بأسمائهم فقال (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): إن أناسا اجتمعوا على كيت وكيت فليقوموا وليعترفوا وليستغفروا ربهم حتى اشفع لهم فلم يقوموا فقال (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) بعد ذلك: قم يا فلان ويا فلان حتى أتى عليهم ثم قالوا: نعترف ونستغفر فقال: الآن؟ أنا كنت في أول الأمر أطيب نفسا بالشفاعة واللَّه كان أسرع في الإجابة أخرجوا عني اخرجوا عني فلم يزل يقول حتى خرجوا بالكلية، وفيه قال الأصم: إن عند رجوع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) و سلم) من تبوك وقف له على العقبة إثنا عشر رجلا ليفتكوا به فأخبره جبرئيل وكانوا متلثمين في ليلة مظلمة وأمره أن يرسل لهم من يضرب وجوه رواحلهم فأمر حذيفة بذلك فضربها حتى نحاهم ثم قال: من عرفت من القوم؟ فقال: لم أعرف منهم أحدا فذكر النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) أسماءهم وعدهم له وقال: إن جبرئيل أخبرني بذلك فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم ليقتلوا؟ فقال: أكره أن تقول العرب قاتل محمد بأصحابه حتى إذا ظفر صار يقتلهم بل يكفينا اللَّه ذلك‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 251

وآله وسلم) لهم‏ «1» ما قال.

و هنا «تستهزءون» تعمم حكم الاستهزاء- وهو الكفر والارتداد- إلى كل من يستهزأ بالدين مهما كان مسلما مؤمنا، فضلا عن المنافقين، إذ لا يعني الاستهزاء- فقط- النكران، بل هو شديد النكران، فمن منكر ساكت لا يستهزأ، وأما المستهزء فهو منكر ماقت!.

و يا له عذرا غادرا: «نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ» وكيف يخاض في الدين ويلعب به إلّا بنكران هازئ، حيث الحق لا يتحمل الخوض واللعب إلّا بذلك النكران البعيد والكفر الشديد!.

لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (66).

«لا تعتذروا» حيث لا عاذرة عن الكفر المتعمّد و «قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ» وهنا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 254- أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد اللَّه بن عمر قال قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوما: ما رأينا مثل قرآننا هؤلاء لا أرغب بطونا ولا أكذب ألسنة ولا أجبن عند اللقاء فقال رجل في المجلس كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) فبلغ ذلك رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) ونزل القرآن قال عبد اللَّه: فأنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) والحجارة تنكيه وهو يقول يا رسول اللَّه إنما كنا نخوض ونلعب والنبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) يقول: أباللَّه وآياته ورسوله كنتم تستهزءون، وفيه عن قتادة في الآية قال بينما رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) في غزوته إلى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين فقالوا: أيرجو هذا الرجل أن يفتح له قصور الشام‏و حصونها هيهات هيهات فأطلع اللَّه نبيه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) على ذلك فقال نبي اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) احبسوا على هؤلاء الركب فأتاهم فقال: قلتم كذا قلتم كذا؟ قالوا يا نبي اللَّه إنما كنا نخوض ونلعب فأنزل اللَّه فيهم ما تسمعون، وفيه عن سعيد بن جبير قال: بينما النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) في مسيره وأناس من المنافقين يسيرون أمامه فقالوا: إن كان ما يقول محمد حقا فلنحن شر من الحمير فأنزل اللَّه تعالى ما قالوا فأرسل إليهم ما كنتم تقولون فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 252

تقابل الإيمان بالكفر دليل على أنهم بين منافقين وبسطاء مضلّلين، فكفر طائفة منهم بعد إيمانهم هو جاهر الكفر بعد ظاهر الإيمان فلا يعفى عنهم، وكفر طائفة أخرى هو واقع الكفر بعد واقع الإيمان، فلذلك يصح هنا التقسيم «إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ» وهم المضللون حين يتوبون.

«نُعَذِّبْ طائِفَةً» أخرى «بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ» حيث تعرّق الإجرام وتعمّق في قلوبهم، فهم رؤوساء الضلالة وحملة مشاعل المتاهة والغواية حيث عاشوا ردحا بعيدا من الزمن ذلك الإجرام فكيف يعفى عنهم فهم- إذا- لا يتوبون «فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَ الآْخِرَةِ ..» (74)، خلاف الأولين الذين كان كفرهم بسيطا دون تعنّد وتعمق‏ «1».

و احتمال ثان أن يختص العفو بحاضر العذاب دون مستقبله لاختلاف دركات نفاقهم شدة وضعفاء، ولكن الظاهر هو الأول ف «نعف» إذ يتوبون، و «نعذب» إذ لا يتوبون،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 238 عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: «لا تعتذروا ..» قال: هؤلاء قوم كانوا مؤمنين صادقين ارتابوا وشكوا ونافقوا بعد إيمانهم وكانوا أربعة نفر، وقوله: «إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ» كان أحد الأربعة مخشى بن الحمير فاعترف وتاب وقال يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) أهلكني اسمي فسماه رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) عبد اللَّه بن عبد الرحمن فقال: يا رب اجعلني شهيدا حيث لا يعلم أحد أين أنا فقتل يوم اليمامة ولم يعلم أين قتل فهو الذي عفى اللَّه عنه.

أقول: لم يسم هذا الواحد طائفة فانه شأن لنزول الآية وهي تعني كل من يصلح للعفو كأمثاله على مدار الزمن، وكما الطائفة الأخرى لا تعني الآخرين بأعيانهم.

وفي الدر المنثور 3: 255- أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وأبو الشيخ عن الكلبي أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) لما أقبل من غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة رهط استهزءوا باللَّه وبرسوله ومنهم لم يمالئهم في الحديث يسير مجانبا لهم يقال له يزيد بن وديعة فنزلت إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة، قال: الطائفة رجل واحد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 253

أم وتوبتهم توبة نفاق غير وفاق.

هنا يذكر «بَعْدَ إِيمانِكُمْ» لتشمل الذين آمنوا ثم كفروا ونافقوا عن جهل وبساطة، إلى هؤلاء الذين أسلموا منافقين، ثم ازدادوا كفرا ونفاقا، ولذلك لما يفرد الآخرون يبدل الإيمان فيهم بالإسلام: «وَ لَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ».

و وجه ثالث أن الإيمان يعم الإيمان باللسان إلى الإيمان بالجنان والأركان، وكما يخاطب الذين آمنوا بوظائف عامة فتشمل كل من أقر بالإيمان.

و وجه رابع أنه صحيح الإيمان وخفيفه الذي يزول بعارض مّا، وكما ل «الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ» (7: 176) وهكذا «الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً» (4: 137).

و القول ألا ملازمة لعذاب طائفة بالعفو عن طائفة، خاو دون تأمل، حيث العذاب هنا شامل قضية الحال، فمعنى الشرطية- إذاً- «إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ» لمصلحة ملزمة أو راجحة، فلا يستلزم أن نعف عن طائفة أخرى دون أية مصلحة.

و ترى إذا كان طائفة منهم يعفى عنهم فهم إذاً معذورون، فكيف يخاطبون مع غير المعفو عنهم ب «لا تعتذروا»؟

إنهم ككل غير معذورين عن كفرهم بعد إيمانهم وكذبهم أنهم لم يقولوا كلمة الكفر، وإنما العفو لمن تاب توبة صالحة ولم يكن كفره عن ضلال وإجرام عريق.

ف «إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ» كشرط في هذا الحقل «نُعَذِّبْ طائِفَةً» كجزاء لذلك الشرط، إشعارا بأن العفو عن طائفة لا يخلّف العفو عن أخرى لاختلافهما في المغزى:

«بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ» مضلّلين، قد تعرق الإجرام في نفوسهم، وأولئك كانوا مجرمين مضلّلين لم يعيشوا الأجرام.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 254

فمجال العفو واسع فاسح ما لم يتعمق الكفر في النفوس فكانت التوبة إذاً نصوحا دون أي غدر ونفاق مسوح الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ (67).

مباعضة لعينة منافقة في مباضعة الإيمان الموافقة، تشكل مناصرة في حقل النفاق، ومن قضاياها الرزايا: «يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ» بكل طاقاتهم وإمكانياتهم «وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ» عن كل خير مادي أو معنوي لقبيل الإيمان، وذلك لأنهم «نَسُوا اللَّهَ» نسيان تجاهل وتغافل معمّد معنّد «فنسيهم» في كل حقول الرحمة والعناية، حيث عاملهم معاملة الناسي التارك لما هو كافله، «فنسيهم» في كافة الرحمات الرحيمية الخاصة بالمؤمنين و المتحرين عن الإيمان، نسيانا جزاء نسيان، وفاقا لذلك العصيان «وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا».

«فَنَسِيَهُمْ» حيث «نَسُوا اللَّهَ» و «إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ» كأن لا فاسق سواهم، حيث تعمق فيهم الفسوق والتحمّق لأسفل دركاته، فلأنهم في الدرك الأسفل من فسوق الكفر، لذلك فهم «فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ».

أجل وإن اللَّه لا يسهو ولا ينسى، وإنما ينسى ويسهو المخلوق والمحدث، ألا تسمعه عزّ وجلّ يقول: «وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» وإنما يجازي من نسيه ونسي لقاء يومه بأن ينسيهم أنفسهم كما قال تعالى:

«و لا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون، وقال عز وجل: فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا، أي: نتركهم كما تركوا الاستعداد للقاء

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 255

يومهم هذا» «1».

فقد «نَسُوا اللَّهَ» إذ تركوا طاعة اللَّه «فنسيهم»: فتركهم‏ «2» تركا جزاء ترك في الأولى والآخرة.

و هنا نتلمح أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى معاكسة الأمر بينهما، وإلى قبض اليد عن الرحمة، كل ذلك من نسيان اللَّه وعصيانه.

و في ضم «المنافقات» هنا إلى «المنافقين» تحليق لنفاقهم على قبيلي الذكور والأناث، فإن لهن دورا دائرا مائرا في عمليات النفاق، إضافة إلى كيدهن العظيم في حقل النفاق، كما والمعروف المنهي عنه والمنكر المأمور به يعمان كل حقول المعروف والمنكر، عقيديا وعلميا وعمليا وثقافيا وسياسيا واقتصاديا وحربيا، دركات سبع من جحيم المباعضة المنافقة في المباضعة عن الموافقة.

إنهم ككل «بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ» طبيعة واحدة وطينة واحدة، سوء الطوية ولؤم السريرة، و كل همز ولمز ودس وغمز، وضعف عن صريح المواجهة وصريخ العقيدة، وكل ذلك ينعكس في كل سلوكهم ومسالكهم، معاكسين كل خير إلى شر، وكل شر إلى خير، ركسة ونكسة محلقة على كل كيانهم.

و هنا أسس البلاء، المنعكس على العقيدة والخلق والعملية أماهيه، هو «نَسُوا اللَّهَ» في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 239 في عيون الأخبار والتوحيد للصدوق باسناده إلى عبد العزيز بن مسلم قال: سألت الرضا عليه السلام عن قول اللَّه تعالى: نسوا اللَّه فنسيهم فقال:.

(2). المصدر في تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر عليهما السلام «نَسُوا اللَّهَ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 256

ألوهيته وربوبيته وعلمه وقدرته وواجب معرفته وعبوديته وطاعته، ونشأة حسابه وجزاءه «فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ» ولذلك:

وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ وَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (68).

هنا «و الكفار» تعميم بعد تخصيص، تأخيرا لهم عن المنافقين تدليلا على أنهم «فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»، ثم «خالِدِينَ فِيها» هو الخلود ما دامت النار و «هي حسبهم» في قسطاس العدل، خلودا في النار قدر خلودهم في بواعث النار، فكما كانوا مقيمين على نفاقهم و كفرهم حتى الموت، كذلك «لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ» في النار ما داموا هم ودامت النار، بل ليست النار إلّا حصيلة نفاقهم وكفرهم المحدود في أصله وفصله «وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها» وما أشبه برهان قاطع لا مرد له بين سائر البراهين أن للنار والخالدين فيها نهاية بنهاية العذاب المستحق لمن لا يستحقون ثوابا، قضية عدل اللَّه وقسطه.

فلا يعني مقيم العذاب إقامته معهم إلى غير نهاية، فإنها ظلم إلى غير نهاية، وإنما «مقيم» كمقيم الاستحقاق وقدره، حيث الزيادة على قدر الاستحقاق ظلم مهما كانت محدودة، فضلا عن كونها غير محدودة كما يهرفه هارفون ويخرفه خارفون أم قاصرون في إدراك الحق بحق اللَّه العدل الرحيم. هنا لأهل النار الخالدين «عَذابٌ مُقِيمٌ» قضية عدل اللَّه ونقمته- «وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ» (5: 37) مقيم ما قامت النار دون خروج عنها، وليس فناء من في النار مع النار خروجا منها، والإقامة اللّانهائية لأهل النار في النار خروج عن العدل والنصفة وعوذا باللَّه.

و هناك لأهل الجنة «نَعِيمٌ مُقِيمٌ» قضية فضل اللَّه ورحمته، فأين مقيم من مقيم، مقيم يقيمه عدل اللَّه فله نهاية، ومقيم يقيمه فضل اللَّه فليست له نهاية، بل هو عطاء غير

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 257

مجذوذ «1»، حيث: «يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوانٍ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ» (5: 37).

و ترى ما هو الفارق بين ثالوث: «نار جهنم- خالدين فيها- وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ»؟

هنا قوس تصاعدي أن لهم أولا: «نارَ جَهَنَّمَ» ولكن ليس لزامه خلودهم فيها، فبعض الداخلين فيها هم غير خالدين، كبعض العصاة من الموحدين، حيث يخرجون عن النار دون خلود فيها هو البقاء مدة طويلة، فثانيا: «خالِدِينَ فِيها» مدة طويلة هي منقسمة بين عذاب مؤقت وعذاب مقيم، ثم ثالثا «لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ» أبدي ما داموا هم ودامت النار، فلا يخرجون عن النار، ولا تخمد النار وهم أحياء، بل هما متقارنان، يقيمون مع مقيم العذاب، كما أن مقيم العذاب معهم ما داموا أحياء، فهم:

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في تفسير العياشي عن ثوير عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: إذا صار أهل الجنة في الجنةودخل ولي اللَّه إلى جنانه ومساكنه وأتكئ كل مؤمن على أريكته حفنة حذامه وتهدلت عليه الثمار وتفجرت حوله العيون وجرت من تحتها الأنهار وبسطت له الزرابي ووضعت له النمارق وأتته الحذام بما شاءت هواه من قبل أن يسألهم ذلك، قال:

و تخرج عليه الحور العين من الجنان فيمكثون بذلك ما شاء اللَّه، ثم إن الجبار يشرف عليهم فيقول لهم: أوليائي وأهل طاعتي وسكان جنتي في جواري ألا هل أنبؤكم بخير ما أنتم فيه؟ فيقولون: ربنا وأي شي‏ء خير مما نحن فيه فيما اشتهت أنفسنا ولذت أعيننا من النعم في جوار الكريم؟- قال: فيعود عليهم القول فيقولون ربنا نعم فأتنا بخير مما نحن فيه فيقول تبارك وتعالى لهم: رضاي عنكم ومحبتي لكم خير وأعظم مما أنتم فيه، قال: فيقولون نعم يا ربنا رضاك عنا ومحبتك لنا خير وأطيب لأنفسنا ثم قرء علي بن الحسين عليهما السلام هذه الآية «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ ..» وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن جابر قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): إذا دخل أهل الجنة الجنة قال اللَّه: هل تشتهون شيئا فأزيدكم؟ قالوا: يا ربنا وهل بقي شي‏ء إلا وقد أنلتناه؟ فيقول: نعم رضاي فلا أسخط عليكم أبدا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 258

فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الآْخِرَةِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (69).

هؤلاء الأنكاد البعاد هم «كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» منافقين وكافرين تشابهت قلوبكم وهم «كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً».

و قضية هذه المشابهة اللعينة أنهم على كثرة قوتهم وأموالهم وأولادهم «فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ» وهو النصيب المكتسب صالحا أو صالحا حسب مختلف الخلق، وهو ما خلق للإنسان في الحياة الدنيا ذريعة للأخرى، فالخلاق الصالح هو نصيب صالح في الأخرى، وكما الخلاق الطالح هو نصيب طالح فيها، ولا يعني سلب الخلاق يوم الأخرى إلّا سلب صالحه المرتقب حيث أتلف خلاقه في الأولى «فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا وَ ما لَهُ فِي الآْخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ» (2: 200) (وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ ما لَهُ فِي الآْخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ» (2: 102).

ذلك، والخلاق: النصيب المكتسب، هو المخلوق في أصله لكل مكلف، وهو يكلّف بالتذرع به إلى مرضات اللَّه، وهو الفطرة والعقلية الصالحة وكافة الطاقات الأنفسية ظاهرية وباطنية، التي هباها اللَّه إيانا لنكون له من الشاكرين.

ذلك الخلاق قد يستمتع بها متعة الحياة الدنيا لمن «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ. أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآْخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (11: 16). فقد نسوا نصيبهم من الدنيا ذريعة للآخرة، ذلك لأنهم «استمتعوا بِخَلاقِهِمْ» متعة الحياة الدنيا، «فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ» استمتاعا متشابها بين سلف وخلف في الخلاق، خلاق الحياة الدنيا بحذافيرها، التي خلقها اللَّه لصالحنا، ولكنها اختلفت عن‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 259

صالح مغزاها بسيّئ الخلق إبصارا إليها فأعمتهم، دون إبصار بها حتى تبصّرهم.

كما «و خضتم» في آيات اللَّه ناكرين مستهزئين «كَالَّذِي خاضُوا»: كما خاضوا، ف «أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ» سلفا وخلفا «وَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ» كأن لا خاسر سواهم.

و «أعمالهم» هنا هي الحسنة في نفس الذات حيث السيئات هي حابطات دون إحباط، فأعمالهم الحسنة التي قد تفلت من ذات أيديهم حابطة غير ثابتة إذ «إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» فهي حابطة في الآخرة ليس لهم بها فيها من أجر، ثم أعمالهم التي يعملونها في الدنيا لإزهاق الحق وفّت ساعده وكسر عضده، هي حابطة فيها إذ لا يقدرون أن يضروا اللَّه بها شيئا، فإنما النافع لهم منها في هذه الأدنى متعة الحياة الدنيا ليس إلّا.

و هنا ضمير الجمع في «خاضوا» غير راجع إلى «الذي» حتى يصبح ممسكا على أدب القرآن لهؤلاء الذين ليس لهم أدب إلّا الخوض في آيات اللَّه البينات، بل هو راجع إلى «الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» و «الذي» هو عبارة أخرى عن أصل الخوض، تعني «كما خاضوا» «1». ولأن زيادة المباني تدل على زيادة المعاني، فقد تعني «الذي» هنا بديلا عن «ما» عمق الخوض وحمقه من «الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» فأنتم الأوغاد الأنكاد تتابعونهم في: كم خاضوا وكيف خاضوا، المعنيين ب «كَالَّذِي خاضُوا» كما وكيفا.

و الخوض في آيات اللَّه يشمل كل حدث في الإسلام وكما يروى عن النبي (صلى اللَّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فضمير الصلة للموصول هو غائب مفرد «خاضوه» راجعا إلى «الذين» وليس الراجع هوضمير الجمع في «خاضوا» حتى يخالف الأدب خلافا لخلاف الأدب من هؤلاء الخائضين في القرآن، فقد حاولوا طول القرون القرآنية أن يمسوا من كرامة وحيه فلم ينالوا ما يبغون، رغم الكثير من أتعابهم في هذه البغية الظالمة، مما يدل على صالح الوحي القرآني دون آية نقطة سوداء في أدب اللفظ وحدب المعنى‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 260

عليه وآله وسلم): أحذركم أن تحدثوا حدثا في الإسلام وعلم أنه سيفعل ذلك أقوام من هذه الأمة فقال اللَّه: «فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ» «1».

فكما يحدث من أحكام وأعمال وسنن لا توافق الكتاب والسنة، إنها ككل أحداث في الإسلام بإحداث ما ليس منه فيه.

ذلك فقد «كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً» واعلموا عباد اللَّه أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من مضى قبلكم، ممن كان أطول منكم أعمارا، وأعمر ديارا، وأبعد آثارا، أصبحت أصواتهم هامدة، ورياحهم راكدة، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، و آثارهم عافية، فاستبدلوا بالقصور المشيّدة، والنمارق الممهّدة، الصخور والجبال المسنّدة، والقبور اللاطئة الملحدة، التي قد بني بالخراب فناءها، وشيد بالتراب بناءها، فمحلها مقترب، وساكنها مغترب، بين أهل محلة موحشين، وأهل فراغ متشاغلين، لا يستأنسون بالأوطان، ولا يتواصلون تواصل الجيران .. وكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه، وارتهنكم ذلك المضجع، وضمّكم ذلك المستودع، فكيف بكم لو تناهت بكم الأمور، وبعثرت القبور، (الخطبة 217).

أَ لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْراهِيمَ وَ أَصْحابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70).

«أَ لَمْ يَأْتِهِمْ» وقد أتاهم بألسنة الوحي منافقين وكتابيين، بل ومشركين وملحدين، حيث الأنباء متناقلة متداولة بين كل الأمم مهما قلّت أو كثرت، ومن أهم هذه الأنباء نبأ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 255- أخرج أبو الشيخ عن الربيع أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) حذركم ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 261

قوم نوح غرقا، وعاد وهم قوم هود حيث أهلكوا بريح صرصر عاتية، وثمود وهم قوم صالح حيث أخذتهم الرجفة، وقوم إبراهيم بما فعلوا به حرقا زعمهم فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين، ثم أهلك ملكهم نمرود وسلب عنهم النعمة، وأصحاب مدين أهلكوا بعذاب يوم الظلمة بكل مهانة وذلة، وبصورة عامة «وَ الْمُؤْتَفِكاتِ» وهي المنقلبات بقراها حيث جعلت أعاليها أسافلها كقوم لوط، فقد عم عذاب الاستئصال بمختلف صورة أمثال هؤلاء الطغاة الغاوين البغات فأصبحوا مثلا لآلخرين‏ «1».

و لأن النبأ هو خبر ذو فائدة عظيمة، فهو هنا منقسم إلى «أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ» وما أتاهم من عذابات تكذيبا لهذه البينات «فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ» هنا وهناك «وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» تكذيبا للبينات وابتلاء بالمثلات والمؤتفكات.

إنهم ظلموا انتقاصا أنفسهم النجيسة النحيسة، حيث الانتقاص بظلمهم ليس ليرد على اللَّه وعلى الحق، ومهما ورد على أهل الحق في حيوية مادية- وليست روحية- فخلفيتها الأصيلة هي واردة عليهم أنفسهم، إذ لا تذرهم ما هم أحياء في مثلث النش‏آت.

فمن نبأ هؤلاء الأنكاد: «فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلًا لِلآْخِرِينَ» (43:) 56) ثم أولئك الآخرون يستمتعون غير شاعرين، سائرين سبيل الهلكى متغافلين، فقوم نوح يغمرهم الطوفان ويطويهم إليهم في تيار الفناء المرهوب، وأمثالهم من هؤلاء المذكورين وسواهم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: في من لا يحضره الفقيه روى جويرية بن مسهر قال أقبلنا مع أمير المؤمنين عليه السلام من قتل الخوارج حتى إذا قطعنا في أرض بابل حضرت صلاة العصر فنزل أمير المؤمنين عليه السلام ونزل الناس فقال علي عليه السلام: أيها الناس إن هذه الأرض ملعونة قد عذبت في الدهر ثلاث مرات- أو مرتين- وهي تتوقع الثالثة وهي إحدى المؤتفكات‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 262

و هكذا تكون النفس المنحرفة المنجرفة إلى هوّات، حيث تبطرها النَعمة فتحوّل نعمة ونقمة، ولا تنتفع بعظات الغابرين ولا تعتبر، ولا تنفتح بصائرهم لإدراك سنة اللَّه التي لاتتحول، فلا تبصر مهاوي ومصارع الأقوياء الأغوياء قبلها.

هذه هي الضفّة المنافقة والكافرة، ومن ثم الضفّة الإيمانية:

وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ يُطِيعُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71).

هذه الولاية هي ولاية المحبة والرقابة والنصرة التامة الطامة على بعضهم البعض، أن يلي كل أمر الآخر في خطوات الدعوة إلى سبيل اللَّه بالحكمة والموعظة الحسنة- دون الولاية الشرعية الخاصة بمدراء الشريعة- وفي نهاية المطاف وعند كمال الدعوة ومعرفة كاملة بالمعروف والمنكر- وشروط أخرى مفروضة التحصيل قدر المستطاع- «يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» فكل فاعل منهم لمعروف وتارك لمنكر يأمر تارك هذا المعروف وينهي مقترف هذا المنكر، وكما يأتمر فيما هو تاركه بفاعله وينتهي فيما هو فاعله بتاركه، تآمرا بالمعروف وتناهيا عن المنكر، فيكون كلّ مرآتا للآخر يرى صالحه فيريه إياه أمرا به، ويرى طالحه فيريه إياه نهيا عنه، دون تدخل لعوامل الفرقة بين صفوفهم، فحيثما وجدت فرقة في هذه الجماعة المؤمنة فثمة تدخل عنصر غريب عن طبيعتها وعقيدتها، وثمة غرض أو مرض يمنع السمة الأولى التي قررها العليم الخبير.

و هذه الصفات الخمس في المؤمنين: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكوة وطاعة اللَّه ورسوله، هذه تقابل صفات للمنافقين: الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ونسيان اللَّه وقبض الأيدي، وعصيان اللَّه.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 263

و تلك الولاية هي قمة الولايات الإيمانية المحكمة المتحكمة بين المؤمنين، كخطوة أولى في الدعوة وكما قال اللّه: «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» (5: 105) في وجه من وجوهه العدّة، ولأن «الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ» هنا «كما المنافقون والمنافقات» هناك جمعان يحلّقان على كل من يحمل إيمانا أو نفاقا، فقد يعني الجمع فيها جمع كل خلف إلى سلفه، سلسلة موصولة مع بعضها البعض، يتابع كلّ خلف سلفه، كما يتابع بعضهم بعضا في كل سلف وكل خلف، دون انفصام في عدّتهم عن عدّتهم إيمانا أو نفاقا، مباعضة شاملة تخطّيا عن فواصل الزمان والمكان والأواصر حيث يجمع كلّا عقيدته الخاصة به في حقل الإيمان.

فالولاية الإيمانية هي امتداد بين أهليها طول الزمان وعرض المكان، وهكذا الولاية الكافرة نفاقا وسواه، طالما الولاية الإيمانية عريقة لا تنفصم، والولاية الكافرة هي في انفصام دائم، فلذلك هم «بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ» وأولئك الأكارم «بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ».

فالولاية الصادقة بحاجة إلى نجدة وشجاعة جادّة، وإلى تعاون صارم وتكاليف قائمة وليست هكذا ولاية النفاق.

و لأن «يأمرون وينهون» هنا محذوف المتعلّق فقد يشملان إلى التآمر والتناهي فيما بينهم التعاون الصالح في أمر الآخرين ونهيهم بعد كامل الدعوة العاذرة البينة.

ذلك «وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ» صلة باللَّه «وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ» صلة بعباد اللَّه بأمر اللَّه «وَ يُطِيعُونَ اللَّهَ» أصلا في الطاعة، متمثلة في كتاب اللَّه «و رسوله» فرعا فيها رسالة عن اللَّه، متمثلة في سنة رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) ولأن هذه الثلاثة هي من ميزات الإيمان معدودة في عديد الولاية الإيمانية فلتكن في رقابة جماهيرية أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكوة ويطيعوا اللَّه ورسوله في حقل الولاية وبصورة جمعية متضامنة،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 264

فكما أن تطبيق المعروف وترك المنكر شخصيا لايكفي، بل ويليها واجب الأمر والنهي، كذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكوة وطاعة اللَّه ورسوله، فعند ذلك يرحمهم الله رحمة عالية تشملهم، حيث تجعلهم أقوياء أمام الأغوياء، ف «لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً» على ضوء هذه الحياة الإيمانية التضامنية، وكما هي مذكورة في آل عمران من قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ ..» إلى «لَنْ يَضُرُّوكُمْ». ف «أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ» في الدنيا والآخرة ف «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

إذا فالخارجون عن هذه الخماسية المجيدة خارجون عن رحمة اللَّه إلى عذابه.

ذلك، وهل إن من قضايا تلك الولاية الإيمانية أن يحمل مؤمن مؤمنة أو تحمل مؤمنة مؤمنا بأمان إيمان وظل ظليل رباني؟ أجل «فإن المؤمن محرم المؤمنة ..» «1» ولكن في غير ما هو مخصوص بالمحارم الرسميين أقرباء وأنسباء، حيث إن الولاية الطليقة الصالحة تقتضي ذلك الحمل رعاية لصالح بعضهم البعض.

ذلك ف «الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ» لإخائهم في اللَّه يتحابون بجلال اللَّه والولاية للَّه و «رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس ولن يهلك رجل بعد مشورة وأهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة وأهل المنكر في الدنيا أهل المنكر في الآخرة» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. نور الثقلين 2: 240 في تفسير العياشي عن صفوان الجمال قال قلت لأبي عبد اللَّه عليه السلام بأبي‏وأمي تأتيني المرأة المسلمة قد عرفتني بعملي وعرفتها بإسلامها وحبها إياكم وولايتها لكم وليس لها محرم؟ قال: فإذا جائتك المرأة المسلمة فاحملها فإن المؤمن محرم المؤمنة وتلا هذه الآية «وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ»

(2). الدر المنثور 3: 256- أخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا عن سعيد بن المسيب قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): .. أقول وذيل الحديث مروي عنه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) بطرق كثيرة وألفاظ عدة ومنها ما عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): إن أحب عباد اللَّه إلى اللَّه عز وجلّ من حبب إليه المعروف وحبب إليه فعاله، وفيه عنه قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): إن اللَّه جعل للمعروف وجوها من خلقه وحبب إليهم فعاله ووجه طلاب المعروف إليهم‏و يسر عليهم إعطاءه كما يسر الغيث إلى الأرض الجدبة ليحييها ويحيى به أهلها وإن اللَّه جعل للمعروف أعداء من خلقه بغض إليهم المعروف وبغض إليهم فعاله وحظر عليهم إعطاءه كما يحظر الغيث عن الأرض الجدبة ليهلكها ويهلك بها أهلها وما يعفو اللَّه أكثر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 265

و لأن هذه الولاية الجماهيرية هي من لزامات الإيمان، فعلى كافة المؤمنين والمؤمنات أن يحصلوا على جدارةهذه الولاية، تقديما لكل طاقاتهم وإمكانياتهم في هذه السبيل بمقدماتها، كالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، فليكن كل واعظا آمرا ناهيا غيره كما يعظ ويأمر وينهى نفسه، بادئا بنفسه حتى يصلح واعظا لغيره.

و حين يصبح الجو في المجتمع الإيماني جو الدعوة والعظة والأمر والنهي بشروطها، فقد يسلم ذلك الجو الطاهر، القاهر على التخلفات عن كافة النكبات، ولكي يربي العائشين فيه من غير المؤمنين فضلا عن المؤمنين أنفسهم.

ذلك، فكل فاعل لمنكر أو تارك لمعروف عليه مسئولية مضاعفة ما دام في ذلك الجو معروف متروك أو منكر مفعول، أولاهما هي التخلف الشخصي عن شرعة اللَّه، وثانيتهما التخلف عن جدارة الولاية بالنسبة لأمثاله من المتخلفين.

ذلك وهنا «بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ» حيث اقتسموا إلى بعضين اثنين، قد يعنى من البعض الأول الجامعون لشروط الولاية ككل، كالعدول في كل شي‏ء، ومعهم الجامعون لشروط الولاية في بعض الأمور، ثم المولى عليهم هم المقصرون، فهناك ولاية من طرف‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 266

واحد، ثم موالاة بين بعض وبعض حسب مختلف التخلفات فيهما.

إذا فهم بين آمرين وناهين من جانب ومأمورين ومنتهين من جانب آخر، وآخر متآمرين ومتناهين فيما إذا اشتركوا في ترك واجب واقتراف محرم.

و قد تعني الأمة الآمرة الناهية وهم خير أمة أخرجت للناس الأولين، ثم يليهم الآخرون المتآمرون المتناهون، فولاية الأولين في حقل الأمر والنهي طليقة، وهي للآخرين محدودة بما هم فيه غير مقتصرين.

ثم لا ولاية لتاركي المعروف ومقتر في المنكر إلا- علّها- فيما هم فاعلوه من معروف أو تاركوه من منكر.

فالمقصر المطلق لا ولاية له على أحد في هذا الحقل، والعادل المطلق له الولاية المطلقة فيه، والعوان بينهما له ولاية نسبية فيما لا يقصر فيه.

ذلك، ولأن العدالة المطلقة قلما توجد بين المسلمين، ولا كفاية في هذه القلة القليلة قياما لواجب الأمر والنهي، ونصوص آيات وعلى ضوءها روايات لا تمنع إلّا عن الأمر بمعروف آمره تاركه، وعن النهي عن منكر ناهيه فاعله، ثم وآيات واجب الأمر والنهي بوجه الكفاية طليقة أو عامة يكتفى بتخصيصها أو تقييدها بالآمر التارك لما يأمر، والناهي الفاعل لما ينهى، إذا فواجب الأمر والنهي غير ساقط عن الباقين مهما كانوا باغين في غير ما يأمرون به وينهون عنه.

و ترى المجاهر بالفسق له أو عليه أن ينهى عن فسق آخر؟ وفي أمره ونهيه مزرءة بشرعة اللَّه، ومنقصة أو معاكسة في التأثير!.

«أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ» قد تمنع عن الآمر بالبر الناسي نفسه فيه، ولكنها محددة بنفس البر الذي به يأمرون، وإلا رجعت مشكلة عدم كفاءة العدول في كل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 267

شي‏ء، ثم «لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ» تحدد المحرم الماقت في القول أمرا وسواه بما لا يفعله نفسه.

صحيح أن في الأمر والنهي من غير العادل منقصة في التأثير ولكنه ليس- مع الوصف- عدم التأثير، إذ لا حجة للمأمور والمنهي في عدم ائتماره وانتهاءه بأن الآمر تارك لما يأمر، أو الناهي فاعل لما ينهى.

ثم آية التناهي نص في واجب النهي والانتهاء، ولو كانت العدالة الطليقة شرطا لوجوب- فضلا عن جواز- الأمر والنهي فلا دور إذا للتناهي، كما وأن التناهي تعاون على البر والتقوى وهو فرض جماعي بين الجماعة المؤمنة.

فكما يجب على المكلفين فعل الواجبات وترك المحرمات فرضا شخصيا على أشخاصهم كذلك يجب التآمر والتناهي وليس إلّا في غير العدل المطلق.

إذا فالواجب الأول على كل المكلفين وقاية أنفسهم بصورة عادلة طليقة، ثم وقاية الآخرين، وحين يفسق المكلف أحيانا ويعدل أخرى، فهو حالة عدله مفروض عليه أن يكلف التاركين له أن يحققوه، أمرا بمعروف هو فاعله، ونهيا عن منكر هو تاركه، دونما تعد طوره أن يأمر بمتروكه وينهى عن مفعوله، مهما كان خفية فضلا عن كونه جهرا.

فالمصلي التارك للصوم والصائم التارك للصلاة، يجب عليهما التآمر بأن يأمر الأول الثاني بالصلاة، ويأمر الثاني الأول بالصوم، وهكذا التناهي.

و لو لا خلق جو التآمر والتناهي لأظلم الجوّ بصورة واسعة شاسعة إذ لا كفاءة في العدول الطليقين في شي‏ء.

فهنا- في حقل واجب الأمر والنهي- هذه الآية هي أعم الآيات فيهما، ثم تخصص ب «وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ» ثم تخصص آية الأمة هذه ب «أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ..» و «لِمَ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 268

تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ» و «ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى‏ ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ» وهذه الثلاث تنضبط دلالياً ب «كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ».

و المهم في هذا البين ضرورة استمرارية لسان الأمر والنهي بين المؤمنين، متجنبين عن سوء التأثير إن لم يكن لهما حسن التأثير.

ففاعل المنكر وتارك المعروف جهارا، محرم عليه الأمر والنهي فيما لا يفعله من معروف أو لا يتركه من منكر، قطعا، ثم يتلوه غير الجاهر فيما يأمر وينهي، لمكان الإطلاق في هذه الآيات الثلاث.

و من ثم الجاهر بغير ما يأمر أو ينهى، فالأشبه وجوبهما عليه إلا إذا أثر سوءً في المأمور والمنهي.

ثم غير الجاهر بغير ما يأمر وينهي، فإنه مع العدل المطلق من القدر المتيقن للوجوب.

ذلك، ولا يعني جواز التأثير في حقل الأمر والنهي أن يؤثرا بالفعل، بل وإن أثرا في المستقبل أم بتكرار الأمر والنهي، أم ولأقل تقدير كانا حجة على المتخلفين أم مزيد حجة عليهم، حيث الدعوة الربانية تمحور «عُذْراً أَوْ نُذْراً» (77: 6) كيف لا؟ وقد عذب الذين تركوا النهي عن السوء- فيما لم يؤثر- إلى جانب فاعلي السوء في مزرءة السبت: «إِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قالُوا مَعْذِرَةً إِلى‏ رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ. فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ» (7: 166).

فقد دخل التاركون النهي عن المنكر هنا في الظالمين «بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ» ولم يكن ليؤثر النهي كما لم يؤثر!.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 269

فلا يشترط في وجوب الأمر والنهي التأثير ولا جوازه بالفعل ولا مستقبلا، بل يكفى كونها حجة على المتخلفين.

و هكذا شرط الأمن من الضرر إلا إذا فاق ضرر ترك المعروف وفعل المنكر، ف «وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلى‏ ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» (31:

17) وليست الإصابة هنا إلا من مخلفات الأمر والنهي.

وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72).

«وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ» من «جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ» ف «لنعيم أهل الجنة برضوان الله عنهم أفضل من نعيمهم بما في الجنان» «1».

فأين حظوة روحية ب «رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ» معرفية وعبودية وزلفى، من حظوة جسدية في جناتها؟ مع كل مواصفاتها على لسان الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) «2».

و هنا «رضوان» تنكير قاصد لأقل رضوان إلى كثيرة وأكثره، فقليل الرضوان أكبر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 257- أخرج ابن أبي حاتم عن أبي عبد الملك الجهني قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): .. وفيه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): إن اللَّه يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك يا ربنا وسعديك والخير في يديك فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحدا من خلقك فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: يا رب وأي شي‏ء أفضل من ذلك؟ قال: أحل عليكم رضوان فلا أسخط عليكم بعده أبدا

(2). تفسير الفخر الرازي 16: 132 عن أبي هريرة قلت يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله وسلم) حدثني عن الجنة ما بناءها؟ فقال: لبنة من ذهب ولبنة من فضة وملاطها المسك الأذفر وترابها الزعفران وخصاءها الدر والياقوت فيها النعيم بلا بؤس والخلود بلا موت لا تبلى ثيابه ولا يغنى شبابه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 270

من كثير الجنان و «ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» جمعا بين رضوان وهذه الجنان «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ».

و كما أن السالكين إلى اللَّه يوم الدنيا يفضّلون مرضات اللَّه على مرضات أنفسهم، كذلك يوم الأخرى، ففي هذه الجنات رضوان لأنفسهم، وأين هي من «رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ»؟ وقد «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (5: 119) (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ» (58: 22) (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ» (98: 8).

فحزب اللَّه الذين يخشون ربهم هم المرضيون عند اللَّه في الدنيا والآخرة و «ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

أجل «وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ» هو أقصى الغايات وأنهى النهايات للسالكين إلى اللَّه، الهائمين إياه، ولو أن أهل اللَّه خيّروا بين رضوان من اللَّه في عذاب أليم جسيم، وبين غير رضوان ونعيم مقيم، لكانوا يقدمون رضوانه على سائر نعيمه، وإنما يفضلون الجنات لأنها محال أهل كرامة اللَّه والزلفى من اللَّه.

ثم «الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ» هنا هم الموصوفون بمخمس صفات الإيمان في الآية السالفة، دون من يحمل مجرد الإيمان عقيديا وإن لأدناها.

إذا ف «جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ» دون حساب، هي من مواعيدهم عند اللَّه، ثم سائر المؤمنين والمؤمنات هم محاسبون بتركهم صفات الإيمان الخمس، وقد يدخلون النار دون قرار ثم يخرجون إلى «جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ».

أم ترى «رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ» إضافة إلى «جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ» ذلك لمن لا يرحمهم اللَّه من التاركين لشروط الإيمان الأصلية؟!.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 271

الكفار والمنافقون‏

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَ لَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وَ ما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَ الآْخِرَةِ وَ ما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (74) وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى‏ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ (77) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (78) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (79) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (80) فَرِحَ الُمخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَ كَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ قالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ (81) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى‏ طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ (83) وَ لا تُصَلِّ عَلى‏ أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَ لا تَقُمْ عَلى‏ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ ماتُوا وَ هُمْ فاسِقُونَ (84) وَ لا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ (85) وَ إِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَ جاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَ قالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ (86)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 272

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (73).

أ تراها نزلت «جاهد الكفار بالمنافقين» إذ «إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لم‏يقابل منافقا قط، إنما كان يتألفهم» «1» والمنافق إن لم يقاتل لا يقاتل به إذ «لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ»! فإنما يقاتل بالمؤمنين الموثوقين، فهذا هو نفسه خبال وإيضاع وتضييع أن يخيّل بالآية أنها هكذا أنزلت!.

أم هي كماهيه ولكن الجهاد لا يختص بالقتال فمن جهاد المنافقين إلزامهم على الفرائض‏ «2» كما التزموا بها بإقرارهم أنفسهم لما اسلموا، كما منه التلطف معهم على حائطة، وتأليف قلوبهم لكي يتحوّلوا عن إقرارهم باللسان إلى إقرارهم بالجنان إيمانا يدخلهم في حقل المؤمنين.

كما ومنه- إذا لزم الأمر- قتالهم وكما قاتلهم علي عليه السلام فجهاد علي عليه السلام جهاد رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. نور الثقلين 2: 241 مجمع البيان روى عن أبي عبد اللَّه عليه السلام أنه قرأ «جاهد الكفار بالمنافقين» قال: إن .. وفيه روى في قراءة أهل البيت عليهم السلام «جاهد الكفار بالمنافقين» قالوا: لأن النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) لم يكن يقاتل المنافقين ولكن كان يتألفهم ولأن المنافقين لا يظهرون الكفر وعلم اللَّه بكفرهم لا يبيح قتلهم إذا كانوا يظهرون الإيمان‏

(2). المصدر في تفسير القمي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: ..

(3). المصدر عن تفسير القمي عن أبي عبد اللَّه عليه السلام في قوله «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ» قال: هكذا نزلت فجاهد رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) الكفار وجاهد علي عليه السلام المنافقين فجهاد علي .. وفيه عن أمالي الشيخ الطوسي بإسناده إلى ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية قال النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): لأجاهدن العمالقة يعني الكفار وأتاه جبرئيل عليه السلام قال: أنت أو علي‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 273

إذا فجهاد الكفار هو حملهم بالحكمة والموعظة الحسنة إلى إقرار الإيمان ثم إلى قراره، وإلّا فالقتال، ثم جهاد المنافقين هو إلزامهم على ما أقروا به، ثم التزامهم بواقع الإيمان وإلّا فالقتال.

فلا يعني «جاهد» إلّا المجاهدة بمختلف درجاتها، مهما لا يصل في المنافقين إلى قتال إلّا في حالات قلال، ف «لما نزلت جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ» أمر رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) أن يجاهد بيده، فإن لم يستطع فبقلبه، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فليلقه بوجه مكفهر «1».

فهنا «وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ» مرحلة أخيرة حاسمة بين مرحليات الدعوة في خطوات المجاهدة، و قتالهم إن لزم الأمر مطوي في «وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ».

ذلك، ف «جاهد» الشامل للقتال في آخر المجال، «وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ» الدال على غلظهم في الجهاد، هما دليلان اثنان على أن «جاهد» لا يختص بالقتال، إذ لا دور ل «أغلظ» بعد «جاهد» إن عني به القتال، ولا غلظ أغلظ من القتال.

ذلك، فالمجاهدة في سبيل اللَّه هي الصراع الدائم للسالكين إلى اللَّه، سلبا لما سوى اللَّه وشرعته، وإيجابا للَّه بشرعته، فقد يدخل في نطاقها كافة المحاولات في هذه السبيل لتكون كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة اللَّه هي العليا.

إذا فكافة الإجراءات الإيمانية لتحقيق كلمة «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» هي مجاهدات في سبيل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 258- أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال لما نزلت.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 274

اللَّه، سلبا للكفر وجلبا إلى الإيمان.

و كما ليست هذه المجاهدات لونا واحدا وشكلا فاردا، كذلك مجاهدة الكفار والمنافقين، كلّ كما تقتضيه حاله ومجاله، وليس «اغْلُظْ عَلَيْهِمْ» إلّا مرحلة أخيرة حاسمة بعد مرحليات المجاهدات اللطيفة العطيفة، ومنها- مع الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة- تأليف قلوب نافرة بمال ف «الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ» (9: 20) وهي بصورة طليقة «الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الُمحْسِنِينَ» (29: 69).

فهكذا «جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ» هنا وفي التحريم «وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ» (9) ولأن المنافقين هم أخطر من الكفار واقعيا مهما كانوا أقرب إلى المسلمين ظاهريا فجهادهم- إذا- أكثر منهم وأوعر، فالمنافق- كما الكافر- نار حيثما دار، وإخماد النار واجب المؤمنين الأحرار، ولكي تبقى الحياة المسلمة سليمة أمينة عن الأشرار، بذلا لكل جهد في إصلاح الأمر مهما بلغ به الأمر في ذلك الأمر، حفاظا على الإمرة الإسلامية والكتلة المسلمة عن همجات وهجمات أنفسية أو دعائية أماهيه؟. وإلى «وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ» فإنه أغلظ المجاهدة وآخر المطاف فيها بما في الغلظ من قتالهم إذا لزم الإمر، فآخر الدواء الكي.

ذلك ولقد كان الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) يلاين المنافقين كثيرا علّهم يلينون عن شدتهم، ويفيقون عن غفوتهم، ويغضي عنهم كثيرا علّهم يغضون، بالغا معهم في الصفح و الحلم والساحة غايتها، فإذا انتهى أمد اللين فلتكن الشدة بمراحلها، فإن لم تنفع فالحسم القاطع، وذلك عند ما يتظاهرون بمظاهر الكفر، وكما في النص التالي:

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَ لَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 275

ما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَ الآْخِرَةِ وَ ما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (74).

«يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا» ما قالوه وغالوا فيه مثل «لا تفتني»- يلمزك في الصدقات- هو إذن- إنما كنا نخوض ونلعب «في استهزاءهم» خضتم كالذي خاضوا- كما مضت.

أم وما يروى عن قالاتهم القالة الغائلة ك واللَّه لئن كان هذا الرجل صادقا لنحن شر من الحمير «1» وما شتموه‏ «2» ك «سمن كلبك يأكلك» «3» دركات سبع جهنمية من قالاتهم الكافرة ومحاولاتهم الماكرة في مختلف المجالات «وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ» بألسنتهم فإن كلمة الكفر تنقض كلمة الإسلام، و «إسلامهم» هنا تعم من آمن منهم بلسانه وقلبه كافر، أم لمّا يدخل الإيمان في قلبه، أم دخل دخيلا قليلا ضئيلا، فكفروا بقالاتهم الكافرة بعد إسلامهم بأيّ من زواياه الثلاث، حيث إن قالة الكفر تنقض قالة الإسلام على أية حال.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. قد مضت روايات عن الدر المنثور بهذا المعنى‏

(2). الدر المنثور 3: 258 عن ابن عباس قال كان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) جالسا في ظل شجرة فقال: إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان فإذا جاء فلا تكلموه فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) فقال على لم تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء أصحابه فحلفوا باللَّه ما قالوا حتى تجاوز عنهم وأنزل اللَّه: «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا ..»

(3). المصدر عن قتادة قال ذكر لنا أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار و كانت جهينة حلفاء الأنصار فظهر الغفاري على الجهني فقال عبد اللَّه بن أبي للأوس انصروا أخاكم واللَّه ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك، واللَّه لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فسعى بها رجل من المسلمين إلى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف باللَّه ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 276

ثم «وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا» من اغتيال النبي الأقدس (صلى اللَّه عليه و آله وسلم) وقد سماهم اللَّه تعالى لنبيه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك في الآية هم الذين أرادوا أن يدفعوا النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) ليلة العقبة وكانوا قد اجمعوا أن يقتلوا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وهم معه في بعض أسفاره فجعلوا يلتمسون غرمة حتى أخذ في عقبة فتقدم بعضهم وتأخر بعضهم وذلك ليلا قالوا إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادي فسمع حذيفة وهو يسوق النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وكان قائده تلك الليلة عمار وسائقه حذيفة بن اليمان فسمع حذيفة وقع أخفاف الإبل فالتفت فإذا هو بقوم متلثمين فقال إليكم يا أعداء اللَّه فأمسكوا ومضى النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) حتى نزل منزله الذي أراد فلما أصبح أرسل إليهم كلهم فقال: أردتم كذا وكذا فحلفوا باللَّه ما قالوا ولا أرادوا الذي سألهم عنه فذلك قوله: يحلفون ... وفيه عن ابن عباس في الآية قال: هم رجل يقال له الأسود بقتل رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وفيه عن عروة في قصة تبوك المفصلة فقال النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): هل علمتم ما كان شأنهم وما أرادوه؟ قالوا: لا واللَّه يا رسول اللَّه قال: فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا طلعت الشمس طرحوني منها، قالوا: أفلا تأمر بهم يا رسول اللَّه فضرب أعناقهم؟ قال: أكره أن يتحدث الناس ويقولوا: إن محمدا وضع يده في أصحابه، فسماهم لهما وقال اكتماهم، وفيه أخرج البيهقي في الدلائل عن ابن إسحاق نحوه وزاد بعد قوله الحذيفة هل عرفت من القوم أحدا فقال لا، فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) إن اللَّه أخبرني بأسمائهم وأسماء آبائهم وسأخبرك بهم إن شاء اللَّه عند وجه الصبح فلما أصبح سماهم له: عبد اللَّه بن أبي سعد وسعد بن أبي سرح وأبا حاصر الأعرابي وعامر أو أبا عامر والجلاس بن سويد بن الصامت ومجمع بن حارثة ومليحا التيمي وحصين بن غير وطعمة بن أبيرق وعبد اللَّه بن عيينة ومرة بن ربيع فهم إثنا عشر رجلا حاربوا اللَّه ورسوله وأرادوه فأطلع اللَّه نبيه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) ذلك و ذلك قوله عزّ وجلّ: وهموا بما لم ينالوا وكان أبو عامر رأسهم وله بنوا مسجد الضرار وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة.

وفيه من حديث حذيفة بن اليمان قلنا يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) ألا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: لا، إني أكره أن تحدث العرب بينها أن محمدا قاتل بقوم حتى إذا أظهره اللَّه بهم أقبل عليهم يقتلهم ثم قال: اللّهم أرمهم بالدبيلة قلنا يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وما الدبيلة؟ قال: شهاب من نار يوضع على نياط قلب أحدهم فيهلك.

وفي نور الثقلين 2: 243 في تفسير العياشي عن جابر بن أرقم عن أخيه زيد بن أرقم قال: لما أقام النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) عليا عليه السلام بغدير خم وبلغ فيه عن اللَّه مابلغ ثم نزل انصرفنا إلى رحالنا وكان إلى جانب خبائي خباء نفر من قريش وهم ثلاثة و معي حذيفة اليمان فسمعنا أحد الثلاثة وهو يقول: واللَّه أن محمدا الأحمق إن يرى أن الأمر يستقيم لعلي من بعده، وقال الآخرون أتجعله الأحمق ألم تعلم أنه مجنون قد كاد أنه يصرع عند امرأة ابن أبي كبشة، وقال الثالث: دعوه إن شاء أن يكون أحمق وإن شاء أن يكون مجنونا و اللَّه ما يكون ما يقول أبدا فغضب حذيفة من مقالتهم فرفع جانب الخباء فأدخل رأسه إليهم وقال: فعلتموها ورسول اللَّه بين أظهركم، ووحي اللَّه ينزل إليكم؟- و اللَّه لأخبرنه بكرة مقالتكم، فقالوا له: يا عبد اللَّه وانك لههنا وقد سمعت ما قلنا؟ أكتم علينا فإن لكل جوار أمانة، فقال لهم: ما هذا من جوار الأمانة ولا مجالسها، ما نصحت اللَّه ورسوله إن أنا طويت عنه هذا الحديث، فقالوا له: يا عبد اللَّه فاصنع ما شئت لنحلفن انا لم نقل وانك قد كذبت علينا افتراه يصدقك ويكذبنا ونحن ثلاثة؟ فقال لهم: أما أنا فلا أبالي إذا أديت النصيحة إلى اللَّه وإلى رسوله فقولوا ما شئتم أن تقولوا، ثم مضى حتى أتى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وعلي إلى جانب محتب بحمايل سيفه فأخبره بمقالة القوم فبعث إليهم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) فأتوه فقال لهم: ما ذا قلتم؟ فقالوا: واللَّه ما قلنا شيئا فإن كنت أبلغت عنا شيئا فمكذوب علينا فهبط جبرئيل بهذه الآية: «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ» وقال علي عند ذلك ليقولوا ما شاءوا واللَّه إن قلبي بين أضلاعي وإن سيفي لفي عنقي ولأن هموا لأهمين فقال جبرئيل عليه السلام للنبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): أخبر الأمر الذي هو كائن فأخبرني النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) عليا بما أخبر به جبرئيل فقال: إذا اصبر للمقادير

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 277

«وَ ما نَقَمُوا» من رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) والذين معه «إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ» بما حصلوا عليه من غنائم الغزوات وبسط الأمن والرياحة المعيشية في ظل الإسلام، أفهذه هي السيئة التي قدمها لهم الإسلام حتى ينقمون منه هكذا؟.

و هنا «رسوله» كما مضى ليس يعني إلا رسالة البلاغ، فلذلك أفرد الضمير للَّه بعد «رسوله» في «من فضله»، ولأن اللَّه لا يدخل في حساب العدد حتى يردف بغيره في‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 278

عدّ، كما أن «وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ» فقد تعني «أَغْناهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ»: اللَّه، وهذا من مقابلة النعمة بالنقمة وما أنحسها وأشرسها من هؤلاء الأغباش الأنكاد!.

ذلك، ثم أنظر إلى بالغة الرحمة وسابغتها الموعودة لهؤلاء الخونة إن تابوا عن ارتدادهم: «فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ» وهذا نص في قبول توبتهم لصريح وعد الخير «وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا» معرضين على ما هم عليه من الكفر والنكران «يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَ الآْخِرَةِ» ومن عذاب الدنيا خروجهم عن قوة الإسلام وأمنه، وقتلهم قضية حكم الارتداد المعمّد دون توبة، إذا فتوبة المرتد مقبولة بذلك النص، ولكن المنافق المتعمق المتحقق في نفاقه، المتعرق في كفره، ليس ليتوب وكما توعده اللَّه بالعذاب من ذي قبل «إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ» (66)، ثم «وَ ما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ».

ذلك، فكلمة الكفر إضافة إلى باطنه، تقلب الإنسان ظهر بطن، فالحذر الحذر من حصائد الألسنة وكما عن النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): «و هل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم» «1» فإن أكثر معاثر الأقدام، ومصارع الأنام هي من جرائر ألسنتهم عليهم، وعواقب الأقوال السيئة التي تؤثر عنهم، فالألسنة هي الزارعة وهي الحاصدة ما تزرعها.

وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (76).

معاهدة على شرط «لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ» فهم أنحس ممن «يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى‏ حَرْفٍ فَإِنْ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي (98)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 279

أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى‏ وَجْهِهِ» (22: 11) (فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» و أخذوا يعيشون على رغد عيش وطمأنينة جأش «بخلوا به» نقضا ل «لنصدقن» ثم «وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ» نقضا ل «لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ» وذلك من أنحس الخيانة الكافرة، فهل هم بعد يوفّقون لتوبة حتى يتوب اللَّه عليهم كما وعد «فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ»!.

ذلك، وقد يجري بصورة خفيفة في غير المنافق من ضعيف في إيمانه كثعلبة بن خاطب ومن أشبه‏ «1» ولكن النص يحمل صورة ثقيلة لا تحمل مثل ثعلبة إلّا جريا في خفيفها.

و لأن تخلف العهد نفاق فيه، ولا سيما إذا أضيف إليه الإعراض، فقد يدوم ذلك النفاق عقابا معقبا:

فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى‏ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ (77) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (78).

«فأعقبهم» ذلك النفاق الكافر، ف «أعقبهم» اللَّه، بذلك «نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ» عريقا يبقى «إِلى‏ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ» أعقبهم «بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ»: إعقابا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مجمع البيان قيل نزلت في ثعلبة بن خاطب وكان من الأنصار قال للنبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): ادع اللَّه أن يرزقني مالا، فقال: يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه أما لك في رسول اللَّه أسوة حسنة؟ والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهبا وفضة لسارت، ثم أتاه بعد ذلك فقال يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) أدع اللَّه أن يرزقني مالا والذي بعثك بالحق لئن رزقني مالا لأعطين كل ذي حقه حقه، فقال: اللّهم أرزق ثعلبة، قال: فاتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى منها فنزل واديا من أوديتها ثم كثرت حتى تباعد عن المدينة فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة فبعث رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) المصدق ليأخذ الصدقة فأبى وبخل و قال: ما هذه إلا أخت الجزية، فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) يا ويل ثعلبة فأنزل اللَّه عزّ وجلّ الآيات‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 280

بإعقابهم عقابا هنا، جزاء وفاقا، «بَلى‏ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ».

فكما الإيمان يعقب إيمانا على إيمان وهدى على هدى: «الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ» كذلك الكفر والنفاق يعقبان كفرا ونفاقا على القلوب «إِلى‏ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ» فلا يوفقون لتوبة إذ صدت على قلوبهم منافذ النور إلى مهاوي النار: «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ».

«أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ» وهم يسيرون بالكفر ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول «وَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» سرا ونجوى وأخفى منهما غيبا، كالنيات المستقبلة والأفعال الآتية، فالسر قبال التجوي، و «أخفى» هو الأخفى منهما.

فما دام النفاق غير مرتكن في القلب أمكن إزالته، فإذا ارتكن معمّدا متواترا فأصبح القلب ركاما من النفاق لم تمكن إزالته، وحتى إذا أرادها حيث «خَتَمَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ» بما كانوا يفعلون.

و هنا «يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ» هو لقاء العلم حيث يكشف الغطاء، وهو لقاء عالم اللَّه حيث لا خيرة للعبد، ويوم لقاء الحساب والجزاء بلقاء وعد اللَّه، فهو يوم الموت، ثم لا دور للنفاق إلا الجزاء الوفاق.

و هنا «ما وعدوه» تحلّق على كافة المواعيد الربانية فطرية وعقلية، ثم قالية وحالية إخلافا حليقا، طليقا عن «ما وعدوه» ثم هم «يكذبون».

فمن بذور النفاق الكافر إخلاف وعد اللَّه وتكذيبه، وقد يروي عن النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أئتمن‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 281

خان» «1»

و هؤلاء هم: الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (79).

«الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» هم المتطوعون في كل شي‏ء للَّه، متطوعين «في الصدقات» تطوعا لواجب الصدقة وراجحها، حيث يصدّقون بالزائد عن حاجاتهم المتعوّدة، فهم أولاء الأنكاد «يلمزونهم» تعييبا وتأنيبا في كل تطوعاتهم و «في الصدقات» و «يلمزون- الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ» وهم يصّدّقون مجهودهم «فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ» فهؤلاء «سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ» في الدنيا والآخرة بما يعقبهم من العذاب والتباب، سخرية بسخرية وأين هي من هيه؟، حيث «لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» و «إن الله تعالى لا يسخر ولا يستهزأ ولا يمكر ولا يخادع ولكنه تعالى يجازيهم جزاء السخرية وجزاء الاستهزاء وجزاء المكر والخديعة تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا» «2».

و هنا التطوع الإيماني في اللَّه له بعد ان اثنان: تكلف في الطوع في واجب أو راجح في واسع من الجهد، ثم تكلف فيه في أصل الجهد وهو ضيقه وجهد المقل‏ «3» وهما من سماحة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 261- أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): ..

(2). نور الثقلين 2: 247 في عيون الاخبار باسناده إلى الحسن بن علي بن فضال عن الرضا عليه السلام:.

(3). نور الثقلين 2: 246 في تفسير القمي في الآية جاء سالم بن عمير الأنصاري بصاع من تمرفقال يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) كنت ليلتي أجر الجرير حتى عملت بصاعين من تمر فأقرضته أحدهما فأمسكته وأما الآخر فأقرضته ربي فأمر رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) أن ينثره في الصدقات فسخر منه المنافقون وقالوا: واللَّه أن اللَّه لغني عن هذا الصاع ما يصنع اللَّه بصاعه شيئا ولكن أبا عقيل أراد أن يذكر نفسه ليعطي من الصدقات فقال اللَّه: سخر اللَّه منهم ولهم عذاب أليم.

وفيه عن المجمع روى عن النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) انه سئل فقيل يا رسول اللَّه أي‏الصدقة أفضل؟ قال: جهد المقل.

وفي الدر المنثور 3: 262 عن أبي هريرة قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثا فجاء عبد الرحمن فقال يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) عندي أربعة آلاف ألفين أقرضهما ربي وألفين لعيالي فقال: بارك اللَّه لك فيما أعطيت وبارك اللَّه لك فيما أمسكت وجاء رجل من الأنصار فقال يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) إني بت أجر الجرير فأصبت صاعين من تمر فصاعا أقرضته ربي وصاعا لعيالي فلمزه المنافقون قالوا: واللَّه ما أعطى ابن عوف الذي أعطى إلا رياء وقالوا: أو لم يكن اللَّه ورسوله غنيين عن صاع هذا؟ فأنزل اللَّه «الَّذِينَ يَلْمِزُونَ ..»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 282

الإيمان فليس هنا واقع التكلف، إنما هو ظرفه لمن لا ينفق، فاللّامزون الساخرون من هؤلاء هم الساخرون من شرعة اللَّه وسماحته في أمره بالإنفاق والتصدق ولا سيما جهد المقل، و «قد أفلح المزهد المجهد قد أفلح المزهد المجهد» «1».

أجل، جهد المقل المزهد هو أفضل الصدقة ولكن «أبدا بمن تعول» «2» وأما «يُؤْثِرُونَ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ» فلا تعني حرمان من تعول، إنما هو إيثار بعد واجب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر أخرج عبد اللَّه بن أحمد في زوائد الزهد عن أبي السليل قال: وقف علينا شيخ‏في مجلسنا فقال: حدثني أبي أو عمي أنه شهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالبقيع قال: من يتصدق اليوم بصدقة أشهد له بها عند الله يوم القيامة فجاء رجل لا والله ما بالبقيع رجل أشد سواد وجه منه ولا أقصر قامة ولا أذم في عين منه بناقة، لا والله ما بالبقيع شي‏ء أحسن منها فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): هذه صدقة؟

قال: نعم يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فلمزه رجل فقال: يتصدق بها والله لهي خير منه فسمع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كلمته فقال: كذبت بل هو خير منك ومنها ثلاثة مرارا ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): إلا من قال بيده هكذا أو هكذا وقليل ما هم ثم قال: قد أفلح المزهد المجهد مرتين‏

(2). المصدر عن أبي هريرة أنه قال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أي‏الصدقة أفضل؟ قال: جهد المقل وابدأ بمن تعول‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 283

النفقة، وإلا فهو إيثار الإعسار المحظور في شرعة اللَّه لمكان النهي: «وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى‏ عُنُقِكَ» و «يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ»: الزائد عن الحاجة الطبيعية، وبغير إسراف أو تبذير ولا إقتار.

أجل وإن هؤلاء المنافقين البخلاء عما يتوجب عليهم قد يتعدى بخلهم إلى منفقين غيرهم ساخرين منهم ومستهزئين بهم، تقولا وتغولا على هؤلاء المؤمنين السمحين المنبعثين إلى الصدقات بكل طواعية نفس ورضا قلب، حيث يتطوعون تكلفا متعودا في غير ما تكلف أو تخلّف، حيث طوعوا أنفسهم لكل المشاق في سبيل اللَّه لحد أصبحت المشقة لهم راحة، والصعوبة لهم رياحة دون أية عاهة.

ذلك لأن هؤلاء الأنكاد الساخرين لا يدركون المشاعر الرفرافة المنبعثة من هذه الذوات الطاهرة الغامرة من حب اللَّه وحب أهل اللَّه.

فهؤلاء الأغباش العباد لا توبة لهم ولا غفران حيث «أعقبهم نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى‏ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ» ف: اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (80).

هنا «سبعين» عدد غير محدّد، حيث أتي به هنا للتكثير، بقرينة «لن» حيث تحيل الغفر عن بكرته على أية حال وقبلها مساوات الاستغفار وتركه أيا كان، ومن بعد «بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا» فهذه الثلاثة آيات بينات لكون «سبعين» واردة مورد التكثير دون حد لعدِّه، ومن ثم «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» تحيل غفرهم على أية حال، فلا يصدق المفترى على الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) أن يقول:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 284

«لأزيدن على السبعين» «1» فيبدوا هنا أنه بدا له أن يستغفر لهم أم بدأ يستغفر لمكان «فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ» فهنا اللَّه يخبره أن مصير هؤلاء مقرر، وحسابهم مختوم محتوم، فلا مجال لتوبتهم أو الاستغفار لهم، فالقلب حين يختم عليه ويسد عنه كل منافذ النور فلا مجال بعده إليه من نور: «وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ».

و هنا «اسْتَغْفِرْ لَهُمْ» أمرا «أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ» نهيا هما سيان في واقع الاستغفار «فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» وليس الاستغفار إلّا لغفر برجائه، وحين لا رجاء فالاستغفار لغو ينزّه عنه ساحة الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم).

ذلك ومثله كثير مثل «أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ» «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ» (64: 6).

و المستفاد من «لن يغفر» بعد «أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ» ومن بعد «بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا ..» أنه يحرم الاستغفار لمن تبين أنه من أصحاب الجحيم، وقد تبين الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) ببيان اللَّه تعالى ذلك فلم يستغفر لهم ولن، إذ «ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى‏ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 264- أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عروة أن عبد اللَّه بن أبي قال‏لأصحابه: لو لا أنكم تنفقون على محمد وأصحابه لا نفضوا من حوله وهو القائل:

«ليخرجن الأعز منها الأذل» فأنزل اللَّه الآية قال النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) لأزيدن على السبعين فأنزل اللَّه «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ».

وفي نور الثقلين: 2: 247 عن تفسير العياشي عن العباس بن هلال عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: إن اللَّه تعالى قال لمحمد (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): «إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» فاستغفر لهم مائة مرة ليغفر لهم فأنزل اللَّه «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» وقال «لا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره، فلم يستغفر لهم بعد ذلك ولم يقم على قبر واحد منهم»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 285

الْجَحِيمِ» (9: 113).

أ فبعد ما تبين للنبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) بعد بيان اللَّه أن هؤلاء المنافقين لا يستغفر لهم، يخلد بخلده أن يستغفر لهم مأة مرة تأويلا ل «سَبْعِينَ مَرَّةً» المحظورة بنفس العدد، وهذه القرائن القاطعة تؤكد أنه فقط للتكثير، فلو استغفر لهم مليارات المرات إلى يوم القيامة فلن يغفر اللَّه لهم.

أ فهكذا تهتك ساحة الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) القدسية أنه لم يتبين ببيان اللَّه حرمة الاستغفار لهم فاستغفر مأة أو حاول؟!.

فَرِحَ الُمخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَ كَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ قالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ (81).

«المخلّفون» هم الذين خلّفوا عن الجهاد بما تخلّفوا استئذانا لقعودهم وهم فرحون «بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ» حيث خالفوا أمر قائد القوات الرسولي نفاقا عارما «وَ كَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» كراهية هي طبيعتهم المنافقة الكافرة، ومن قالهم في قعودهم خلاف رسول اللَّه: «لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ» «1» تظاهرا بمصلحية الحفاظ على نفوسهم، رغم أن واجب الجهاد- ولا سيما في استنفاره العام- لا يعرف حرا ولا بردا وما أشبه «قُلْ نارُ جَهَنَّمَ» المؤججة على المخلّفين المخالفين «أَشَدُّ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 265 عن ابن عباس أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) أمرالناس أن‏ينبعثوا معه وذلك في الصيف فقال رجال يا رسول اللَّه الحر شديد ولا نستطيع الخروج فلا تنفروا في الحر فقال اللَّه: قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فأمره بالخروج.

وفيه أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد اللَّه قال: استدار برسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله وسلم) رجال من المنافقين حين أذن للجد بن قيس ليستأذنوه ويقولون: يا رسول اللَّه ائذن لنا فإنا لا نستطيع أن نتفر في الحر فأذن لهم وأعرض عنهم فأنزل اللَّه في ذلك: «قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ..»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 286

حَرًّا» مما تزعمون «لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ» الحق المرام، بتفقه صالح ينتج لهم علما غائبا بعلم حاضر، ولكنهم «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الآْخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ»- وهنا «لو» تحيل فقههم عن تقصير تحول إلى قصور، كما أن «لن يغفر» إحالة بما اختاروا ذلك النفاق وثبتوا عليه قصورا عن تقصير.

و هنا «خلاف» دون «خلف» تعني معنى زائدا عن الخلف وهو أنه خلف الخلف، حيث تخلفوا أم خلّفوا، فإنهم بين من استاذن متخلفا ومن نهي عن الخروج، ف «المخلفون» دون «المتخلفون» لكي تشمل إلى المستأذنين للقعود آخرين منعوا عن الخروج، سواء الذين استأذنوا منهم للخروج: «فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى‏ طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً ... فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ» (83) أم لم يستأذنوا للخروج أم قعود وهم منعوا عن الخروج، ثالوث منحوس من «المخلّفين» هم فرحون بمقعدهم خلاف رسول اللَّه، وما «قالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ» إلّا الأولين، ولكن «المخلّفون» تعم إليهم الآخرين.

ذلك، وإن كانوا هم يشفقون من ذلك الحر، ويؤثرون راحة الجسد المسترخية في ظلال، على راحة الروح بروح ورضوان، فما هم فاعلون- إذا- بحر جهنم وهي أشد حرا وامدّ وطَولا و طولا؟ .. إنها لسخرية مريرة وهي حقيقة لهم حقيقة بهم، إذا:

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (82).

هل الأمران هنا تكليفيان؟ والمنافق لا يأتمر بأمر فكيف يكلف به؟! إنهما تعجيزيان «فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا» هنا كما هم ضاحكون فرحون بمقعدهم خلاف رسول اللَّه، ومهما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 287

حسبوه كثيرا ولكنه في الحق قليل‏ «1»:

«فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الآْخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» (9: 38) ثم «وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً» هنا لو يعلمون ما هو حالهم بمآلهم، وبعد الموت تحسرا وتأسفا على ما مضى وتخوفا على الحاضر هناك والمستقبل.

إذا فلا واقع لأمر ضحكهم بعد الموت، وإنما «فليضحكوا» هنا قليلا وكل حياة الدنيا قليل، «و ليبكوا» هنا وهناك «كثيرا» وهو في نفسه كثير فضلا عن نسبته إلى ما هنا.

و هنا «جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ» كما تختص البكاء الكثير باليوم الأخير، كذلك تختصهما جميعا بالمنافقين والكافرين، فلا تشمل المؤمنين، اللّهم إلا غضا عن «جزاء» تأويلا «فليضحكوا ..» وكما يروى عن النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): «و الله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» «2».

ذلك، فقد يعني الأمران هنا إلى التعجيز التكليف مهما لايأتمرون، أن على الكفار والمنافقين أن يقللوا من ضحكهم هنا ويكثروا من البكاء بما قدمت لهم أنفسهم «جَزاءً بِما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 65 عن ابن عباس في الآية قال: الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاءوا فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى اللَّه استأنفوا بكاء لا ينقطع أبدا

(2). المصدر أخرج ابن مردويه عن أنس قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): إني أرى ما لا ترون واسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أصابع إلا وملك واضع جبهته للَّه ساجدا واللَّه لا تعلمون ما أعلم ... وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى اللَّه لوددت أني كنت شجرة تعضد.

و في مفتاح كنوز السنة مثله نقلا عن: بخ- ك 16 ب 2، ك 67 ب 107، ك 81 ب 27، ك 83 ب 3، تر- ك 34 ب 9، مج- ك 1937. مى- ك 20 ب 26، حم ثان ص 257 و 312 و 417 و 432 و 453 و 467 و 477 و 502، ثالث ص 102 و 126 و 154 و 180 و 192 و 210 و 217 و 240 و 245 و 251 و 268 و 290، خامس ص 173، سادس ص 81 و 164، ط- ح 2071

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 288

كانُوا يَكْسِبُونَ» هنا، ثم «لْيَبْكُوا كَثِيراً» جزاءً هناك.

و كذلك الأمر للمؤمنين تغاضيا عن الجزاء السوء، بل حصولا على الحسنى في الحياة الأخرى حيث الضحك الكثير آية الغفلة والغفوة، مهما كان المؤمن بشره في وجهه وحزنه في قلبه، فهو حين يضحك حزين على ما يرى في الأرض من الفساد.

ذلك، وعلى كل مقصر مؤمنا أو كافرا أن يبكي كثيرا على تقصيره وقصوره، وتخضعا للَّه.

و طبيعة الحال في الكافر الغافل والمؤمن المستغفل أن يكون فرحا، وتعاكسها في المؤمن النابه أن يكون قرحا، فالكافر فرح بحريته في شهواته وله رفاق فيها كثير، وليس قرحا إلا قليلا فيما لا ينال شهوة أو تناله مصيبة.

و المؤمن قرح حيث الإيمان هو قيد الفتك، ولما يرى في الأرض من الفساد الكثير ورفاقه في الإيمان قليل.

و الضحك المحظور للمؤمن هو الناشئ عن الغفلة، دون الضحك بشرا تلطيفا لجو المجتمع الذي يعيشه، فإنه محبور، وقد كان النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) مبتسما.

إذا فالضحك والبكاء هما ظاهرتان- في الأغلب- لفرح أو قرح في القلب، فلأن قلب المؤمن قرح بما يرى من نفسه ومن سواه، فهو باك وإن لم يظهر بكاءه، حيث الأصل في البكاء هو انكماش النفس، كما أن قلب الكافر فرح مرح حيث يعيش حرية أهواءه ومعه رفاقه الكثير مهما لم يظهر فرحه.

فالأصل في «فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً» هم غير المؤمنين، هنا لو عرفوا م‏آلهم بحالهم الكافرة، وهناك ليس إلا البكاء شاءوا أم أبوا.

ثم الأصل في المؤمنين أن يكونوا فرحي القلب «فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا» بمظهره وقلوبهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 289

باكية، «وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً» بمظهره وسواه وقلوبهم حاكية.

و لا يعني‏حديث النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) بقوله «و الله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» إلا تأويلا للآية دون تفسير، لأن مال الضحك إلى فرح القلب والمؤمن قرح القلب بما يعلم الأمثل فالأمثل.

و لأن «فليضحكوا وليبكوا» أمران غائبان فلا يعنيان إلّا حتمية قليل الضحك وكثير البكاء، والأول لا محالة واقع في الدنيا حيث إن الضحك فيها مهما كان كثيرا فهو بجنب بكاء الآخرة قليل.

ثم الثاني لا محالة واقع في الأخرى شاءوا أم أبوا دونما حاجة إلى أمر.

ثم لو كانوا يفقهون هنا «فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا» حين الغفلة «وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً» عند النبهة بما قدمت لهم أنفسهم لأخراهم.

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى‏ طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ (83).

هنا نفاق معاكس من هؤلاء الأنكاد، فقد رضوا بالقعود أول مرة باستئذان، وهم أولاء يستأذنون للخروج هنا ثاني مرة، والجواب كلمة واحدة:

«لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا» فسواء عليكم استأذنتم للقعود أم للخروج فالقصد واحد هو القعود «فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ» مستأذنين للخروج أو القعود، وغير مستأذنين.

هنا «فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ» بعد الإنتصار «إِلى‏ طائِفَةٍ مِنْهُمْ» لم يخرجوا دون استئذان أم قعدوا باستئذان «فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ» لغزوة أخرى نظرة الإنتصار أم تعمية لقصد القعود، «فقل ..» ل «إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ» فما أنتم إلا قاعدين، إذا «فَاقْعُدُوا مَعَ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 290

الْخالِفِينَ» فلا حاجة إليكم بعد على أية حال، فإنكم أنتم الخالفون على أية حال، فمهما كانوا هم خالفين صراحا فأنتم خالفون قصدا حيث كنتم معهم أوّل مرة، والخالف لغويا هو المخالف وهو الفاسد، فلا يعني الخلف الصالح حيث العبارة الشاملة للكل «القاعدين» ثم «رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ» هي الأخرى شاهدة على معنى الخالف.

فقد نزلت هذه الآية على الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وهو في غزوة تبوك، وهذه الطائفة منهم كان لهم مزدوج النفاق حيث استأذنوه للخروج لغزوة أخرى بعد ما استأذنوا للقعود عن تبوك، وهذه من الملاحم القرآنية أن يخبر جمعا من المنافقين ان لن يخرجوا ولم يخرجوا وإن تكذيبا لهذه الملحمة، وكما في جمع من الكافرين «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» والخالفون هنا هم القاعدون الأولون المستأذنون للقعود، و هم هنا لا يستأذنون للخروج، فلا تعني معهم المعذورين من المؤمنين حيث المعية المعنية هي المحظورة، فإنما الخالفون هم المخلّفون الفرحون بمقعدهم خلاف رسول اللَّه، دون الضعفاء و المرضى والذين لا يجدون ما ينفقون.

و هكذا يواجه الجندي المتخلف الخالف ألا حاجة إليه في غزوة سهلة حين يرفض النفر في غزوة صعبة ملتوية، حيث يتبين القصد من الخروج إذا إنه تعمية القعود الأول نفاقا بعد نفاق.

و الدعوات الربانية ولا سيما القتال في سبيل اللَّه بحاجة ماسة إلى صالحين صلبين مستقيمين مصممين صامدين في طويل الكفاح الشاق المرير، والصف الفاشل، المتخلل فيه الضعاف المسترخون، ليس ليصمد كما يرام، حيث يخذلونه في ساعة الشدة والعسرة، فلينبذوا بعيدا عن ذلك الصف، مقاتلين في سبيل اللَّه كأنهم بنيان مرصوص غير واه ولا مرضوض، خالصين عن كل دخل ودجل.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 291

فالتسامح مع الخالفين في ساعة العسرة لساعة الرخاء واليسرة- حيث يعودون بمظهر المتطوعين- ذلك التسامح هو خيانة للصف كله، وجناية على الدعوة كلها، فإلى المفاصلة التامة لكي يخلص الصف عن تسرب النفاق «فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ» المجانسين إياكم، وابعدوا عن المناضلين غير المجانسين لكم. هذه هي حياتهم الجهنمية، وإلى حياتهم الأخرى حيث لا يشاركون مع المؤمنين في صلاة عليهم ولا تجهيز جنازة اللّهم إلّا غسلا وكفنا ودفنا هي قضية ظاهر الإسلام: وَ لا تُصَلِّ عَلى‏ أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَ لا تَقُمْ عَلى‏ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ ماتُوا وَ هُمْ فاسِقُونَ (84).

و تراه صلى على أحد منهم مات أو قام على قبره فنهي بعد عن ذلك؟ طبيعة الحال في إجراء أحكام الإسلام على المنافقين تقتضي أن يصلي عليهم أو ويقوم على قبورهم كسائر المسلمين، اللّهم إلّا أن ينهي عن البعض من الطقوس الإسلامية بحقهم، ومن ناحية أخرى نهي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) من ذي قبل أن يستغفر لهم، ومن مفروضات الصلاة على الميت الاستغفار له، وقضية الجمع بين الأمرين أن يصلي عليهم‏ «1» دون استغفار،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 266- أخرج ابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال لما مرض عبد اللَّه بن أبي‏ابن سلول مرضه الذي مات فيه عاده رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) فلما مات صلى عليه وقام على قبره، قال: واللَّه إن مكثنا إلا ليالي حتى نزلت «وَ لا تُصَلِّ عَلى‏ أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً ..» وفيه أخرج ابن ماجة والبراز وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن جابر قال: مات رأس المنافقين بالمدينة فأوصى أن يصلي عليه النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وأن يكفنه في قميصه فجاء ابنه إلى النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) فقال: أبي أوصى أن يكفن في قميصك فصلى عليه وألبسه قميصه وقام على قبره فأنزل اللَّه «وَ لا تُصَلِّ ..».

وفيه عن أنس أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) أراد أن يصلي على عبد اللَّه بن أبي فأخذ جبرئيل عليه السلام بثوبه وقال: «وَ لا تُصَلِّ عَلى‏ أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَ لا تَقُمْ عَلى‏ قَبْرِهِ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 292

فلسائر المسلمين تكبيرات خمس ولهم أربع‏ «1» حيث تنقص صلاتهم الدعاء لهم، فلما نهي عن الصلاة عليهم ترك هذه الأربع أيضا خلاف ما يروى، فإنها صورة الصلاة وقد نهي عنها مطلقا «2» اللّهم إلا أن يعني من الصلاة الدعاء.

ذلك ومما يزيد الصلاة عليهم ترجيحا حرمة أقاربهم المؤمنين وجذب آخرين من المنافقين إلى الإيمان، قضية هذه الرحمة الواسعة الإسلامية.

فلو أنه صلى على عبد اللَّه بن أبي رأس المنافقين وبعث بقميصه ليكفن فيه، أم وقام على قبره- وذلك قبل نهيه عن هذا وذلك- لم يكن بذلك موبّخا مؤنّبا، بل وكان ترك الصلاة قبل نهيه محظورا، مهما انقلب بعد نهيه محبورا، فإنه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وقف لأمر اللَّه ونهيه، دون هواه أم أهواء من سواه إلا سبيل اللَّه وهداه.

إذا فكيف يتجرأ عمر أن ينهى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) عما أمره اللَّه وإن كان ينهاه اللَّه بعد، ينهاه ويجذب ثوبه هتكا لساحته ومسا من كرامته؟ فهل هو أعلم منه بأحكام اللَّه، أو أحوط منه على شرعة اللَّه، وهل يعد ذلك- بعد- من مكارم الخليفة أن نزل وحي اللَّه بعد على هواه، خلافا لهوى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) «وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. نور الثقلين 2: 250 عن الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: كان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) يكبر على قوم خمسا وعلى قوم آخرين أربعا وإذا كبر على رجل أربعا أنهم بالنفاق‏

(2). المصدر عن الكافي عنه عن محمد بن مهاجر عن أمه عن أم سلمة قالت سمعت أبا عبد اللَّه عليه السلام يقول: كان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) إذا صلى على ميت كبر وتشهد ثم كبر وصلى على الأنبياء ثم كبر ودعا للمؤمنين ثم كبر الرابعة ودعا للميت ثم كبر وانصرف فلما نهاه اللَّه عزّ وجل عن الصلاة على المنافقين كبر وتشهد ثم كبر و صلى على النبيين صلى اللَّه عليهم ثم كبر ودعا للمؤمنين ثم كبر الرابعة وانصرف ولم يدع للميت‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 293

إن هذه القولات الغولات إلا هرطقات حمقاء واللَّه ورسوله منها براء، فإنها تفضيل رذيل لعمر على رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) فالغريق يتشبث بكل حشيش.

هذا ومن غريب الهرطقات أن عمر ينهاه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) عن الصلاة عليهم بعد نزول هذه الآية، ويكأنه (صلى اللَّه عليه و آله وسلم) يعارض الوحي وعمر يحارزه؟ «1».

فسواء أصلى عليه قبل نزول النهي عنها، أم وقف أمامه كهيئة المصلي عليه، فلا مغمز عليه في شي‏ء منهما، وقد أجابه الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) في الثاني:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر في الدلائل عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي بن سلول أتى ابنه عبد الله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقام عمر بن الخطاب فأخذ ثوبه فقال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي على المنافقين فقال: إن ربي خيرني وقال استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ..» وسأزيد على السبعين، فقال: انه منافق فصلى عليه فأنزل اللَّه «وَ لا تُصَلِّ ..» أقول هنا متناقضة بين صدر الحديث وذيله ونسبة سوء الفهم إلى الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) في «استغفر ..» فيا له من مختلق يراد منه تبجيل الخليفة وتخجيل الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم)!

وفي نور الثقلين 2: 250 في تفسير العياشي عن حنان بن سدير عن أبيه عن أبي جعفر عليهما السلام توفي رجل من المنافقين فأرسل إلى ابنه أن إذا أردتم أن يخرجوا فأعلموني فلما حضر أمره أرسلوا إلى النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) فأقبل نحوهم حتى أخذ بيد ابنه في الجنازة فمضى، قال فتصدى له عمر ثم قال: يا رسول اللَّه أما نهاك ربك عن هذا أن تصلي على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره؟ فلم يجبه النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) قال: فلما كان قبل أن ينتهوا به إلى القبر قال عمر أيضا لرسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): أما نهاك اللَّه عن أن تصلي على أحد منهم مات أبدا أو تقوم على قبره؟ «ذلك ب إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ ماتُوا وَ هُمْ فاسِقُونَ» فقال النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) لعمر عند ذلك: ما رأيتنا صلينا على جنازة ولا قمنا له على قبر ثم قال: إن ابنه رجل من المؤمنين وكان يحق علينا أداء حقه، وقال له عمر: أعوذ باللَّه من سخط اللَّه وسخطك يا رسول اللَّه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 294

و ما يدريك ما قلت له: فإني قلت له: اللّهم أحش قبره نارا وسلط عليه الحيات والعقارب.

ذلك، والجهاد من أكبر الواجبات، والتقاعس والتواني عنه من أكبر المحرمات «فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أولياءه، وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة، فمن تركه رغبة عنه، ألبسه اللَّه ثوب الذل وشملة البلاء، وديّث بالصغار والقماء، وضرب على قلبه بالإسهاب، وأديل الحق منه بتضييع الجهاد وسيم الخسف ومنع النّصف- ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا وسرا وإعلانا، و قلت لكم: أغزوهم قبل أن يغزوكم، فو اللَّه ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلّا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم، حتى شنّت عليكم الغارات، وملكت عليكم الأوطان، وهذا أخو غامد و قد وردت خيله الأنبار وقد قتل حسان بن حسان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها، و لقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع حجلها وقلبها وقلائدها ورغاثها، ما تمنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام، ثم انصرفوا وافرين، ما نال رجلا منهم كلم، ولا أريق لهم دم، فلو أن إمرأ مسلما مات بعد هذا أسفا ما كان به ملوما، بل كان به عندي جديرا- فيا عجبا عجبا، واللَّه يميت القلب ويجلب الهمّ اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم، فقبحا لكم وترحا حين صرتم غرضا يرمى، يغار عليكم ولا تغيرون، وتغرزون ولا تغرزون، ويعصى اللَّه وترضون- فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم هذه حمّارة القيظ، أمهلنا يسبّح عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم هذه صبّارة القرّ، أمهلنا ينسلخ عنا البرد، كل هذا فرارا من الحر و القر، فإذا كنتم من الحر والقر تفرون، فأنتم واللَّه من السيف أفرّ- يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال، وعقول ربات الحجال، لوددت أني لم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 295

أركم ولم أعرفكم، معرفة واللَّه جرّت ندما، وأعقبت سدما، قاتلكم اللَّه لقد ملأتم قلبي قيحا، وشحنتم صدري غيظا، وجرّعتموني نغب التهمام أنفاسا، وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان حتى قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب، للَّه أبوهم! وهل أحد منكم أشد لها مراسا وأقدم فيها مقاما مني، لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرفت على الستين، ولكن لا رأي لمن لا يطاع» (الخطبة 27) ومهما يكن من شي‏ء فلم يقف عمر موقفه في نهيه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) إلّا محظورا يدل على نقصه في إيمانه أو نقضه إيمانه أن يبادر الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) بلفظة قول أم جذبة ثوب تأنيبا عجيبا كأنه خالف وحي اللَّه أم لم يعرف معناه!.

فالرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) هنا بين حالات ثلاث: أنه صلى على ابن أبي دونما استغفار له لآية النهي عنه، وقبل آية النهي عن الصلاة، فقد أدّى واجبه، فكيف ينهى- إذا- عن واجبه؟.

أم لم يصل عليه إذ سبقه النهي عن الصلاة، وإنما وقف أمامه كصورة المصلي، حرمة لابنه المؤمن وعلّه يؤمن بذلك ألف من المنافقين وقد آمنوا، وهو في الأول أولى، ولا تطارده: «وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا. إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَ ضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً» (7: 75) لأنها ليست بشأنه مع المنافقين، وأن هذه الملاينة هي ليست مع المنافق بل هي مع ابنه، ثم لا تعني- على أية حال- ركونا إلى المنافقين، أو ترى إعطاء نصيب من الزكوة لهم تأليفا لقلوبهم ركونا إليهم، وقد أمر به اللَّه! أم ترى وعد الغفران لهم إن تابوا ركونا إليهم؟ وهو نص كتاب اللَّه!.

أم صلى عليه دون استغفار بعد النهي عنها؟ وهذا مس من كرامته في عدالته فضلا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 296

عن عصمته! ومهما اختلفت الروايات بين هذه الثلاث فهي متفقة على أمرين أمرَّين: أن عمر نهاه قبل النهي عن الصلاة وبعده، وكما اتفقت في أنه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) أرسله بثوبه ليغطي به ولما ذكروا القميص قال: «و ما يغني عنه قميصي، والله إني أرجو أن يسلم به أكثر من ألف من بني الخزرج» «1».

أجل، ولما ذا لا يبعث إليه قميصه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وقد طلبه وطلبه ابنه قضية وصيته، وابنه هذا من كرام المؤمنين، وقد يلمح طلبه قميصه أنه آمن واهتدى حتى أخبره جبرئيل أنه مات كافرا، ثم العباس عم النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) لما أخذ أسيرا يوم بدر لم يجدوا له قميصا وكان رجلا طويلا فكساه عبد اللَّه قميصه، وهكذا المشركون لما قالوا له يوم الحديبية: إنا لا ننقاد لمحمد، فقال لا، إن لي في رسول اللَّه أسوة حسنة، فقد يشكره الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) على هذه المواقف وكما يشكر ابنه على موقفه المشكور في الإيمان، ثم اللَّه نهاه عن رد السائل.

أ فلا يكفي كل ذلك مبررا لإجابة طلبته في قميصه، وأن يصلي عليه- إن كانت قبل النهي عنها- أو يقف أمامه كهيئة المصلي وهو لا يصلي؟!.

أجل «لا تُصَلِّ ... وَ لا تَقُمْ ... إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ ماتُوا وَ هُمْ فاسِقُونَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 266- أخرج أبو الشيخ عن قتادة قال: وقف نبي اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) على عبد اللَّه بن أبي فدعاه فأغلظ له وتناول لحية النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) فقال أبو أيوب: كف يدك عن لحية رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) فو اللَّه‏لئن أذن لي لأضعن فيك السلاح، وأنه مرض فأرسل إلى النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) يدعوه فدعا بقميصه فقال عمر: واللَّه ما هو بأهل أن تأتيه، قال: بلى فأتاه فقال: أهلكتك موادتك اليهود، قال: إنما دعوتك لتستغفر لي ولم أدعك لتؤنبني، قال: اعطني قميصك لأكفن فيه، فأعطاه ونفث في جلده ونزل في قبره فأنزل اللَّه «وَ لا تُصَلِّ عَلى‏ أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً ..» قال: فذكروا القميص، قال: وما يغني عنه قميصي واللَّه لأرجو أن يسلم به أكثر من ألف من بني الخزرج‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 297

فليس- فقط- الكفر باللَّه ورسوله مانعا عن سماح الصلاة عليهم والقيام على قبرهم، بل «وَ ماتُوا وَ هُمْ فاسِقُونَ» خارجون عن طاعة اللَّه متظاهرين بباطن كفرهم، حيث الفسق يخص ظاهر التخلف، وتقدم الكفر هنا دليل أنه فسق الكفر، فحين يظهر الكفر من الفاسق والمنافق يلحق بالكفار الرسميين الخارجين عن كل أحكام الإسلام.

فلا مجرد الفسق يكفي ولا مجرد الكفر في الباطن دون تظاهر به، إنما هو الجمع بين كفر الباطن والظاهر، وأن يموتوا وهم فاسقون بذلك الكفر، فمن مات بكفر باطن دون ظاهر الكفر، أو مات بفسق دون باطن الكفر، فهما محكومان بمظاهر أحكام الإسلام اللّهم إلا ما استثناه الدليل كالصلاة عليه والقيام على قبره كما هنا.

و لا تعني الصلاة هنا فقط الدعاء فإن صيغته السائغة هي الدعاء، وقد سبق النهي عن الدعاء لمن تبين أنهم من أصحاب الجحيم، فهي- إذا- الصلاة على الأموات، فقد كانت أربع تكبيرات دون دعاء قبل نزول هذه الآية، ثم منع عنها مهما ليس فيها دعاء.

ذلك، فالمستفاد من الآية حرمة الصلاة على الكافر منافقا وسواه، إلا إذا لم يظهر الكفر حيث التكاليف مبنية على الظاهر وكما يروى عن النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم):

«نحن نحكم بالظاهر والله تعالى يتولى السرائر»، ثم ووجوبها على المسلم أيا كان، ف «صل على من مات من أهل القبلة وحسابه على الله» «1» و «صلوا على المرجوم من أمتي وعلى القاتل نفسه من أمتي لا تدعوا أحدا من أمتي بلا صلاة» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. هو خبر أبي طلحة بن زيد عن أبي عبد اللَّه عليه السلام عن أبيه عليه السلام قال:

صلى .. (الوسائل كتاب الطهارة أبواب صلاة الجنازة ب 37 ح 2)

(2). هو خبر السكوني عن جعفر عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): ... (المصدر ح 3)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 298

و مهما كانت أمثال هذه الأخبار ضعيفة السند أو المتن فالآية هي قوية المتن والسند، ولم تستثن من واجب الصلاة على الأموات إلّا المنافقين الرسميين «كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ ماتُوا وَ هُمْ فاسِقُونَ» سواء أكان كفرهم صراحا خروجا إليه بعد إسلامهم، أم خفية فإنهم كذلك كافرون مهما شملتهم أحكام الإسلام في الظاهر، ولكن الآية نصت على استثناء الصلاة عليهم والقيام على قبورهم والاستغفار لهم.

و الولد البالغ ست سنين ولا سيما الذي يعقل الصلاة يصلى عليه لتظافر المعتبرة عليه، وهذا من قضايا إلحاق من لم يبلغ الحلم من المسلمين بمن بلغه.

ذلك، والخبر المشهور للميت المسلم في «اللهم إنا لا نعلم منه إلا خيرا» ليس يعني إلّا خير الإسلام فقط أمام سواه اللاإسلام ودون إسلام، لا وخير الأعمال، والّا كان كذبا بالنسبة لفساق المسلمين، أم كان المفروض ترك هذه الشهادة؟ وهي من ضمن الصلاة!.

فهؤلاء المنافقون لا كرامة لهم أحياء وأمواتا، فلا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره ...:

وَ لا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ (85).

و لقد مضت نظيرتها (55) بعد المنع عن قبول نفقاتهم بتلك المناسبة، وهنا تكرارها إلا بقليل من ألفاظها بعد منع الصلاة عليهم والقيام على قبرهم، فلا تكرار في متطلّب الموقف مهما كان تكرارا في لفظ الآية.

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَ طُبِعَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (87) لكِنِ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ أُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ الْفَوْزُ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 299

الْعَظِيمُ (89) وَ جاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَ قَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (90) لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَ لا عَلَى الْمَرْضى‏ وَ لا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ ما عَلَى الُمحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (91) وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ (92) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِياءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (93) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى‏ عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (94) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (95) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى‏ عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (96) الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى‏ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97) وَ إِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَ جاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَ قالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ (86).

«سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا» قد تعني إلى «سورة» كاملة تحمل الأمر بالإيمان والجهاد، مجموعة آيات تحملهما، بل ولا سورة في القرآن كاملة تحمل أمرهم بالإيمان والجهاد، فإن سورة «المنافقون» الخاصة بهم لا تحملهما، فالمعني من «سورة» هنا هو مجموعة من آيات تعني غرضا واحدا.

«اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ»: بسعة في المال وقوة في البدن، حيث الطول يعمهما، فرغم أنهم الذين يجب عليهم أن يستقدموا نراهم يستأخرون قائلين: «ذَرْنا نَكُنْ مَعَ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 300

الْقاعِدِينَ».

هم يقولون «ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ» الذين قعدوا عن القتال معذورين، ولكنهم في الحق قاعدون مع سائر الخالفين:

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَ طُبِعَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (87).

«الخوالف» جمع خالفة وتاءها للتأنيث اعتبارا بأنهن النساء. «1»

و سائر الضّعفان، والمعذورين مهما كانوا من أشجع الشجعان المناضلين.

و ذلك لأنهم أجمع يظلون في أمكنتهم دون خروج للحرب مهما اختلفت أعذارهم، ومنهم غير معذورين.

و من الخالفين النساء حيث يقمن في دور الحي بعد رحيل الرجال، سمّين بها تشبيها لهن بالأعمدة تكون في أواخر البيوت المضروبة، لأنهن كماهيه خوالف في البيوت لكثرة لزومهن إياها.

أم وهي للمبالغة، وهم المتخلفون على مكنتهم بدنيا وماليا، فالخوالف تشمل المتخلفين قاصرين ومقصرين، وكون القادرين على الخروج كالخوالف المتخلفين قصورا أو تقصيرا تنديد بهم شديد ف «طُبِعَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ» أكثر ممن سواهم «فهم يفقهون» الحقائق المعنية، وفاعل الطبع هنا هم أنفسهم، ثم اللَّه طبع على قلوبهم بما طبعوا «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» ف «الخالفين» هنا تعني المقصرين منهم إلى القاصرين، وقد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 251 في تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في‏قوله: «رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ» فقال: النساء انهم قالوا «إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ» وكان بيوتهم في أطراف البيوت حيث ينفرد الناس فأكذبهم اللَّه قال: «وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً» وهي رفيعة السمك حصينة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 301

يعنى معهم العدول الصالحون.

فيا لهم- على طولهم- من بؤس وخذلان حيث رضوا بأن يكونوا مع الخوالف المتخلفين المقصرين والمخلفين القاصرين، فهم على طولهم بين مقصر وقاصر.

ذلك ومن «الخوالف» الصالحين من خلّفهم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) من أشجع الشجعان كما خلف رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) عليا في غزوة تبوك وهو يبكي ويقول تخلفني مع الخوالف فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة» «1».

و لأن «رضوا ..» هنا في موقف التنديد فالقصد من مثلث الخوالف- إذا- هم دون الأخير المخلّف على قوته ليكون خليفة الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) بعد غيابه وحتى إيابه.

ذلك، وهنا «أن آمنوا» خطابا موجها إلى المنافقين دليل أنهم ليسوا داخلين في المؤمنين، مهما شملتهم خطابات الإيمان فيما لا قرينة فيه على اختصاصها بإيمان القلب.

و هنا «أُولُوا الطَّوْلِ» هم الرؤساء الذين عليهم التقدم في أمر الجهاد، لطولهم ولكونهم يقتدى بهم، ففي تركهم الجهاد- إذا- ثالوث من التخلفات، تخلف دون عذر، وتخلف على طول، وتخلف يخلّف تخلف الآخرين التابعين لهم.

فمن الناس من لا حول له ولا طَول وهو يتقدم للجهاد وما أكرمهم! ومنهم من يملك كل حول وطوَل ولا يتقدم وما الأمهم وألعنهم، ومنهم عوان بينهما متوسطين، فهم عوان بينهما «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 266- أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص أن علي بن أبي طالب عليه السلام خرج مع النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) حتى جاء ثنية الوداع يريد تبوك وعلي يبكي ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 302

و أولوا الطول من المنافقين هم متخاذلون على طولهم، استخذاء أمام واجب الجهاد، فهنا خطتان، خطة الالتواء والانكماش والتخلف والرضي بالأدنى، هي خطة المنافقين، وخطة الاستقامة والبذل والكرامة، هي خطة المؤمنين، ومهما لم يعرف اللَّه- ما عرف من المنافقين- لغير الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) والحاضرين معه زمن الوحي، ولكنه عرّفهم بكل معالمهم في أقوالهم وأحوالهم وأفعالهم، ما يرسم لنا خطة لهم لئيمة معروفة على مدار الزمن.

فكما أن معرفة الشيطان بخطواته تكفينا عن معرفته بشخصه، كذلك معرفة المنافقين مهما كانوا أشطن من الشياطين.

ذلك، وإن للذل ضريبة كما أن للعز ضريبة، ولكن ضريبة الذل أفدح بكثير وأقدح، فرغم ما يخيل إلى بعض النفوس أن ضريبه الكرامة باهظة فتختار الذل هربا من تكاليف الكرامة، الباهظة، فتعيش عيشة رخيصة تافهة، قلقة مفزعة، تخاف من ظلها، وتفرق من صداها ف «يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ» و «لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى‏ حَياةٍ ..» رغم كل ذلك نجدهم يؤدون ضريبة أفدح من ضريبة الكرامة، حيث يؤدون ضرائب الذل من كل أنفسهم ونفائسهم وهم لا يفقهون أن لهم كل الشرور وهم الفالجون المفلجون:

لكِنِ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ أُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (89).

«لكن» هؤلاء هم طراز آخر حيث أدوا كل ضرائب الإيمان، رسوليا من الرسول ورساليا من الذين آمنوا معه، ف «جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ» في كل ميادين الجهاد «وَ أُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ» كلها «وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» في ملتويات الحياة هنا وفي‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 303

الأخرى، ومن الأخرى: «أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

وَ جاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَ قَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (90).

هنا «الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ» هم قسم آخر من الخالفين، فالأعراب هم أهل البوادي، البعيدون عن صالح المعرفة الإيمانية، وإنما «المعذرون» دون «العاذرون- أو- المعتذرون» لتشمل إلى هؤلاء من يعتذر لمن سواه، اعتذارا لأنفسهم إعذارا ولمن سواهم.

ثم «قَعَدَ الَّذِينَ» دون «قعدوا» تلمح أن المعذّرين لم يقعدوا كلهم، إنما هم «الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ» والآخرون خرجوا كما خرج الآخرون، ولذلك «سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ» و هم «الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ» منهم «عَذابٌ أَلِيمٌ».

ثم «كَفَرُوا مِنْهُمْ»: «المعذرون» دليل أنهم بين كافر نفاقا، وبين معذور يعتذر لنفسه ولمن أشبهه، وبين غير معذور قد يخرج وقد لا يخرج، والأولون من المعذرين هم المهددون بعذاب أليم.

فلو أنهم كلهم كانوا قاصرين معذورين، فما هو المرجع لضمير الجمع في «منهم»؟

ولا يصلح «الَّذِينَ كَذَبُوا ..» له‏مرجعا حيث الكاذبون اللَّه ورسوله كلهم كافرون.

و لكن «كذبوا» مخففة دون مثقلة ليست لتنافي الإيمان، حيث المعذّر إذا كذب في اعتذاره فقد كذب اللَّه ورسوله إذا ف «المعذرون» تشمل الصادقين منهم والكاذبين، والآخرون هم أعم من الكافرين وسواهم، والكافرون منهم هم المهدّدون بعذاب أليم.

إذاً ف «قَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ» هم بين كافرين منهم وسواهم لاشتراكهم في ذلك الكذب فإنه دركات، كما الصدق درجات.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 304

ذلك، وإلى الإفصاح عن المعذورين بين المعذّرين وسواهم، حيث أعذرهم اللَّه:

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَ لا عَلَى الْمَرْضى‏ وَ لا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ ما عَلَى الُمحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (91) وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ (92).

هؤلاء الأربع ليس عليهم حرج إذا قعدوا «1» وإن كان الخروج لهم أرجح لمكان «وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» فلا غفر إلا عن متروك واجب أو راجح،

فحين لا يجب الجهاد فقد يبقى راجحا، فإن بإمكان الضعف على ضعفه والمريض على مرضه والفقير على فقره، بإمكانهم الجهاد قدر وسعهم، أم- ولأقل تقدير- أن يكثّروا عديد المجاهدين في المنظر، فإن له أثرا في تخويف العدو، فلذلك قد يجب خروجهم كما في الاستنفار العام وقد مضى‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. في الدر المنثور 3: 267 عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله‏وسلم) براءة فكنت أكتب ما أنزل اللَّه عليه واني لواضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال فجعل رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) ينظر ما ذا ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وأنا أعمى؟ فنزلت «لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ ..» وفي المجمع نزلت في ابن أم مكتوم وكان ضرير البصر جاء إلى النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) فقال يا نبي اللَّه إني شيخ ضرير خفيف الحال نحيف الجسم وليس لي قائد فهل لي رخصة في التخلف عن الجهاد؟ فسكت النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) فأنزل اللَّه الآية

(2). نور الثقلين 2: 252 في أصول الكافي عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: وكذلك إذا نظرت في جميع الأشياء لم تجد أحدا في ضيق ولم تجد أحدا إلا وللَّه عليه الحجة وللَّه فيه المشية ولا أقول أنهم ما شاؤا صنعوا ثم قال: «إن الله يهدي ويضل، وقال: وما أمروا إلا بدون سعتهم، وكل شي‏ء أمر الناس فهم يسعون له وكل شي‏ء لا يسعون له فهو موضوع عنهم ولكن الناس لا خير فيهم ثم تلا: لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ ...» فوضع عنهم «ما عَلَى الُمحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» «وَ لا عَلَى الَّذِينَ ..» فوضع عنهم لأنهم لا يجدون‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 305

ثم ونفي الحرج عن هؤلاء مشروط بما «إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ» إحسانا إلى الجهاد وتقوية للمجاهدين، وليس فقط أن يسكتوا عن تفشيلهم وتفليلهم فتقليلهم فإنه كفر في حقل الجهاد، بل «إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ» نصحا موجها إلى المجاهدين، تقوية لهم وتشويقا، أم توجيها لتكتيكات حربية، أم حفاظا على أهليهم وما أشبه من حذمات وراء الجبهة، ونصحا للخاملين المعذّرين دون عذر، أن يتسابقوا إلى جبهات النضال.

فحين يعذر المؤمن ويخرج أن يجاهد بنفسه وماله، فلا يعذر- إذا- عن سائر الجهاد المعني بالنصحية لصالح المجاهدين والجهاد، توجيها وجيها كما يستطيعون لتقوية العَدد والعُدد في هذه السبيل.

فهؤلاء هم المحسنون في حقل الجهاد، غير المحرجين قضية إعذارهم للخروج «ما عَلَى الُمحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ» الإحراج للإخراج «وَ اللَّهُ غَفُورٌ» لهم «رَحِيمٌ» بهم، إذ لم يقصّروا في الجهاد مهما تركوا راجحا في سبيله.

و لقد بلغت النصيحة للَّه ولرسوله لحد يقول عنها الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) «الدين النصيحة» ولمن؟ «لله ولكتابه ولرسوله ولدين الله ولأئمة المسلمين وعامتهم» «1» و «على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم» «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر أخرج مسلم وأبو داود والنسائي عن تميم الداري أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) قال: .. قالوا لمن يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم)؟ للَّه ..،

و رواه عنه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) بإسقاط «و لكتابه» ابن عمر.

وفي نور الثقلين 2: 253 في كتاب الخصال عن تميم الداري قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): من يضمن لي خمسا أضمن له الجنة، قيل وما هي يا رسول اللَّه لا (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): قال: النصيحة للَّه عزّ وجلّ والنصيحة لرسوله والنصيحة لكتاب اللَّه والنصيحة لدين اللَّه والنصيحة لجماعة المسلمين‏

(2). وفيه أخرج البخاري ومسلم والترمذي عن جرير قال بايعت النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم وفيه أخرج أحمد والحكيم الترمذي عن أبي أمامة عن النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) قال: قال اللَّه عزّ وجلّ: أحب ما تعبدني به عبدي إلى النصح لي‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 306

و هنا في حقل الجهاد ترغيبا إليه وإعانة عليه.

و بصيغة أخرى «الناصح لله الذي يؤثر حق الله على حق الناس وإذا حدث له أمران، أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة بدأ الذي لآلخرة ثم تفرغ للذي للدنيا» «1».

و لقد اعتبر الناصح للَّه ولرسوله هنا من قمة المحسنين، ثم أطلقت كضابطة: «ما عَلَى الُمحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ» لإحراجهم فيما يفلت من أيديهم غير مقصرين، وهناك فروع عدة متفرعة على هذه الضابطة: الإحسان في حقل العقيدة يكفّر لمما فيها.

الإحسان في حقل العمل كفارة لتقصير فيه كالتوبة عن الذنب‏ «2»

و اجتناب كبائر السيئات، والإتيان بكبائر الحسنات، وسائر المكفّرات المسرودة في القرآن.

الإحسان في الحفاظ على الأمانة يكفر عن ضياعها فلا بديل عنها على المؤتمن، بل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 267- أخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن أبي حاتم عن أبي ثمامة الصائدي قال قال الحواريون يا روح اللَّه أخبر من الناصح للَّه؟ قال: الذي.

(2). نور الثقلين 2: 252 في الفقيه قال الصادق عليه السلام: شفاعتنا لأهل الكبائر من شيعتنا، فأما التائبون فإن اللَّه عزّ وجلّ يقول: «ما عَلَى الُمحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 307

وكل محسن إذا تفلّت عنه- قصورا دون تقصير- إضرار مالي على غيره، فلا سبيل إلى تحريجه في أخذ بديله عنه، اللّهم إلّا بدليل قاطع لا مردّ عنه، أم يقال إنه خارج عن «المحسنين» مهما لم يكن من المسيئين أيضا، فكما أن دم المسلم ليس ليذهب هدرا في قتل الخطأ، كذلك مال المسلم، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه.

فالذي يضيّع مال المسلم أمانة وسواها، هو مسي‏ء عاص للَّه، وهو مديون ما ضيّعه، وأما الذي يضيع مال مسلم عنده دون تقصير، فإن كان محسنا شملت الآية، وأما القاصر في ضياع مال المسلم فلا هو محسن ولا مسي‏ء، فكيف يدخل في نطاق الآية؟ وهنا ضابطة الغرامة محكّمة بمجرد ضياع مال، فإنما الإحسان حسب هذه الآية هو الذي يستثني الغرامة.

و هنا «المحسنين» تعني الذين يحسنون في عمل مّا، فلا سبيل عليهم فيه مهما كان عليهم سبيل فيما يسيئون، أم عمل خارج عن كلا الإحسان والإساءة.

و في حقل الأمانة لا يصدق الإحسان إلّا ما كانت مجانية الحفاظ عليها أم أقل من القدر المستحق على تأمل فيه، وأما الأمانة المستأجر فيها بأجرة عادلة، فهي تجارة قد لا تدخل في نطاق الآية، فإن موردها هو النصح للَّه ورسوله في حقل الجهاد، وليس له فيهما بديل من مال وسواه.

فالتجارة العادلة وإن كانت مرضية للَّه محبورة في شرعة اللَّه ولكنها ليست إحسانا حيث يتطلب تقديما دون مقابل أم زيادة على المستحق.

فالقدر المعلوم من نفي السبيل هو حقل الإحسان الخالص، دون ما دونه مهما لم يكن إساءة.

ثم الحرج المنفي هنا وفي كل مجالات المسؤوليات يختص بالمحسنين في سبيل اللَّه،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 308

الناصحين للَّه ورسوله، وليس المستثنى إلا الضعف المحرج، والمرض المحرج، والنفقة المحرجة، فأما الذين لا حرج عليهم للخروج من هؤلاء فهم‏خارجون عن الاستثناء كسائر الخارجين.

و لأن «المحسنين» طليقة، فالسبيل المنفية بحقهم ليست إلا في طليق إحسانهم، فما عليهم من سبيل في الدنيا والآخرة، وأما الذين خلطوا إحسانا بإساءة، في متن الأمر أو مقدماته الآفاقية أو الأنفسية، فلا تنفى عنهم هذه السبيل.

ذلك، ثم «الضعفاء» هم كل هؤلاء الذين لا يستطيعون جهادا لضعيف ذاتي كالشيخوخة و ما أشبه، لحدّ لا نفع في جهادهم اللّهم إلا قليلا لا يجبر زهاق أنفسهم.

«و المرضى» هم غير المستطيعين لضعف عارض، فإن استطاعوا علاجا غير محرج قبل فوات الأوان فمفروض قضية استطاعة الجهاد باستطاعة ما يعدّ له.

و «الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ» لا تعني وجدان المال الحاضر، بل وهو وجدان ما يحصل به مال قدر المقدور، من شغل وأية محاولة أخرى صالحة في شرعة اللَّه غير محرجة ولا معسرة.

فكما أن «فَلَمْ تَجِدُوا ماءً» لا تعني عدم الوجود، بل هو عدم الاستطاعة لاستعماله في الطهارة، كذلك «لا يجدون هنا» فإن وجده بعمل فيه أجرة، أم قبول هدية أو هبة أو صدقة، أو استقراض وما أشبه، ما لا يمس من حرمته وكرامته الإيمانية، فهو واجد لما ينفقه في الجهاد.

ثم الذي عنده مال قدر نفقة العيال، هو غير واجد لما ينفقه لتقدم واجب النفقة على العيال، على نفقة الجهاد.

و أخيرا حين لا يجد هو ولكن يجد عند الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) فهو

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 309

أيضا واجد حيث المعذور هنا: «الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ... أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ» لا من عند أنفسهم ولا عند الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم). ذلك، ولأن الذين يأتون الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) ليحملهم فلا يتحملهم، هم بالغون أعلى قمم النصح عمليا للجهاد، لذلك لم يشترط في عدم تحريجهم «إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ» فإنهم من أحسن المحسنين.

و قد نزلت الآية الثانية في البكائين‏ «1» وقد يروى أنهم سألوه الحملان من النعال‏ «2» وهي أقل ما يحملهم للجهاد! وقد قال فيهم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) أمام المجاهدين: لقد خلفتم بالمدينة أقواما ما أنفقتم من نفقة ولا قطعتم واديا ولا نلتم من عدو نيلا إلّا وقد شركوكم في الأجر ثم قرأ الآية «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. الدر المنثور 3: 267- أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب قال جاء ناس من أصحاب رسول‏اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) يستحملونه فقال: لا أجد ما أحملكم عليه فأنزل اللَّه «وَ لا عَلَى الَّذِينَ ..» قال: وهم سبعة نفر من بني عمر بن عوف سالم بن عمير ومن بني وافن حرمي بن عمرو و من بني مازن ابن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى ومن بني المعلى سلمان بن ضخر ومن بني حارثة عبد الرحمن بن زيد أبو عبلة ومن بني سلمة عمرو بن غنمة وعبد اللَّه بن عمرو المزني‏

(2). المصدر أخرج ابن المنذر عن علي بن صالح قال حدثني مشيخة من جهينة قالوا: أدركنا الذين سألوا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) الحملان فقالوا ما سألناه إلا الحملان على النعال، وفيه أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن إبراهيم بن أدهم في الآية قال: ما سألوه الدواب ما سألوه إلا النعال .. وعن الحسن مثله‏

(3). الدر المنثور 3: 267- أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): .. وفيه أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال: أمر رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) الناس أن ينبعثوا غازين فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد اللَّه بن معقل المزني فقالوا يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) احملنا فقال: واللَّه ما أجد ما أحملكم عليه فتولوا ولهم بكاء وعز عليهم أن يحبسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة و لا محملا فأنزل اللَّه عذرهم «وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ ..»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 310

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِياءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (93).

هنا يختص السبيل في الوجد والإنفاق ب «الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِياءُ» و القصد من الغنى هنا ما يتمكن فيه من الإنفاق للجهاد بنفسه إن أمكن وبمن سواه، وتجهيزا لمن لا يجد، إن لم يمكن، فمسؤولية الجهاد طليقة قدر الإمكانية بالنفس والنفيس، بالدم والمال والتوجيهات الحربية والنصائح الراجعة إلى صالح الحرب وما سواها من سبل اللَّه.

«رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ» المتخلّفين عن مكنتهم أو القاصرين العجّز نساء ورجالا وأطفالا «وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» مدى جريمتهم النكراء في التخلف عن الجهاد في سبيل اللَّه.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى‏ عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (94).

«يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ»: المجاهدين، غادرين إذ مضى ما مضى وأنتم سالمون «إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ» من النضال «قُلْ لا تَعْتَذِرُوا» إذ «لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ» ثقة بصدقكم قضية اعتذاركم.

و لأن «لن» تؤيد السلب فقد تدل على أنهم غادرون في اعتذارهم وسواه على طول الخط حتى يلاقوا يومهم الذين كانوا يوعدون.

إذ «قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ» أن لن تؤمنوا ف «لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ» إيمان التأمين لتصديقكم و أمنه «وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ» في المستقبل كما مضى «ثم» بعد مثلث زمان الغدر والنفاق، المحلق على حياة التكليف ككل «تُرَدُّونَ إِلى‏ عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ» وهناك «فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» إنباء عرض الأعمال كما صدرت، وإنباء

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 311

النتيجة كما أنتجت: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ» (3: 30).

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (95).

«سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ» معتذرين أنهم صادقون، أم ومهما يكن في أمر «لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ» دونما تنديد واستجواب «فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ» إعراضا قضية النفاق، فقد لا يعني الإعراض المأمور به الإعراض المطلوب لهم، بل هو بعد التنديد والتنكيد إعراض عنهم بجعلهم في عزلة كأنهم لا شي‏ء، فلا تحدثوهم بعد ولا تعاشروهم ولا تواصلوهم أبدا، فقد وقعت المفاصلة التامة «إِنَّهُمْ رِجْسٌ» فلا ترجسوا أنفسكم الطاهرة بمصاحبتهم، ولا يرجى منهم أي خير حيث سدوا على أنفسهم كل منافذه «وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ» وليس التلطّف مع منافق أو كافر إلّا بغية انجذابه إلى الإيمان.

و هنا «إِنَّهُمْ رِجْسٌ» قد تؤيد عدم نجاسة أبدان الكفار، حيث الرجس وهو أنجس من النجس- وكما اختص ب «لَحْمَ خِنزِيرٍ» مع ردفه بالميتة والدم «فَإِنَّهُ رِجْسٌ»- إنه لم ينجس أبدان المنافقين فكيف ينجس النجس أبدان المشركين، فإنما هي رجاسة روحية لهم هي أرجس وأنجس من أرواح الكافرين، ولذلك «إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ».

فذلك- إذا- تجسيم حسي للدنس المعنوي، ترجيسا لأرواحهم النحسة، مما يدعو إلى التقذر والاشمئزاز، فهم رجس يلوث الأرواح، ونجس يدنس المشاعر، كالجثة المنتنة في وسط الأحياء حيث تؤذي وتعدي.

و هنا نتبين أن التجنب عن الأرجاس الروحية هو واجب المؤمنين، اللّهم إلّا إذا أثرت‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 312

فيهم الدعوة الربانية أو أحتمل التأثير، فأما إذا كان «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» فهنا الإعراض عنهم للمؤمنين، مهما كان للرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) موقف آخر هو أوسع من سائر المواقف.

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى‏ عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (96).

فالمؤمن لا يرضى إلا ما يرضاه اللَّه فكيف ترضون عنهم بحلف وسواه «فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى‏ عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ» وفي حديث النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس» «1» وعن الإمام الرضا عليه السلام: «من خاف الله أخاف الله منه كل شي‏ء ومن لم يخفف الله أخافه الله من كل شي‏ء».

المنافقون والسابقون الاولون‏

وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98) وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الآْخِرِ وَ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَواتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (99) وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100) وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 254 عن المجمع جاء في الحديث‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 313

عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى‏ عَذابٍ عَظِيمٍ (101) وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (102) خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104) وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ سَتُرَدُّونَ إِلى‏ عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105) وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106) وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَ كُفْراً وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى‏ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (107)

الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى‏ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97).

تأتي «الأعراب» في عشرة كاملة من نصوص القرآن، في كلها تنديدات بهم إلّا واحد هو: «وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ» (99) مما يدل على أنهم ككل إلا نزر قليل غارقون في الضلالة والمتاهة «1»، اللّهم إلّا نص ثان قد يعذرهم إذ لمّا يصلوا إلى الإيمان وهم يتحرون عنه: «قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ» (49: 14).

و لا تعني «الأعراب»- على كل حال- الأمة العربية، إنما هي من العَرب: الظهور، كإعراب الكلمة فإنه إظهارها في حالتها الأدبية في الجملة، والعربي هو الظاهر كما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 269- أخرج أبو الشيخ عن ابن سيرين قال: إذا تلا أحدكم هذه الآية «الْأَعْرابُ‏أَشَدُّ ..» فليتل الآية الأخرى ولا يسكت «وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الآْخِرِ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 314

و «عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» هو الظاهر المظهر، وفي عربية القرآن ظهوران اثنان: أصل اللغة فإنها أعرب اللغات وأظهرها تأدية لمعانيها، وشاكلة البيان المتميز في القرآن. فهم- إذا- أهل البوادي، البعيدون بطبيعة المناخ الصحراوي، عن الثقافة الإسلامية، سواء أكانوا من الأمة العربية أم سائر الأمم، دون اختصاص بمن يتكلم باللغة العربية، حيث اللغة ولا سيما العربية لا تخرف أو تضل حتى يكون المتكلم بها أشد كفرا ونفاقا ممن سواهم، وأجدر ألّا يعلموا حدود ما أنزل اللَّه على رسوله ممن سواهم.

فطبيعة البدوية المحشورة مع الدواب، غير المحشورة مع المثقفين في الدين، والبعيدة عن مراكز الثقافة الإسلامية، إنها تبعدهم عن صالح العقلية الإنسانية فضلا عن العقلية الإيمانية، حيث الغفلة والجفوة والجفاء كأنها أدغمت في طبايعهم، فهم إلى النسناس أقرب منهم إلى الناس.

أذا فهكذا البلاد- مهما كانت عظيمة- البعيدة عن الثقافة الإيمانية بأي سبب كان، إنهم من هؤلاء الأعراب الذين «أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً ..».

فلقد حق قول الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): «من بدا جفا- من سكن البادية جفا» «1»

و كان زيد بن صوحان يحدث فقال أعرابي إن حديثك ليعجبني وإن يدك لتريبني، فقال: أم تراها الشمال؟

فقال الأعرابي: واللَّه ما أدري اليمين يقطعون أم الشمال، قال زيد:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 269، الأول عن أبي هريرة قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): من بدأ جفا ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى السلطان افتتن، وما ازداد من السلطان قربا إلا ازداد من اللَّه بعدا، والثاني عن ابن عباس عن النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) قال: من سكن.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 315

صدق اللَّه: «الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً ..» «1».

ففي حقل الكفر والنفاق نجد الأعراب «أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ» فكفارهم أشد كفرا ممن سواهم، ومنافقوهم أشد نفاقا ممن سواهم، وجهالهم بحدود ما أنزل اللَّه على رسوله أجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل اللَّه على رسوله‏ «2» وهذه الجدارة ناشئة من ظروف حياتهم القاسية العاصية المستعصية وما تنشئه في طباعهم من جفوة ونكدة، وبعد بعيد عن صالح المعرفة، فالمادية الأصيلة في حياتهم لها دور سائد صامد في القيم القمم عندهم من الحصائل المادية.

فهم- إذا- في ذلك الثالوث أردئ من المؤمنين، وهذه طبيعة الحال لمن سكن البادية، بادية بادية عن الثقافة الإسلامية مهما كانت مدنية متحضرة بالحضارة المادية.

لذلك نسمع متظافر الحديث يقول: «تفقهوا في الدين فإنه من لم يتفقه في الدين فهو إعرابي- عليكم بالتفقه في الدين ولا تكونوا اعرابا فإنه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة ولم يزك له عملا» «3».

و هذا هو المعني من حديث الصادق عليه السلام: «نحن بنو هاشم وشيعتنا العرب وساير الناس الأعراب» «4» فالعرب هنا هم الظاهرون الباهرون، الفاهمون شرعة الحق بمشايعة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر أخرج ابن سعد وابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي قال:.

(2). الدر المنثور 3: 268- أخرج أبو الشيخ عن الضحاك في قوله: «الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً» قال: من منافقي المدينة «وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى‏ رَسُولِهِ» يعنى الفرائض وما أمروا به عن الجهاد

(3). نور الثقلين 2: 254، الأول في الكافي عن علي بن أبي حمزة قال: سمعت أبا عبد اللَّه عليه السلام يقول: .. إن اللَّه يقول في كتابه «لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ..» والثاني فيه عن المفضل بن عمر قال سمعت أبا عبد اللَّه عليه السلام يقول:.

(4). المصدر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 316

الشرعة الهاشمية المحمدية (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) والأعراب هم البدويون البعيدون عن ذلك.

و هكذا يعني من حديثه الآخر «نحن الناس وشيعتنا أشباه الناس وسائر الناس نسناس» حيث القصد من «شيعتنا» أشياع الحق الصراح القراح، دون خليط بالباطل أيا كان.

إذا ففي حقل الكفر والنفاق والجهل «الأعراب» بمعناها الصالح هم «أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً» وجهلا بحدود اللَّه، وفي حقل الإيمان والوفاق والعلم، هم- بطبيعة الحال- أقل حظا في هذه الزوايا الثلاث.

لذلك كله لم يبعث اللَّه رسولا قط من الأعراب: البدويين، وإنما من القرى مدنا وسواها: «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى‏» (12: 109).

و حين يهدي أعرابي لرسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) هدية فيرد عليه بأضعافها حتى يرضى يقول: «لقد هممت ألا أقبل هدية إلا من قرشي أو ثقفي أو أنصاري أو أوسي» لأن هؤلاء ليسوا من الأعراب البدويين.

ذلك، ومن قسوتهم أن «قدم ناس من الأعراب على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قالوا: نعم، قالوا: لكنا والله ما نقبل فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): و ما أملك إن كان الله نزع منكم الرحمة» «1».

و هكذا نسمع تاريخ الأعراب قبل إسلامهم وبعده عن طابع الجفوة والفظاظة في نفوسهم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من حديث مسلم قال حدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة وأبو كريب قالا حدثنا أبو أسامة وابن نمير عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: قدم ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 317

وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98).

«و من» هؤلاء «الأعراب» الذين هم أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألّا يعلموا حدود ما أنزل اللَّه على رسوله «مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ» مصلحية الحفاظ على ظاهر الإيمان «يتخذ» ه «مغرما» تألفا، إذ لا يؤمن باللَّه حتى يكون إنفاقه في سبيل اللَّه فيرجو ثواب اللَّه، ثم «وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ» السيئة أن تدور بكم وتحور حولكم‏ «1» جبرا لكسرهم- ولأقل تقدير- رجعا لما أنفقوه من غنيمة وسواها، ولكن «عليهم» أنفسهم «دائِرَةُ السَّوْءِ» إذ يرجع إنفاقهم النفاق عليهم وزرا ووبالا، ولا تدور الدوائر المتربصة لهم على المؤمنين إلّا عليهم أنفسهم «وَ اللَّهُ سَمِيعٌ» بقالهم «عليم» بحالهم وفعالهم، وهذه طبيعتهم الشريرة القاحلة الجاهلة إلّا من هدى اللَّه.

و لأن المغرم من الغرم وهو نزول نائبة بالمال، لازبة به، فقد خيّل إلى هؤلاء أن الإنفاق في سبيل اللَّه نائبة لازبة لا مخلص عنها، ثم الدائرة هي الحالة التي تدور بين مختلف الناس، وتتغلب على الحالات السيئة التي تحيط بمن تدور عليه، وهنا «عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ» تختص بهم سيئاتهم، فقد تدور على المؤمنين دوائر هي ابتلاءات لهم فهي لهم خيّرة مهما تظهر بمظهر السيئة، بل وكضابطة كلّ ما يصيب المؤمن قضية إيمانه هو خير له مهما كان عليه صعبا ملتويا، وكلما يصيب غير المؤمن قضية فسقه فهو شر له مهما كان له سهلا وفقا لما يشتهيه.

إذا ف «عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ» إخبار في موقف دعاء، وفي تقديم الظرف حصر لدائرة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدوائر هي الحالات والأزمنة التي تدور حول الإنسان بأعيانها وأشيائها وكأنها هيه وقداختصت بالمواضع المكروهة التي تدور على الإنسان وتحيره أو تغيره‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 318

السوء فيهم وحسر عن المؤمنين، فمهما تربص الضالون بالمؤمنين دوائر السوء فليس ليصيبهم إلّا خير، وعليهم أنفسهم دائرة السوء.

فلقد ردت عليهم دائرة السوء فلا تفلتهم، وتطبّق عليهم فلا تدعهم، وهكذا نرى المنافقين الجفات كيف يعيشون ضنك الحياة الجهنمية هنا قبل الجحيم هناك: «مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏ ..».

وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الآْخِرِ وَ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَواتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (99) هؤلاء الأكارم بين أولئك اللئام هم نزر ندر حيث «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الآْخِرِ» فلتة منهم في اللفتة إلى إيمان، و شذوذ عن البدوية البعيدة إلى منجزات الإيمان «وَ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ» في سبيل اللَّه «قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ» فهناك إنفاق مغرم وهنا إنفاق مغنم، وعلّ جمعية القربات رغم إفراد «ما ينفق» هي قضية جمعية النيات والطويات الصالحة في مختلف مجالات الإنفاق في سبيل اللَّه.

هكذا «وَ صَلَواتِ الرَّسُولِ» حيث أمر أن يصلي عليهم في صدقاتهم: «وصل عليهم» «أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ» وهنا الإفراد علّه يعني جنس القربة الشاملة ل «قربات وصلوات» قربة لهم في الدارين حسب نياتهم واندافاعاتهم الإيمانية، ومن‏قربة لهم «سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ» جزاء وفاقا «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ» عن قصوراتهم وتقصيرات لهم «رحيم» بهم.

فمهما كانت طبيعة الأعرابية بعض الجفوة والغفلة، ولكن الإيمان باللَّه واليوم الآخر والإنفاق في سبيل اللَّه، هما حسنيان عظيمتان يستحقون بهما قربة ورحمة.

وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 319

عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100).

هنا زوايا ثلاث لهندسة الإيمان الصالح هي: «مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ» وهم كلهم «السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ» حيث الثلاث كلهم مصاديق لهم فلا تعنيان- إذا- سبقا زمنيا وأولية زمنية، إنما هما السبقة والأولية في الصبغة الإيمانية في مثلث الزمان، فالذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، أولئك هم مع هؤلاء على سواء «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ ..» بدرجاتها حسب الدرجات.

فرغم ما يهواه الخليفة عمر ومن ينحو منحاه لا رجاجة للمهاجرين على الأنصار لسبقهم عليهم في زمن الإيمان، ولا لهما فضل على الذين اتبعوهم بإحسان، فإن فواصل الزمان والمكان، والموقعية التأريخية والجغرافية أماهيه ليست بالتي تفضّل زاوية من هذه الثلاث على الأخرى اللّهم إلّا بسبقة الصبغة الإيمانية مهما كان صاحبها بعيدا زمانا ومكانا ونسبة عن الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) والذين معه‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 269- أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي قال: مر عمر برجل يقرء: «وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ ..» فأخذ عمر بيده فقال: من أقرأك هذا؟ قال: أبي بن كعب، قال: لا تفارقني حتى أذهب بك إليه فلما جاءه قال عمر: أنت أقرأت هذه الآية هكذا؟ قال: نعم، قال: وسمعتها من رسول‏اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم)؟ قال: نعم، قال: لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا فقال أبي تصديق ذلك في أول سورة الجمعة «وَ آخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ، وفي سورة الحشر: وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ، وفي الأنفال: وَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ».

وفيه أخرج أبو الشيخ عن أبي أسامة ومحمد بن إبراهيم التيمي قالا مر عمر بن الخطاب برجل وهو يقرأ «وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ» فوقف عمر فلما انصرف الرجل قال: من أقرأك هذا؟ قال: أقرأنيها أبي بن كعب قال فانطلق إليه فانطلقا إليه فقال: يا أبا المنذر أخبرني هذا أنك أقرأته هذه الآية؟ قال: صدق تلقيتها من في رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) قال عمر: أنت تلقيتها من في رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم)؟ قال فقال في الثالثة وهو غضبان: نعم واللَّه لقد أنزلها اللَّه على جبرئيل عليه السلام وأنزلها جبرئيل عليه السلام على قلب محمد (صلى اللَّه عليه وآله و سلم) ولم يستأمر فيها الخطاب ولا ابنه فخرج عمر رافعا يديه وهو يقول: اللَّه أكبر اللَّه أكبر،

وفي تفسير الفخر الرازي 16: 171 روى أن عمر بن الخطاب كان يقرأ والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان، فقال له أبي واللَّه لقد أقرأنيها رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) على هذا الوجه- بالواو- وانك لبيع القرظ يومئذ بالمدينة فقال عمر: صدقت شهدتم وغبنا و فرغتم وشغفنا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 320

فحين يهوى الخليفة إسقاط الواو بين «الْأَنْصارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ» ليجعل الأنصار من أتباع المهاجرين لأنه منهم، يصرخ صارخ الحق: أين الواو يا خليفة رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم)؟! وخلافا لما يهواه عمر نسمع الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) يبجل الأنصار أكثر من المهاجرين بكثير لأنهم نصروه أكثر منهم ومن ذلك قوله (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): لو لا الهجرة كنت امرء من الأنصار «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر أخرج أحمد عن أنس قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) اللّهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار ولأزواج الأنصار ولذراري الأنصار كرشي وعيبتي ولو أن الناس أخذوا شعبا وأخذت الأنصار لأخذت شعب الأنصار ولو لا الهجرة كنت امرأ من الأنصار، وفيه عنه معاوية بن أبي سفيان سمعت رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) يقول: من أحب الأنصار أحبه اللَّه ومن أبغض الأنصار أبغضه اللَّه، وفيه عن مسلم قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): آية الإيمان حسب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار.

وفيه عن (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) أنه قال: اللّهم صل على الأنصار وعلى ذرية الأنصار، وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): لو سلك الناس واديا وشعبا وسلكتم واديا وشعبا لسلكت واديكم وشعبكم، أنتم شعار والناس دثار ولو لا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ثم رفع يديه حتى أتي لأرى بياض إبطيه فقال: اللّهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار ولأبناء أبناء الأنصار، وقال (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) ألا إن عيبتي التي آوي إليها أهل بيتي وان كرشي الأنصار فاعفوا عن مسيئهم واقبلوا من محسنهم، وقال (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): لا يبغض الأنصار رجل يؤمن باللَّه واليوم الآخر.

وفيه أخرج الطبراني عن السائب بن يزيد أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) قسم الفي‏ء الذي أفاء اللَّه بحنين في أهل مكة من قريش وغيرهم فغضب الأنصار فأتاهم فقال: يا معشر الأنصار قد بلغني من حديثكم في هذه المغانم التي آثرت بها أناسا أثالفهم على الإسلام لعلهم أن يشهدوا بعد اليوم وقد أدخل اللَّه قلوبهم الإسلام يا معشر الأنصار ولم يمن اللَّه عليكم بالإيمان وخصكم بالكرامة وسماكم بأحسن الأسماء أنصار اللَّه وأنصار رسوله ولو لا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار ولو سلك الناس واديا لسلكت واديكم أفلا ترضون أن يذهب الناس بهذه الغنائم والنعم والبعير وتذهبون برسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله وسلم)؟ فقالوا: رضينا، فقال: أجيبوني فيما قلت قالوا يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وجدتنا في ظلمة فأخرجنا اللَّه بك إلى النور ووجدتنا على شفا حفرة من النار فأنقذنا اللَّه بك ووجدتنا ضلالا فهدانا اللَّه بك فرضيا باللَّه ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا فقال: أما واللَّه لو اجبتموني بغير هذا القول لقلت صدقتم، لو قلتم: ألم تأتنا طريدا فآويناك و مكذّبا فصدقناك ومخذولا فنصرناك وقبلنا ما رد الناس عليك، لو قلتم هذا لصدقتم، قالوا: بل للَّه ولرسوله المن والفضل علينا وعلى غيرنا.

وفي نور الثقلين 2: 254 عن أصول الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن بكر بن صالح عن القاسم بن بريد قال حدثنا أبو عمرو الزبيري عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال قلت له: إن للإيمان درجات ومنازل يتفاصل المؤمنون فيها عند اللَّه؟ قال: نعم، قلت: صف لي رحمك اللَّه حتى أفهمه، قال: إن اللَّه سبق بين المؤمنين كما يسبق بين الخيل يوم الرهان ثم فضلهم على درجاتهم في السبق إليه فجعل كل امرء منهم على درجة لا ينقصه فيها من حقه ولا يتقدم مسبوق سابقا ولا مفضول فاضلا، تفاضل بذلك أوائل هذه الأمة وأواخرها ولو لم يكن للسابق إلى الإيمان فضل على المسبوق إذا للحق أواخر هذه الأمة أولها نعم ولتقدموهم إذا لم يكن لمن سبق إلى الإيمان الفضل على من أبطأ عنه ولكن بدرجات الإيمان قدم اللَّه السابقين وبالإبطاء من الإيمان أخر اللَّه المقصرين لأنا نجد من المؤمنين من الآخرين من هو أكثر عملا من الأولين وأكثرهم صلاة وصوما وحجا وزكوةو إنفاقا ولو لم يكن سوابق يفضل بها المؤمنون بعضهم بعضا عند اللَّه لكان الآخرون بكثرة العمل مقدمين على الأولين و لكن أبي اللَّه عزّ وجلّ أن يدرك آخر درجات الإيمان أولها ويقدم فيها من أخر اللَّه أو يؤخر فيها من قدم اللَّه، قلت: أخبرني عما ندب اللَّه عزّ وجلّ المؤمنين إليه من الاستباق إلى الإيمان؟ فقال: قول اللَّه عزّ وجلّ: «وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ ...» فبدأ بالمهاجرين الأولين والأنصار على درجة سبقهم ثم ثنى بالأنصار ثم ثلث بالتابعين لهم بإحسان فوضع كل قوم على قدر درجاتهم ومنازلهم عنده ... وفيه في روضة الكافي علي بن إبراهيم عن ابن أبي عمير عن عمرو بن أبي المقدام قال سمعت أبا عبد اللَّه عليه السلام يقول: خرجت أنا وأبي حتى إذا كنا بين القبر والمنبر إذا هو بأناس من الشيعة فسلم عليهم ثم قال: إني واللَّه لأحب ريحكم وأرواحكم فأعينوني على ذلك بورع واجتهاد واعلموا أن ولايتنا لا تنال إلا بالورع و الاجتهاد ومن أئتم منكم بعبد فليعمل عمله، أنتم شيعة اللَّه وأنتم أنصار اللَّه وأنتم السابقون الأولون والسابقون الآخرون، السابقون في الدنيا والسابقون إلى الجنة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 322

و حين لا يجرأ عمر على هيبته وجرأته أن يسقط حرفا واحدا من القرآن، فكيف يجرأ مثل عثمان بن عفان أن يسقط أو يزيد سورا أو آيات؟ واللَّه تعالى ضمن صيانة القرآن عن كل تحريف وتجديف بتأكيدات منقطعة النظير ك «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ» (15: 9) وما أشبه.

و هنا «السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ» تشمل- فيما تشمل- سبقة هؤلاء الثلاث على هؤلاء الأعراب، فإن للقروية والبدو دورا في تأخر الإيمان على أية حال.

لذلك يلحق هؤلاء الأكارم من الأعراب ب «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» بعد «قربة لهم- و- في رحمته» وهنا التلحيق «ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» وذلك لعظيم الفوز في حقل الإيمان الصالح لغير الأعراب من السابقين الأولين.

ثم «وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ» ليست لتفضل المتبوعين على التابعين، فإن المقتدي هدى من قبله قد يفوقه أو يساويه أو ينقص عنه، فحين يقول اللَّه تعالى لرسوله (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) «أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ» (6: 90) لا يعني أنه أدنى‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 323

منهم، و إنما «فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ» فإنها هدى اللَّه، دون هدى من سواهم فإنها متخلفة عن هدى اللَّه.

فهكذا «الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ» اقتداء بهداهم لأنها هدى اللَّه، ولكلّ درجات مما عملوا حسب الدرجات.

فلا تفصل فواصل الزمان والمكان أم أيا كان بين رعيل الإيمان، إنما هو فاضل الإيمان، فصلا بين أصل الإيمان وفصله، أم فصلا بين درجات الإيمان، فقد يجمع بين علي عليه السلام وسلمان في هذه السبقة السبغة الإيمانية، وبينهما في الإيمان فصل الزمان، وقد جمع علي عليه السلام بين سبقي الزمان ومكانة الإيمان‏ «1» ف «الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ» إنما تعني المعية الرسالية، دون أية معية أخرى.

فقد يفوق مؤمنون- في زمننا أم فيما نستقبل- مؤمنين زمن الرسول (صلى اللَّه عليه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في ملحقات إحقاق الحق (3: 386) أن الآية نزلت بحق علي وسلمان عن ثمانية من فطاحل‏العامة و هم الثعلبي في تفسيره المخطوط رواه بسند عن علي عليه السلام أنه قال: أنا عبد اللَّه وأخو رسوله و أنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلا كذاب مفتر صليت قبل الناس سبع سنين،

والموفق بن أحمد المكي في المقتل ص (40) والقرطبي في تفسيره والهيثمي في الصواعق عن المحرقة ص (159) ومجمع الزوائد (9: 102) وخواند مير في حبيب السير (3: 11) وابن تيمية في رسالة رأس الحسين ص (23) كلهم رووا أنه عليه السلام هو السابق الأول، وابن مردويه في المناقب (كما في كشف الغمة 94) روى أن السابقون الأولون علي وسلمان.

وفي الملحقات 14: 333- 334 مستدركا عما في (ج 3) ومنهم ابن قايماز الذهبي في ميزان الاعتدال (1: 35) والعسقلاني في لسان الميزان (1: 227) والأمر تسرى في أرجح المطالب (74 و 2 و 3) والحسكاني في شواهد التنزيل (1: 254) ومما رواه عن الحسن بن علي عليه السلام أنه حمد اللَّه وأثنى عليه وقال: «السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ» فكما أن للسابقين فضلهم على من بعدهم كذلك لعلي بن أبي طالب فضله على السابقين بسبقه السابقين، وروى عن ابن عباس في الآية قال: نزلت في علي سبق الناس كلهم بالإيمان باللَّه وبرسوله وصلى القبلتين وبايع البيعتين وهاجر الهجرتين ففيه نزلت هذه الآية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 324

وآله و سلم) حيث يحملون في إيمانهم معية رسالية فوق السابقين الأولين زمنا، ولذلك لما أنزلت هذه الآية قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): هذا لأمتي كلهم وليس بعد الرضا سخط «1».

و في رجعة أخرى إلى الآية نجد الهجرة في اللَّه والنصرة للَّه هما الركنان الركينان في حقل الإيمان، فالمؤمن يتراوح بين مهاجرة بدين اللَّه ومناصرة في دين اللَّه.

فهنا «وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ» تعني متابعة المهاجرين في الهجرة المناصرة ومتابعة الأنصار في النصرة المهاجرة، فإنهما صبغتان سابغتان سابقتان في ميادين الإيمان.

و هنا الإتباع في كلا الهجرة والنصرة يحمل مثلثا من المواصفات، عطفا بسبقة وأولية، وردفا «بإحسان» فالذين اتبعوهم بإحسان في السابقة والأولية هم منهم أم وأعلى منهم إذا علو هم فيما هم فيه.

ذلك، وقد يتعلق «بإحسان» إضافة إلى «الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ» ب «السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ» أيضا، فكما اتّباعهم المرضي ليس إلّا بإحسان، كذلك المهاجرة والنصرة لا بد وأن تكونا بإحسان.

فالمؤمن أيا كان وأيان يعيش مهاجرة في دين اللَّه ونصرة لدين اللَّه والدينين، ومتابعة للمهاجرين والناصرين، دونما اختصاص بزمان دون زمان.

فقد يشكل صرح الإسلام مهندسا بهذه الثلاث:

و السبعة السابغة في هذه الثلاث هي المرضية عند اللَّه مهما تأخر الزمن، وغيرها غير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 271- أخرج ابن مردويه من طريق الأوزاعي حدثني يحيى بن أبي كثير والقاسم ومكحول وعبدة بن أبي لبابة وحسان بن عطية أنهم سمعوا جماعة من أصحاب النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) يقولون: لما أنزلت هذه الآية ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 325

مرضية وإن سبق الزمن، فإنما القاعدة هنا هي أصل الإيمان بأبعاده، سواء أكان متقدما أو متأخرا، إلا إذا كان في التقدم الزمني تقدم رتبي، كما والمتقدم الرتبي في المتأخر زمنا داخل في نطاق «السَّابِقُونَ».

«السابقون الأولون من المهاجرين» «السابقون الأولون من الأنصار» «السابقون الأولون من الذين اتبعوهم بإحسان» محلّقة على مثلث الزمان منذ يوم البعثة إلى يوم البعث، و ليس التقدم إلّا للأسبق الأسبغ في المهاجرة الحسنة والنضرة الحسنة مهما بعد الزمان والمكان، فهنا لا تتحكم فواصل الزمان والمكان لفاصل الإيمان، إنما الحكم هنا لفاضل الإيمان مهما كان للمتأخرين في الزمان.

ثم الإتباع المحبور هنا بإحسان محظور هناك بغير إحسان، فمن إحسان الإتباع أن يكون على بصيرة تعني إتباع صراح الحق، وهو بغير إحسان أن يكون على عمى وعمه دون أية بصيرة، ف «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ» (39: 18).

و هنا الباء في «بإحسان» تعني كل السببية والمصاحبة والظرفية، اتباعا بسبب إحسانهم أولاء في المهاجرة والنصرة، ومصاحبا للإحسان معرفيا وعمليا، وفي ظرف الإحسان بكل ملابساته الصالحة، وليس من إتباعهم بإحسان حسن القول فيهم مهما كانوا محسنين، ولو أنه يشمل حسن القول فيهم لم يشمل المسيئين من المهاجرين والأنصار الذين لا يرضى اللَّه عنهم.

ثم سواء أكان السبق والأولية هنا في الزمان مع سبق الإيمان وأوليته في الكيان أم دون زمان، فالسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار هم الرعيل الأعلى في حقلي الهجرة والنصرة أيا كانوا وفي أي‏زمان، إذا ف «الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ» هم من دونهم في‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 326

الثانية، و هم- إضافة إليهم- من يفوقهم أو يساويهم في الأولى.

ف «من» على أي‏الحالين تبعيضية إذ ليس كل المهاجرين والأنصار في القمة المرموقة المتبوعة من الإيمان حتى يصبحوا أئمة المؤمنين.

ثم «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ» ليست لتشمل كافة المؤمنين، إنما هم القمة في الإيمان، «فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى‏ عَنِ‏الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ» (9:) 96) ف «لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ..» (4: 123).

إذا فلا يختص رضى اللَّه بالمهاجرين والأنصار- الأصحاب- والتابعين، بل ولا تعمهم كلهم، إنما مرضات اللَّه تحلّق على كافة المؤمنين المهاجرين في اللَّه، المناصرين لدين اللَّه، تابعين ومتبوعين، درجات حسب الدرجات ولا يظلمون نقيرا.

و إذا فلا دور لأفضلية أبي بكر ومن أشبه لأصل المهاجرة والمناصرة، أم سبقه في الهجرة على علي عليه السلام حيث المقام بمكة بأمر الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) لإدارة شؤون المسلمين المحطّمين أفضل من مصاحبة الرسول في الغار وإلى الهجرة، مهما كانتا- أيضا- بأمره (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) حيث التضحية ليلة المبيت تفوق الصحبة في الغار.

وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى‏ عَذابٍ عَظِيمٍ (101).

صحيح أن «الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً ..» كأكثرية ساحقة أو مطلقة، ولكن «مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ» أكثر من الأعراب، ف «منافقون» وصفا ل «مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ» تعني طليق النفاق، ثم «مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ» وصفا ل «مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ» تعني النفاق الطليق، وأين طليق النفاق من النفاق الطليق حيث «مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ»:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 327

تجردا عن أي‏وفاق، فدخولا في أي‏نفاق، حيث المرد هو الجرد وهو هنا التجرد عن أصول الإيمان وفروعه.

فأنت الرسول «لا تعلمهم» علامة وعِلما إذ هم متسترون في نفاقهم بما مردوا، وإنما «نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ» ف «سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ» مرة لأصل نفاقهم، وأخرى لغلظة حيث «مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ» «ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى‏ عَذابٍ عَظِيمٍ» وذلك ثالوث العذاب، فترى ما هما «مرتين» قبل «عَذابٍ عَظِيمٍ»؟ هما عذاب في الدنيا وكما يروى‏ «1» وعذاب في البرزخ ومن ثم عذاب عظيم في الأخرى.

ذلك، وقد تعني «مردوا» إلى «مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ» «مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ» حيث تعطف «مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ» إلى «من حولكم ..» فهما- إذا- «مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ» ومما يؤيده أن «الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً» فكيف تختص «مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ» ب «مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ» فهم- كما هنا- يتقدمون على «أَهْلِ الْمَدِينَةِ» لأن نفاقهم أشد وأمرد.

وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 271 عن ابن عباس في الآية قال قام رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) يوم جمعة خطيبا فقال: قم يا فلان فاخرج فانك منافق فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم ولم يكن عمر بن الخطاب شهد تلك الجمعة لحاجة كانت له فلقيهم عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم استحياء انه لم يشهد الجمعة وظن الناس قد انصرفوا واختبئوا هم من عمر وظنوا أنه قد علم بأمرهم فدخل عمر المسجد فإذا الناس لم ينصرفوا فقال له رجل أبشر يا عمر فقد فضح اللَّه المنافقين اليوم فهذا العذاب الأول والعذاب الثاني عذاب القبر، ورواه مثله أبو مالك، وفيه عن أبي مسعود الأنصاري قال: لقد خطبنا النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) خطبة ما شهدت مثلها قط فقال أيها الناس إن منكم منافقين فمن سميته فليقم قم يا فلان يا فلان حتى قام ستة وثلاثون رجلا ثم قال: إن منكم وإن منكم و ان منكم فسلوا اللَّه العافية فلقي عمر رجلا كان بينه وبينه إخاء فقال ما شأنك فقال إن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) خطبنا فقال كذا وكذا فقال عمر أبعدك اللَّه سائر اليوم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 328

عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (102).

«و آخرون» من الأعراب، لا هم من المنافقين العاديين، ولا الماردين على النفاق والشقاق- وهما مشتركان في عدم الاعتراف بذنبهم نفاقا ماردا وسواه- «فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ» في نفاقهم اعتراف التوبة أم لمّا يتوبوا وهم متحرون عنها، حيث الاعتراف بالذنب هو من تقدمات التوبة وليس هو بنفسه التوبة، وهم قضية اعترافهم بذنبهم- تابوا أم لما يتوبوا- «خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً» قضية إيمان بعد اعترافهم «وَ آخَرَ سَيِّئاً» إذ لمّا يتوبوا توبة نصوحا، أم تابوا وهم ناقصون فيها ناقضون إياها أحيانا «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» فهم «مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ» (9:) 106) فإن عذبهم فبما يستحقون، وإن تاب عليهم فبما اعترفوا وعملوا صالحا خليطا بآخر سيئا «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» وقد تدل «أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» أنهم تابوا.

فآيتا «عَسَى اللَّهُ» و «مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ» هما وسط عوان بين آيات تعد قاطع العذاب و أخرى تعد قاطع الرحمة والثواب، فالرحمة هي قضية اعترافهم بذنبهم ليتوب عليهم في سيئاتهم بعد توبتهم، والعذاب هو قضية «آخَرَ سَيِّئاً» إذ لم يتوبوا أم لم تتم توبتهم وتطم، أم نقضوا توبتهم فتفلتت عنهم سيئات، فهم على أية حال من أهل النجاة بما اعترفوا وعملوا من الصالحات، وإنما الرجاء هنا بالنسبة ل «آخَرَ سَيِّئاً» ف «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» عساها ترجح توبته عليهم، دون «إما يعذبهم أو يتوب عليهم» فإن عساها مرددة بين الأمرين.

و «عسى» هنا و «إما» هناك من اللَّه لا تعني ترددا وترجيا للَّه، بل هما بيان لموقفهم من اللَّه، أنه بين هذين دون تحتم لأحدهما.

ذلك، وفي رجعة أخرى إلى الآية، هنا عملا في «خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً» قد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 329

تعم عمل الجانحة إلى عمل الجارحة، فإن كلا من الإيمان والعمل الصالح حين يفرد عن قرينة يشمل قرينه، فكما العمل الصالح هو من الإيمان كذلك الإيمان هو من العمل الصالح، بل هو أقدم وأحرى أن يسمى عملا صالحا، فقد «خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً» عقيديا وعمليا وكذلك «وَ آخَرَ سَيِّئاً» فلم يخلص إيمانهم ولا عملهم عن سوء، ولأنهم اعترفوا بذنبهم يوم الدنيا، حيث الاعتراف بعد الموت لا يفيد، بل وكلّ معترف بسيئاته شاء أم أبي، وإنما هو الاعتراف قبل الموت، مما يجعله كأنه تائب، فان التائب عن الذنب كمن لا ذنب له، وغير المعترف مذنب، والمعترف بذنبه عوان بينهما، ولذلك قد يتوب اللَّه عليه هنا بعد الموت إذا لم يكن مانع عن هذه التوبة الربانية، وهنا «عَسَى اللَّهُ» بيان لظروف مختلفة في بعضها يتوب اللَّه وفي بعض لا يتوب، وكل قضية الرحمة الصالحة الربانية «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

و لو أن «عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً» اختصا بغير العقيدة والطوية، ف «آخرون» هم غير العدول من المؤمنين وهم الأكثرية الساحقة منهم، إذ العدول قلة قليلة، واللَّه يعد من رجحت حسناته على سيئاته، ومن يجتنب كبائر السيئات، يعدهم ومن أشبه، المغفرة والتكفير، فلا موقع ل «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» بل هو الذي وعد التوبة عليهم.

و لقد وردت روايات حول شأن نزولها «1» ولكنها كسائر القرآن ليست لتختص‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 272 عن ابن عباس في الآية قال: كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) في غزوة تبوك فلما حضر رجوع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد وكان ممر النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) إذا رجع في المسجد عليهم فلما رآهم قال: من هؤلاء الموثقون أنفسهم؟ قالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) أوثقوا أنفسهم وحلفوا أنهم لا يطلقهم أحد حتى يطلقهم النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) و يعذرهم، قال: وأنا أقسم باللَّه لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون اللَّه هو الذي يطلقهم رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين، فلما بلغهم ذلك قالوا: ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون اللَّه هو الذي يطلقنا فأنزل اللَّه عزّ وجلّ: «وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» وعسى من اللَّه واجب انه هو التواب الرحيم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 330

بمنزل خاص، فإنما العبرة بعموم اللفظ دون خصوص المورد.

و هنا «عَسَى اللَّهُ» نص في الرجاء، إلّا أن الرجاء المنصوص من اللَّه في العفو نص في العفو، فإن اللَّه لا يعفو إلّا فيما يصلح فيه العفو ويصح، وأما ما لا يصلح أو يصح فلا مورد فيه ل «عسى» ومما تلمح له «عسى» سلبيا أنهم قد يرجعون إلى ذنبهم ويموتون عليه، فكيف يعفى عنهم، فقد تعني «عسى» بما عنت، أنهم إن ماتوا على توبتهم فاللَّه تائب عليهم.

و هنا مسائل مستفادة من آية الخلط:

العمل الصالح لا يحبط بالعمل السي‏ء اللّهم إلا فيما يستثنى بثابت النص وناصعه، كالإشراك باللَّه وما أشبه.

«عسى» من اللَّه حتم، وعساه يعني فيما يقول «عسى»- إضافة إلى ما مضى- تدليلا على أنه ليس ملزما بالرحمة غير المستحقة، وإنما هي تفضل يعبر عنه ب «عسى».

«اعترفوا» ماضيا دليل على سابق اعترافهم بذنبهم ثم «أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» دليل مستقبل التوبة المرجوة عليهم، وعلّ الفصل يعني تكميل التوبة حيث الاعتراف بالذنوب ليس نفسه التوبة، بل هو تقدمة لها.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 331

من المنافقين ثلاثة مخلّفون‏

إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (116).

له الولاية الطليقة في مطلق الكون تكوينا وتشريعا، إحياء وإماتة، للأرواح هدى وضلالا، وللأجساد حيث «يُحْيِي وَ يُمِيتُ» تعنيهما كليهما، ولا سيما حياة الهدى وضلال الردى اللتين يتحدث عنهما.

ثم «وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ» يلي أموركم «وَ لا نَصِيرٍ» ينصركم في الهزاهز.

لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (117).

هنا قلوب كادت تزيغ فتوبة اللَّه عليها هي الرجوع بالرحمة المطمئنة لها، وقلوب ما كادت تزيغ وهي قلب النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) والناحين منحاه، فلا تعني التوبة عليهم معنى واحدا لكي تعني في النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) توبة عليه في زيغ اعتراه.

فقد يتوب على الساحة المعصومة فهي التسديد في ساعة العسرة، وأخرى على غير المعصومين وهم غير مأثومين إذ «كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ» طمأنة لها عما كاد، وثالثة يتوب على من تاب إلى اللَّه من زيغ واقع وضيق مانع: «فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ» (5: 39) ورابعة يتوب عليهم ليتوبوا، ثم أخرى قبولا لتوبتهم في عظائم الذنوب كما:

وَ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَ ضاقَتْ عَلَيْهِمْ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 332

أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118).

فالتوبة على النبي واحدة هي مستمرة تسديدا له بما عصم اللَّه ولا سيما في ساعة العسرة، فمن الجهالة غيار «عَلَى النَّبِيِّ» ب «بالنبي» كما فى مختلقة «1».

و التوبة على من كاد أن تزيغ قلوبهم مرتان، توبة لاطمئنان بعد ما كادت تزيغ، وأخرى «ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ» مزيدا للرحمة والحنان «إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ» ولا حاجة فيهما إلى توبة العبد مهما تاب كما كان النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) توبة إلى اللَّه على أية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 277 في تفسير القمي قوله عزّ وجل: لقد تاب اللَّه بالنبي ... قال الصادق عليه السلام هكذا نزلت، أقول: ولا معنى لتوبة اللَّه بالنبي فإنه يتوب دونما وسيط اللهم إلّا بما يستغفر النبي، ولكن النصر «عَلَى النَّبِيِّ» كما بيناه، وفيه عن الإحتجاج للطبرسي عن أبان بن تغلب عن أبي عبد اللَّه عليه السلام انه قرأ: «لقد تاب الله بالنبي ..» قال ابان: فقلت له يا ابن رسول اللَّه إن العامة لا تقرأ كما عندك؟ قال: وكيف تقرأ يا أبان؟ قال قلت: إنها تقرأ: «لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ..» فقال: ويلهم وأي ذنب كان لرسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) حتى تاب اللَّه عليه منه إنما تاب اللَّه به على أمته.

أقول: لقد جاء «تاب على» في آيات عدة كما في دعاء إبراهيم «وَ تُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (2: 128) وفي نبينا (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً» (110: 3) وهكذا «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ..» وما أشبه، ولكل معنى صالح لساحة النبوة القدسية دون أي‏غيار في هذه الآيات.

وفي المجمع قد روي عن الرضا عليه السلام «بالنبي» وقراءة علي بن الحسين وأبي جعفر وجعفر بن محمد عليهم السلام «خالفوا» بدلا عن «خلفوا».

وفي تفسير العياشي عن فيض المختار قال قال أبو عبد اللَّه عليه السلام كيف تقرأ هذه الآية «وَ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا» قال قلت: «خلفوا» قال: لو خلفوا لكانوا في حال طاعة- و زاد الحسين بن مختار عنه: لو كان «خلفوا» ما كان عليهم من سبيل ولكنهم خالفوا عثمان وصاحباه أما واللَّه ما سمعوا صوت كافر ولا قعقعة حجر إلا قالوا أتانا فسلط اللَّه عليهم الخوف حتى أصبحوا، قال صفوان قال أبو عبد اللَّه عليه السلام كان أبو لبابة أحدهم يعني في «وَ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 333

حال.

ثم التوبة على من عصى هي مشروطة بأن يتوب إلى اللَّه حتى يتوب اللَّه عليه، وهي في الذنوب المتعددة غير المتعدية، ومن ثم على أمثال «الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا» حيث التوبات لهم أربع، توبة اللَّه عليهم ليصلحوا لرحمة كما «وَ عَلَى الثَّلاثَةِ» عطفا على «لَقَدْ تابَ» وأخرى عليهم ثانية ليتوبوا، ثم ثالثة هي توبتهم إلى اللَّه، ومن ثم رابعة ليتوب اللَّه عليهم غفرا لعظيم الذنب.

فتوبات اللَّه على عباده نوبات، كما وتوبات العبد نوبات، ولا تعني كلها معنى واحدا، حتى إذا سمعنا اللَّه يقول: «لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ» نحسبها توبة عن عصيان، أم يقال:

كانت الآية «بالنبي»! كما وأن الذنب ذنبان، ذنب يستوخم عقباه في العقبى وهو أوخم عصيان، وذنب يستوخم عقباه في الأولى ومنه قمة إيمان، كذنب الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) في «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ» فإنه ذنب الرسالة القدسية الأخيرة بملابساتها وعرقلاتها من قبل المناوئين إياها حيث سترها اللَّه بفتح العاصمة الرسالية.

و هؤلاء الثلاثة الذين خلفوا هم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن ربيعة، وكلهم من الأنصار، ولم يكونوا هم من المنافقين‏ «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 286- أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: لما نزل رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) بذي أوان خرج عامة المنافقين الذين كانوا تخلفوا عنه يتلقونه فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) لأصحابه: لا تكلمنّ رجلا تخلف عنا ولا تجالسوه حتى آذن لكم فلم يكلموهم فلما قدم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) المدينة أتاه الذين تخلفوا يسلمون عليه فأعرض عنهم وأعرض المؤمنون عنهم حتى أن الرجل ليعرض عنه أخوه وأبوه وعمه فجعلوا يأتون رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) ويعتذرون بالجهد والأسقام فرحمهم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) فبايعهم و استغفر لهم وكان ممن تخلف عن غير شك ولا نفاق ثلاثة نفر الذين ذكر اللَّه تعالى ... وفيه أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال: لما غزا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) تبوك تخلف كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع، قال: أما أحدهم فكان له حائط حين زها قد فشت فيه الحمرة والصفرة فقال غزوت وغزوت وغزوت مع النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) فلو أقمت العام في هذا الحائط فأصبت منه فلما خرج رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وأصحابه دخل حائطه فقال: ما خلّفني عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وما استبق المؤمنون في الجهاد في سبيل اللَّه إلّا ضن بك أيها الحائط، اللّهم إني تصدقت به في سبيلك، وأما الآخر فكان قد تفرق عنه من أهله ناس واجتمعوا له فقال غزوت مع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وغزوت فلو أني أقمت في أهلي فلما خرج رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وأصحابه قال: ما خلفني عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وما استبق إليه المجاهدون في سبيل اللَّه إلا ضنّ بكم أيها الأهل، اللّهم إن لك علي أن لا أرجع إلى أهلي ومالي حتى أعلم ما تقضي في، وأما الآخر فقال: اللّهم إن لك علي أن ألحق بالقوم حتى أدركهم أو انقطع فجعل يتتبع الدقع والحزونة حتى لحق بالقوم فأنزل اللَّه «لَقَدْ تابَ اللَّهُ .. وعلى الثلاثة الذين خلفوا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 334

و إنما «خلفوا» بما خلفتم أموالهم وأهليهم، خلفتهم عن اللحوق برسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) في غزوة تبوك، ف «خلّفوا» إذاً عن توبة اللَّه عليهم حيث التخليف في اللغة هو التأخير، فقد أخروا عما أخروا بما أخروا «حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ» تأسفا على ذلك التخلف العارم عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) ثم «وَ ضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ» تحزنا على ما خلّفوا «وَ ظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ» ثم بعد هذه الثلاثة التي هي من مؤهّلات التوبة «تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا» إليه «إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

فهؤلاء الثلاثة ابتلوا بثلاثة كل واحدة منها تكفي لأهليتهم للتوبة، فقد «ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ» أرض العشرة السليمة مع المسلمين حيث رفضوهم واعتزلوهم كما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 335

رفضهم رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) «ضاقت بما رحبت» من أموال وأهلين تركوا الجهاد لها ولهم، فضاقت عليهم أنفسهم» بتلك العزلة والندامة عن تلك التخلّفة العارمة «1»، ثم انقلبوا وانعزلوا إلى اللَّه حيث «ظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ» وبهذه الخطوات الثلاث التي هي من مؤهّلات التوبة «ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

ذلك، وزيغ قلوب فريق منهم الذي كاد، علّه نوع نفرة منهم لتلك السفرة الشاقة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الفخر الرازي 16: 218 ثم إن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) نهى عن مجالسةهؤلاء الثلاثة وأمر بمباينتهم حتى أمر بذلك نساءهم فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وجاءت امرأة هلال بن أمية وقالت يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) لقد بكى هلال حتى خفت على بصره حتى إذا مضى خمسون يوما أنزل اللَّه تعالى «لَقَدْ تابَ اللَّهُ ... وَ عَلَى الثَّلاثَةِ ..» فعند ذلك خرج رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) إلى حجرته وهو عند أم سلمة فقال: اللَّه أكبر قد أنزل اللَّه عند أصحابنا فلما صلى الفجر ذكر ذلك لأصحابه وبشرهم بأن اللَّه تاب عليهم فانطلقوا إلى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وتلا عليهم ما نزل فيهم فقال كعب: توبتي إلى اللَّه تعالى أن أخرج مالي صدقة فقال: لا- قلت: فنصفه، قال: لا، قلت: فثلثه، قال: نعم.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (123).

صحيح أن «قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ» (8:) 39) تعم الذين يلونكم والبعيدين عنكم، إلّا أن القدر المستطاع قبل قيام صاحب الإمر بالدولة الإسلامية العالمية، ليس المستطاع قبله إلا قتال الذين يلونكم وكما الإنذار والدعاية الإسلامية آخذان في خطواتهما من الأقربين الملاصقين، كذلك القتال، فهما الحد الأدني والخطوة الأولى من الناحيتين السلبية والإيجابية الممثلة لكلمة التوحيد، سلبا للكفر وإيجابا للإيمان.

ذلك «وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً» تحذروهم- أولاء وسواهم من الكفار- عن النيل منكم، فلا بد للمؤمنين إضافة إلى واقع القتال قوة إرهابية عادلة ترهب أعداء اللَّه: «وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ..» (8: 60).

ثم «وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» في القتال والغلظة، اتقاء عن الإفراط والتفريط، مشيا على معتدل الجادة في سبيل اللَّه كما أمر اللَّه، وبصورة جادة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 336

البعيدة في الرمضاء، وما أشبه من هذه الحوادث والوساوس والهواجس، فأدركهم اللَّه بتوبته عليهم جزاء ما أقدموا على الخروج رغم تلك المروج، وإتباعهم الرسول (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) في ساعة العسرة العسيرة، فجعلها اللَّه عليهم بتوبته سهلة يسيرة، فلاتباع الحق في ساعة العسرة موقعه العالي في ميزان اللَّه، يستحق صاحبه به أن يتوب اللَّه عليه برحمة خاصة راصّة.

الكفار والمنافقون «1»

يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن اللّه مع المتقين (9: 123)

صحيح أن «قاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله للّه» (8: 39) تعم الذين يلونكم والبعيدين عنكم، إلّا أن القدر المستطاع قبل قيام صاحب الإمر بالدولة الإسلامية العالمية، ليس المستطاع قبله إلا قتال الذين يلونكم وكما الإنذار والدعاية الإسلامية آخذان في خطواتهما من الأقربين الملاصقين، كذلك القتال، فهما الحد الأدنى والخطوة الأولى من الناحيتين السلبية والإيجابية الممثلة لكلمة التوحيد، سلباً للكفر وإيجاباً للإيمان.

ذلك «وليجدوا فيكم غلظة» تحذروهم- أولاء وسواهم من الكفار- عن النيل منكم، فلا بد للمؤمنين إضافة إلى واقع القتال قوة إرهابية عادلة ترهب أعداء اللّه:

«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ...» (8: 60)، ثم «واعلموا أن اللّه مع المتقين» في القتال والغلظة، إتقاءً عن الإفراط والتفريط، مشياً على معتدل الجادة في سبيل الله كما أمر اللّه، وبصورة فحين تشكّل دولة إسلامية بغياب صاحب الأمر عجل اللَّه تعالى فرجه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 337

الشريف، فلا عليها ولا لها إلّا أن تقاتل جيرانها الأقربين من الكفار المقاتلين المفسدين، اتقاء عن التجاوز عنهم إلى الآخرين، حيث الكفر ملة واحدة، فقد يجنّد جنوده دفعة واحدة وحملة فاردة لاجتثاث الدولة الإسلامية التي غاية قوتها الحفاظ على نفسها من بأس الذين يلونهم من الكفار.

ذلك، ولأن «الَّذِينَ آمَنُوا» لا تختص بدولة إسلامية، وهم مبعثرون في المعمورة، فعليهم القتال الدائب قدر المستطاع بصورة متواصلة سوما للعذاب على الكفار المفسدين الخطرين عليهم، حتى تعبّد الطريق لدولة المهدي عليه السلام العالمية.

فهنالك للمجموعة المسلمة مثلث من الجهاد في مثناه: دعائيا وحربيا، فالضلع الأوّل «الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ» لكل دولة أو دويلة أو مجموعة أو منظمة إسلامية سليمة، والثاني أن تتعاون كافة المجموعات الإسلامية في شتى أنحاء المعمورة، مترابطين مع بعضهم البعض ومرابطين وكما قال اللَّه تعالى: «وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ ..» والثالث والأخير- وهو من حصائل ذلك الجهاد الإسلامي المتكافل وفصائله- هو تأسيس الدولة الإسلامية العالمية بقيادة صاحب الأمر وولي العصر حجة بن الحسن العسكري عجل اللَّه تعالى فرجه وسهل مخرجه، وأما الحرب الباردة الدعائية فلا حد لها إلا كافة الدعايات الكافرة، أن نحاربها بألسنتنا وأقلامنا.

و قيلة القائل الغائل إنها منسوخة ب «قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً» منسوخة بأن «كافة» هي وصف للمقاتلة المستفادة من «قاتلوا» فلتكن مقاتلة كافّة بأسهم عن المسلمين، تكفهم عنهم وتجعلهم في أمن منهم، فهم- إذا- «الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ» يلونكم جوار المكان والحدود الجغرافية- أم ويلونكم جوار البأس مهما كانوا بعيدين، وهما ليسا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 338

إلّا قتال الدفاع، دون هجوم بدائي أيّا كان.

و لقد كانت سنة الحروب للقائد الرسولي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) هكذا في خطوات، من «أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» في العهد المكي حربا عقيدية، تبنيا لأعضاء الدولة وأعضادها في المدينة، وإلى حرب المشركين المدنيين ثم المكيين ثم سائر الجزيرة وإلى الشام والروم، حيث الجمع بين كل الأعداء في حرب واحدة منذ البداية، انسحاق لأصل الدعوة بمجموعتها الدينين، ما لم يفعله قائد القوات الرسولية في زمنه فضلا عمن سواه!.

فلمحاربة الأعداء الأقربين، ولا سيما الدخلاء الداخليين، تقدم حسب كل التكتيكات الحربية، كما وهي أقل مؤنة وأكثر معونة وأوجب دفعا للخطر الحادق الحاذق.

ثم «الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ» إن كانوا أقوياء، كان تعرّضهم لدار الإسلام أكثر وتبرزهم أخطر من البعيدين، فهم أولى بالدفع ممن سواهم، وإن كانوا ضعفاء كان استيلاءهم عليهم أسهل، وإبقاءهم على حالهم اشتغالا بالبعيدين يخلق لهم مجالا للاستعداد، وعلى أية حال ف «لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الآْخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً» (33: 21) فقد ابتدأ في كلا الغزو والدعوة بالأقربين، مراعيا سياسة الخطوة الخطوة حتى ملك الجزيرة بكاملها، ثم إلى غير الجزيرة من الروم وما أشبه، سنة سارت عليها الفتوحات الإسلامية. تواجه من يلون دار الإسلام مرحليا، فلما أسلمت الجزيرة أو كادت، ولم تبق إلا فلول منعزلة لا تؤلف طاقة خطرة بعد فتح مكة، كانت غزوة تبوك على أكناف الروم، ثم انساحت الجيوش الإسلامية إلى الروم وفارس إلى أن وحّدت الرقعة الإسلامية وتواصلت حدودها ببعضها البعض، فإذا هي كتلة ضخمة شاسعة الأرجاء، واسعة الأنحاء، متماسكة الأطراف، ثم لم تمزقها إلّا الحدود

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 339

المختلفة المختلقة المتخلّفة بين ديار الإسلام فأصبحت دويلات فشكلت ويلات على المسلمين أجمع.

ذلك، وترى «وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً» تعني الخشونة والفظاظة التي تنافي في صالح الدعوة؟ إنها غلظة رهيبة في القوات المسلحة وسائر الاستعدادات أمام المحاربين دون سائر الكفار فضلا عن المؤمنين، فقد تعني «غلظة» منكرة، الغلظة التي لا بد منها أمام المعاندين، فلا تنافي اللينة في الدعوة والرحمة في الدعاية ف «لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ» (29: 46) فحين لا تؤثر الرحمة إلا زحمة فهنالك الغلظة أمام غلظة، حيث الرحمة أمام الظالم المعاند العامد، إنها زحمة وقسوة على المظلوم، فهي- إذا- غلظة أمام غلظة، بلا هوادة ولا تميّع ولا تراجع، إنها قوة وصلابة ومهابة «حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ».

ذلك، وكما أن الرأفة والرحمة في الدعوة الربانية من تقوى اللَّه، كذلك الغلظة في محالها من تقوى اللَّه، فالرأفة مكان الغلظة كما الغلظة مكان الرأفة هما خارجتان عن تقوى اللَّه إلى الطغوى على حكم اللَّه.

ولقد كانت الحروب الإسلامية بقيادة القائد الرسولي أو الرسالي، مبنية على تقوى اللَّه: «فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» فلا يحب الطاغين.

و لقد كان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى اللَّه تعالى ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال: اغزوا باسم اللَّه، في سبيل اللَّه، قاتلوا من كفر باللَّه، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا وليدا، فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم وأدعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم أدعهم إلى التحول من‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 340

دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم اللَّه تعالى الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم من الغنيمة شي‏ء إلّا أن يجاهدوا مع المسلمين، وإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن باللَّه تعالى عليهم وقاتلهم ... «1».

إذا فلا تعني الغلظة معهم إلّا في ضوء التقوى، وليست هي الوحشية والبربرية مع الأطفال والنساء والشيوخ وسائر العجّز غير المحاربين، إنما هي الخشونة التي لا تميّع الحركة ولا تفسح مجالا لأعداء الدين أن يهاجموا المؤمنين، فهذا الدين- كما هو اللَّه- «أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي، وأخرج أبو داود عن رجل من جهينة أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) قال: لعلكم تقاتلون قوما فتظهرون عليهم فيتقونكم بأموالهم‏دون أنفسهم وذراريهم فيصالحونكم على صلح، فلا تصيبوا منهم فوق ذلك فإنه لا يصلح لكم.

وعن العرياض ابن سارية قال: نزلنا مع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) قلعة خيبر ومعه من معه من المسلمين وكان صاحب خيبر رجلا ماردا متكبرا فأقبل النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) فقال: يا محمد! لكم أن تذبحوا حمرنا وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا؟ فغضب رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وقال: يا ابن عوف أركب فرسك ثم ناد:

إن الجنة لا تحل إلّا لمؤمن وإن اجتمعوا للصلاة فاجتمعوا ثم صلى بهم ثم قال فقال:

أ يحسب أحدكم متكئا على أريكته، قد يظن أن اللَّه تعالى لم يحرم شيئا إلا ما في القرآن، ألا وإني قد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء، إنها لمثل القرآن أو أكثر وإن اللَّه لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوا الذي عليهم.

و رفع إليه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم)- بعد إحدى المواقع- أن صبية قتلوا بين الصفوف فحزن حزنا شديدا فقال بعضهم: ما يحزنك يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وهم صبية للمشركين، فغضب النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وقال ما يعني: إن هؤلاء خير منكم، إنهم على الفطرة، أو لستم أبناء المشركين، فإياكم وقتل الأولاد إياكم وقتل الأولاد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 341

ذلك، وأحرى من الدفاع والحرب الحارة الحارقة، الدفاع والحرب الباردة وهي الدّعائية بعد تقديم البراهين البينة الدّعائية.

و هنا خطوات اولاها واولاها الدعوة الداخلية بمختلف واجهاتها، كيلا ينصدم المسلمون بدعايات مضللة يحملها المتظاهرون بالإسلام، ومن ثم سائر المهاجمين على المقدسات الإسلامية السامية.

فهؤلاء الربانيون الحافظون لحدود اللَّه هم ثقات الإسلام وحصونه، الذين يصدون الهجمات الهمجات المضلّلة للمسلمين.

وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ (125).

رجعة في نهاية السورة إلى تتمات من مواصفات المنافقين والكافرين، أنهم «إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ» يتساءلون هازئين أنفسهم والمؤمنين «أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً» والجواب الحاسم القاصم ظهورهم «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً» على إيمانهم «وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ» ببشائرها «وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» وريبة رجسة «فَزادَتْهُمْ رِجْساً» بمزيد كفرهم «إِلَى رِجْسِهِمْ» من كفرهم «وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ»-: «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً».

أجل وقضية اختلاف القلوب سعة وضيقا هي اختلاف انعكاس القرآن عليها، فالطاهر القلب، المنشرح الصدر، المتحري عن الحق يزيدهم القرآن إيمانا كلما نزلت آياته البينات أو تليت عليه، ف «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» (8: 2).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 342

و النجس القلب ورجسه الضال الشاك‏ «1»، والضيّق الصدر يزداد به ضلالا ورجسا إلى رجسه: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ» (6: 125).

ف «رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ» تعني ضلالا على ضلالهم، حيث سمي الضلال هنا رجسا، وهو مرض القلب، ف «بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة، وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله، وبالنقصان دخل المفرطون النار» «2» والإيمان يبدو لمظة- نقطة بيضاء- في القلب كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة. «3»

أَ وَ لا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَ لا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126).

ألا يرون الحق ناصعا ناصحا تترى عليهم آياته «أَ وَ لا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ ..» ومن هذه الفتنة الحروب المستجدة في كل عام مرة أو مرتين وهم فيها مخلّفون، ومنها السورة التي تفضحهم بما في قلوبهم «ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَ لا هُمْ يَذَّكَّرُونَ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. نور الثقلين 2: 286 في تفسير العياشي عن زرارة بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام في «رِجْساً إِلَى‏رِجْسِهِمْ» يقول: شكا إلى شكهم‏

(2). نور الثقلين 2: 285 في أصول الكافي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد اللَّه عليه السلام في حديث‏طويل قال: إن اللَّه تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم وقسمه عليها وفرقه فيها وبين ذلك، قلت: قد فهمت نقصان الإيمان وتمامه فمن أين جاءت زيادته؟ قال: قول اللَّه عزّ وجلّ: «و إذا ما أنزلت سورة ... إلى رجسهم» وقال: «نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى» ولو كان كله واحدا لا زيادة فيه ولا نقصان لم يكن لأحد منهم فضل على أخيه ولاستوت النعم فيه ولا ستوى الناس وبطل التفضيل ولكن ..

(3). نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 343

فلقد كانت الفتنة الربانية تتواتر عليهم عاما مرة وعاما مرتين، كشفا لسترهم الستير وتركا لهم للنفير، وانتصارا للمؤمنين دونهم، فتحسرا لهم وتكسرا حيث ينتصرون دونهم، و ما أشبه من صور الفتنة، ومنها:

وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى‏ بَعْضٍ هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (127).

«سورة» هي بصورة عامة تعني المسوّر باستقلال المعني، آية مستقلة، أم آيات مستقلات، أم سورة مصطلحة، أم سور مترابطات، أم القرآن كله.

و آياتها على الترتيب: «وَ إِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَ جاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ» (9:

68) إذ تعني عناية مستقلة تعني واجب الإيمان والجهاد، إن في آية أم في آيات.

ثم «سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَ فَرَضْناها وَ أَنْزَلْنا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ» (24: 1) إذ تعني سورة النور برمتها.

ثم آيات عدة تجمعها سورة أم عناية واحدة مهما كانت في سورة أم سور: «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ..» (2: 23).

و من ثم القرآن كله: «قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ..»

(10: 38) فإن ضمير الغائب في مثله راجع إلى القرآن كله، فقد تعني: فأتوا بمجموعة مثل المجموعة القرآنية.

و هنا «سورة» قد تعني التي «تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ»- ضمن سائر ما عنت من السور- لمحة من «هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ» حتى يعرفكم بما يعرِّفكم اللَّه بمخابئ قلوبكم «ثُمَّ انْصَرَفُوا» عنها كما هم منصرفون عن سائر السور «صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» عن القرآن جزاء بما صرفوا «بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ» الحقّ رغم تواتر آياته وتوافر بيناته.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 344

هؤلاء المقلوبة قلوبهم تتغير ألوانهم تغيظا على نزول القرآن ولا سيما السور التي تفضحهم، ثم يقول بعضهم لبعض: «هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ» بغيار لونه والقلق الظاهر على صفحة وجهه «ثُمَّ انْصَرَفُوا» لكيلا يسمعوا القرآن ولا يراهم أحد بغيار ألوانهم فيعرفوا بنفاقهم من جهتين أم واحدة.

أم هم في ثالوث من قلقهم ثالثة أنهم يستهزءون بالقرآن عند نزوله، متخفين من أن يراهم أحد فيتساءلون خائفين ذعرين «هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ» أم ورابع أنهم يريدون الخروج عند نزول سورة فيتساءلون «هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ» تخرجون، «ثُمَّ انْصَرَفُوا» زعما منهم أنه لا يراهم من أحد، حيث تلوح لهم غرة من المؤمنين وانشغال بال، فإذا هم يتسللون على أطراف الأصابع في حذر «ثُمَّ انْصَرَفُوا» تلاحقهم من العين التي لا تغفل ولا تنشغل دعوة قاصمة تناسب فعلتهم المريبة.

إلى هنا- والسورة تتم بعد آيتين- سمعنا مواصفات للمنافقين تحتل زهاء نصف وزيادة من آيات السورة، ثم نسمع الإمام عليا أمير المؤمنين عليه السلام يصفهم على ضوء القرآن قائلا:

و أوصيكم عباد اللَّه بتقوى اللَّه وأحذركم أهل النفاق، فإنهم الضالون المضلون، والزالون المزلون، يتلونون‏ألوانا، ويفتنون افتنانا، ويعمدونكم بكل عماد، ويرصدونكم بكل مرصاد، قلوبهم دوية، وصفاحهم نقية، يمشون الخفاء، ويدبون الضراء، وصفهم دوائر، وذكرهم شفاء، وفعلهم الداء العياء، حسدة الرخاء، ومؤكدوا البلاء، ومقنّطوا الرجاء، لهم بكل طريق صريع، وإلى كل قلب شفيع، ولكل شجو دموع، يتقارضون الثناء، ويتراقبون الجزاء، إن سألوا ألحفوا، وإن عدلوا كشفوا، وإن حكموا أسرفوا، قد أعدوا لكل حق باطلا، ولكل قائم مائلا، ولكل حيّ قاتلا، ولكل باب مفتاحا، ولكل ليل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 345

مصباحا، يتوصلون إلى الطمع باليأس ليقيموا به أسواقهم، وينفقوا به أعلاقهم، يقولون فيشبّهون، ويصفون فيموّهون، قد هوّنوا الطريق، وأضلعوا المضيق، فهم لمّة الشيطان، وحمة النيران، أولئك حزب الشيطان «أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ» (الخطبة 185).

هؤلاء المنافقون الأنكاد «زرعوا الفجور، وسقوه الغرور، وحصدوا الثبور» «و الله ما أرى عبدا يتقى تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه، وإن لسان المؤمن من وراء قلبه، وإن قلب المنافق من وراء لسانه، لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبره في نفسه، فإن كان خيرا أبداه، وإن كان شرا وأراه، وإن المنافق يتكلم بما أتى على لسانه، لا يدري ما ذا له وما ذا عليه» (الخطبة 174).

«رجل منافق مظهر للإيمان، متصنع للإسلام، لا يتأثم ولا يتحرج، يكذب على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) متعمدا-.

و قد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك، ووصفهم بما وصفهم به لك، ثم بقوا بعده، فتقربوا إلى أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والبهتان، فولوهم الأعمال، وجعلوهم حكاما على رقاب الناس، فأكلوا بهم الدنيا، وإنما الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصم الله» (الخطبة 208).

لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (128).

«كم» هنا تعني كافة المؤمنين بمن معهم من سائر الناس المخاطبين س لهذا الرسول تشجّع على إتباعه:

«رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» فلو كان الرسول إلى الناس من غير الناس لكان في ترك‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 346

اتباعه عذرا «1» ف «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ» فهو من أنفس الناس بشرا مثلهم‏ «2» ثم هو من أنفسَ الناس فإنه من وأنفَس المؤمنين وكما يروي عنه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) أنه قال: «إذا أراد الله أن يبعث نبيا نظر إلى خير أهل الأرض قبيلة فيبعث خيرها رجلا» «3».

أجل إنه «من أنفسكم» ومن أنفسكم، فقد نسب نفسه بسلسلة الآباء إلى نزار ثم قال: «و ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما فأخرجت من بين أبوي فلم يصبني شي‏ء من عهد الجاهلية، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لون آدم حتى انتهيت إلى أبي و أمي فأنا خيركم نفسا وخيركم أبا» فقد تعني «من أنفسكم» من جنس أنفسكم وخلقكم إنسانا كما أنتم لتكونوا إليه أسكن، وإلى القبول منه أمكن، ثم واعتبارا بمنطلق دعوته تعني من قبيلكم وعشيرتكم، ومن ثم اعتبارا بصالح شخصه تعني من أنفس المؤمنين وأنفسهم إيمانا، أم هو من أرواحكم فإن للأرواح جوانب أعمقها الفطر والقلوب، فهو قلب لكل الأرواح المؤمنة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. الدر المنثور 3: 294- أخرج ابن مردويه عن أنس قال: قرأ رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله‏وسلم) «لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» فقال علي بن أبي طالب عليه السلام يا رسول اللَّه ما معنى «أنفسكم» فقال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): أنا أنفسكم نسبا وصهرا وحسبا ليس في ولأخي آبائي من لدن آدم سفاح كلها نكاح‏

(2). المصدر أخرج بن سعد عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) قال: ..

(3). المصدر أخرج البيهقي في الدلائل وابن عساكر عن أنس قال: خطب النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) فقال: أنا محمد بن عبد اللَّه ... وفيه أخرج ابن سعد والبخاري والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة أن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) قال: بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذي كنت فيه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 347

ذلك، فقد يحق له (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) قوله: «آدم وجميع خلق الله تستظل بظل لوائي» «1».

«عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ» ثقيل عليه ما تعبتم حيث العنت هو الوقوع في مشقة ومكروه، فيعز عليه أن تعنتوا وتعاندوا فتحرموا الثواب وتستحقوا العقاب.

«حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ» على إيصال الخيرات إليكم، حريص على أيمانكم رأفة بكم وإشفاقا عليكم.

«بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ».

و هنا «من أنفسكم» دون «منكم» هي أشد حساسية وأعمق صلة وأدل على نوعية الوشيجة التي تربطهم به، فهو بضعة من أنفُس الناس وأنفسَهم لأنه من المؤمنين قبل الرسالة.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129).

«فَإِنْ تَوَلَّوْا» بعد هذه المواصفات الرسولية والرسالية، وبعد كل الآيات البينات الدالة على صدقك «فَإِنْ تَوَلَّوْا» عنك تصديقا برسالتك أو طاعة لك فلا تأسف على توليهم «فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ» ربّا لا سواه «لا إِلهَ إِلَّا هُوَ» فإنما هو لا سواه متكئماً ومتوكل عليه:

«عليه» لا سواه «تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» الذي جعلني على عظيم عرش النبوة والرسالة الختمية العالمية.

و هكذا يجب أن يكون الداعية إلى اللَّه، يلقي حججه كما أمره اللَّه ثم لا يأسف على توليهم مهما يفرح بتصديقهم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ملحقات إحقاق الحق 4: 495 و 15: 483- 487 و 20: 323- 324

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 348

و هكذا يعيش رسول الهدى جامعا بين صلابة المواجهة لأعداء اللَّه، وليونته مع سائر عباد اللَّه، فقد حارب الأعداء طوال ثمان سنين من العهد المدني- باستثناء سنة أولى وأخرى أخيرة- حاربهم زهاء (65) مرة، ففي كل خمسين يوما كانت له حرب غير ماضية و مستقبلة، وهو في نفس الوقت «بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ».

المنافقون يقولون آمنا ... ثم يتولى فريق منهم‏

وَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ ما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47).

ليس الإيمان لعبة يتلهى بها في مقال، إنما هو تكيّف في النفس انطباعا في القلب، حالا واقعية تظهر في مقال وفي أعمال، فأما القول- آمنا- فقط فهو لفظ الإيمان دون واقعه، وأما عقد القلب دون ظهور في عمل فهو حال الإيمان ولما يستكن في القلب، وإلّا فأين عمل الإيمان؟ فإن له صورة الظاهر كما له سيرة الباطن.

«وَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ» وحده لا شريك له «و بالرسول» الذي أرسله‏ «1» «وأطعنا» اللّه في محكم كتابه «و أطعنا» الرسول فيما أرسل به من سنته الجامعة غير المفرقة، فهم يدعون مثلث الإيمان المستخلص في ثالث أضلاعه: «و أطعنا» ولكن «ثم يتولى» بعد تلك المقالة «فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ» الدعوى «وَ ما أُولئِكَ» المتولون «بالمؤمنين» حيث التولي عن طاعة اللّه والرسول يكذب دعوى الإيمان، فإنما الإيمان هو الطاعة على درجاتها فدرجاته، ثم لا يكون إلّا دعوى الإيمان! بنفاق، أم ارتياب بعد إيمان، أم ضعف‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و انما فصل الرسول بالباء للفصل بين الايمانين أصالة ورسالة، ولكي لا يظن انهما في درجةواحدة ام هما واحد، رغم الوحدة في الاتجاه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 349

في إيمان! ومهما كان ضعيف الإيمان مؤمنا ولكن «ما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ» على حد قولهم «... وَ أَطَعْنا» حيث عصوا، فلم يقل «بمؤمنين» إذ فيهم قليلو الإيمان! وإنما «بالمؤمنين» الخصوص في «أطعنا» ومن توليهم عن طاعة اللّه ورسوله:

وَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49).

الرسول صلى الله عليه و آله هو الحاكم بينهم بما أراه اللّه:

«إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً» (4: 105) وقد أراه اللّه حكمه بوحي القرآن والسنة، ف- «ليحكم» المفرد مع سابق ذكر اللّه ورسوله، يعني حكم الرسول، بالدعوة إلى اللّه دعوة إلى كتابه، والدعوة إلى الرسول دعوة إلى سنته، والحاكم بالكتاب والسنة بينهم هو الرسول إذ اللّه لا يوحي إليهم، ف- «إِذا دُعُوا ... إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ» عن حكم اللّه والرسول الذي يحكم به الرسول، هم معرضون عن حكم الرسول إذ يرون الحق عليهم في ميزان الحق، ثم هم أولاء «وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ» في قضيتهم «يَأْتُوا إِلَيْهِ»: الرسول «مذعنين» بطاعة اللّه وصدق والرسول، مذعنين بحكمه، وفي الحق لا يأتون إلى الرسول إذ لا يأتون إلّا إذا وافق حكمه وهو أهم! فهم إذا يأتون هواهم، دون هداهم.

و قد أنزل اللّه هذه الآيات تنديدا بهؤلاء المتولين العصاة فقال الرسول (صلى اللّه عليه و آله وسلم) «من كان بينه وبين أخيه شي‏ء فدعاه إلى حكم من حكام المسلمين فلم يجب فهو ظالم لا حق له». «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). (1). الدر المنثور 5: 54- اخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن قال: ان الرجل كان يكون بينه وبين الرجل خصومة او منازعة على عهد رسول اللّه صلى الله عليه و آله فإذا دعي إلى النبي صلى الله عليه و آله وهو محق أذعن وعلم ان النبي صلى الله عليه و آله سيقضي له بالحق وإذا أراد ان يظلم فدعي إلى النبي صلى الله عليه و آله اعرض وقال: انطلق إلى فلان فانزل اللّه «وَ إِذا دُعُوا- الى قوله- الظَّالِمُونَ» فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: من كان بينه ... وفيه واخرج الطبراني عن الحسن عن سمرة قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله من دعي إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حق له، أقول يعني به سلطان المسلمين: من له سلطة شرعية عليهم من حكام الشرع والقضاة امّن ذا من أجهزة الدولة العادلة الإسلامية إلا إذا تأكد ان هذا السلطان ظالم فالتحاكم إليه تحاكم إلى الطاغوت!.

وفي نور الثقلين 3: 615 ح 210 عن تفسير القمي حدثني ابن أبي عمير عن ابن سنان عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: نزلت هذه الآية في امير المؤمنين عليه السلام وعثمان و ذلك انه كان بينهما منازعة في حديقة فقال امير المؤمنين عليه السلام نرضى برسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال عبد الرحمن بن عوف لا تحاكمه إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فانه يحكم له عليك ولكن حاكمه إلى ابن شيبة اليهودي فقال عثمان لأمير المؤمنين عليه السلام: لا نرضى الا بابن شيبة اليهودي فقال ابن شيبة لعثمان تأمنوا رسول اللّه على وحي السماء وتتهموه في الأحكام؟ فانزل اللّه عز وجل على رسوله «وَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ- الى- الظَّالِمُونَ» ثم ذكر امير المؤمنين عليه السلام «إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ ... فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ».

و في التفسير الكبير 24: 20، قال مقاتل: نزلت هذه الآية في بشر المنافق وقد خاصم يهوديا في ارض وكان اليهودي يجره إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله ليحكم بينهما وجعل المنافق يجره إلى كعب بن الأشرف ويقول: ان محمدا يحيف علينا وقال الضحاك نزلت في المغيرة بن وائل كان بينهُ بين علي بن أبي طالب ارض فتقاسما فوقع‏إلى علي منها ما لا يصيبه الماء الا بمشقة فقال المغيرة بعني أرضك فباعها إياه وتقابضا فقيل للمغيرة أخذت سبخة لا ينالها الماء فقال لعلي عليه السلام اقبض أرضك فانما اشتريتها إن رضيتها ولم ارضها فلا ينالها الماء-

فقال علي عليه السلام بل اشتريتها ورضيتها وقبضتها وعرفت حالها لا اقبلها منك ودعاه إلى ان يخاصمه إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله‏

فقال المغيرة: اما محمد فلست آتيه ولا أحاكم إليه فانه يبغضني وانا أخاف ان يحيف علي فنزلت هذه الآية، وقال الحسن نزلت هذه الآية في المنافقين الذين كانوا يظهرون الايمان ويسرون الكفر.

و في تفسير الآلوسي 18: 194- اخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة انها نزلت في المنافقين وروى عن الحسن نحوه وقيل نزلت في بشر المنافق دعاه يهودي في خصومة بينهما إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله ودعا هو اليهودي إلى كعب بن الأشرف ثم تحاكما إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فحكم لليهودي فلم يرضى المنافق بقضائه صلى الله عليه و آله وقال: نتحاكم إلى عمر فلما ذهبا إليه قال له اليهودي قضى لي النبي صلى الله عليه و آله فلم يرض بقضائه فقال عمر للمنافق: أكذلك؟ فقال: نعم! فقال: مكانكما حتى اخرج اليكما فدخل وخرج بسيفه فضرب عنق ذلك المنافق حتى برد وقال: هكذا اقضي لمن لم يرض بقضاء اللّه تعالى ورسوله فنزلت وروي هذا عن ابن عباس».

أقول: قوله تعالى: «ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ ... وَ إِذا دُعُوا ...» لا يناسب شخصا واحدا سواء أكان عثمان او البشر او المغيرة، فقد تعنيهم الآية وأضرابهم دون اختصاص بشخص دون آخرين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 351

و لماذا يتولى هذا الفريق فيعرض عن حكم الرسول صلى الله عليه و آله إلّا إذا كان لهم الحق؟:

أَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتابُوا أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50).

هذا الترديد التقسيم يقرر موقف «فَرِيقٌ مِنْهُمْ ... دُعُوا» أنهم جماعة بين من «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» نفاقا كبشر المنافق، او غير نفاق حيث نفي عنهم ذلك الإيمان، المناسب لنفاق خلوا عن أي‏ايمان، أم إيمان ناقص، وقد ردف المنافقون بالذين في قلوبهم مرض فهم أخص منهم «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ...» (33: 60) ومن «ارتابوا» بعد الإيمان كمغيرة بن وائل، ومن «يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» وله بعض الإيمان كمن لا نسمّيه، فالمتولي عن حكم الرسول المعرض عنه بعد دعوى الإيمان والطاعة ليس إلّا منافقا في قلبه مرض، أم مرتابا بعد إيمان، أم قليل الإيمان حيث يخاف أن يحيف اللّه عليه ورسوله «وَ ما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ» ... «بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» بحق الإيمان المدعّى منافقا، وبحق الإيمان الكائن مرتابا بعده، وبحق الإيمان الباقي خائفا حيف اللّه ورسوله نقصا في الإيمان، وهم الظالمون بحق الرسول صلى الله عليه و آله وبحق من نازعوه في حقهم، ولم يرضوا بحكم الرسول حيث يحكم بالعدل! و «بل» هنا إعراض عن توليهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 352

الإعراض بمثلث الأعراض التي حالت دون الطاعة لرسول الهدى، و «أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» يعني- فقط- المعرضين، لا كل «الذين يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنا» فمنهم الصادقون الصالحون، «ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ» لا كلهم فلا يعمهم مثلث التنديد و «الظالمون»! لقد كانوا على علم ألا يحيف اللّه ورسوله عليهم ولا يحيد عن الحكم الحق فيهم، إذ لا ينحرف الرسول مع الهوى حتى ينجرف ويتردى، إن كانوا مؤمنين، ولكنهم لمرض في قلوبهم: نفاقا أم ضعف الإيمان، أو ارتياب بعد الإيمان، خافوا أن يحيف اللّه عليهم ورسوله، بل ليس هذا أو ذاك سببا لخوف الحيف «بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»! ف- «بل» هذه إعراض في وجهيه، إلى سبب واحد هو الظلم، سواء أكان في قلوبهم مرض أو ارتياب أو خوف أم لم يكن، فحتى المشرك باللّه لا يعرض عن حكم اللّه خوف الحيف فضلا عن الموحّد مهما كان منافقا أمن ذا؟ فإنما هو الظلم الكامن في قلوبهم يدفعهم إلى الإعراض عن حكم اللّه! ترى أليست هذه الثلاث من الظلم حتى يعرض عن سببيتها إلى الظلم؟ علّه يعني أعمق الظلم وأحمقه، أنهم خلوا من هذه الثلاث يعرضون عن حكم اللّه ظالمين، تعديا عن طور الإيمان المدّعى، وأنهم على واحدة من هذه الثلاث ظالمون فإن الكل ظلم، فإنما الظلم لا سواه هنا وهناك يدفعهم إلى الإعراض عن حكم اللّه! فلا حكم إلا للّه أصالة وإلّا لرسول اللّه رسالة، والتحاكم إلى غير حاكم اللّه تحاكم إلى الطاغوت أيا كان، وإن مدعيا للإسلام يتردى ردائه ويتحكم أمته! «يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ» (4: 60)! إن حكم اللّه بحكمه فهو الوحيد البري‏ء عن خوفة الحيف، لأنه العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، وخلقه في ميزان عدله سواء، وليس في شرعته إلّا سيادة القانون الحق دون سائر السادة، وقيادة القانون الحق دون سائر القادة، ولا حماية ولا مصلحية إلّا العدالة المطلقة التي لا يسطع لها إلا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 353

اللّه.

فإذ كان اللّه هو العدل حقا، فالذي يحيد عن حكم اللّه إلى سواه هو الظالم حقا «بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» وليس اللّه وليس رسول اللّه، ولا كل من يحكم بحكم اللّه، فإنما هم المعرضون عن حكم اللّه! قضية الإيمان الصادق ألّا يقدّم بين يدي اللّه ورسوله: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ» (49: 1) فالمقدّمون بين يدي اللّه ورسوله هم المنافقون مسلمين كانوا أم سواهم «أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلى‏ كِتابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ» (3: 23)

فالمنافقون كما الكافرون ملة واحدة وأما المؤمنون:

إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51) وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ اللَّهَ وَ يَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (52).

إنما السمع والطاعة بعد القول «آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنا» هو قاعدة الإيمان وفائدته، فعند تقلب الأحوال يعرف جواهر الرجال، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

فالقول «آمنا ...» هو قولة الإيمان صورة لفظية، وعقد القلب به هو صورته المعنوية ولمّا يصل إلى سيرته، ف- «إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ» هنا تتبين سيرة الإيمان بسريرته: «أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» عمليا في تجربة الإيمان، بعد فلاحهم في حال ومقال! ثم لا يفوز بفلاحه هذا بعد القول: سمعا وطاعة، إلّا بمثلث الطاعة الخشية التقوى: 1 (وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ» 2 (وَ يَخْشَ اللَّهَ» 3 (و يتقه»- «فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ»! فالخطوة الأولى هي الفلاح: شق الطريق الصعبة الملتوية إلى المقصود، ثم الثانية هي الفوز: الظفر بالخير مع حصول السلامة دنيا وعقبى،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 354

فالقول: سمعنا وأطعنا إفلاح تعبيدا للطريق، وطاعة اللّه ورسوله وخشية اللّه وتقوى اللّه، هي اجتياز بسلامة إلى الخير المقصود، كما الفلّاح يفلح الأرض شقا وإعدادا للبذر، ثم يبذر بسلامة ويحصد، إفلاحا ففوزا تلو بعض! وهكذا نرى آيات الإفلاح والفوز أن الثاني بعد الاوّل ومن مخلفاته:

«وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً» (4: 73) (فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ» (3: 185)

فالزحزحة عن النار إفلاح وتسوية للطريق إلى الجنة: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (9: 72) وعلّ «ذلك» هو الرضوان أم هو الكل، وكل ذلك فوز نتيجة الإفلاح «وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (61: 12).

و أما الإفلاح فهو التعبيد لطريق الفور «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها» (91:) 9) والتحلية هي بعد التزكية «فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (5: 100) (وَ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (24:) 31).

هنالك «كان» في قول المؤمنين «سَمِعْنا وَ أَطَعْنا» تضرب إلى عمق الماضي تلميحا أن ذلك قضية الإيمان بطبيعته، فالمتخلف عنه متخلف عن الإيمان الصالح مهما كان له إيمان! ثم «وَ إِذا دُعُوا ...» تعم دعوة أحد المتنازعين، أم أي‏داع إلى اللّه، أو داعي اللّه أو داعي رسول اللّه، ثم الطاعة- وهي واقعها- بعد القول «سَمِعْنا وَ أَطَعْنا» ومن ثمّ الخشية مع الطاعة «وَ يَخْشَ اللَّهَ» تحكيما لرباط الطاعة، وأخيرا «و يتقه» تقوى في الطاعة الخشية والخشية الطاعة، أن تستخلص في اللّه دون سواه، هذه الثلاث زاد فائز صالح في الطريق‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 355

الفالح، اللهم اجعلنا من المفلحين الفائزين.

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (53) «وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ» مبلغ «جهدهم» في «أيمانهم» فلم يتركوا صيغة بالغة في القسم مبالغة إلّا أقسموا بها: «لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ» من أموالهم وإلى الجهاد في سبيل اللّه، خروجا مفروضا.

«قُلْ لا تُقْسِمُوا» فلا حاجة إلى إقسام بايّ من الأقسام، فيما لكم سبيل إلى تطبيقه دون إقسام، فإنما الواجب عليكم «طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ» لدى الجميع، معروفة في الكتاب والسنة لاتحتاج في توكيدها إلى إقسام ولا في تطبيقها إلى أمر بعد أنّ أمرها معروف، ثم لتكن معروفة لا منكرة كما «وَ يَقُولُونَ طاعَةٌ فَإِذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ...»

(4: 81) ولكن طاعتكم معروفة لدينا أنها منكرة، أن تركتموها حيث لا تخرجون رغم ما تعدون، أم أطعتم على غير الوجه الذي تؤمرون، إذ لا تزيدون في الخروج إلّا خبالا ووبالا:

«لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الآْخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ. إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الآْخِرِ وَ ارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ. وَ لَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ. لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ» (9: 47).

فمثلث المعنى من «طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ» هنا معنية، وما ألطفها تعبيرا آمرا ناهيا ساخرا متهكما متحكما! ف- «طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ» عن المنافقين محرمة، و «طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ» لدى‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 356

المؤمنين واجبة قدر المستطاع وإلى حد الكمال في خروج المهدي صلى الله عليه و آله لحد «يصبح أحدكم وتحت رأسه صحيفة عليها مكتوب «طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ».

المنافق اذا أوذى في اللّه‏

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ.

«الصالحين» هنا بطبيعة الحال هم الأئمة القمة في الصلاح حتى يلحق بهم كل «الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ» فهم «مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً» (4: 69) و «الصالحين» الأولين علّهم كل هؤلاء الأربع، وذلك حشر في الحياتين لأولئك المؤمنين على درجاتهم مع الصالحين الأولين من السابقين والمقربين «وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً».

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَ وَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ 10.

إن طبيعة الحال لمن يؤمن باللّه شاهرا مجاهرا ان يؤذى في اللّه وفي سبيل اللّه حيث الناس في الأكثرية الساحقة هم في الحق نسناس، يعارضون شرعة اللّه في الناس، فالتأذي في اللّه سنة في هذه الأدنى في الأمثل فالأمثل من المؤمنين باللّه، ومما يروى عن رسول الهدى (صلّى اللّه عليه وآله وسمل): «لقد أوذيت في اللّه وما يؤذى أحد، ولقد أخفت في اللّه و ما يخاف أحد، ولقد أتت علي ثالثة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلّا ما يوارى إبط بلال‏ «1» و «ما أوذي نبي مثل ما أوذيت» هذا! «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 142- اخرج احمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وصححه‏و ابن‏ماجه وابو يعلى وابن حبان وابو نعيم والبيهقي في شعب الايمان والضياء عن انس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 357

آمَنَّا بِاللَّهِ» ولمّا يؤمن باللّه أو يرتكن الايمان في قلبه أم هو منافق كافر في قلبه باللّه، وإلّا كان حق التعبير «من يؤمن بالله» لا «مَنْ يَقُولُ» حيث القول أعم من الواقع، ولا واقع لهكذا قولة يجعل صاحبها الإيذاء في اللّه كعذاب اللّه، ويكأن اللّه يعذب من آمن به، وفتنة الناس حين لا تزوى عن هؤلاء كما عن المؤمنين حقا، لا يحق ان تنسب إلى اللّه كأنه يعذب من آمن به حيث لا يدفع عنه الأذى، رغم انها في سبيل اللّه من فتن الايمان، وأنحس منه أن يجعل الأذية في اللّه من اللّه ويكأن اللّه هو الذي يدفع هؤلاء النحسين لإيذاء من يقول آمنا باللّه!. فهؤلاء الذين يقولون آمنا باللّه ثم يجعلون فتنة الناس كعذاب اللّه، لم يؤمنوا، أم هم مؤمنون على حرف: «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى‏ حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى‏ وَجْهِهِ» (22: 11).

للمؤمن أيا كان، إيذاء في اللّه كما هنا، وإيذاء في سبيل اللّه، فمن اجتاز الإيذاء في اللّه سليما في ايمانه دون قولة جارفة مجازفة كتلك التي يقولها:

«مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ» فقد يجتاز الإيذاء في سبيل اللّه مشكورا محبورا:

«فَالَّذِينَ هاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أُوذُوا فِي سَبِيلِي وَ قاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ» (3: 195).

و التصبر في الإيذاء في اللّه بحاجة ماسة إلى الجهاد في اللّه، حتى يهتدي الى سبل اللّه والجهاد في سبيل اللّه: «وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 358

الُمحْسِنِينَ» (29: 69). فما لم يستحكم الإيمان في مرحلته الأولى، لم يهتد المؤمن إلى سبل اللّه، تعرفا إليها وصمودا فيها أمام عراقيلها والتواءاتها وأذياتها.

فمن «أُوذِيَ فِي اللَّهِ» وتصبّر عن حالة مركوسة وقالة منكوسة، ولم يزدد إلّا إيمانا، فهو الذي جاهد في اللّه فيهتدي- إذا- إلى سبل اللّه.

و امّا إذا «جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ» في قال أو حال، فهو المنافق حقا، أو لمّا يدخل الإيمان في قلبه: «قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ» (49: 14).

و قد تعني الآية- فقط- المنافقين دون الآخرين، حيث القول «إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ» في النصر قولة فارغة منافقة، وليست جاهلة من هؤلاء الأعراب، ولمّا يدخل الايمان في قلوبهم، اللّهم إلّا أن يدّعوه بسذاجة زعم أن إسلامهم ايمان، إلّا أنّ جعل فتنة الناس كعذاب اللّه لا يلائم أضعف الإسلام، إلا الاستسلام مصلحيا وهو النفاق!.

فكما عذاب اللّه يتحرز منه، فهؤلاء يتحرزون عن الإيمان حيث يخلّف بزعمهم عذاب اللّه، وهو «فِتْنَةَ النَّاسِ» وحياة التكليف كلها فتنة خيرا أو شرا، ومن أصعب الفتن أن يعذب المؤمن في اللّه حيث يتفلت عنه الايمان غير الركين ولا المكين، فضلا عن إسلام النفاق، فالمسلمون هم في حقل الأذية في اللّه درجات، أعلاهم من يزدادون ايمانا، وأدناهم من يرجعون كفارا أو اكفر مما كانوا قبل الإيذاء في اللّه وهو أنزل ودركات الكفر وأنذلها مهما «قالُوا آمَنَّا» وبينهما عوان، وما انحسها كتلة البتلة والرياحة والرعونة، حيث تبغي الجمع بين «قالُوا آمَنَّا» وألا يؤذى في اللّه، فيعلن كلمة الايمان في الرخاء رجاء الأمن المطلق في ظلها دون نصب ولا تعب في اللّه، يحسبها خفيفة الحمل، هيّنة المؤونة والمسئولية، قد يبقى على قالته ما أصابه خير، فإن أصابته فتنة انقلب على وجهه،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 359

فاختلّت في نفسه القيم واهتزت العقيدة- إن كانت-! فهؤلاء ليسوا مع المؤمنين إلّا في النصر والرخاء، دون الحصر والبلاء «وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ» نصر رباني يخصك كأول العابدين وآخر النبيين ليقولن إنا كنا معكم» وهم لم يكونوا معهم في واقع الإيمان، إلّا في قالته القالة الخاوية، وقد تعني المشابهة بين فتنة الناس وعذاب اللّه فيما عنته، أننا تكفينا فتنة الناس عذابا هنا عما في الأخرى، فلا نعذّب- إذا- فيها مهما عصينا، أم قاسوا عذاب اللّه بفتنة الناس، فلا علينا إذ نعصيه إذ لا تصيبا في الأخرى إلا كالذي أصابنا هنا من فتنة الناس!. واين فتنة الناس من عذاب اللّه في أيّ من هذه الزوايا الخاوية الغاوية! وقد تعني «كَعَذابِ اللَّهِ» كل هذه الثلاث، فهي لدركات ثلاث من النفاق، ولكنما الثالث على هامش الأوّلين لمكان «كَعَذابِ اللَّهِ» دون «عَذابُ اللَّهِ».

«أَ وَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ» والواو هنا تعطف إلى محذوف معروف ك «ا لم يجعلوا فتنة الناس كعذاب الله، فتركوا الايمان المدعى إلى الكفر، وتركوا ان يكونوا في الله كيلا تصيبهم فتنة الناس التي حسبوها كعذاب الله، أو تركوا طاعة الله إذ حسبوا فتنة الناس هنا كعذاب الله في الأخرى! «أَ وَ لَيْسَ اللَّهُ» إن لم تكن هذه وتلك «بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ» وهذه من الفتن المظهرة لما في الصدور: «فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ»:

وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ 11.

هنا «ليعلمن» كما هناك من العلم العلامة، والإيذاء في اللّه بفتنة الناس، هو فتنة من اللّه، إذ لا يصده عمن يقول آمنا باللّه، ولا عن‏

المؤمنين باللّه، لتظهر علامة الإيمان صمودا وعلامة النفاق خمودا، «ليحق الله الحق بكلماته ويقطع دابرالكافرين» أترى الآية مدنية لأن واقع النفاق كان في‏المدينة، واما في‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 360

مكة فايمان صارم حيث الجوّ كان جو الضيق والمحنة دون رجاء فيها لأمن وراحة فلما ذا- إذا- إيمان النفاق فيها؟ ولكن النفاق دركات، منها ألّا يرتكن الايمان في القلب، فيذبل عند الفتنة كما كانت في مكة أشد الفتن للمؤمنين، دون المدينة التي أسست فيها دولة الإسلام.

أو ان الآية تشمل كل دركات النفاق مكية ومدنية أماهيه، إذ لا تختص بمكان أو زمان خاص بل تحلّق على الطول التاريخي والعرض الجغرافي، عرضا شاملا لكل «مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ» سواء الذين قيل لهم:

«قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ» أو الذين أسلموا كرها وطمعا فلما أوذوا في اللّه جعلوا فتنة الناس كعذاب اللّه بمختلف الوجوه التي أسلفناها، والدرك الأسفل فيها أن فتنة الناس هي عذاب اللّه، فهو يعذب الذين قالوا آمنا! ثم ولا تقف الفتنة عند حدّ الميز بين الايمان والنفاق، بل والمؤمنون غير المنافقين ايضا يفتنون، لتظهر درجات الايمان وتنبو وتربوا، كما:

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ 12 وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ 13.

حين يئس الذين كفروا من ارتداد فريق من المؤمنين إذ يؤذون في اللّه، احتالوا حيلة أخرى هي دعوى حمل خطاياهم: «اتَّبِعُوا سَبِيلَنا» تركا لسبيل الايمان، وليس ذلك خطأ، وحتى لو كان خطأ يحمل خطايا عملية يخلفها ترك الايمان «وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ» نفرض على أنفسنا ان نحملها، فأنتم أخفّاء- إذا- عن أثقالكم «و» الحال انهم «ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ» حيث لا تزر وازرة وزر اخرى، وحتى إذا صدقوا في‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 361

وعدهم فلا يؤذن لهم في ذلك الحمل «إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» في وعد الحمل ببعديه: فهم كاذبون في حملهم الموعود ان اسطاعوا، ثم هم كاذبون في امكانية هكذا حمل، فذلك خلاف الواقع في بعدي التصميم حينه و بعد الواقع إذ لن يسمح لهم فيه.

«لنحمل» أمر هم يلزمون به أنفسهم، فهو- إذا- إخبار ضمني أنهم ملتزمون بما لزموا به أنفسهم، ولكنهم كاذبون في التزامهم نفسيا، ومن ثم خارجيا حتى لو التزموا، إذ ليس الجزاء بكمه وكيفه يوم الجزاء بأيديهم فكل يحمل خطيئة نفسه، دون زيادة ولا نقيصة، مهما كان للمضلّل ضعف العذاب ثانيه لإضلاله كما الأوّل لضلاله: «وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ» بما ضلوا «وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ» بما أضلوا، ولا ينقص أولئك من أثقالهم شي‏ء.

و ليست الأثقال الثانية هي نفس أثقال المضلّلين، بل هي أثقال تضليلهم إضافة إلى أثقال ضلالهم، وما اتسع ودام ذلك الضلال بين المضلّلين والذين يتبعونهم كسنة ضالة، فهناك أثقال ثالثة هي مثل أثقال المضللين بذلك الضلال كلهم ف «ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ» أبدا، بل «أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ» بما أضلوا: «لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ» (17: 25) ف «من» هنا جنسية وليست تبعيضية، فهم يحملون مثل أوزارهم جزاء وفاقا، قدر ما كانوا معهم بإضلالهم رفاقا.

الكافرون والمنافقون‏

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (1) وَ اتَّبِعْ ما يُوحى‏ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (2) وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 362

وَكِيلًا (3) ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَ ما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللَّائِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ وَ ما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (4) ادْعُوهُمْ لآِبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوالِيكُمْ وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (5) النَّبِيُّ أَوْلى‏ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى‏ بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى‏ أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (6) وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (7) لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً (8)

الحزب جماعة فيها غلظ وتماسك مهما قلّت أو كثرت فعدّة التماسك هي ركنها دون عدّة المتماسكين فإنها زيادة في عدّتهم، فقد تكون جماعة كثيرة وليست حزبا لعدم الغلظة التماسك، أو قليلة هي حزب للغلظة التماسك، فهذه حزب دون تلك مهما كانت حزب الرحمان أم حزب الشيطان ولم يأت الحزب في سائر القران السبعة بخير إلّا في المائدة: «وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ» (56) والمجادلة:

«رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (22) وفي الكهف: «ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى‏ لِما لَبِثُوا أَمَداً» (12).

و لم يأت الأحزاب الإحدى عشر فيه إلّا بشرّ «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ» (40: 5) مما يدل على أن في عديد الأحزاب شرا قضية الاختلاف وإن كانوا من حزب اللّه: «فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ» (42: 65) فإنما الاختلاف والاختلاق في حزب الشيطان، وحزب اللّه واحد: «وَ أَنَّ هذا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 363

صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» (6:) 153) (... وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» (30: 32) (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» (23: 53)! وهؤلاء هم أهل كتاب واحد وأمر واحد فتقطعوا أمرهم بينهم ..

و الأحزاب ثلاثة، هنا في الأحزاب كلها حزب الشيطان، ولذلك تتسمى سورة الأحزاب مستعرضة سيرة الأحزاب وثورتهم وسريرتهم، ولكي ينتبه المؤمنون فيتماسكوا قدر المستطاع في حزبهم الواحد «حزب اللّه»: «وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا ...»! و أهم تماسك بين أفراد يجعلهم حزبا هو العقائدي الذي يحلّق على كافة الوحدات والطبقات سياسيا واقتصاديا وثقافيا أماذا، وفي قمتها التوحيد حيث يوحد بين قطاعات عظيمة بشرية يجعلها حزب التوحيد، ومن ثم الرسالة الإلهية، فأحرى بالمسلمين أن يكونوا حزبا واحدا هو حزب اللّه مهما اختلفت درجات إيمانهم وسائر ميزّاتهم وفوارقهم حيث تظل تحت ظل الإسلام وحدة متماسكة وصفا متراصّا لهم قوتهم الصارمة ضد الأحزاب الكافرة، و حين لا نجد أي‏حزب في صارم الوحدة من كل الجهات إلّا وحدة جانبية سياسية أو اقتصادية، وهم احزاب لهم قوّاتهم بما تجمّعوا، فلما ذا لا نتوحّد نحن المسلمين في حزب اللّه، و كل اختلاف وراء العقيدة تتوحد على ضوئها أم تذوب؟! ولماذا نختلف في أحزاب متعارضة متباغضة لأهداف سياسية مختلفة أما هيه، تحليقا لسائر الوحدات على الوحدة العقيدية الإسلامية؟ تلك إذا قسمة ضيزى!.

فلأن اللّه واحد وشرعته واحدة فحزب اللّه واحد، وعديد الأحزاب بين المسلمين دليل تخلّفهم عن شرعة اللّه، أو تفضيلهم سائر الوحدات على الوحدة الإسلامية السامية، ألا «وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا ..» فلا مبرّر لأي‏اختلاف بعد الوحدة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 364

الإسلامية:

هذه السورة تبدء بتحذير الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم) عن الأحزاب الكافرين و المنافقين، وأمره باتباع ما يوحى إليه والتوكل على الله، ثم تتناول قطاعا واقعيته من حياة الكتلة المؤمنة في فترة تمتد بعد بدر الكبرى إلى ما قبل صلح الحديبية، بازدحام الأحداث خلال هذه الفترة، والتنظيمات التي انشأها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لتبني الدولة المجيدة الإسلامية واستمراريتها المعصومة بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى القائم المهدي (عجل الله تعالى فرجه) كما تتبناها آية التطهير، وبطيات سرد النظم الحديثة يستطرد الحديث عن غزوة الأحزاب وبني قريظة ومواقف الكفار والمنافقين واليهود والمرجفين في المدينة ودسائسهم وسط الجماعة المؤمنة! ثم وفي السورة نبذات هي نبضات في هذه الحياة الجديدة تثبتا لبعض التقاليد مع إصلاحها، وتبديدا لأخرى كالمظاهرة والتبني، وإخضاعا للأمة للشرعة الجديدة الجادة. وسورة الأحزاب هي هذه الحاضرة لدينا، دونما زيادة عليها أو نقيصة عنها، أو تقديم لآية أو بعضها أو تأخير كسائر السور بأسرها في حصرها لآياتها جملات وآيات، خلاف ما يهرف به من لا يعرف، تحريفا فيها بنقيصة أماهيه؟ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 233 ح 1 في كتاب ثواب الأعمال باسناده الى أبي عبد الله عليه السلام قال: من كان كثير القرائة لسورة الأحزاب كان يوم القيامة في جوار محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وأزواجه ثم قال: سورة الأحزاب فيها فضائح الرجال والنساء من قريش و غيرهم يا ابن سنان سورة الأحزاب فضحت نساء قريش من العرب وكانت أطول من سورة البقرة ولكن نقصوها وحرفوها».

أقول: ليضرب هذه واضرابها عرض الحائط لمخالفتها في بعدين بعيدين لكتاب اللّه، آية الحفظ واضرابها، وانها تخالف القرآن المتواتر الموجود، وأحاديث العرض تضربها عرض الحائط، وترى كيف بالإمكان أنها (73) كانت أطول من البقرة وهي (286) آية فتنقص منها اكثر من مائتين ما عرفها إلّا ابن سنان دون المسلمين الحضور زمن تأليف القرآن، ولم يكن يجرأ مثل الخليفة عمر أن يترك الواو الثاني في «مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ» حيث صرخوا عليه اين الواو يا خليفة رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله و سلم)، فلم تكن تهمة التحريف وبهذه الوسعة الشاسعة إلّا هرطقة إسرائيلية وما شاكلها! وفي الدر المنثور 5: 179 مثله كالتالي: واخرج عبد الرزاق في المصنف والطيالسي وسعيد بن منصور وعبد اللّه بن احمد في زوائد المسند وابن منيع والنسائي وابن المنذر وابن الانباري في المصاحف والدار قطني في الافراد والحاكم وصححه وابن مردويه والضياء في المختارة عن زر قال قال لي أبي بن كعب كيف تقرء سورة الأحزاب او لم تعدها؟ قلت ثلاثا وسبعين آية فقال أبي: قد رأيتها وانها لتعادل البقرة واكثر من سورة البقرة ولقد قرأنا فيها «الشيخ والشيخة إذ زينا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم» فرفع منها ما رفع، واخرج عبد الرزاق في المصنف عن ابن عباس قال: امر عمر ابن الخطاب مناديا فنادى ان الصلاة جامعة ثم صعد المنبر فحمد اللّه واثنى عليه ثم قال: يا ايها الناس لا تجزعنّ من آية الرجم فانها آية نزلت في كتاب اللّه وقرأناها ولكنها ذهبت في قرآن كثير ذهب مع محمد و آية ذلك ان النبي (صلى اللّه عليه وآله‏و سلم) قد رجم وان أبا بكر قد رجم ورجمت بعدهما وانه سيجي‏ء قوم من هذه الأمة يكذبون بالرجم.

أقول: لو كانت آية الرجم من كتاب اللّه وعمل بها منذ الرسول الى عمر فكانت- إذا- معروفة لدى حفاظ القرآن وسواهم فلما ذا لم يثبتها عمر، وفيه أخرج احمد والنسائي عن عبد الرحمن بن عوف ان عمر بن خطاب خطب الناس فسمعته يقول: الا وان أناسا يقولون ما بال الرجم وفي كتاب اللّه الجلد وقد رجم النبي صلى الله عليه و آله ورجمنا بعده و لولا ان يقول قائلون ويتكلم متكلمون ان عمر زاد في كتاب اللّه ما ليس منه لأثبتها كما نزلت.

أقول: أضحك به وأغرب ومن الغريب أنهم ينسبون إلى رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله و سلم) تحريف آية الرجم، كما أخرج النسائي وابو يعلى عن كثير بن الصلت قال: كنا عند مروان وفينا زيد بن ثابت فقال زيد ما تقرء «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»؟

قال: جاء رجل الى النبي صلى الله عليه و آله فقال يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله انبئني آية الرجم قال: لا أستطيع الآن، هذا وقد أخرج ابن الضريس عن أبي امامة بن سهل بن حنيف ان خالته أخبرته قالت لقد اقرأنا رسول اللّه صلى الله عليه و آله آية الرجم «الشيخ والشيخة إذا زينا فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة»! ثم نرى نقيضه فيما اخرج ابن الضريس عن عمر قال قلت لرسول اللّه صلى الله عليه و آله لما نزلت آية الرجم أكتمها يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال لا أستطيع ذلك، واخرج ابن الضريس عن زيد بن اسلم ان عمر بن خطاب خطب الناس فقال: لا تشكوا في الرجم فانه حق قد رجم رسول اللّه صلى الله عليه و آله ورجم ابو بكر ورجمت ولقد هممت ان اكتب في المصحف فسأل أبي بن كعب عن آية الرجم فقال أبي: الست أتيتني وانا استقرئها رسول اللّه صلى الله عليه و آله فدفعت في صدري وقلت أتستقرئه آية الرجم وهم يتسامرون تسامر الحمر؟» أقول فاقض العجب من هذه الهرطقات المتناقضة وتبرء منها الى اللّه!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 366

بدايتها مسك بمسك التقوى «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ...» وختامها مسك بمسك التوبة:

«ويتوب اللّه على المؤمنين والمؤمنات وكان اللّه غفورا رحيما» وبينهما رائحة المسك في توجيهات تتبنّى تقوى اللّه والتوبة عن الطغوى! يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً. 1 وَ اتَّبِعْ ما يُوحى‏ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً 2. وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ وَكِيلًا (3).

يرسم في هذه الثلاث تخلية السلب: «اتَّقِ ... لا تُطِعِ» وتحلية الإيجاب: «و اتبع» ثم يتبعهما بسياج التوكل على اللّه في كل سلب وإيجاب، ليرسم حياته الرسالية كلها بكلمة الإخلاص «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ»! وإنها آية فريدة منقطعة النظير، آمرة بتقوى البشير النذير، لأن موقفه من الكافرين والمنافقين خطير خطير، وهذه تقوى سياسية تجنبا عن أن يدلوه بمواعيدهم العسلة، كأن يرفض ذكر آلهتهم حتى يدعوه وربه‏ «1» معاملة التهاتر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في المجمع نزلت في أبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور السلمي قدمواالمدينة ونزلوا على عبد اللّه بن أبي بعد غزوة احد بأمان من رسول اللّه صلى الله عليه و آله ليكلّموه فقاموا وقام معهم عبد اللّه بن أبي وعبد اللّه بن سعيد بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق فدخلوا على رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقالوا: يا محمد! ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة وقل: ان لها شفاعة لمن عبدها وندعك وربك، فشق ذلك على رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال عمر بن الخطاب ائذن لنا يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله في قتلهم فقال: إني أعطيتهم الأمان وامر صلى الله عليه و آله فاخرجوا من المدينة ونزلت الآية «وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ» من اهل مكة أبا سفيان وأبا الأعور وعكرمة والمنافقين ابن أبي وابن سعيد وطعمة.

و في الدر المنثور 5: 180- اخرج ابن جرير من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: ان اهل مكة منهم الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة دعوا النبي (صلى اللّه‏عليه وآله وسلم) الى ان يرجع عن قوله على ان يعطوه شطر أموالهم وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة ان لم يرجع قتلوه فانزل اللّه «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ» أقول: هذا يناسب جوّ مكة وقد مضى، واما المدينة فلا يناسبها هذا الاقتراح وقد يئسوا من تطميعه بمال او منال!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 367

بعملة الوعد الكذب، ما لو كان صادقا لكان صادا للدعوة الإسلامية لفترة، مما يدل على تسرّب المصلحية السياسية في هذه الدعوة فتبوء بالفشل والخسار والدمار، فظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب! فلذلك «يا ايها ..» لا «يا» فقط أو «أيها» تدليلا على خطورة المنادى له وتنبيه المنادى.

أ ترى أن النبي كان متلبسا بطاعة الكافرين والمنافقين حتى يتقيها؟ كلّا والتقوى هي الابتعاد عن المحظور، وأصلها ما لم يتلبس وهو على أشرافه، وأوامر اللّه ونواهيه الموجهة إلى شخص النبي صلى الله عليه و آله تنقسم إلى تشريعية لو لولاها لم يعرف النبي إيجابا او تحريما، كالأحكام التعبدية غير الضرورية، وإلى تأكيدية فيما هو ضروري معلوم ك- «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» و «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ» وإلى سياسية ظاهرها غير باطنها فهي تنبيهية كهذه: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ...».

«اتق اللّه» للنبي التقي في القمة، تنبيهة لاستمرارية التقوى، ولتقوى تقواه كل حين أقوى مما مضى، فلانه يزداد علما «وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً» فليزدد على ضوءه وتباعا له تقوى: «وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» وليس لذلك اليقين حدّ يقف عليه، فلا وقفة لعبادته وتقواه، ثم للتقوى واجهتان: أن تتقي بنفسك عن الحق وهو الاتقاء بإسناد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 368

النقائص كلها إليك عن أسنادها- أيا كان- إليه، فتجعل نفسك وقاية لحرمته تعالى.

أو تتقي بالحق عن نفسك وهو الاتقاء بإسناد الكمالات كلها إليه تعالى عن إسنادها إليك فتجعله وقاية لك، وهما كمال التقوى أن تتخلى عن كلما يختص باللّه وتخلّيه تعالى عن كلما تختص بك، وكلما وراءهما طغوى بدركاتها، كما هما تقوى بدرجاتها.

و أما «لا تطع» فهو متكرر له في الذكر الحكيم، نهيا عن المسايرات السياسية فيما ظاهرها مصلحة، لولا العصمة الإلهية لتفلت النبي صلى الله عليه و آله بالتفاتها «وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ دَعْ أَذاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» (33: 48) لا تؤذهم وإن يؤذوك، ولا تطعهم وعدَ ألّا يؤذوك! «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً» (76: 24) (فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ. وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ» (68: 8) (فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ جاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً» (25: 52) (وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً» (18: 28) وعلى الجملة:

«وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» (6: 116) كل ذلك نهي عن طاعتهم ولمّا يقترف، ولكي يبقى مفارقا غير مقارف، وكل ذلك في التلبيسات السياسية التي تزلّ فيها الأقدام، واللّه يعصم رسوله فيها عصمة كاملة كافلة للدعوة الرسالية المعصومة العاصمة للأمة! إنه صلى الله عليه و آله قطعا لم تخلد بخلده لهم طاعة، ولم تحصل في أي من هذه الموارد، فالنهي تأكيد للترك، والتداوم على الترك، ولكي يسمع الكافرون والمنافقون الطامعون طاعته، يسمعوا تحذيره من الإذاعة القرآنية فيتركوا اقتراحاتهم التي تشق عليه وتؤذيه! «لا تطع ..» ل «إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً» بك وبهم «حكيما» بما يصلح لك كرسول، وعليهم كمتربصي الدوائر بالرسالة والرسول، فاللّه عليم بما يجهلونه وما تجهله، حكيم بما لا تحكمه، وأنت كرسول دائب إلى قمم من العبودية.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 369

و الرسالة بما أراك اللّه، ولا تكن للخائنين خصيما، فمهما أرادوا ليكيدوك ويغروك أن في إجابتهم اخمادا لنائرة الحرب، وتقربا لهم إلى الإسلام بتلك الاستمالة والتقارب، ولكنه أمر ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قِبَله العذاب «إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً»! «وَ اتَّبِعْ ما يُوحى‏ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» فلأنه ربك في كل صغيرة وكبيرة، ظاهرة وباطنة، ولكي تكون رسول ربك بما رباك- ف «اتَّبِعْ ما يُوحى‏ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» وقد أحاط علما بما يعمله الكافرون والمنافقون من شيطنة السياسات، وتهاترات المعاملات، التي تبوء بالخساء للرسول، وبالدمار للرسالة «إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً» وكما أحاط خبرا وعلما بما تعمله أنت ومن معك، ف- «بِما تَعْمَلُونَ» تشملها، تنديدا بأعمالهما وحيطة على أعماله بمن معه.

و لكي تكون على اهبة كاملة كافلة لتقوى مطلقة، وترك لطاعتهم مطلقا، رغم المناوئات والعرقلات التي لا تملك صدها، بعد ما وفيت وكفيت جهودك كلها:

وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ وَكِيلًا (3) فلا توكّل على سواه إذ لا وكيل في المخاطر والضرورات إلّا اللّه، فتوكل على اللّه لا سواه، في أن:

«اتَّقِ اللَّهَ» لا سواه وفي أن: «لا تطع ..» إلّا إياه! أصل السلب: «لا إله» وأصل الإيجاب: «إلا الله» محوّل إلى محاولة العبد، ثم المطلق فيهما موكل إلى حول اللّه، ف- «اتَّقِ اللَّهَ .. وَ لا تُطِعِ .. وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» «وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ... قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدْراً».

غزوة الأحزاب- الخندق؟!

لقد جند الكفر أحزابه وتجمع خيله ورجله في خندق واحد ضد الايمان كله حول المدينة المنورة، وهنا مقطع من سورة الأحزاب في تسعة عشر آية، يتحدث عن غزوة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 370

الأحزاب كحدث ضخم من الأحداث التي ابتلي بها المسلمون في حياة الرسول صلى الله عليه و آله «هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً» يتحدث هنا عن موقف المؤمنين ووقفة المنافقين بينهم وبين الأحزاب مزعزعين، وموقف النعمة الخاصة الربانية التي خصتهم في تلكم الزلزال والزعزعة، مما يتوجب عليه أن يدخروه زادا لهم في عراقيل السبيل الى تحكيم الدولة الاسلامية على مرّ الزمن حتى تقوم الدولة الاسلامية العالمية زمن المهدي عجل اللّه تعالى فرجه الشريف.

غزوة الأحزاب- في السنة الرابعة او الخامسة من الهجرة- كانت امتحانا للمؤمنين، وامتهانا للمنافقين، ومدحرة للأحزاب الكافرة التي استهدفت بتحزّبها الجماعي الجماهيري استئصال ناشئة الإسلام، فاندحرت هي رغم عِدّتها وعُدتها الهائلة «وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَ كانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً. وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيارَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها وَ كانَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيراً».

لقد تحزب المشركون واليهود بأسرهم، ومعهم اضرابهم من منافقين وسواهم تدخلا في حرب او تخلفا عن حربهم، فحلّقوا على المدينة من فوق ومن أسفل حتى زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وظن ظانون باللّه الظنونا، وابتلي المؤمنين وزلزلوا زلزالا شديدا، وقال المنافقون قولتهم وفعلوا فعلتهم، وهنالك أدرك الرسول صلى الله عليه و آله والمؤمنين نصر من اللّه ف- «كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ ..»!:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (9).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 371

في هذا العرض الوجيز تبدأ المعركة وتختم بعناصرها الغيبية الحاسمة لها لصالح المؤمنين، و «نِعْمَةَ اللَّهِ» دون «نعمة من الله» توحي انها كانت لدنّية خاصة، كأن نعمة النصرة الايمانية منحصرة فيها منحسرة عن سواها، فهنالك هجمة الأحزاب «إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ» ففاجأتها ما لم يخلد بخلدها «فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها»- وقد قال الرسول صلى الله عليه و آله يوم الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزونا» «1».

و كيف تحزبوا ضد المؤمنين بكل طاقاتهم وامكانياتهم، وكيف قتلوا وأسروا وحسروا وانحسروا دون حرب طاحنة؟ «2» فهذه الآيات تقص القصة كما تتضمن رءوس أقلامها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 192- اخرج احمد والبخاري وابن مردويه عن سليمان بن صرر قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله يوم الأحزاب: ..

(2). علي بن ابراهيم القمي يذكر قصة الأحزاب بتفصيل يقول فيه .. فانها نزلت في قصة الأحزاب‏من قريش والعرب الذين تحزبوا على رسول اللّه صلى الله عليه و آله وذلك ان قريشا تجمعت في سنة خمس من الهجرة وساروا في العرب وجلبوا واستفزهم لحرب رسول اللّه صلى الله عليه و آله فوافوا في عشرة آلاف ومعهم كنانة وسليم وفزارة وكان رسول اللّه صلى الله عليه و آله حين اجلى بني النضير وهم بطن من اليهود من المدينة وكان رئيسهم حي ابن اخطب وهم يهود من بني هارون فنجا أحدهم من المدينة صاروا الى خيبر وخرج حي بن اخطب الى قريش بمكة وقال لهم ان محمدا صلى الله عليه و آله قد وتركم ووترنا وأجلانا من المدينة من ديارنا وأموالنا وأجلا بين عمنا بني قينقاع فسيروا في الأرض واجمعوا حلفاءكم وغيرهم وسيروا إليهم فانه قد بقي من قومي بيثرب سبعمائة مقاتل وهم بنو قريظة وبينهم وبين محمد عهد وميثاق وانا احملهم على نقض العهد بينهم وبين محمد ويكونوا معنا عليهم فتأتونه أنتم من فوق وهم من أسفل وكان موضع بني قريظة من المدينة على قدر ميلين وهو الموضع الذي يسمى بئر بني المطلب فلم يزل يسير معهم حي بن اخطب في قبائل العرب حتى اجتمعوا قدر عشرة آلاف من قريش و كنانة والأقرع بن حابس في قومه والعباس بن مرداس في بني سليم فبلغ ذلك رسول اللّه صلى الله عليه و آله فاستشارأصحابه وكانوا سبعمائة رجل فقال سلمان يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله ان القليل لا يقاوم الكثير في المطاولة ولا يمكنهم ان يأتونا من كل وجه فانا كنا معاشر العجم في بلاد فارس إذا دهمنا دهم من عدونا نحفر الخنادق فيكون الحرب من مواضع معروفة فنزل جبرئيل على رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال: أشار بصواب فامر رسول اللّه صلى الله عليه و آله بحفرة من ناحية احد الى راتج وجعل على كل عشرين خطوة وثلاثين خطوة قوما من المهاجرين والأنصار يحفرونه فامر فحملت المساحي والمعاول وبدأ رسول اللّه صلى الله عليه و آله وأخذ معولا فحفر في موضع المهاجرين بنفسه وامير المؤمنين عليه السلام ينقل التراب من الحفرة حتى عرق رسول اللّه صلى الله عليه و آله وعيي وقال: لا عيش الا عيش الآخرة اللهم ارحم للأنصار والمهاجرة فلما نظر الناس الى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله وسلم) يحفر اجتهدوا في الحفر ونقل التراب فلما كان في اليوم الثاني بكروا الى الحفر وقعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله في مسجد الفتح فبينا المهاجرون والأنصار يحفرون إذ عرض لهم جبل لم يعمل المعاول فيه فبعثوا جابر بن عبد اللّه الانصاري الى رسول اللّه صلى الله عليه و آله يعلمه بذلك قال جابر فجئت الى المسجد ورسول اللّه مستلقي على قفاه ورداءه تحت رأسه وقد شد على بطنه حجرا فقلت يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله قد عرض لنا جبل لم تعمل المعاول فيه فقام مسرعا حتى جاءه ثم دعا بماء في إناء فغسل وجهه وذراعيه ومسح على رأسه ورجليه ثم شرب ومجّ في ذلك الماء ثم صبه على ذلك الحجر ثم أخذ معولا فضرب ضربة فبرقت برقة فنظرنا فيها الى قصور الشام ثم ضرب أخرى فبرقت برقة نظرنا فيها الى قصور المدائن ثم ضرب اخرى فبرقت برقة اخرى فنظرنا فيها الى قصور اليمن فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله اما إنه سيفتح اللّه عليكم هذه المواطن التي برقت فيها البرق ثم انهال علينا الجبل كما ينهال علينا الرمل فقال جابر: فعلمت ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله مقو اي جائع لما رأيت على بطنه الحجر فقلت يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله هل لك في الغذاء؟ قال: ما عندك يا جابر؟ فقلت: عناق (الأنثى من أولاد المعز) وصاع من شعير فقال صلى الله عليه و آله تقدم وأصلح ما عندك قال جابر فجئت الى أهلي فأمرتها فطحنت الشعير وذبحت العنز وسلختها وأمرتها ان تجز وتطبخ وتشوي فلما فرغت من ذلك جئت الى رسول اللّه صلى الله عليه و آله‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 372

وكما يضمن بقاءها على مدّ الزمن نموذجا بارعا من نماذج النصر، كاشفة لهم من جوانبها ما لم يدركوها، ويلقي اضواء منها على سراديب النفوس ومنحنيات القلوب ومخبّئات الضمائر ولكي يتدربوا ويتأدبوا بمعدات الحرب الدفاعية الوقائية كيفما كانت عدّة المهاجمين وعدّتهم وتلك نعمة منقطعة النظير في هكذا الخطر الخطير «إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ» من فوقكم ومن أسفل منكم .. «وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ» وابتليتم وزلزلتم زلزالا شديدا «فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً» راحت بها راحتهم وانزاحت عِدّتهم وعُدّتهم «وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها» وعلّهم رأوها وهابوها فانهزموا دون حرب طاحنة «وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 373

بَصِيراً» قد تكون هذه الريح ريح الصبا كما يروى عن الرسول صلى الله عليه و آله‏ «1» والجنود علّهم من الملائكة المردفين كما في آية اخرى.

إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10).

«مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ» هما جانبان من جوانب المدينة، والمهاجمون على أحزابهم حزبان: اليهود والمشركون، إذا فأحدهما «جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ» والآخر «مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ» وطبعا المشركون من جانب مكة فهو جانبها الغربي: «مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ» فأحزاب اليهود من الجانب المقابل الشرقي: من فوقكم، وما ألطفه تعبيرا للشرقي بالفوق حيث اليهود كانوا قريبين منهم كأنهم فوق رءوسهم وان المشرق فوق إذ تتفوق فيه الشمس فهو يتفوق المغرب، وما ألطفه للغربي «أَسْفَلَ مِنْكُمْ» لأسفلكم، فإنهم كانوا بعيدين عنهم وفي الجانب الغربي وهو سفل الشمس.

ثم الجاءون من فوق كانوا أخطر لقربهم مكانا وبعدهم عن التهجم لمكان العهود التي وثّقت بينهم وبين النبي صلى الله عليه و آله فمفاجئتهم أخطر، وخطرهم أكثر، ولكنما المشركون كانوا أسفل لبعد المكان والتهيئ لهم اكثر مما لليهود بفارق عدم الميثاق.

هنا تتمثل صورة الهول الفظيع الفجيع التي سلبت من جموع المؤمنين أبصارهم: «وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ» وقلبت قلوبهم: «وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ» فخلّفت ظنونا لا تليق بساحة الايمان: «و تظنون بالله الظنونا إنهم إذ يرون الحق كله معهم والباطل كله مع الأحزاب، ثم يفاجئون بهذه الفجاة النكراء الدهماء الدهياء، فكيف تظل أبصارهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 185- اخرج البخاري ومسلم والنسائي وابن مردويه عن ابن عباس قال قال‏رسول اللّه صلى الله عليه و آله: نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 374

كعادتها لا تزيغ، وقلوبهم في مكاناتها لا تبلغ الحناجر، ولكن لماذا «تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا» دون ان ترونها امتحانا وبلاء دون امتهانة لعناء.

زيغ الأبصار هو انحرافها عن حق الإبصار إذ أبصروا الأحزاب هاجمة، وبلوغ القلوب الحناجر يصور مدى الخوف حيث كادت تزهق به النفوس .. وهذه حالة المجموعة من ضعفاء الايمان والمنافقين، وأما المؤمنون الحقيقيون «وَ لَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ ما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَ تَسْلِيماً» (33).

قصة الأحزاب هنا ترسم مربعا من وسطها للمهاجمين، وللمؤمنين، وضعفاء الايمان، وللمنافقين، فتوضّح لكل دوره «هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً» (11).

في هذه البلية الزلزال نجح أقوياء الايمان: «وَ لَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ» وزلزل الإخفاء وبسطاء الايمان: «إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ ..» وبرز كامن النفاق من المنافقين المدعين الايمان «وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ ..» وقد تشمل الكل «هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ ...» ام وقبلها «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ..» فإنهم آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، والبسطاء: «وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ» و لكنما الأقوياء آمنوا بقلوبهم كما آمنوا بألسنتهم ففيما بلغت قلوبهم الحناجر قالوا يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله! هل من شي‏ء نقول فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال:

نعم قولوا: اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا فضرب اللّه وجوه أعدائه بالريح فهزمهم اللّه بالريح» «1» وليس ذلك الابتلاء الزلزال للمؤمنين ليختص بما مضى وهم حضور لدى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 185- اخرج احمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي سعيدالخدري قال قلنا يوم الخندق يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله! ... وفيه اخرج الحاكم وصححه وابن مردوية وابن عساكر وابو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل من طرق عن حذيفة قال: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود وابو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا وقريظة اليهود أسفل نخافهم على ذرارينا وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحا منها أصوات ريحها أمثال الصواعق وهي ظلمة ما يرى احد منّا إصبعه فجعل المنافقون يستأذنون النبي ... وفيه اخرج الفريابي وابن عساكر عن ابراهيم التيمي عن أبيه قال قال رجل لو أدركت رسول اللّه صلى الله عليه و آله لحملته ولفعلت فقال حذيفة لقد رأيتني ليلة الأحزاب ونحن مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله فكان رسول اللّه صلى الله عليه و آله يصلي من الليل في ليلة باردة ما قبله ولا بعده برد كان أشد منه فحانت مني التفاتة فقال صلى الله عليه و آله: ألا رجل يذهب الى هؤلاء فيأتينا بخبرهم جعله اللّه معي يوم القيامة؟ قال: فما قام منّا انسان قال: فسكتوا ثم عاد فسكتوا ثم قال يا أبا بكر ثم قال استغفر اللّه رسوله ثم قال: ان شئت ذهبت فقال يا عمر فقال استغفر اللّه ورسوله ثم قال صلى الله عليه و آله: يا حذيفة؟ فقلت: لبيك فقمت حتى أتيت وان جنبيّ‏ليضربان من البرد فمسح رأسي ووجهي ثم قال: أئت هؤلاء القوم حتى تأتينا بخبرهم ولا تحدث حدثا حتى ترجع ثم قال: اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه قال فلان يكون أرسلها كان أحب اليّ من الدنيا، وما فيها قال فانطلقت فأخذت امشي في حمام قال فوجدتهم قد أرسل عليهم ريحا فقطعت اطنابهم وأبنيتهم وذهبت بخيولهم ولم تدع شيئا الا أهلكته قال: وابو سفيان قاعد يصطلي عند نار له، قال فنظرت فأخذت سهما فوضعته في كبد قوسي قال وكان حذيفة راميا فذكرت رسول اللّه صلى الله عليه و آله لا تحدثن حدثا حتى ترجع قال: فرددت سهمي في كنانتي ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 375

الرسول صلى الله عليه و آله، فان له أشباها ونظائر قد تكون ابلى مما مضى وكما يبتلون زمن الغيبة ولا سيما في أواخرها، وليس الرسول صلى الله عليه و آله فيهم ولا أحد من عترته إلّا الغائب وكما يروى عن امير المؤمنين (عليه وآله وسلم): «أما إنه سيأتي على الناس زمان يكون الحق فيه مستورا والباطل ظاهرا مشهورا وذلك إذا كان أولى الناس به أعداءهم له واقترب الوعد الحق وعظم الإلحاد وظهر الفساد هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ونحلهم الأخيار اسماء الأشرار فيكون جهد المؤمن ان يحفظ مهجته من اقرب الناس اليه ثم يفتح الله الفرج لأوليائه ويظهر صاحب الأمر على أعدائه» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 242 ح 34 في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين حديث طويل يقول فيه:.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 376

ان دور المنافقين في هذا الوسط كان أنحس دور وأتعسه، تندد بهم عديد من آيات القصة شديد في أبوابهم الجهنمية السبع:

1- وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً (12).

كلمة تكلم القلوب وتجرح الأكباد، يقولونها في هذه البلاء الزلزال لتأخذ مجالاتها من قلوب الناشئة ولما يدخل الايمان في قلوبهم، ومن قلوب ضعفاء الايمان، لا سيما وهم كانوا ممن يتقشفون في مظاهر الايمان ويتسابقون، فهم قد يعتبرون وعود النصر والإنتصار من اللّه ورسوله غرورا، يقوله المنافقون ويتبعهم الذين في قلوبهم مرض الشك وشائبه النفاق، فيصبحان حزبا واحدا في هذه الدعاية النكراء.

2- «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» حينما تفرد تعني في الأكثر- المنافقين وحينما تقرن بالمنافقين تعني من يحن إليهم ويهواهم «إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ» (8: 49) (لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ» (33: 60) وقد يعني المرض دونهما كما الشهوة: «فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ» (33: 32) وكل انحراف في القلب مرض عقيديا او علميا او أخلاقيا أما ذا؟.

فقد وجد هؤلاء الأوغاد الأنكاد في هذا البلاء المزلزل والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن امراض قلوبهم وهم آمنون ألّا لومة عليهم، والمجالة آهلة، والريبة آخذه مجالها من قلوب بلغت الحناجر، فالواقع المزلزل بظاهره يصدقهم في غرورهم كأنهم منطقيون في قولتهم في هذا المسرح الهائل، حيث أزيح عن قلوب البسطاء والأخفاء ذلك‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 377

الستار الرقيق من تجملّ الإيمان، وهذه هي سيرة النفاق، تفتش عن المجالات الأسرع تأثرا والأوقع تحسرا، زرعا للشكوك فيها، وحصدا للناشئة لتنضم إلى حزبهم وهنالك الطامة الكبرى.

لكنما اللّه يكشف دوما عن نواياهم وجناياهم، تعريفا بهم ومختلف الشبابيك من نفاقهم، ومؤتلف الشبكات من مكائدهم:

3- وَ إِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً (13). ذلك بعد ما جنّد النبي صلى الله عليه و آله المؤمنين أمام الخندق حول المدينة، في صفوف متراصة متربصة و فيهم منافقون، هنا يخاطبون اهل يثرب المدينة خطاب الترهيب من العدو الرهيب «لا مُقامَ لَكُمْ» وهو مفعل من الإقامة، مصدرا واسم زمان ومكان، لا إقامة لكم هاهنا دفاعا او هجوما إلا انهزاما، ولا زمانها ولا مكانها، إذ لا قبل لكم في أصل المقاومة ولا زمانها ولا مكانها، والانهزام كائن في مثلثه لا محالة «فارجعوا» الى منازلكم وقد تكون بيوتكم عورة، او تهاجم من قبل العدو وأنتم هنا في معركة خاسرة؟! يحرضون هكذا أهل المدينة على ترك الصفوف بدعوة خبيثة تاتي النفوس من ثغراتها الضعيفة، من محدق الخطر وجامح الهول والغيرة على البيوت العودة كما:

وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً (13).

انهم في ثالوث الخيانة بزعزعة الجيش، دعاية لرجوعهم واستئذانا لأنفسهم، أو رجوعا دون إذن، ومعهم متثاقلون لم يحضروا الصفوف، وأخطر زواياه «وَ يَسْتَأْذِنُ .. إِنَ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 378

بُيُوتَنا عَوْرَةٌ ..» ذليلة الحيطان وهي في أقصى المدينة «1». لكي يوجهوا زحفهم بوجهة الاستئذان لحفظ العورة، ويحرّضوا غيرهم بظاهر الغيرة على العورة فاستأصالا لصفوف الجيش.

و يثرب: المدينة- الطيبة: مدينة تأكل القرى تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد «2» فلان الرسول صلى الله عليه و آله سكنها وأسس دولة الإسلام فيها، ثم توفي ودفن فيها، فهي إذا مدينة إذ مدنها الرسول، وطيبة إذ طيبهّا.

4- وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآَتَوْها وَ ما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً (14).

«لو دخلت» المدينة «عليهم»: المنافقين والذين في قلوبهم مرض «من أقطارها»:

وكل جوانبها «ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ»: ان يفتنوا مع الداخلين ضد المؤمنين «لآتوها»: الفتنة، تاركين بيوتهم العورة لينضموا الى الداخلين «وَ ما تَلَبَّثُوا بِها» بقاء في بيوتهم العورة «إِلَّا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 188- اخرج ابن أبي حاتم عن السرى في الآية .. فارجعوا قال: الى المدينةعن قتال ابن سفيان ويستأذن فريق منهم النبي صلى الله عليه و آله قال: جاءه رجلان من الأنصار من بني حارثة أحدهما يدعى أبا عرابة بن أوس والآخر يدعى أوس بن قيظى فقالا يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله: ان بيوتنا عورة يعنون انها ذليلة الحيطان ونحن في أقصى المدينة ونحن نخاف السرق فائذن لنا فقال اللّه: وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً»

(2). المصدر و اخرج مالك و احمد و عبد الرزاق و البخاري و مسلم و ابن مردويه عن أبي هريرةقال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب و هي المدينة تنفي .. واخرج احمد و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن البراء بن عازب قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من سمى المدينة يثرب فليستغفر اللّه هي طابة هي طابة هي طابة واخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: لا تدعونها يثرب فانها طيبة يعني المدينة و من قال يثرب فليستغفر اللّه ثلاث مرات هي طيبة هي طيبة هي طيبة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 379

يَسِيراً» ما تيسر لهم في لبثهم! ام «لو دخلت» بيوتهم العورة من أقطار المدينة «ثم سئلوا فتنة الحرب مع المؤمنين لأتوا الفتنة خارج بيوتهم وما تلبثوا ببيوتهم الا يسيرا! ام «لو دخلت» ايّ مدخل منهما، ثم سئلوا فتنة الردة الى الكفر لآتوها وما تلبثوا ببيوتهم العورة إلا قليلا ولماذا «لو» إحالة للدخول عليهم؟ حيث الكافرون لا يدخلون عليهم محاربين! بل لسؤال الفتنة الردة والمشاركة في الهجمة على المؤمنين! فهنالك ينسون البيوت العورة إذ يجدون آمالهم من اضرابهم، ولا يخافون على بيوتهم من المؤمنين امّن ذا؟! ذلك شأنهم الشائن والأعداء بعد خارج المدينة، يعتذرون في الخطر المتوقع للفرار، أن بيوتنا عورة، ولكنهم في واقع الخطر «لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها» يعكسون الأمر إذ يأتون الفتنة والردة من بيوتهم العورة إذ لا تهمهم، وإنما تهمهم الفتنة أن يأتوها حبوا سراعا دون تلبث إلّا يسيرا يأخذون عدّتهم لما سئلوا! هكذا يكشفهم القرآن في تناقض الشخصية المنافقة، وانهم يولون الأدبار رغم ما عاهدوا اللّه:

5- وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَ كانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا (15).

أ ترى انه عهد الايمان لما آمنوا بألسنتهم؟ ولا يخص «لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ»! ام عهده بهذا الخصوص؟ ولم يذكر في القرآن! ولكن «من قبل» ليس لزامه ذكره في القرآن، فقد ذكر في الأثر أنهم همّوا أن يفشلوا يوم احد مع بني سلمة حين همتا بالفشل يومها، ثم عاهدوا اللّه ألّا يعودوا لمثلها ابدا، فهنا يندّد بهم إن نقضوا عهدهم «وَ كانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا»! ولماذا الفرار من الزحف ولا ينفعهم، فليس إلّا ضررا عليهم وفي الآخرة عذاب اليم:

2- قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (16).

«لن» تحيل نفع الفرار إن كان من الموت او القتل في المعركة، أما معنويا فظاهر حيث‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 380

الفرار عن الزحف خسار، وأما بقاء في حياة فالموت او القتل قدر لا مفر منه ولا منجى عنه: «أَيْنما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ..» (4: 78) ولئن‏أخرتم بفرار «وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا» وكل متع الدنياقليل، فحتى إن كان كثيرا في فرار عن حكم اللّه ففي الآخرة عذاب النار وبئس الصير، فمما الفرار إذا ولا يخلف إلّا الخسار، ولن ينفعكم، وليس فرار العاقل الا الى نفع او عن ضرر و «لن»!.

قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (17).

هنالك يوحد إرادة السوء والرحمة في اللّه عدلا وفضلا ف- «وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» (6: 17).

أ أمنتم إن فررتم من الزحف أن يريد اللّه بكم سوء فلا عاصم منه إلّا هو، او ان فررتم من الزحف ان يريد بكم رحمة فلا راد لفضله إلّا هو، إذا فلما ذا الفرار عن رحمة اللّه الى نقمته، ومن خيره الى ضره، فهؤلاء البعيدون البعيدون» لا يَجِدُونَ لَهُمْ» هنا وهناك «مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا» يلي أمرهم «وَ لا نَصِيراً» ينصرهم في بأسهم! قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَ لا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (18) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى‏ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (19).

«قد» تحقق «يَعْلَمُ اللَّهُ» إذ هو حقا يعلم المعوقين منكم: ظن منافقين والذين في قلوبهم مرض، تثبيطا عن الحرب وصرفا في وهن القول «ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً .. لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ..» وفي وهن الفعل «وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ ..» تعويقا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 381

لإخوانهم بقولة وفعلة مريبة «وَ الْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ»: أضرابهم في ضعف الايمان «هَلُمَّ إِلَيْنا» تثبيطا وفرارا، وهم أنفسهم لا يأتون البأس إلّا قليلا منه وقليلا منهم، وهؤلاء القلة في القلة لا يثبتون في البأس بل يثبطون ويثبّطون.

و قد يعني «هَلُمَّ إِلَيْنا» فيما يعني قول فلان لرجل بجنبه من إخوانه اما ترى هذا الشيطان عمر ما يفلت من يديه أحد فهلموا ندفع إليه محمدا ليقتله ونلحق بقومنا فانزل اللّه آية المعوقين‏ «1» وهنالك وقعت الطامة الكبرى إذ قتل الامام امير المؤمنين عليه السلام فارس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 250 فيما أورده القمي من القصة .. وأقبلت قريش فلما نظروا الى الخندق قالواهذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها قبل ذلك فقيل لهم: هذا من تدبير الفارسي الذي معه فوافى عمرو بن عبد ود وهبيرة بن وهب وضرار ابن الخطاب الى الخندق وكان رسول اللّه صلى الله عليه و آله قد صف أصحابه بين يديه فصاحوا بخيلهم حتى طفروا الخندق الى جانب رسول اللّه صلى الله عليه و آله فصاروا اصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله كلهم خلف رسول اللّه صلى الله عليه و آله وقدموا رسول اللّه صلى الله عليه و آله بين أيديهم وقال رجل من المهاجرين وهو فلان لرجل بجنبه ... وركز عمرو بن عبد ود رمحه في الأرض واقبل يجول جولة ويرتجز ويقول: ولقد بححت من النداء لجمعكم هل من مبارز ووقفت إذ جبن السجاع مواقف القرن المناجز اني كذلك لم أزل متسرعا نحو الهراهز ان الشجاعة في الفتى والجود من خير الغرائز فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله من لهذا الكلب؟ فلم يجبه احد فوثب اليه امير المؤمنين عليه السلام فقال: انا له يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال يا علي! هذا عمرو بن عبدود فارس يليل فقال: انا علي بن أبي طالب فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله ادن مني فدنا منه فعممه بيده ودفع اليه سيفه ذا الفقار وقال له: اذهب وقاتل بهذا وقال: اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته فمرّ امير المؤمنين عليه السلام يهرول في مشيه وهو يقول: لا تعجلن فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز ذو نية وبصيرة ولصدق منجى كل فائزاني لأرجو ان أقيم عليك فاتحة الجنائز من ضربة نجلاء يبقى صيتها بعد الهزاهز فقال له عمرو من أنت؟ قال: انا علي بن أبي طالب ابن عم رسول اللّه صلى الله عليه و آله وختنه فقال: واللّه ان أباك كان لي صديقا ونديما واني اكره قتلك، ما امن ابن عمك حين بعثك الي ان اختطفك برمحي هذا فأتركك شائلا بين السماء والأرض لا حي ولا ميت؟ فقال له امير المؤمنين عليه السلام قد علم ابن عمي انك ان قتلتني دخلت الجنة وأنت في النار وان قتلتك فأنت في النار وانا في الجنة! فقال عمرو: كلتاهما لك يا علي تلك إذا قسمة ضيزى فقال علي عليه السلام دع هذا يا عمرو إني سمعت منك وأنت متعلق بأستار الكعبة تقول: لا يعرضن عليّ احد في الحرب ثلاث خصال إلا أجبته الى واحدة منها وانا اعرض إليك ثلاث خصال فأجبني الى واحدة قال هات يا علي! قال: أحدها تشهد أن لا اله الا اللّه وان محمدا رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: نحّ عني هذا فاسأل الثانية، فقال: ان ترجع وترد هذا الجيش عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله فان يك صادقا فأنتم أعلى به عينا وان يك كاذبا كفتكم ذؤبان العرب امره، قال: إذا تتحدث نساء قريش وتنشد الشعراء في اشعارها اني جبنت ورجعت على عقبي من الحرب وخذلت قوما رأسوني عليهم! فقال له امير المؤمنين عليه السلام فالثالثة ان تنزل الى قتالي فانك فارس وانا راجل حتى أنابذك (اكاشفك وأقاتل) فوثب عن فرسه وعرقبه: (قطع عرقوبه: عصب غليظ فوق العقب) وقال: هذه خصلة ما ظننت ان أحدا من العرب يسومني عليها: (يكلفني إياها) ثم بدأ فضرب امير المؤمنين عليه السلام بالسيف على رأسه فاتقاه امير المؤمنين بالدرقة الترس فقطعها وثبت السيف على رأسه فقال له علي عليه السلام يا عمر وما كفاك اني بارزتك وأنت فارس العرب حتى استعنت علّي بظهير؟ فالتفت عمرو الى خلفه فضربه امير المؤمنين عليه السلام مسرعا الى ساقيه فقطعهما جميعا وارتفعت بينهما عجاجة فقال المنافقون قتل علي بن أبي طالب ثم انكشف العجاجة ونظروا فإذا امير المؤمنين عليه السلام على صدره قد أخذ بلحيته يريد ان يذبحه ثم أخذ رأسه واقبل الى رسول اللّه صلى الله عليه و آله والدماء تسيل على رأسه من ضربة عمر وسيفه يقطر منه الدم وهو يقول: انا ابن عبد المطلب الموت خير للفتى من الهرب فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله يا علي عليه السلام ماكرته؟ قال: نعم يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله الحرب خديعة وبعث رسول اللّه (صلى‏اللّه عليه وآله وسلم) الزبير الى هبيرة بن وهب فضربه على رأسه ضربة فلق هامته وامر رسول اللّه صلى الله عليه و آله عمر بن الخطاب ان يبارز ضرار بن الخطاب فلما برز اليه ضرار انتزع له عمر سهما فقال له ضرار ويلك يا ابن‏

صهاك أترميني في مبارزه واللّه لئن رميتني لا تركت عدويا بمكة الا قتلته فانهزم عمر عند ذلك ومر نحوه ضرار وضربه ضرار على رأسه بالقناة ثم قال: احفظها يا عمر فاني آليت ألا اقتل قرشيا ما قدرت عليه فكان عمر يحفظ له ذلك بعد ما ولى وولاه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 382

يليل عمرو بن عبدود فتم انهزام الأحزاب ونزل جبريل بقوله «لا فتى إلا علي لا سيف الا ذو الفقار»! وعندئذ هاجت الرياح وانهزم الكفار وو ولوُوا الأدبار فهم بين قتيل وجريح وأسير وفارّ! كما وقد يعني «هَلُمَّ إِلَيْنا» موارد اخرى‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). وفي الدر المنثور 5: 188- اخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ ..» قال: هذا يوم الأحزاب انصرف رجل من عند النبي صلى الله عليه و آله فوجد أخاه بين يديه شواء ورغيف فقال له: أنت هاهنا في الشواء والرغيف والنبيذ و رسول اللّه صلى الله عليه و آله بين الرماح والسيوف قال: هلم الي لقد بلغ بك وبصاحبك والذي يحلف به لا يستقي لها محمد ابدا قال: كذبت والذي يحلف به وكان أخاه من أبيه وامه واللّه لأخبرن النبي صلى الله عليه و آله بأمرك وذهب الى النبي صلى الله عليه و آله يخبره فوجده قد نزل جبريل عليه السلام بخبره «قد يعلم الله المعوقين وفيه اخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: هؤلاء أناس من المنافقين كانوا يقولون لإخوانهم ما محمد وأصحابه الا اكلة رأس ولو كانوا لحما لالتهمهم ابو سفيان وأصحابه دعوا هذا الرجل فانه هالك والقائلين لإخوانهم الى المؤمنين هلم إلينا اي دعوا محمدا وأصحابه فانه هالك ومقتول ولا يأتون البأس إلا قليلا قال: لا يحضرون القتال الا كارهين وان حضروه كانت أيديهم مع المسلمين وقلوبهم مع المشركين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 383

6- أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ: بخلاء في النفس والنفيس والنفسيات، وليسوا- فقط- لا يساعدون على بأس، بل ويزيدون بأسا على باس وبؤسا في بأس بدعاياتهم السوء، فكلهم كزازات وهزازات ضد المؤمنين، وإن شأنهم الشائن في نفاقهم العارم يبرز في خوف البأس وذهابه، «فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ» وهم بعد في المعركة قبل فرارهم «رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ «خوفا كما المحتضر، او نظرة الإذن للفرار «كَالَّذِي يُغْشى‏ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ» صورة شاخصة واضحة الملامح تنبئ عن سيرة باخسة، مضحكة مبكية تثير السخرية من هؤلاء الجبناء اللعناء، حيث أخذتهم غشوة الموت فغابت حواسهم، وأخذت أعينهم نظرة لزهاق أنفسهم! «فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ» وامنوا البأس «سلقوكم» ضربوكم طعنا «بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ» كأنها نيازك نارية «أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ» يبخلون عليكم أن زال الخوف عنكم بانتصاركم، وهم يرقبون غلب العدو، ويبخلون على ما غنمتم كأنه لهم كله أو يشاركون، وهم لا نصيب لهم في الإنتصار! «فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ» أصبحت ألسنتهم الخرس حدادا طوالا لأنفسهم على المؤمنين، وارتفعت أصواتهم بعد الرعشة،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 384

وانتفخت أوداجهم بكل رعونة وعظمة، وادعوا ادعاءاتهم الجوفاء دونما اختجال ولا حياء، كأن لهم الفضل دون سواهم، ولم يكن الفضل إلّا لسواهم، ويا له من وقاحة حمقاء ونفاقة لعناء!.

و هذا الجيل من النسناس دائبون في ألسنتهم الحِداد بين الناس، صم بكم جبناء اعمياء أشحاء لا حراك لهم حين البأس إلّا ضدا لصالح الناس، فصحاء بلغاء حِركون ثوريون في كل صرخة صيحاء. في الأمن والرخاء كأنهم هم الذين جاهدوا وغيرهم قاعدون.

«أولئك» المنافقون والذين في قلوبهم مرض «لَمْ يُؤْمِنُوا» لمّا ادعوا الايمان «فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ» باللّاايمان، حيث العمل غير النابع عن الايمان حابط أيا كان، كما الايمان دون عمل خابط مهما كان أفضل من اللاايمان «وَ كانَ ذلِكَ» الإحباط «عَلَى اللَّهِ يَسِيراً» مهما خيل إلى البسطاء ان لكثير العمل اثره وان لم يكن عن ايمان!

توطئة المنافقين والكافرين ضد المسلمين‏

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ:

«الَّذِينَ نافَقُوا» من المسلمين المستسلمين الذين لم يؤمنوا بقلوبهم، هؤلاء يقولون لإخوانهم في الكفر: يهود بني النضير، فليست الأخوّة في الدم والقرابة فحسب، فالأعمق منها هي الأخوة في العقيدة، فكما أن المؤمنين إخوة فيها، كذلك الكافرون إخوة في الكفر، مهما اختلفت أواصر القرابة والعنصرية واللغة وما شابهها هنا وهناك.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 385

إن الأخوة على ألوان يجمعها الوجه المشترك بين جماعة، يربطهم برباط واحد كجامع الوطن، إذ آخى بين عاد وهود (7: 65) وصالح وثمود (7: 73) ومدين وشعيب (7: 85) ولوط وسدوم (50: 13) مهما تناقضوا في العقيدة أو تباعدوا في النسب.

و جامع النسب كما هو ظاهر، وجامع الإيمان: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» (49: 10) وجامع الكفر: «وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ» (7: 202) وهذه الآية:

«يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ»: بني النضير، لما قرر إخراجهم من قريتهم لما خانوا ونقضوا عهدهم «لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ» إيحاء لهم بشدة رباط الاخوة بينهم لحدّ: «وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً» حتى الرسول الذي آمنا به بألسنتنا، فقد نجاهره بالخلاف لصالحكم، وإيحاء ثان هو أشد وآكد: «وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ» بالنفس والنفيس، فقلوبنا معكم، وأسيافنا لكم، ولكن اللّه يفضحهم أن نفاقهم مزدوج، ينافقون إخوانهم كما نافقوا المسلمين «وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» وهذه الشهادة أصبحت ملموسة لبني النضير عن نفاق مدروس من إخوانهم المنافقين.

لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ: فقد كان لا بدّ للمنافقين أن يفوا لإخوانهم بوعدهم في هذا الثالوث المنحوس: فيخرجوا معهم إن أخرجوا، وينصرونهم إن قوتلوا، ولا يوّلوا الأدبار إن نصروهم، تطبيقا لوعدهم، أو ليكذبوا نبأ القرآن عنهم، ولكنهم ما فعلوا من ذلك شيئا، وكيف بالإمكان تكذيب القرآن رغم واقع الإختيار لهؤلاء الذين يتربصون بالإسلام الدوائر، ولكن عليهم دائرة السوء وكلمة اللّه هي العليا، فلقد وقع ما نبّئ النبي من كيد المنافقين، كما وقع مئات ومئات من هذه الأنباء الغيبية، التي هي حجج دامغة على الناكرين.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 386

إنهم يجمعهم: ألا عزم لهم ولا حزم إذ لا مولى لهم عليه يعتمدون، فهم يرهبونكم ولا يرهبون اللّه، رغم حصونهم بعدتهم وعدتهم:

لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ:

هؤلاء الإخوة في الكفر يرهبونكم ولا يرهبون اللّه كرهبتكم أنتم عبيده! و «ذلك»:

هذا البعيد البعيد من الحالة النفسية الرديئة «بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ»: الحقائق فيثبتوا لها، فلم يعرفوا اللّه حتى يهابوه حق مهابته، ولم يعرفوكم حتى لا يهابوكم «و من خاف اللّه أخاف اللّه منه كل شي‏ء ومن لم يخف اللّه أخافه اللّه من كل شي‏ء» «1» أجل وإن المرتبط إيمانيا بمصدر القدرة والجبروت يرهب منه كما يرهب من اللّه! ولا يجتمع في قلب خوف من اللّه وخوف من شي‏ء سواه، إذ لا إله إلا اللّه، ولكن الذين لا يفقهون هذه الحقيقة يخافون عباد اللّه أشد مما يخافون اللّه، أو لا يخافونه أبدا، ولذلك تراهم يخالفون وعودهم لإخوانهم رهبة منكم.

لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ:

و من رهبتهم إياكم أن «لا يقاتلونكم»: الكافرون والمنافقون سواء بنو النضير وإخوانهم أم نظرائهم «جميعا»: حال أنكم جميع في قلوبكم، جميع في اتجاهاتكم، وجميع في دفاعكم وهجماتكم في سبيل اللّه بدافع «إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ» كذلك «لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً»: وهم جميع بكافة صنوفهم، تجمعوا على قتالكم أو تفرقوا، «إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ» فلا يتكلون إلا على العِدة والعُدة، إذ لا ايمان لهم به يثبتون، ولا مولى لهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عيون أخبار الرضا عن الإمام الرضا عليه السلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 387

عليه يتوكلون، فهم يقاتلونكم متكلين على هذه المعدات الحربية، وأما في غير حصار ولا جدر فهم يهربون ويتساقطون رهبة منكم وخوفا، وكما نلمس هذه الحالة البئيسة من الكفار طوال التاريخ، نلمسها في حروبهم مع المؤمنين الحقيقيين، مهما كانوا قلة وأولئك كثرة «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ» وفيما نرى غلب الكافرين على المؤمنين، نجده من تفرق المؤمنين و ابتعادهم عن مبدئهم، كما يشهد بذلك التاريخ.

تشهد الاشتباكات المتواصلة بين الفدائيين والصهاينة بصدق هذه الملحمة القرآنية، فما يقاتلون إلا بتحصنات ومعدات حربية، فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولّوا الأدبار كالجرذان، ومن ثم لم تكن نكسات المسلمين العرب إلا قدر انتكاساتهم عن الروح الايمانية وتفرقهم بينهم.

«بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ»: قوتهم فيما بينهم شديد، كما أن: بؤسهم بينهم شديد «1» ومن بؤسهم في بأسهم: «تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى» فمظاهرهم تخدع إذ نراهم كأنهم متضامنون، وفي معسكرات قوية متوحدة، ولكنما الواقع خلاف الظاهر فإن «قُلُوبُهُمْ شَتَّى» لتشتت أهوائهم وأهدافهم، فهم يقاتلون ما ظنوا أنهم يقتلون ويحتلون، فإذا ظنوا أنهم يغلبون أو يقتلون يولون الأدبار ثم لا ينصرون خلاف المؤمنين الحقيقيين الذين هم جميع في قلوبهم، فإنهم يرونهم منتصرين، قاتلين ومقتولين فلا يوّلون.

فمهما انتصر الكفار في حربهم مع المؤمنين، لم يكن ذلك إلا لتشابههم في قلوب شتى، فتغلب من تزيد عدته وعدّته، وإنما يظهر حق هذا النبأ القرآني فيما قلّت عِدة المؤمنين وعُدتهم، أو تساوت مع الكافرين، فانتصر المؤمنون، كما في معارك عدّة، ويعاكسه عكس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بأسهم: على أنفسهم هو بؤسهم وعلى غيرهم هو قوتهم، فالمعنيان هما هنا معنيان.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 388

الأمر أحيانا، فيما كانت القلتان بجانب الكفار دون المسلمين فانتصر الكفار، فليس إلا بتماسكهم بها اكثر من المسلمين- رغم شتاتهم جميعا- كما في الحروب الإسرائيلية الأخيرة، اللهم إلا حرب رمضان، إلا لمن رفضها عن دوامها حتى النصر.

«ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ»: فتشتت قلوب العساكر هو الحماقة الكبرى، وعدم الاكتراس بالطاقات المعنوية مع العناية بالمعدات الحربية، من عدم العقل.

كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ.

مثل هؤلاء الحماقى كمثل من قبلهم كالمشركين يوم بدر، وكبني قينقاع وأضرابهم من الخونة الناقضين عهودهم مع المسلمين، فقد كانت وقعة بني قينقاع قريبة من وقعة بني النضير بين بدر وأحد، إذ حقدوا على المسلمين لما انتصروا في بدر، إذ خافوا أن يؤثر على موقعهم في المدينة بزوال معنوياتهم وجاههم، فبلغ الرسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم تحسّسهم وتهامسهم ضده، فحذرهم من ذلك فاستكبروا قائلين:

إنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب؟ واللّه لئن حاربناك لتعلم أنا نحن الناس! فأخذوا يتهرجون متحرشين بالمسلمين حتى جردوا امرأة مسلمة عن ملابسها في سوقهم، فاندلع الحرب بينهم وبين المسلمين وحاصرهم الرسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم حتى استسلموا و عرفوا من هم الناس ومن هم النسناس! وكان ما كان من خداع المنافقين معهم نظير بني النضير، فأجلاهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم عن المدينة، على أن يأخذوا أموالهم إلا أسلحتهم، فانجلوا إلى الشام ف «ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ» في الاولى «وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» في الاخرى، هؤلاء الكفار مع إخوانهم المنافقين.

و مثل عام شامل عن عمليات المنافقين الخادعة اللئيمة المشئومة:

كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 389

الْعالَمِينَ. فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ:

مثل حزب الشيطان هؤلاء، المضلّلون والمضلّلون، كمثل زعيمهم الأول، دائبا في تضليلهم، آئبا عنهم أخيرا، متبرئا منهم، وكما فعل بالمشركين يوم بدر: «وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَ قالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى‏ عَقِبَيْهِ وَ قالَ إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى‏ ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ. إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ» (8: 49).

و هذا هو دأبه الدائب: يعد ويخلف، نفاقا عارما يعيشه، وعجب من هؤلاء الذين يتبعون خطواته وهم يبصرون، وكما فعل بالمنافقين يوم بدر، وببني النضير، وكم لهما من نظير.

«كَمَثَلِ الشَّيْطانِ»: شيطان الجن والإنس بنوعيهما «إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ»:

نوع الإنسان، يأمره بالكفر بما يزين له ويزخرف فيتبعه من عميت بصيرته وضلت سيرته، يعده في كفره ألوان الوعود الحلوة «فَلَمَّا كَفَرَ» وحصل ما أراد منه نكص على عقبيه و «قالَ إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِنْكَ» كأنه أشطن منه وألعن وهو يتقي اللّه: «إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ» فقد يكذّب في قولته: «إِنِّي أَخافُ» كما في أكثر الأحايين، وقد يصدّق كما في بدر إذ رأى الملائكة النازلين لتعزيز المؤمنين قائلا: «إِنِّي أَرى‏ ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ»:

«إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ» (8: 12).

«فَكانَ عاقِبَتَهُما»: الشيطان المضلِّل، والإنسان المضلَّل «أَنَّهُما فِي النَّارِ» ابتداء من دار الفرار إذ عاشوا في نار التضليلات، وإلى دار القرار «خالِدَيْنِ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 390

الظَّالِمِينَ»: ظلم التضليل وظلم التضلّل، مهما اختلفا في مداه، فإنهما ائتلفا في معناه.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ:

إن عقائد التقوى وأعمال التقوى لبنات لتبني شخصية الإنسان للحياتين، فلتنظر نفس إنسانية ما قدمت من صالحات أو طالحات لغد، تقوى تتبنى حياته الطيبة، أو طغوى تتبناها مرذولة نجسة، تهدم صرح إنسانيته، فلتنظر لتقدم ما يقدمه دون تأخير، وتنكير «نفس» يوحي بقلة المراقبين لأحوالهم وأعمالهم كما هو الواقع- وبين المتقين أيضا- فالمعروف الساري بين الناس عدم المراقبة، والإهمال بشأن «غد»، لذلك فلتزوّد نفس التقوى العقائدي والعملي بتقوى النظرة والرقابة لما تقدمه نفسه. فواجب الإنسان أن يقدم كل يوم لغده، وكل غد لما بعده، فيتخطى- هكذا- حياته الدنيا، إلى غد الاخرى، متبنيا صرح‏الحياتين دائبا «فمن ساوى يوماه فهو مغبون» مقدما من كل يوم لغده هنا، ومن أيام الدنيا جميعا لغد الآخرة، سلسلة تقدمية من حياة التقوى ليعيش مع اللّه حياته كلها، وعلّ تثنية التقوى في الآية بدءً وختما، توحي بمفعول التقوى لغد الدنيا وغد الآخرة مهما كانت الاخرى هي الأحرى‏ «1»، وتشيران كذلك إلى تقوى العمل وتقوى المراقبة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فبالنسبة لغد الآخرة يروى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قوله: «تصدقوا ولو بصاع من تمر، ولوببعض صاع، ولو بقبضة، ولو ببعض قبضة، ولو بتمرة، ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن أحدكم لاقى اللّه فيقال له: ألم أفعل بك؟ ألم أفعل بك؟ ألم أجعلك سميعا بصيرا؟ ألم أجعل لك مالا وولدا؟ فيقول: بلى، فيقول اللّه تبارك وتعالى: فانظر ما قدمت لنفسك، قال: فينظر قدامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله فلا يجد شيئا يقي به وجهه من النار (نور الثقلين 5: 292) عن اصول الكافي بإسناده إلى أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: وفي الدر المنثور 6: 201- أخرج ابن أبي شيبة ومسلم والنسائي وابن ماجة وابن مردويه عن جرير قال: كنت جالسا عند رسول اللّه صلى الله عليه و آله فأتاه قوم مجتابي النمار متقلدي السيوف، ليس عليهم أزر ولا شي‏ء غيرها، عامتهم من مضر، فلما رأى النبي صلى الله عليه و آله الذي بهم من الجهد والعرى والجوع تغير وجه رسول اللّه صلى الله عليه و آله ثم قام فدخل بيته، ثم راح إلى المسجد فصلى الظهر، ثم صعد منبره فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال: أما بعد ذلكم فإن اللّه أنزل في كتابه: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ- إلى قوله- الْفائِزُونَ» تصدقوا قبل أن لا تصدقوا، تصدقوا قبل أن يحال بينكم وبين الصدقة، تصدق امرؤ من دينار، تصدق امرؤ من درهمه، تصدق امرؤ من بره من شعيرة من تمره، لا يحقرن شي‏ء من الصدقة ولو بشق التمرة، فقام رجل من الأنصار بصرة في كفه فناولها رسول اللّه صلى الله عليه و آله وهو على منبره فعرف السرور في وجهه فقال: من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئا، ومن سن سنة سيئة فعمل بها كان عليه وزرها ومثل وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئا فقام الناس فتفرقوا فمن ذي دينار ومن ذي درهم ومن ذي طعام و من ذي ومن ذي فاجتمع فقسمه بينهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 391

والمحاسبة كما وان تنكير «غد» يوحي بعدم اختصاصه بغد الآخرة.

المنافقون في اليوم الآخر

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ يَسْعى‏ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. (57: 12)

«يَوْمَ تَرَى» أيها الناظر البصير، وبالأحرى أيها الرسول البشير النذير! «تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ يَسْعى‏ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ» فما هذا النور الخاص بالجهتين، الذي لا يتخطى صاحبه إلى سواه فيضطر المظلم أن يلتمسه في مناه: «انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالَتمِسُوا نُوراً»؟.

انه ليس نورا يبصر ومن خارج ذواتهم «نورهم» لا (نور) أو (نور سواهم) وإنما نور

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 392

البصيرة الذي أخرجهم اللّه اليه، من ظلمات الهوى إلى نور المعرفة والهدى، نور أشرق في تلكم الأرواح المستجيبة لدعوة اللّه، نور يحصل بالسعي دون فوضى، ومن ثم هو يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يوم الاخرى جزاء وفاقا «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» نور يخرج صاحبه من الخزي هناك كما أخرجه من سائر الظلمات هنا، ثم يتممه اللّه هناك كما يشاء ويرضى: «يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى‏ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا» (66: 8) «1». نور يلتمس سعيا في الحياة الدنيا، ومع اختصاصها بأصحابها قد يشفعون من يليق بها أن ينظروا إليهم في الاخرى: «.. انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالَتمِسُوا نُوراً».

إن سائر الأنوار لا تختص بأصحابها، فقد تغتصب أو يستفاد منها دون علم أو رضى أصحابها، يستنير منها الصديق والعدو، والمؤمن والكافر، وأما ذلك النور فمثله كنور البصر، لا يبصر إلا لصاحبه قدر سعيه، صادرا منه وواردا اليه، اللهم إلا شفاعة مرضية، فهو برهان ربّاني: «قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً» (4: 174) وهو إيمان ناتج عن ذلك البرهان:

«أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى‏ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ» (39: 22) وهو العمل الصالح الناتج عن الإيمان. ومن ثم هو نور الفرقان الناتج عن خالص الإيمان: (إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً) (8: 29): مربع النور: (نُورٌ عَلى‏ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ)!.

ترى ولماذا (بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ) دون سائر الجهات الأربع أو الست؟ ...

لأن هذا النور غير سائر النور، نور البصيرة وليس البصر، وإن كان يهدي- فيما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع سورة التحريم ج 28- الفرقان‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 393

يهدي- البصر. ولأن طريق الجنة يمنة ووجاه، وطريق النار يسرة ووراء، وكما عن الرسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم: (بينا أنا على حوضي انادي هلم، إذ أناس أخذتهم ذات الشمال فاختلجوا دوني، فأنادي ألا هلم فيقال: انك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول سحقا) «1». فلا نور لأصحاب الشمال لا وجاها ولا يمنة، وإنما تأخذهم النار من ورائهم وذات الشمال.

و قد تختص (بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) بالسابقين المقرّبين، الذين هم وجه بلا قفا ولا أية جهة اخرى إلا وجه اللّه، ومن ثم يتوجهون اليه، ويتجهون إلى رحمته ورضوانه، و (بِأَيْمانِهِمْ) لأصحاب اليمين الذين هم وجه من وجه، وإذا اتجهوا عن الأمام فإلى اليمين، فانه الدين، وإن كان أدنى من المقربين.

أو ان قسم الإيمان والعمل الصالح والفرقان تكون بالأيمان، فان المؤمن يؤتى كتابه بيمينه، وقسم الهداية تكون بين الأيدي ومنه الهداة إلى اللّه، وقد توحي له (بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) نفسها فانه النور المفصول عن ذواتهم بين الأيدي، وهم الهداة خارج الذوات، و (بِأَيْمانِهِمْ) لا عن أو من أيمانهم، فانه النور الذاتي اللامع بالأيمان، فهو الإيمان والعمل الصالح والفرقان الناتج عنهما «2».

و أما الشمال ووراء الظهر فلأصحاب الشمال إذ يؤتون كتابهم فيهما، ثم لا إمام لهم أمامهم إلا الأئمة الذين يدعون الى النار، جهنم يصلونها وبئس القرار.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. تفسير روح البيان لإسماعيل حقي البروسي ج 9 ص 359- 360

(2). الخصال للصدوق بإسناده الى أبي خالد الكابلي قال قال أبو جعفر عليه السلام في قوله: «يَسْعى‏ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ»: أئمة المؤمنين يوم القيامة تسعى بين أيدي المؤمنين وبأيمانهم حتى ينزلوا منازل أهل الجنة. ورواه في الكافي عنه، وروى مثله عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام ومحمد بن العباس مثله عن أبي عبد اللّه عليه السلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 394

أو انه نور واحد قد توحي به وحدة النور: «نُورُهُمْ يَسْعى‏» فالنور المربع من الأيمان يعده للحساب الحاضر، وهو بين الأيدي يبشره بالثواب المستقبل وكلاهما واحد وإن كانت وحدة النور أعمّ من الوحدة العددية والنوعية. إذا فالوحدة والكثرة كلتاهما معنيتان، لأن الكثرة هنا هي الوحدة والوحدة هي الكثرة وكلها نور، من مثلثه الذاتي وواحده الخارجي: الهداة الى اللّه، كتابا وأنبياء وأولياء.

و كما أن مساعي النور درجات، فالحاصل عنها أيضا درجات حسب المساعي والمقامات، ف (الناس منازلهم بأعمالهم) «1»، منهم من يستضي‏ء بنوره أصحاب الجنة أجمعون، ومنهم دون ذلك إلى من لا يضي‏ء نوره إلا له دون سواه.

ثم هذا النور الساعي من الجهتين الأصيلتين تضي‏ء لأصحابها من سائر الجهات، يعرفهم الرسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم (انهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، ويعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود، وبنورهم الذي يسعى بين أيديهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) «2» طالما السعي الشمائلي هامشي على ضوء الأولين، كما الخلفي والفوقي والتحتي.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. الدر المنثور 6: 172- أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في الآية قال‏ذكر لنا ان نبي اللّه صلى الله عليه و آله قال: ان من المؤمنين يوم القيامة من يضي‏ء له نوره كما بين المدينة الى عدن او الى صنعاء فدون ذلك، حتى ان من المؤمنين من لا يضي‏ء له نوره إلا موضع قدميه، والناس منازلهم بأعمالهم‏

(2). الدر المنثور 6: 172- أخرج ابن أبي حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن عبد الرحمن بن جبير انه سمع أبا ذر و أبا الدرداء قالا: قال رسول اللّه (ص): أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة و أول من يؤذن له ان يرفع رأسه فأرفع رأسي فأنظر بين يدي و عن خلفي و عن يميني و عن شمالي فاعرف امتي بين الأمم. فقيل يا رسول اللّه! و كيف تعرفهم؟ بين الأمم ما بين نوح الى أمتك؟ قال: غر محجلون من اثر الوضوء و لا يكون لأحد غيرهم، و أعرفهم انهم يؤتون كتبهم بايمانهم و أعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود، و أعرفهم بنورهم الذي يسعى بين أيديهم و عن أيمانهم و عن شمائلهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 395

و من ثم يصاحب نورهم بين الأيدي والأيمان بشرى جنة الخلود والفوز العظيم على ضوء النور الذي التمسوه يوم الدنيا، وتممه اللّه في الاخرى: (بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

فهذا دور المؤمنين، فما هو إذا دور المنافقين؟ إنه النكسة وظلمة الركسة:

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالَتمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ:

هناك المؤمنون والمؤمنات في منظر طريف ظريف، وهنا المنافقون والمنافقات في منظر هائل عنيف، في حيرة الضلالة ومهانة الإهمال، متعلقين بأذيال المؤمنين والمؤمنات قائلين: (انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ) وأنّى لهم الاقتباس، ولات حين مناص، من الظلمات التي عاشوها حياتهم!.

و ترى ما هذه النظرة التي يلتمس منها قبسات النور؟ إنها ليست نظرة البصر فإنها غير مفيدة، وهي حاصلة في حوارهم، وإنما هي نظرة البصيرة المتأملة الشفيعة الى اللّه أن يقبسهم من نورهم، لذلك لم تعدّ ب (إلى) المؤدية معنى نظر البصر: (انظرونا): تأملونا لهذه البغية، وليس مجرد التأمل (في):

(أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ) (7: 185) أو التأمل (كيف):

(أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (30: 9).

(و لا نظر الانتظار: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ، إِلى‏ رَبِّها ناظِرَةٌ) (75: 23) اللهم إلا انتظارهم ليلحقوهم الى الجنة على نورهم كما هم مسرعون، وأنّى لهم وهم مظلمون مبطئون!.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 396

أو انتظار الشفاعة لمن ينظرونهم أمل الشفاعة، ولكنه أيضا النظر (إلى) وهنا النظر (انظرونا) فهو نظر يفيد الاقتباس من ذلك النور.

و قد التمسوا محالا فأجيبوا بمحال مضاعف: (قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالَتمِسُوا نُوراً) فليس هذا النور بالذي يلتمس هنا، ولا بالذي يقتبس من أهل النور هنا، وإنما يلتمس (وراءكم) يوم الدنيا التي خلفتموها وراءكم ظهريا، ومن ثم يقتبس منه هنا، أو كان أصله من هناك ثم يتمم هنا بشفاعة أو التماس، ثم يكون تمام الاقتباس: (يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى‏ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّناأَتْمِمْ لَنا نُورَنا) (66:

8)، وأما الذين لم يلتمسوا من ورائهم نورا هناك، فلا نور لهم هنا، لا أصلا ولا تتميما (وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ) (64: 40) ولكن أهل اللّه ينظرون بنور اللّه دونما ضوء بصري منه يقتبس، فأين المنافقون القائلون للمؤمنين: (انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ)؟ والمؤمنون (رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا) «1»؟

و هذا الجواب المهانة العتاب يحمل محالين: الرجوع الى الوراء: (رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ، كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها (23: 100) والتماس النور لو رجع: (وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ) (6: 28).

و لماذا (قِيلَ ارْجِعُوا) لا (قالوا)؟ علّه لأن القائل هنا ليس هم المؤمنين أنفسهم، أو هم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 173- اخرج الطبراني وابن مردويه قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: ان اللّه يدعو الناس يوم القيامة بأمهاتهم سترا منه على العباد، وأما عند الصراط فان اللّه يعطي كل مؤمن نورا وكل منافق نورا فإذا استووا على الصراط سلب اللّه نور المنافقين والمنافقات، فقال المنافقون انظرونا نقتبس من نوركم، وقال المؤمنون ربنا أتمم لنا نورنا، فلا يذكر عند ذلك أحد أحدا».

أقول: نور المنافقين هنا ضوئي عرضي امتهانا ومكرا حسنا، ونور المؤمنين ذاتي كسبي إكراما لهم وتكريما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 397

كلهم، بل هم خزنة النار بإذن العزيز الجبار، أو انه قيل من الرسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم الذي كان يذكرهم ذكراهم هذه ليل نهار، فلم يستفيقوا من نومتهم، فاستحقوا هكذا استهتار، بأمر تعجيزي يستهزأ بهم كما كانوا يستهزؤن بالمؤمنين، أو انه مكر من خير الماكرين أن يرجعوا الى وراء لهم اليه الرجعة، وراء في المحشر نفسه، فيفاجئون بسور له باب، كل محتمل ومتحمّل، والجمع أجمل.

لقد كان المؤمنون والمنافقون يتراءون ويتسامعون في حوار حاسم، فضرب بينهم بحجاب الجواب العتاب، ثم حجاب سور له باب بعد ذلك الجواب:

فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ:

ترى ما هذا الحجاب، وما هذا الباب، وما هو باطن الرحمة وظاهر العذاب؟؟

هل انه حجاب الأعراف؟: (وَ بَيْنَهُما حِجابٌ وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ» (7: 46) قد يكون، وليكن حجابا دائبا لا يستطيع أصحاب النار اختراقه يمنة أو يسرة أو من علٍ، فليكن سورا دائريا أو مثله، لا طوليا له جانبان منتهيان، فإنهما له بابان، فلا حاجة فيه الى باب، ولكنه (بِسُورٍ لَهُ بابٌ) فالسور توحي بحجاب يحيط من الجوانب كلها، فانها الحائط المشتمل، والباب- أيا كان- توحي أن لا سبيل الى داخل السور إلا منه، إذا فهي حائط محيط بأهل الجنة ومحاط بأهل النار، والباب هذه بابها الى الجنة، فهي باب الرحمة، وباطن السور فيه الرحمة: واقعها إذ يعيش أهلها النور، وبشارتها، إذ هم يخرجون من بابها الى الجنة، وظاهر السور (مِنْ قِبَلِهِ) قبل نفس السور (الْعَذابُ) واقعه إذ يعيش أهله الظلمات، ومستقبلة إذ يستقبلون فيه النار.

فلن يدخل السور، ولن يقرب الى باب السور، إلا أهل النور، وأما المظلمون فهم خارج السور، وناءون عن باب السور، فالمؤمنون هم في مربع النور: معهم، وفي السور،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 398

ومن باب السور، والى الجنة النور، والمنافقون ومعهم الكافرون هم محرومون عن النور بما حرموا أنفسهم.

و هذا من الفصل يوم الفصل بين المؤمنين وسواهم، ثم هناك فصائل اخرى تفصل بينهم تلو بعض، أو مع بعض حتى يتم الفصل، حين استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، ثم لا ترائي ولا حوار. وبما أن كل ما في الآخرة هو مثال لما في الدنيا ثوابا أو عقابا، جزاء وفاقا، فهذا السور المضروب بينهم في المحشر مثال عما ضرب بينهم يوم الدنيا، سور الحياة الدنيا، الذي حاول المؤمنون أن يبطنوه وينظروه عميقا وبعيدا فبصرهم:

(من أبصر بها بصرته) وغيرهم نظروا الى ظاهر منه و (أبصروا إليها فأعمتهم):

(يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الآْخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ) (20: 7) والدنيا هي الدنيا والسور هو السور، وإنما اختلفوا وافترقوا في مفترق النظر بحديد البصر، ففريق في الجنة وفريق في السعير.

ف (باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ) كما في باطن الحياة الدنيا الناحي منحى الرحمات لمن أبصر بها، (وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ) كظاهر الحياة الدنيا لمن أبصر إليها، فالحياة الدنيا في باطنها الرحمة، و ظاهرها من قبلها العذاب، لا أنها العذاب أو فيها العذاب، وإنما من قبلها وبسببها لمن يعلم ظاهرا منها ويجهل باطنها.

و من لطيف التعبير (فضرب) ماضيا، لا (فيضرب) مضارعا، رغم استقبال الضرب، مما يوحي أن هذا السور المضروب يوم الاخرى كان مضروبا من قبل يوم الاولى، فليس سور الاخرى إلا استمرار الاولى في صورة اخرى! ثم هذا السور حاجب الرؤية وليس حاجب الصورت حيث الحوار والتنادي:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 399

(يُنادُونَهُمْ أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ) في سور الدنيا، ونعيش مع بعض، ويساكن بعضنا البعض، عشنا في صعيد واحد، وحشرنا معكم في صعيد واحد، فلما ذا هذا الفراق بين الرفاق؟

وقد كنا مسلمين!.

قالوا أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قالُوا بَلى‏ وَ لكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ ارْتَبْتُمْ وَ غَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ:

(قالُوا بَلى‏): كنتم معنا معية الزمان والمكان وفي ظاهر الإيمان، وليست تفيد هذه المعية المادية الجوفاء، إذا اختلفنا في معية حقيقة الإيمان، فمقاييس الاخرى تختلف عن الاولى اختلاف الحساب عن الفوضي. (... بلى) فيما لا يفيد هنا، و (لا) فيما يفيد: (وَ لكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ ارْتَبْتُمْ وَ غَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ).

لكنكم عشتم مربع الظلمات بدلا عن مربع النور: فتنة الأنفس، والتربص، والارتياب والغرور، وأين مربع الظلمات من مربع النور!.

(فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ): أنفسكم أنتم عن برهاني الفطرة والرسالة، فخسرتم النور الأول، والتهيتم عن النور المبين، و (فتنتم) المؤمنين الذين هم كأنفسكم قضية الايمان لو كان: (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ) (85: 10) وليتكم ما لبثتم في هذه الفتنة فرجعتم الى نور الفطرة والرسالة، ولكنكم (و تربصتم) وتلبثتم ماكثين في هذه الفتنة الالتهاء فقست قلوبكم: (وَ لا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ) (57: 16) (بَلى‏ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ) (2: 81) (كَلَّا بَلْ رانَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ) (83: 14) فالتربص في الفتنة تعمّقها وتزيدها ركسة عن الحق، تربصتم بأنفسكم في الفتنة وتربصتم بالمؤمنين الدوائر:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 400

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قالُوا أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَ إِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ قالُوا أَ لَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَ نَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ) (4: 141) (وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (9: 98)، كذلك وتربصتم عن التوبة والإنابة الى اللّه، ثالوث التربص المنحوس.

و لو أنكم رجعتم عن الفتنة المتربصة بكم وبالمؤمنين، والمتربصين عن التوبة، ورجعتم الى اللّه، قفزة الى الفطرة قبل انكسافها بالمرة، لرجع لكم نور العلم فالإيمان، ولكنكم (وَ ارْتَبْتُمْ) إذا استأصلت الفطرة عن نورها فأظلمت، فأوصلتكم الفتنة المتربصة المستقرة الى الريبة، ريبة في كل حق ناصع، أو إيمانا بكل باطل فاجع: (أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) فقد كفرتم بالرسالة الإلهية الناصحة الناصعة كفرالنفاق والشقاق.

و طالما الخطوة الثالثة الريبة بعد تربص الفتنة زلقة خطرة، ولكنما الأمل في الرجعة الى الهدى بعدُ واقع وإن بصعوبة، ولكنكم (و غرتكم الأماني):

ثالوث الأماني الفارغة الجوفاء، من النفس الغريرة، ومن الشيطان الغرور، ومن الكفار الغارين، وساعدتكم في هذا الثالوث المنحوس الدنيا الغرور، بكل زور وغرور.

وكأنها أنزلتكم الى درك الطمأنينة الى الباطل لحد الإيمان به واليقين، إذ زال عن فطرتكم كل نور، فلم تبق إلا الظلمات، حيث الأماني تستحكم عرى الفتنة والارتياب، ولا سيما أمنية انتكاس أمر الإسلام، وارتكاس المسلمين، ف (تجنبوا المنى فإنها تذهب بهجة ما خوّلتم وتستصغرون بها مواهب اللّه جل وعزّ عندكم، وتعقبكم الحسرات فيما وهمتم به‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 401

أنفسكم) «1»، وهكذا عشتم مربع الظلمات (حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ): بالموت والسؤال والحساب والعقاب، وكانت حياتكم كلها حياة الغرور إذ (وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ): الشيطان المبالغ في الغرور، فان له أيادي في مربع الضلال، ولكنه ليس ولا يمكن إلا باستجابة المغرور، دون تسيير وإنما مسايرة الزور والغرور.

و هكذا يخطو الغَرور بالإنسان الى دركات الغُرور، لا لأن غروره قوي وإنما لضعف المغرور، انضعافا من الإنسان، فانضيافا الى الشيطان و (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً) (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ).

فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَ لا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ:

فليس لكم هناك مال تفدون به، أو نفس تفدي عنكم، ولو كان ف (لايؤخذ منكم ...) (فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْ‏ءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ افْتَدى‏ بِهِ) (3: 91) رغم (لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ) (13: 18) (فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَ لا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا): (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) (5: 36) (يَوَدُّ الُمجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ) (70: 11).

(مَأْواكُمُ النَّارُ) في دار القرار، كما كان مأواكم في دار الفرار (هِيَ مَوْلاكُمْ):

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اصول الكافي باسناده الى ابان بن تغلب قال سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول:

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 402

أملك بكم وأولى بأخذكم، فكأنها تملككم رقا، ولا تحرركم عتقا، وكما كنتم ارقاء لموجبات النار، جهنم تصلونها وبئس القرار.

لقد حان الآن أن ينحى المنافقون نحو الإيمان، فتخشع قلوبهم لذكر اللّه لو كانت لهم قلوب، فالمؤمنون أجدر بذلك وأحرى: أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَ ما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَ لا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ.

انه ليس المنافقين والكافرين فقط هم الذين ينسيهم الشيطان ذكر اللّه، فيخطوا بهم خطواته، بل هو إلى تضليل المؤمنين أرغب، فحيا إلى مطاردة الشيطان ان نخرجه عن صدورنا وقلوبنا فإنه الوسواس الخناس: بخشوع القلب يخشع القالب، وقد يخشع القالب والقلب لاه، ورين القلب لا يزيله ويجليه إلا ذكر اللّه، ذكر يأخذ بأزمة القلب ويستكن في زواياه، فليس ذكر اللسان إلا من بواعث ذكر القلب، وإلى أن يصبح العبد كله ذكرا اللّه! فالذكر الذي لا يخشع به القلب، هو قالب الذكر وليس قلبه، وإنما حقيقة الذكر هي التي تقلّب القلب إلى اللّه، وتفرغه عما سوى اللّه. وهنا الآية ترن رنا عاتبا حنونا، وتأن أنّا صارخا على اسماع المؤمنين منونا، محذّرة إياهم أن تقسوا قلوبهم بطول الآماد في التغافل والتساهي عن ذكر اللّه، فإن ذكر اللّه درجات، كما ان نسيانه دركات، ومهما يبلغ الإنسان إلى درجات من الإيمان، فبعده درجات ودرجات، لو قيست إلى ما قبله لكان كالدركات.

فليعش المؤمن حياته تروية دائبة لقلبه بمياه ذكر اللّه، فهذا الخطاب الود العتاب يواجه المؤمنين كافة إلا المقربين، يواجههم الطول التاريخي والعرض الجغرافي أن يحاولوا في تخشيع قلوبهم لذكر اللّه وما نزل من الحق دونما غفلة ومماطلة أو مماهلة، محذرا إياهم أن يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم أمد الذكرى فنسوا وغفوا فقست قلوبهم، وليس وراء قسوة القلب إلا كل فسوق وخروق، وإلى الكفر.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 403

و القلب- كما سمي- كيانه التقلب والانقلاب، فلا بدّ له دوما من زمام رباني يزمه عن الأزمات التقلبات، فلا بدّ من الطّرق والمتواصل عليه بطوارق أنوار الذكر حتى لا يبلد ويقسوا وتنطمس إشراقته، ولكي يرق ويبرق ويشف (أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (13: 28) تخرج عن تقلباتها الفوضى، وتطمئن إلى اللّه العلي الأعلى.

ذلك لأن قلب الروح يعشق اللامحدود، وإنما تقلبه وتزلّقه إلى هنا وهناك، إلى هذا وذاك، دونما وقفة واطمئنان، لأنه لا يجد بغيته في هذه المحدودة الزائغة الزائفة من كائنات الوجود، فإذا تعلق باللّه اطمئن وارتكن، ثم لا تقلّب ولا انفلات، اللهم إلا لمن لم يعرف ربه كما يحق، فقد ينزلق إلا من اعتصم باللّه وعصمه اللّه.

ان طول الآماد في فترات الرسالات من أهم ما ينسي ذكر اللّه فتقسى بها القلوب، لأنهم ينورون القلوب ويحركونها بسناد الوحي فلا يخطئون أو يتباطئون، ومن سواهم من مبلغي رسالات اللّه إنما يصدرون عنهم غيّبا وحضورا فقد يتباطئون أو يخطئون، مما يقلّل من تأثيرات العظات، فتتعاظم القساوات في ثالث الأدوار، دور الانتظار الذي نعيشه، إذ لا رسول ولا إمام حاضرا، وإنما منتظرا ليأتي ويقوّم الأود، فهذا الدور من أخطر الأدوار تقاسيا للقلوب، ومن أكثرها مسئوليات على عواتق المسلمين، فإذا يؤثر طول الآماد في الفترات الرسالية في قساوات القلوب، والرسالة غير منتهية، والفترة محدودة، فما ذا يكون أحوالنا في دور الانتظار وقد انتهت الرسالة والرسالات، وختم دور الإمامات، والفترة طائلة لحد غير معروف، ولحد الآن الف وستة وستون سنة تمضي على الغيبة التامة لدور الإمامة، ولم يسبق له مثيل طولا، ولا يأسا قاطعا عن تجديد الرسالات.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 404

فإذ تأنّ آية الأنّ على المؤمنين زمن الرسول‏ «1» وعلى اسماعهم تأن الآيات من أقوى الرسالات الإلهية، فنحن الغيّب عن ذلك الزمن، وعن زمن أئمة تلكم الرسالة، نحن أحرى وأجدر وأفقر إلى هذه الرنة الموقظة، فلنأخذها نصب عيوننا، وصغي آذاننا ونقول: بلى يا رب! قد آن لنا أن تخشع قلوبنا لذكرك وحقيق لمن له قلب أن يصعق ويتفتت لما يسمعها كبعض‏ «2» الأولين.

و ترى ما هو الفارق بين (ذكر اللّه) و (ما نزل من الحق) وهو أفضل ما يذكرنا اللّه؟.

قد يكون ذكر اللّه أعم مما نزل من الحق، حيث الحق النازل هنا هو القرآن وهو نبي القرآن بسائر بيناته، وهو أحق ما يذكر اللّه من خوارج الذوات، ولكنها لا تذكر اللّه إلا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 174- أخرج ابن مردويه عن انس مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه و آله قال: استبطأ اللّه‏قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة من نزول القرآن فأنزل اللّه: ألم يأن ... وفيه اخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: خرج رسول اللّه صلى الله عليه و آله على نفر من أصحابه في المسجد وهم يضحكون فسحب رداءه محمرا وجهه فقال: أتضحكون ولم يأتكم أمان من ربكم بانه قد غفر لكم ولقد أنزل علي في ضحككم آية: «أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ» قالوا: يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله! فما كفارة ذلك؟ قال: تبكون قدر ما ضحكتم، وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: لا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم إلا ان كل ما هو آت قريب، إنما البعيد ما ليس ب‏آيات‏

(2). روح المعاني للالوسي ج 27 ص 180: روى السلمي عن حمد بن أبي الحواري قال: بينا كنا في بعض طرقات البصرة إذ سمعت صعقة فأقبلت نحوها فرأيت رجلا قد خر مغشيا عليه فقلت: ما هذا؟ فقالوا كان رجلا حاضر القلب فسمع آية من كتاب اللّه فخر مغشيا عليه فقلت: ما هي؟ فقيل: قوله تعالى: «أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ» فأفاق الرجل عند سماع كلامنا فانشأ يقول:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أما آن للهجران أن يتصرما |  | و للغصن غصن البان أن يتبسما |
| و للعاشق الصب الذي ذاب وانحنى‏ |  | ألم يان أن يبكي عليه ويرحما |
| كتبت بماء الشوق بين جوانحي‏ |  | كتابا حكى نقش الوشي النمنما |

ثم قال: إشكال إشكال إشكال فخر مغشيا عليه فحركناه فإذا هو ميت‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 405

باستجابة من دواخل الذوات، فطرا وفكرا وعقولا بما معها من مذكرات آفاقية وأنفسية، فذكر اللّه يشمل سائر ما من شأنه أن يذكرنا اللّه مما نزل من الحق وسواه، فالحق النازل تشريعا من طرق الرسالات، والحق النازل تكوينا من سائر الطرق، يتناصران في تحقيق ذكر اللّه الذي يُخشع القلوب.

و من الفوارق الأدبية بين (ذكر اللّه) القرآن. و (ذكر اللّه) سوى القرآن، انه في القرآن إضافة إلى الفاعل فإنه المذكر للّه، وفي سواه إضافة إلى المفعول فإنه يذكرنا اللّه: (ذكر القرآن)- (ذكر ما سوى القرآن) ولا ضير أن يجمع ذكر اللّه هنا فاعله ومفعوله سواء.

و لو ان ذكر اللّه- أياً كان- دخل شغاف القلب، وأخذ بزمام القلب فهنا الخشوع دونما محاولة أخرى، ولو انه بقي في حالة الأهبة والذكر قالبا، ولم يتحول إلى القلب فلا خشوع وبأية محاولة أخرى، وإنما التنديد في آية الأنّ بمن لم يحول قوالب الذكر إلى القلوب، لا ما نزل من الحق ولا سواه، وإنما اكتفوا بذكر اللسان، ومن ثم بكل هؤلاء الذين وقفوا عن الحراك في تحكيم ذكر اللّه في قلوبهم، أو يتباطئون في الحراك، مهما انقلب ذكر من اللّه إلى قلوبهم، فليس لذكر اللّه حد ولا نهاية، وعلى السالك أن يتسارع في هذه السبيل حتى يتوفاه الموت، ومن ثم يسرع بالعجلة التي قدمها لنفسه.

(أَ لَمْ يَأْنِ): ألم يأت آن وحين (لِلَّذِينَ آمَنُوا) بألسنتهم دون قلوبهم، أو بقلوبهم أحيانا دون أخرى، أو ببعضها دون الآخر، أو بدرجة دون تزايد (أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ) كل ما يذكر اللّه (وَ ما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) قرآنا وأيا كان، (وَ لا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ) من اليهود والنصارى (فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ): الأجل والفترة بين الرسالات (فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ) شاءوا أم أبوا (وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ) وهم العامدون الضالون المضللون.

فقليل منهم ضالون جهلا وقصورا فهم ليسوا بفاسقين، وقليل من هؤلاء القلة مؤمنون‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 406

صامدون رغم طول الآماد وبواعث القساوات، وهنيئا لهذه القلة المؤمنة، اللهم اجعلنا من هؤلاء القلة من الملة الحنيفة المحمدية، وفي أقسى الزمن وأطول الفترات: دور الانتظار، نظرة الانتصار.

و ترى هل من فرج بعد الانكسار بما تقاست القلوب في فترة الانتظار، وماتت الأرض؟ اللهم نعم:

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآْياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

إن إحياء الأرض بعد موتها، لا بعد إماتتها، توحي ان موتها منها، وإحياءها من اللّه، فهي إذا الحياة الروحية، بعد موتها عنها بما قست القلوب‏ «1»

و إن كانت تشمل حياتا قبلها بموتها هي الحياة النباتية والحيوانية والإنسانية الجسدانية، وكذلك حياتا بعدها هي الحياة الاخرى عند القيامة الكبرى، ولكنما المقصود الأصيل من الحياة هنا هي الوسطى: الروحية السامية، زمن قيام الدولة الإسلامية الكبرى بزعامة القائم المهدي عليه التحية والسلام‏ «2»، لمكان (بعد موتها) وان الآية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الكافي باسناده عن أبي ابراهيم موسى بن جعفر عليه السلام في الآية: قال: ليس يحييها بالقطر ولكن يبعث اللّه عز وجل رجالا فتحي الأرض لإحياء العدل ولإقامة الحد فيها انفع في الأرض من القطر أربعين صباحا.

أقول: سلب الاحياء بالقطر عله سلب الحصر، وكما يزعمه البسطاء، فإن الآية تشملها و ان تلويحا

(2). كمال الدين وتمام النعمة باسناده إلى سلام بن المستنير عن أبي جعفر عليه السلام: في قول اللّه‏تعالى: اعلموا ان اللّه يحيي الأرض بعد موتها. قال: يحيي اللّه تعالى بالقائم بعد موتها، يعني بموتها كفر أهلها والكافر ميت. وفيه باسناده إلى سليط قال: قال الحسين بن علي عليه السلام منا اثنى عشر مهديا أولهم امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وآخرهم التاسع من ولدي هو القائم بالحق به يحيي الأرض بعد موتها ويظهر به الدين الحق على الدين كله ولو كره المشركون.

و في روضة الكافي باسناده إلى محمد الحلبي انه سال أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول اللّه عز وجل: اعلموا ان اللّه يحيي الأرض بعد موتها- قال: العدل بعد الجور

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 407

تحتف بها آيات لا تناسب الحياة المادية فحسب:

(ألم يأن ...) (ان المصدقين ...) وإن كانت تلمح بالحياة الاولى والاخرى أيضا.

فالأرض المبشّر بإحيائها هي الأرض الناقصة من أطرافها: (أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها) (13: 41) وهو ذهاب نورها وبهجتها بذهاب علماءها العارفين باللّه، و مؤمنيها المتمسكين بدين اللّه.

كما وانها أراضي القلوب التي خوت عن خشية اللّه، وانطفت عن نور معرفة اللّه، فاللّه تعالى يحيي هذه وتلك، زمن الانتظار أحيانا، وزمن الانتصار تماما، إذ لا حكم إلا اللّه، فلا يعبد إذا إلا اللّه.

فلا يقوم قائم الانتصار إلا بعد ما ملئت الأرض ظلما وجورا وهذا موتها، فهو يملأِها قسطا وعدلا، وهذا إحياءها، وإن كان لا بد لتأسيس هذه الدولة العالمية من مساعدين من أقوياء المسلمين، فهم أولاء، العشرة آلاف جنود المهدي عليه السلام وثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا اصحاب الألوية، إضافة إلى من يرجعهم اللّه من سائر المؤمنين الأشداء رجعة الاستعداد او الاستدعاء! اللهم اجعلنا منهم احياء او أمواتا.

إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَ الْمُصَّدِّقاتِ وَ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ:

مزيد تأكيد لإقراض اللّه قرضا حسنا متصدقا فيه وفي سواه من إنفاق في سبيل اللّه، والتصدق هو التجافي عن حق لمن يحتاجه، بتكلف، كأن يحبه كثيرا، أو يحتاجه دون ضرورة أم ماذا.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 408

وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِ‏آياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ:

ان الصديقين والشهداء عند اللّه ليسوا أناسا خصوصا تحتكر لهم هذه المقامات، وتحجز لهم لأنهم أصحاب القرابات الى الرسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم أو أيا من ميزات اللهم إلا القربات: الإيمان باللّه ورسوله وان كان له درجات، فالصديق والشهيد عند اللّه هو الذي بلغ الذروة من الإيمان عقيديا وعمليا، فإن الإسلام شريعة لا مجال فيها للطبقيات في نيل الدرجات.

و من المؤمنين الذروة من فرّ بدينه من أرض الى أرض مخافة الفتنة على نفسه ودينه (1) مما يدل على أن دينه أعز عنده مما سواه، وان كانوا هم أيضا درجات.

صحيح أن المؤمن لن يصل الى درجة النبيين، إلا أن له أن يضاهيهم فيصل الدر المنثور 6: 176 أخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «... كتب عند اللّه صديقا فإذا مات قبضه اللّه شهيدا وتلا هذه الآية ثم قال: والفارون بدينهم من أرض الى أرض يوم القيامة مع عيسى بن مريم في درجته في الجنة».

الى درجة الشهداء والصديقين وكما هم شهداء وصديقون: «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا» (19: 41) (وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا» (19: 56) (وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ» (5: 75) فالصديقون والشهداء هم من مربع النور: الرعيل الأعلى المنعم عليهم: «فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً» (4: 69) فقد بلغ الصديقون الى درجة يؤمر المصلون أجمعون أن يهديهم اللّه صراطهم: «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» (1: 5) فهم البالغون القمة في النعمات الروحية الإلهية، اللهم إلا رسالة الوحي في‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 409

غير النبيين منهم.

إذا فبإمكان المؤمن أن يصطف في صفوف النبيين اللهم إلا الوحي والعصمة الخاصة بهم، فإنهما جذبة إلهية لمن كمّل سيره الى اللّه، فيصطفيه اللّه تكميلا لما قصر هو عنه، فالنبوة بين سعي بشري واصطفاء مكمل إلهي.

و لأنهم صديقون عند ربهم، فهم الشهداء عند ربهم كما النبيون شهداء:

«وَ جِي‏ءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَداءِ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ» (39: 69) ومحمد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم هو شهيد الشهداء: نبيين وصديقين: «فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى‏ هؤُلاءِ شَهِيداً» (4: 41).

إنهم يشهدون على أعمال العباد لأنهم صديقون لا يكذبون ولا يسهون، فحياتهم الصدق دون أية كذبة، ولا تورية إلا ما يشاء اللّه ويرضى، وكيف يمكن إلقاء الشهادة ممن لم يتلق الأعمال، فهم- إذا- يلقّون أعمال العباد ويتلقونها يوم الدنيا حتى يشهدوا بها ويلقوها في الاخرى، كما وأنهم شهداء عند اللّه: حضورا عنده وليسوا غيّبا، يشاهدون جلاله وجماله، كبرياءه ومناله، عميان عمن سوى اللّه، لا يرون شيئا إلا وقد يرون اللّه قبله وبعده ومعه وفيه، رؤية علم ومعرفة كأنها عيان: «اعبد ربك كأنك تراه فان لم تكن تراه فإنه يراك».

الجاهدة الإسلامية ضد الكفار والمنافين‏

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ:

فإن المنافق والكافر نار حيثما دار، وإخماد النار واجب المؤمنين الأحرار، ولكي تبقى الحياة سليمة أمينة.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 410

إن جهاد المنافقين والكفار- وهو بذل الجهد في إصلاح الأمر- هو من مخلفات الوقاية للأنفس والأهلين، فالواجب على المؤمنين حماية المحضن الذي تتم فيه الوقاية من النار، فلا تترك العناصر المفسدة تهاجم المسلمين من خارج كما الكفار، ولا من داخل كما المنافقون، مهما اختلف الجهاد الحربي بينهما، دفاعا في المنافقين، وحربا في الكفار، فالكافر يحمل إما على الإسلام الإقرار، أو الجزية أو الحرب، فإلى دار البوار، والمنافق يحمل على الإيمان أو دفع الشر، فان حارب حورب، دون جزية ولا حرب بدائية بغية الإقرار، وفيما إذا طلب أمر الإصلاح للجماعة المسلمة الغلظ عليهما «وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ» بما يدفع شرهم ويخمد نارهم. وقد يكون الغلظ على المنافق أشد منه على الكافر، لأنه عدوّ من داخل، فخطورته أكثر، وكما أن عذابه أحيانا أشد وأوفر: «إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»- «وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ».

و أخيرا مثال واقعي للمؤمنين يطمئنهم في الإيمان، وللكافرين يخيّب آمالهم:

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ: ختام فيه تأنيب رعيب على زوجتي النبي المتظاهرتين عليه‏ «1»، وعلى كل من له صلة النسب أو السبب، أم أية صلة من الصلات بأولياء اللّه، أنها لا تنفعهم ما لم يكونوا متقين.

فامرأة نوح وامرأة لوط مثل للكفار، و «كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ» يعنى بها التحتية في المنزلة، لقيامه عليها، وغلبته على أمرها الرجال قوامون على النساء بما فضل اللّه بعضهم على بعض وكما يقال: فلان الجندي تحت يدي فلان الأمير، إذا كان من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان- شرف الدين النجفي قال روي عن أبي عبد اللّه عليه السلام في الآية: مثل ضربه اللّه‏سبحانه لعائشة وحفصة ان تظاهرة على رسول اللّه صلى الله عليه و آله وأفشتا سره‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 411

شحنة عمله، أو متصرفا على أمره، ثم المرأة- إضافة إلى ذلك- تحت الرجل بحكم اللّه في كل ما تتطلبه الزوجية، ومنها عمل الجنس واتباع أوامر الزوج لصالحها وصالح العائلة وصالح الأمة، وهذه التحتية التكوينية والتشريعية تقتضي تلون المرأة بلون صلاح الزوج كما في نوح ولوط، ولكنهما خانتاهما، رغم كونهما عبدين صالحين، وفي ذكر الوصفين بدل الاكتفاء باشارة الضمير تعظيم لمقام العبودية الصالحة، وأن صلاح الزوج لا ينفع الزوجة، ما لم‏تصلح هي نفسها.

«فَخانَتاهُما» ترى ما هي الخيانة التي ارتكبتاها فارتكبتا فيها هنا وفي الآخرة؟ إن الخيانة خلاف الأمانة، والقدر المفهوم هنا منها الخيانة في أمانات الزوجية، وقد أوحت إلى مثلث منها «تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ» وهي وجوب كونهما تحت زوجيهما في متطلبات الزوجية دون نشوز عنها، حافظتين لأماناتها وأسرارها ومصالحها، وأن تتصبغا بصلاح العبودية، ائتمارا بأمر الوقاية للأهلين «.. وَ أَهْلِيكُمْ ناراً».

ثم إنها خيانة تدخل صاحبها النار، فليست إذا نشوزا في الأمور البيتية العادية فحسب، و إنما التي تحقق جزاء النار من الكفر ومخلفاته، ومنها ثالث ثلاثة: «وَ أَهْلِيكُمْ ناراً» فلم ترضيا إلا التخلف عن الوقاية، ومنها كشف السرّ، وكما يروى في امرأة لوط (أنها كانت تخرج فتصفّر، فإذا سمعوا الصفير جاءوا) «1» يعني قومه، كما وان امرأة نوح كانت تسخر منه مع الساخرين، وتقول إنه لمجنون مع القائلين.

و من الاولى نستطيع أن نحمّلهما كل شي‏ء إلا فاحشة الزنا، وكما يروى عن الرسول‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 376 في علل الشرائع عن أبي عبد اللّه عليه السلام قيل له: كيف كان يعلم قوم لوط انه‏قد جاء لوطا رجال؟ قال: كانت امرأته ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 412

صلّى اللّه عليه وآله وسلّم (ما بغت امرأة نبي قط) «1»، فبهذا الثالوث المنحوس، ولا سيما أقنوم الكفر، استحقتا دخول النار رغم أن زوجيهما نبيّان:

«فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ»: فلا تعني من اللّه إلا تقوى اللّه، دون أواصر القربى مع أولياء اللّه، فقد دخلتا النار (في البرزخ) وستدخلانها يوم القيامة، مع الداخلين، دون ميزة ولا كرامة، إنما مهانتين كسائر المهانين إليها، والقائل مجهول «و قيل» إشارة إلى أن القيل لهما كسائر القيل لسائر الداخلين، بل إن مهانتهما أكثر ممن سواهما لأنهما هتكتا ساحة النبوة ولوّثتا جوّها بإطالة ألسنة الناس على العبدين الصالحين «يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً» (33: 30).

و هكذا يكون دوما دور الكفر والخيانة الكافرة، ان لا يبررها ولا يغني عنها من اللّه شي‏ء، مهما كانت القرابات والأنساب والاتصالات لهم بالصالحين، كضابطة عامة لا تشذ، فالنجسة الأخلاق والنحسة، لا يطهرها بيت النبوّة، إلا قدر ما تأخذ من طهارتها، كما وأن الطاهرة الزكية لا يدنسها بيت الكفر والفرعنة، بل وبالإمكان أن تمثل أهل بيت النبوة:

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور- أخرجه ابن عساكر عن اشرس الخراساني يرفعه إلى النبي صلى الله عليه و آله ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 413

هنا تتقدم امرأة فرعون على مريم أم المسيح، لا لسبق زمني فحسب، بل ولكي يدلنا أن أموته المسيح واخوة هارون وبنوة عمران لا تغني عنها شيئا، وإنما هي تقوى اللّه تغني، فامرأة فرعون متحللة نسبيا وسببيا عن كل ذلك، ولكنها بتقواها في جوّ الطغوى تستحلّ مكانة عليا، لحدّ تقدّمها في الذكر على مريم عليه السلام.

أظنها الإمرأة الوحيدة، في مملكة عريضة، عند أعظم ملوك الأرض وأقواهم وأطغاهم، في قصر عديم النظير، تجد فيه المرأة كل ما تشتهيه، فهي في هذه الأوساط الكافرة، تحت ضغط الملك والحاشية والبلاط، وضغط المجتمع السامّ، في خضمّ هذه الظلمات الطاغية ... إنها وحدها ترفضها كلها وتعتبرها سجنا وشرّا ونحسا تستعيذ باللّه منها.

تطلب من اللّه تعالى أن يبني لها بيد الألوهية بيتا في الجنة يعوضها به عن قصرها، وأن ينجيها من شرّ الطاغية (فرعون) وهي ألصق الناس به! ومن عمله، وهي تعيش تحت رحمته! ومن آله وأتباعه: «وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»! وإنها لنموذج عال في الاستعلاء على عرض الحياة وزهرتها في أجمل صورة وأزهرها، والتجرّد للّه من كافة الجواذب المتخلفة، والهواتف المضللة، والمعوقات القوية، ولتسمح لنفسها أن تطلبه هذا الطلب العظيم:

«رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ»: ف «ربّ» توحي باختصاصها بتربية خاصة إلهية تنجيها عن هذه الورطة المهلكة، و «ابن لي» رفض لكل عامر ملائكي وسواه الى معمار الكون أن يبني لها بيتا بمشيئته دون وسائط، و «عندك» لا تعني عندية مكانية فانه تعالى ليس له مكان، إنما عندية المكانة أن يبني بيتها في أرفع مكان وأعلى مكانة في الجنة حيث مسكن الأنبياء! ثم تطلب النجاة المثلث من: «فرعون» الجاهل «و عمله» الباطل و «من القوم الظالمين» الباطلين الجاهلين.

و متى تطلب؟ هل بعد أن تأخذها الورطة الفرعونية الى حزبه؟ فكيف طلبت أولا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 414

أقرب الأقربين! كلا! إنما تطلب نجاتها بالنزوح عن هذا الجو الطائش الى جوار رحمة اللّه، أن يقبضها اللّه إليه، وقد كانت في اللحظات الأخيرة من حياتها تحت مختلف ألوان العذاب الفرعوني، ومنها انه (و تد لامرأته أربعة أوتاد في يديها ورجليها وأضجعها على صدرها وجعل على صدرها رحى واستقبل بها عين الشمس، فكانوا إذا تفرقوا عنها أظلّتها الملائكة، فرفعت رأسها الى السماء فقالت: «رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ- الى- الظَّالِمِينَ» فكشف لها عن بيتها في الجنة فرأته».

وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا وَ صَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَ كُتُبِهِ وَ كانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ:

رغم أن القرآن لا يذكر امرأة باسمها، يردد ذكر مريم عليه السلام أربع وثلاثين مرة، تكريما لها، وذودا عن كرامتها التي مسّت بتهم اليهود، وتدليلا على أن المسيح عليه السّلام ولد دون أب: «عيسى بن مريم» مما لم تجتمع في غيرها من النساء مهما كانت البعض منهن أفضل منها كفاطمة عليه السلام، فان الأخيرين دافعان مستقلان لذكرها، وليسا من الفضائل الهامة للمرأة، وإنما إبراز معجزة إلهية ودفع تهمة التصقت بها عَبر هذه المعجزة: (حملها دون زوج يعرف).

هذا، ولكن ترى كيف يذكر حفظ الفرج هنا وفي آية اخرى في عداد فضائلها، ويفرّع عليه نفخ الروح فيه، كما هنا، وفيها كما في الاخرى: «وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا» (21: 91) مع أن حفظه لا يختص بها، وأنه من اوّليات واجبات الإيمان؟ ثم ترى، ما هو المنفوخ فيها وفي فرجها؟ وماذا حملت في هذا النفخ؟ أروح المسيح، أم هي مع جسمه، أم نطفة الرجولية مع الروح، أم ماذا؟ ..

فهل إن ذكر إحصان الفرج لدفع تهمة اليهود الفاجرة «وَ قَوْلِهِمْ عَلى‏ مَرْيَمَ بُهْتاناً

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 415

عَظِيماً» (4: 156) (يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ ما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا» (19:

28)؟ ولدفع اختلاق النصارى لها عشيقا خطيبا هو يوسف النجار، لتخفيف وطأة التهمة؟ فهذا وذاك وإن كانا من الدوافع لذكره، ولكن لا يتفرع على إحصان الفرج- هذا- أن ينفخ فيه من روح اللّه!.

أو ولأنها كانت معرّضة للحملة الجنسية، لجمالها، وأنها نذرت لخدمة البيت فكانت فيه ليل نهار، ولكنها غلبت على مختلف النوازع والعراقيل قانتة مجاهدة رافضة للجنس حرامه و حلاله، ولأنه ينافي وحريتها في خدمة البيت، وقد نذرت أمها ما في بطنها محررا:

«فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى‏ ...

وَ إِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ وَ إِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَ ذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ. فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً ..» (3: 37): تقبّلها ربها مريم كما سميت وهي: الغالبة، وتقبّل إعاذتها وذرّيتها من الشيطان الرجيم، فهي إذا غالبة معوّذة من الشيطان عند اللّه، ونابتة نباتا حسنا عند اللّه، ومن غلبتها التغلب على النوازع الجنسية وجواذبها وهي في عنفوانها، و هي بمعرض مختلف الرجال في بيت اللّه ليل نهار، فهذا الإحصان مما يتطلب إحسانا عاليا لها من اللّه المنّان ومن أحسنه أن نفخ في محل الإحصان روحا منه، فقد جمع الى الدافعين الأولين لذكر الإحصان هذا الثالث فاكتمل لها مثلث الإحصان فاختصت بكامل الإحسان أن أصبحت أم السيد المسيح عليه السلام، ثم وعلى حدّ المروي عن الرسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم سوف تكون من أزواجه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم في الجنة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 249- أخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: إن اللّه زوجني في الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى.

أقول: وهذا لا ينافي بقاء بعض أزواجه مثل خديجة في زواجه صلى الله عليه و آله إذ لا تحتاج الى زواج جديد.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 416

ثم وماذا حملت؟ فطالما الآية الاخرى «.. فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا» أجملت عن مدخل الحمل، فآيتنا «فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا» تصريحة ان مدخله الفرج لمكان ذكورة الضمير «ه» فالمرجع إذا «فرجها» لا هي نفسها، ولا جيبها، رغم ما حاوله جمع، فانه كلام فارغ، لأنها أحصنت فرجها، لا جيبها، والروح نفخت في فرجها، لا فرج جيبها! فمن كون الآلة التناسلية النسائية هي المنفخ المدخل هنا لروح من اللّه نتعرف الى كيان هذه الروح وهذا اللقاح، أن ناب لقاح الرجل دون رجل، فلم يكن حملها المسيح بمقاربة كالعادة، بل بالنفخ والإلقاء الإلهيين في فرجها، فان المسيح هو الروح والكلمة الملقاة الى مريم «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى‏ مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ» (4:

17) فالروح نفخت من المجرى التناسلي، مما يدلّ على كونها جسما مّا، وعلّها كانت مع النطفة الرجولية المعبر عنها بالكلمة الملقاة، فبالإلقاء هذا تمكنت النطفة إلى عمق الرحم فتزاوجت مع النطفة الانوثية، فأصبحتا جنينا، ثم انضمت إليها الروح فها هو المسيح عيسى ابن مريم عليه السّلام.

ثم الروح هذه كسائر الأرواح الإنسانية في الجوهر وأنها مخلوقة، وإضافتها الى اللّه «روحنا» تشريفية تشرفها وتفضلها على كثير من الأرواح، وليست جنسية تعني أنها جزء من اللّه او من روحه، وكما الروح المنفوخة في آدم تملك هذه النسبة «فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» (15: 29) مما يفضل روح آدم على غيره، وكذلك المنفوخة في بني آدم كلهم: «ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 417

(32: 9).

فأرواح بني آدم تمتاز عن غيرهم من ذوي الأرواح كما هنا، وأرواح المؤمنين منهم تمتاز على سواهم (58: 22) وأرواح النبيين على سواهم (40: 15) والمسيح على غيره (4: 171) ثم روح خاتم النبيين تمتاز على الأرواح كلها (42: 52)، فالإضافة الى اللّه فيها كلها تشريفية لا تعني أنها بعض من ذات اللّه! وسبحان اللّه!.

و قد نوافيكم بتفصيل هذا الحمل المبارك في طيّات آياتها المفصلة كالسورة المسماة باسم مريم عليه السلام.

ثم الآية تبيّن بعد فضيلة الإحصان، تصديقها بكلمات ربها وكتبه، وأنها كانت من القانتين: المطيعين، وتذكير الضمير في «القانتين» دون «القانتات» تذكير لنا أن القنوت في الرجل يتغلب على ما في النساء عِدة وعُدة، فكان من الأفضل أن تعد في قنوتها من عداد الرجال، رجولة في قنوطها وبطولة في تصديقها.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 418

الكافرون «1»

وَ لَوْ تَرى‏ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (50) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (51). هنا ملائكة العذاب يتوفون الذين كفروا، وهناك ملائكة الرحمة يتوفون الذين آمنوا: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (16: 32).

ثم وملائكة العذاب والرحمة يرأسهم كلهم ملك الموت «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ» (32: 11) ومن فوقهم كلهم هو اللّه، ف «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها» (39: 42).

«فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ. ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَ كَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ» (47: 28).

و هنا ضرب الوجوه استقبال لهم بذوق من عذاب البرزخ، وضرب أدبارهم استدبار بآخر منه، فهم بين الدنيا والبرزخ يدفعون إلى الموت بضرب الأدبار، ويستقبلون فيه بضرب الوجوه، فإنهم أدبروا عن الحياة الأخرى واتجهوا- فقط- إلى الحياة الدنيا، فيقال لهم بعد الضربتين:

«وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ» مما يدل- كما في عشرات من الآيات- على الحياة البرزخية، إذ لا مجال- إذا- ل «ذوقوا» إلّا إذا كان عذاب الحريق حاضرا، و «ذلك» الثالوث من عذاب الوجوه والأدبار وعذاب الحريق «بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ» من مستحق العذاب «وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ».

و هنا «الذين كفروا» كمصداق حاضر، هم المشركون في بدر حيث ضربتهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 419

الملائكة فتوفتهم، وقد يروى أن رجلا قال للنبي (صلّى اللّه عليه وآله وسلم): إني حملت على رجل من المشركين فذهبت لأضرب فندر- سقط- رأسه، فقال (صلّى اللّه عليه وآله وسلم): سبقك إليه الملائكة «1».

و لماذا «لَيْسَ بِظَلَّامٍ» وهو ليس ظالما أبدا؟ علّه لكي يستأصل خرافة الجبر، أم وزيادة العذاب على المستحق فإنه ظلّامية في التعذيب، ولأنه «بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ» فليس بظالم كما ليس بظلام للعبيد.

و ترى «لو ترى» تمنيا لرؤيته (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) ذلك المرئى، أليس يجعل اللّه متمنيا والرسول غائبا عن ذلك المرئى؟ إن غياب الرسول عن ذلك المرئى كسائر الغيّب ليس عليه عيبا حيث الضابطة له «وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ» اللهم إلا ما يظهره عليه ربه، ثم «لو ترى» من اللّه بيان لموقف التمني، أنه مكانه ومجاله أن يرى الرسول إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة دون واقعه من اللّه.

و هكذا يكون دور الذين كفروا في مصيرهم لمسيرهم بما قدمت أيديهم، فهم كما يصفهم:

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (52).

دأبان اثنان: دأبهم أنفسهم في الكفر فإضافة إلى الفاعل، ودأب اللّه في جزاءهم الوفاق فإضافة إلى المفعول.

الدأب هو العادة المتعود عليها والسنة السائرة، وهنا «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ» دأب الذين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 162 عن مجمع البيان روى مجاهد أن رجلا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 420

كفروا ككل في أخذهم بذنوبهم، «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ» وهم فرعون وأتباعه «وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» من فراعنة التاريخ ونماردته «كَفَرُوا بِ‏آياتِ اللَّهِ» آفاقية وأنفسية، تكوينية وتشريعية «فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ» هنا وفي الأخرى، برزخا وأخرى «إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ» في موضع النكال والنقمة كما هو أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة.

وعن إمام المتقين علي أمير المؤمنين عليه السلام: «سبحانك خالقا ومعبودا بحسن بلاءك عند خلقك، خلقت دارا، وجعلت فيها مأدبة: مشربا ومطعما وأزواجا وخدما وقصورا وأنهارا وزروعا وثمارا- ثم أرسلت داعيا يدعوا إليها، فلا الداعي أجابوا، ولا فيما رغّبت إليه رغبوا، ولا إلى ما شوّقت إليه اشتاقوا- أقبلوا على جيفة قد افتضحوا بأكلها، واصطلحوا على حبها، ومن عشق شيئا أعمى بصره، وأمرض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع بأذن غير سميعة، قد خرقت الشهوات عقله، وأماتت الدنيا قلبه، وولّهت عليها نفسه، فهو عبد لها ولما في يده شي‏ء منها، حيثما زال زال إليها، وحيثما أقبلت أقبل عليها، لا ينزجر من اللّه بزاجر، ولا يتعظ منه بواعظ، وهو يرى المأخوذين على الغرّة- حيث لا إقالة لهم ولا رجعة- كيف نزل بهم ما كانوا يجهلون، وجاءتهم من فراق الدنيا ما كانوا يأمنون، وقدموا من الآخرة على ما كانوا يوعدون- فغير موصوف ما نزل بهم، اجتمعت عليهم سكرة الموت وحسرة الفوت، ففرّت لها أطرافهم، وتغيرت لها ألوانهم، ثم ازداد الموت فيهم ولوجا فحيل بين أحدهم وبين منطقه، وإنه لبين أهله، ينظر ببصره ويسمع بأذنه على صحة من عقله وبقاء من لبّه، يفكر فيم أفنى عمره وفيم أذهب دهره، ويتذكر أموالا جمعها، أغمض في مطالبها، وأخذها من مصرّحاتها ومتشابهاتها، قد لزمته تبعات جمعها وأشرف على فراقها، تبقى لمن وراءه ينعمون فيها، فيكون المهنأ لغيره والعب‏ء على ظهره، والمرء قد غلقت رهونه بها، فهو يعض يده ندامة على ما أضعر له عند الموت من‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 421

أمره، ويزهد فيما كان يرغب فيه أيام عمره، ويتمنى أن الذي كان يغبطه بها ويحسده عليها قد حازها دونه، يبالغ في جسده حتى خالط لسانه سمعه، فصار بين أهله لا ينطق بلسانه، ولا يسمع بسمعه، يردد طرفه بالنظر في وجوههم، يرى حركات ألسنتهم ولا يسمع رجع كلامهم، ثم ازداد الموت التياطا، فقبض بصره كما قبض سمعه، وخرجت الروح من جسده فصار جيفة بين أهله، قد أوحشوا من جانبه، وتباعدوا من قربه، لا يسعد باكيا، ولا يجيب داعيا، ثم حملوه إلى محط في الأرض فأسلموه فيه إلى عمله، وانقطعوا عن زورته» (الخطبة 108).

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى‏ قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (53).

«لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَ إِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ» (13: 11).

فحين يغيّر المنعمون ما بأنفسهم وجاه اللّه ووجاه نعم اللّه، تبديلا للنِّعمة نِعمة، فقد يغير اللّه تلك النعمة نقمة، فالنعمة ابتلاء، إذا صرفت في مرضات اللّه ازدادت ونمت، وإذا صرفت عن مرضات اللّه فندت ونفت «أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

ذلك وإن اللّه قضى قضاء حتما ألا ينعم على العبد فيسلبها إياه حتى يحدث العبد ذنبا يستحق بذلك النقمة «1» «و ليس شي‏ء أدعى إلى تغيير نعم الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم فإن الله سميع دعوة المظلومين وهو للظالمين بالمرصاد» «2» ف «إياك والدماء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 163 في أصول الكافي عن أبي عمرو المدايني عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال‏سمعته يقول:

(2). نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 422

وسفكها بغير حلها فإنه ليس شي‏ء أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها».

وليس فقط أن اللّه يغير النعمة نقمة إذا غيروا ما بأنفسهم كفرانا لنعمة، بل ويغير النقمة نعمة إذا غيروا ما بأنفسهم شكرانا لنعمة أم جبرانا لكفران، وأين غيار من غيار، شرّ إلى خير جزاء وفاقا «1».

فقد يملك الإنسان أن يستجلب نعمة اللّه لنفسه أو يستبقيها ويستزيدها إذا هو عرف وشكر، كما يملك أن يزيلها عن نفسه أو ينقصها إذا هو أنكر ويطر، وانحرفت نواياه فانجرفت خطاه.

فهنا نعم أنفسية هي الفطرة والعقلية الإنسانية والحس السليم والقلب السليم كما خلق اللّه، فحين يغيّر هذه النعم الأنفسية إلى عليين فاللّه يغيرها إليه وأعلى مما يعنيه، ويزداده نعما آفاقية تكوينية وتشريعية، وإذا كانت له نعم آفاقية فغيّر ما بنفسه من نعمة ازداده اللّه فيها، ويعاكسه إذا غير ما بنفسه إلى سفل فهو يسفله ويرذله كما فعل، ومن ذلك الختم على القلوب والغشاوة على السمع والأبصار «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ».

و هذه سنة دائبة عادلة في التعامل بين الإنسان ونفسه وربه ونعمه، حيث تنعكس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر عن الكافي عن الجزري قال سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: إن اللّه عزّ وجلّ بعث نبيا من أنبياءه إلى قومه وأوحى إليه أن قل لقومك أنه ليس من أهل قرية ولا ناس كانوا على طاعتي فأصابهم فيها سراء فتحولوا عما أحب إلى ما أكره إلا تحولت لهم عما يحبون إلى ما يكرهون وليس من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على معصيتي فأصابهم فيها ضراء فتحولوا عما أكره إلى ما أحب إلا تحولت لهم عما يكرهون إلى ما يحبون ... وعن الإمام الصادق عليه السلام: «ما دام العبد يعرف نعم الله عنده فإن الله لا ينزع منه نعمة حتى إذا جهل النعمة ولم يشكر الله عليها إذ ذاك حري أن ينزع منه» (مجلة الفرقان العدد الثالث المجلد 61 ص 389)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 423

عليه بكل خير أو شر في الأولى ثم الأخرى «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

و تلك الضابطة الثابتة حقيقة كبيرة حقيقة بالتأمل التام في كافة الحقول الحيوية، جانب عظيم من التصور القرآني لحقيقة الإنسان، يبين تقديره عند العظيم القدير بذلك التدبير العادل الجدير، وكما يبين فاعلية الإنسان بقابليته في مصير نفسه ومصير الأحداث حيث يبدو الإنسان من خلال كل المساير والمصاير عنصرا إيجابيا في صياغة ذلك المصير بإذن اللّه وتقديره وتقريره لكل مسير ومصير من خلال حركته الصالحة والطالحة على ضوء نيته وشاكلته.

فقد تنتفي عنه بذلك تلك السلبية الذليلة المفروضة عليه من المذاهب المادية، حيث تتصوره وتصوره عنصرا سلبيا إزاء الحتميات الجبارة المتخيلة، كحتمية الإقتصاد والتاريخ و التطور وما أشبه من سائر الحتميات المختلقة التي ليس للإنسان إزاءها حول ولا قوة، فلا يملك أمامها إلا الخضوع الطليق كالرقيق، ضائعا خائفا ذليلا ساقطا إلى مهوى سحيق.

و هكذا نتعرف إلى الإنسان أنه هو الذي يصنع التاريخ دون جبر ولا تفويض، وإنما هو أمر بين أمرين أمرّين «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏. وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى‏. ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى‏» «وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ» قالاتهم «عليم» حاجياتهم.

ذلك، ومن أنعم النعم الربانية نعمة القرآن العظيم والذكر الحكيم، فلما غيرنا ما بأنفسنا وجاه القرآن فنبذناه وراءنا ظهريا، سلب عنا التوفيق في دراسته وحراسته فأصبحنا عنه بعيدين بعد الأرض من السماء، لحد خيل إلينا وإلى حوزاتنا بزعمائها وعلماءها أن ليس القرآن كتاب دراسة وتعلم، فقد زين لنا الشيطان أحوالنا وأعمالنا لحد حسبنا كل دراسة حوزوية هي صالحة لتبني الحوزات الإسلامية وإصلاح المسلمين إلا دراسة القرآن.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 424

فلا وخزة أخرى ولا أخذة أقضى من رفع القرآن من بيننا ونحن أمة القرآن، لذلك لا نجد نعمة المعرفة والإيمان بيننا الأقلة قليلة لتلك القلة العليلة أمام القرآن حيث اتخذناه مهجورا بكل مواضعه ومواضيعه اللّهم إلا قراءة بأجرة ودونها على الأموات أم استخارة أم تيمنا وتبركا في الأعراس والبيوت.

و قد تناسب هذه الآية القاصعة قصعة من الخطبة القاصعة تبينا أمينا لقصص من الأمم الماضية: «و احذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلاث بسوء الأفعال وذميم الأعمال، فتذكروا في الخير والشر أحوالهم، واحذروا أن تكونوا أمثالهم، فإذا تفكرتم في تفاوت حاليهم فالزموا كل أمر لزمت العزة به شأنهم، وراحت الأعداد له عنهم، ومدّت العافية فيه عليهم، وانقادت النعمة له معهم، ووصلت الكرامة حبلهم، من الاجتناب للفرقة، واللزوم للألفة، والتحاضّ عليها، والتواصي بها، واجتنبوا كل أمر كسر فقرتهم، وأوهن منّتهم، من تضاغن القلوب، وتشاحن الصدور، وتدابر النفوس، وتخاذل الأيدي- وتدبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلك كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء، ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباء، وأجهد العباد بلاء، وأضيق أهل الدنيا حالا، اتخذتهم الفراعنة عبيدا فساموهم سوء العذاب، وجرّعوهم المرار، فلم تبرح الحال بهم في ذل الهلكة، وقهر الغلبة، لا يجدون حيلة في امتناع، ولا سبيلا إلى دفاع، حتى إذا رأى اللّه سبحانه جدّ الصبر منهم على الأذى في محبته، والاحتمال للمكروه من خوفه، جعل لهم من مضايق البلاء فرجا، فأبدلهم العز مكان الذل، والأمن مكان الخوف، فصاروا ملوكا حكاما، وأئمة أعلاما، وقد بلغت الكرامة من اللّه لهم، ما لم تذهب الآمال إليه بهم، فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعة، والأهواء مؤتلفة، والقلوب معتدلة، والأيدي مترادفة، والسيوف متناصرة، والبصائر نافذة، والعزائم واحدة،- ألم يكونوا أربابا في أقطار

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 425

الأرضين، وملوكا على رقاب العالمين؟

فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهم حين وقعت الفرقة، وتشتت الألفة، واختلفت الكلمة والأفئدة، وتشعبوا مختلفين، وتفرقوا متحاربين، قد خلع اللّه عنهم لباس كرامته، وسلبهم غضارة نعمته، وبقي قصص أخبارهم فيكم عبرة للمعتبرين منكم- فاعتبروا بحال ولد إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل، فما أشد اعتدال الأحوال، وأقرب اشتباه الأمثال، تأملوا أمرهم في حال تشتتهم وتفرقهم، ليالي كانت الأكاسرة والقياصرة أربابا لهم، يختارونهم عن ريف الآفاق، وبحر العراق، وخضرة الدنيا إلى منابت السيح، ومهافي الريح.

و نكد المعاش، فتركوهم عالة مساكين، إخوان دبر ووبر، أذل الأمم دارا، وأجدبهم قرارا، لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها، ولا إلى ظل ألفة يعتمدون على غرها، فالأحوال مضطربة، والأيدي مختلفة، والكثرة متفرقة، في بلاء أزل، وأطباق جهل، من بنات موءودة، وأصنام معبودة، وأرحام مقطوعة، وغارات مشنونة- فانظروا إلى مواقع نعم اللّه عليهم حين بعث إليهم رسولا، فعقد بملته طاعتهم، وجمع على دعوته ألفتهم، كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها، وأسالت جداول نعيمها، والتفّت الملة بهم في عوائد بركتها، فأصبحوا في نعمتها غرقين، وفي خضرة عيشها فكهين، قد تربعت الأمور بهم في ظل سلطان قاهر، وآوتهم الحال إلى كنف عز غالب، وتعطفت الأمور عليهم في ذرى ملك ثابت، فهم حكام على العالمين، وملوك في أطراف الأرضين، يملكون الأمور على من كان يملكها عليهم، ويمضون الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم، لا تغمز لهم قناة، ولا تقرع لهم صفاة- ألا وإنكم قد نفضتم أيديكم من حبل الطاعة، وثلمتم حصن اللّه المضروب عليكم بأحكام الجاهلية، وان اللّه سبحانه قد أمتن على جماعة هذه الأمة فيما عقد بينهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 426

من حبل هذه الألفة التي ينتقلون في ظلها، ويأوون إلى كنفها، بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة، لأنها أرجح من كل ثمن، وأجل من كل خطر- واعلموا أنكم صرتم بعد الهجرة أعرابا، و بعد الموالاة أحزابا، ما تتعلقون بالإسلام إلا باسمه، ولا تعرفون من الإيمان إلا رسمه، تقولون:

النار ولا العار، كأنكم تريدون أن تكفئوا الإسلام على وجهه، انتهاكا لحريمه، ونقضا لميثاقه الذي وضعه اللّه لكم حرما في أرضه، وأمنا بين خلقه، وإنكم إن لجأتم إلى غيره حاربكم أهل الكفر، ثم لا جبرائيل ولا ميكائيل ولا مهاجرون ولا أنصار ينصرونكم، إلا المقارعة بالسيف حتى يحكم اللّه بينكم- وإن عندكم الأمثال من بأس اللّه وقوارعه، وأيامه ووقائعه، فلا تستبطئوا وعيده جهلا بأخذه، وتهاونا ببطشه، ويأسا من بأسه، فإن اللّه سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم إلا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلعن اللّه السفهاء لركوب المعاصي، والحلماء لترك المناهي- ألا وقد قطعتم قيد الإسلام، وعطلتم حدوده، وأمّتم أحكامه».

«و أيم الله ما كان قوم قط في غض نعمة من عيش فزال عنهم إلا بذنوب اجترحوها، لأن الله ليس بظلام للعبيد، ولو أن الناس حين تنزل بهم النقم، وتزول عنهم النعم، فزعوا إلى ربهم بصدق من نياتهم، ووله من قلوبهم، لرد عليهم كل شارد، وأصلح لهم كل فاسد» (176)- و «إن لله عبادا يختصهم بالنعم لمنافع العباد فيقرها في أيديهم ما بذلوها، فإذا منعوها نزعها منهم ثم حولها إلى غيرهم» (425 ح).

و من ختام المسك هنا قوله (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) لبعض نساءه: «أحسني‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 427

جوار نعم الله فإنها قل ما نفرت عن قوم فكادت ترجع إليهم» «1».

أجل، والنعم المتفاضلة على الإنسان بمنزلة الضيف النازل والجار المجاور الذي يحب أن يعد قراه، ويكرم مثواه، وتصفى مشاربه، وتؤمن مساربه، فإن أخيف سربه ورنق شربه وضيعت قواصيه واعتميت مقاربه كان خليقا بأن ينتقل وجديرا بأن يستبدل- فكذلك النعم إذا لم يجعل الشكر قرى نازلها، والحمد مهاد منزلها، كانت وشيكة بالانتقال، وخليقة بالزيال.

ذلك، وفي خبر آخر عنه (صلّى اللّه عليه وآله وسلم): «أحسنوا جوار نعم الله فإنها وحشية» «2»،

و هنا يشبّه النعم بأوابد الوحش التي تقيم مع الإيناس، وتنفر مع الإيحاس، ويصعب رجوع شاردها إذا شرد، ودنوّ ناخرها إذا بعد.

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلٌّ كانُوا ظالِمِينَ (54).

ترى كيف يتكرر «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ» بفاصل آية واحدة والمضمون نفس المضمون باختلاف يسير في تلحيقة التعبير؟ من مبررات ذلك التكرار اختلاف الموقفين كما تتكرر آية واحدة في «الرحمن» لمختلف المواقف، ف «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ» في الأولى تنظير لهم ب «الذين كفروا» و «ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ» حيث «فَأَغْرَقْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِيعاً» (17:

103) و في الثانية ب «إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ» مع اختلاف يسير في التعبير قضية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي‏

(2). المصدر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 428

اختلاف في الموقف يسير.

ففي الأولى «كَفَرُوا بِ‏آياتِ اللَّهِ» قضية أصل الألوهية، وفي الثانية، «كَذَّبُوا بِ‏آياتِ رَبِّهِمْ» قضية ما غيروا بأنفسهم وجاه النعم الربانية، ثم العذاب في الأولى: «فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ» قضية نفس الألوهية، وفي الثانية: «فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ» قضية ربوبيات منه إليهم في نعمه، اقتضت إهلاكهم، بصيغة المتكلم مع الغير حيث تعني جمعية صفات الجلال المقتضية لجمعية الإهلاك، ثم في الأولى «إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ» بنفس القضية، عقابا شاملا للذين من قبلهم آل فرعون، وفي الثانية «وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ» تصريحا بنوعية العقاب لخصوص آل فرعون.

و أخيرا هنا «وَ كُلٌّ كانُوا ظالِمِينَ» هؤلاء الذين كفروا بهذه الرسالة، وآل فرعون والذين من قبلهم.

فهذه الثانية تأكيدة مع تفصيلة للأولى مع اختلاف الموقع وهامة الموضوع حيث يقتضي بنفسه التكرار فضلا عما بيناه وما أشبه من مبررات التكرار.

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (55).

و ترى كيف تتفرع «لا يؤمنون» على «كفروا» وهما سيان في عناية عدم الإيمان؟

«كفروا» تعني: ستروا، كما ستروا الحق عن أنفسهم وكما يقول «أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ» (11: 68) فقد يعني «كفروا» الطليقة- هنا عن أي‏متعلّق- ثالوث الكفر، إذ:

كفروا أنفسهم عن درك الحق، وكفروا الحق عن أن يدرك، وكفروا باللّه.

ذلك، وقد تترجم هذه الآية آية أخرى هي: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ» (8: 22) إذا فقد «كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» حيث السد لمنافذ الإيمان صد عن الإيمان فهم بطبيعة الحال «لا يؤمنون» بما ختموا على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة فختم اللّه عليها.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 429

و هنا يعرف أن القصد من الكفر هو الكفر المطلق دون مطلقه، فقد يؤمن الكافر إذا لم يتعرق الكفر في نفسه، فالكافر المتحير غير المعاند للحق- فضلا عن متحريه- قد يؤمن حين تصله دلائله، ولكن المعاند المتعمد المتجرئ على الحق لا يرجى خيره، فالواجب إزالته حفاظا على كرامة الإيمان عن أن ينصدم بضلاله وإضلاله لمكان الفتنة التي هي أكبر وأشد من القتل.

الكافرون «2»

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ (18).

«لا يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ» سلبان اثنان لأمرين هما لزام العبودية لأقل تقدير أن يعبد معبود مخافة ضره أو مجلبة نفعه نتيجة عبادته، فهم يعبدون ميتات لا حول لها ولا قوة لأنفسها فضلا عن عابديها: «لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ» (36:

75) (وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ» الأصنام «شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ»: «وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى‏» (39: 3).

«قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ» حيث يندد على مرّ التاريخ بما يسمونه له شركاء، فهلّا يعلم ما علموه وعرفوه من شركاء ما لا بد وأن يعلمها فيتخذها لنفسه شركاء «سُبْحانَهُ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

و لقد كان المشركون يوجهون عبادتهم لهذه الأصنام انها تمثل المقربين عند اللّه، وهم يمثلون اللّه، فلأننا أنزل وأنذل من أن نعبد ربنا دون وسيط لعلو ساحته وسمو سماحته‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 430

فلنوسط بيننا وبينه من يحبه، ولأن هؤلاء الأكارم بين أموات ومن لا تصل إليهم أيدينا فلنوسّط هذه الأصنام التي هي أمثال لهم ولنعبدها لتشفع لنا عند اللّه، «ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ».

يقال لهم: يا أغبياء، ليست العبادة بالمواجهة، ثم اللّه هو الذي يأمركم بعبادته دون من دونه، وإن الشفاعة عنده ليست إلّا باذنه، وكيف يعبد الشفيع الميت ولا يعبد المشفّع عنده وهو رب كل شي‏ء.

فما أسفههم وأسخفهم فيما يقولون، فجدير بهم ذلك الخطاب الساخر المستنكر «أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ ..». أن هذه العبادة المنحرفة الحمقاء تدل على أنهم يعلمون ما لا يعلمه اللّه.

و لقد تشابهت قلوب هؤلاء الحماقي الأنكاد، قلوبا من المدعين أنهم أتباع شرعة القرآن، و هم يشتغلون بكافة الكتب الدراسية في حوزاتهم إلّا القرآن قائلين غائلين: إن كلام اللّه أرقى وأعلى من أن نفهمه نحن، و «من فسر القرآن برأيه» يمنعنا عن التفكير في القرآن، وأن القرآن ظني الدلالة لا يفهم إلّا بدلالة الحديث، وهل إن ظواهر القرآن حجة، وما أشبه من هذه الدعايات الزور والغرور ضد القرآن بنقاب الحفاظ على كرامة القرآن.

و من قولهم: إن هذه الدروس الحوزوية تشفعنا للوصول إلى معاني القرآن، ولا تمت بصلة للتعرف إلى معارف القرآن! بل هي تبعّدهم عنها، ثم وأنّى يصلون إلى القرآن بهذه المقدمات المدّعاة وهي تشغل كل أعمارهم حتى الموت!.

أجل- أولئك يقولون «هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ- ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى‏» وهؤلاء يقولون: هذه الدروس تشفعنا لتفهم القرآن، ونحن لا نليق أن ندخل بلدة القرآن دونها ودون الأحاديث التي تفسره!.

رغم أن القرآن هو أبين تفسير لنفسه وأفضل بيان، والكاتمون لكون القرآن بيانا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 431

وتبيانا هم من الملعونين في القرآن: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الْهُدى‏ مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ» (2: 159) فسواء أ كانوا يكتمون القرآن عن بكرته، أم يكتمون كون القرآن بيانا للناس.

وَ ما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19).

«كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيَما اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (2: 213) آية البقرة هذه المدنية تفسر آيتنا هذه المكية، وهذه طبيعة الحال في التفصيل المتأخر بعد إجمال، ولقد فصلنا القول حول كون الناس أمة واحدة و اختلافهم بعد الوحدة على ضوء آية البقرة فلا نعيد هنا إلا إجمالا كما أجمل في نفس الآية.

«كان» قد تعني الكينونة الطبيعية الإنسانية دون نظرة إلى سابق زمان، فقد كانوا- وهم بعد كائنون- أمة واحدة في قضايا الفطرة، فأمة واحدة- قبل هدى الوحي- ضلّالا عما يأتي به الوحي من تفصيل «فاختلفوا» بعد الوحي إلى مصدقين ومكذبين.

و أخرى تعني الكينونة السابقة الزمنية حتى نزل فيهم الوحي فاختلفوا إلى هذين، وعلى أية حال فذلك الإختلاف المقصر عن الوحي وفيه، ولا سيما «بَغْياً بَيْنَهُمْ» كان مما يحق به العذاب: «وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ» وهي كلمة الإمهال- دون إهمال- إلى أجل مسمى «لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» قضاء واقعيا فيه الجزاء الحق فانقضاء أهل الباطل وبقاء أهل الحق، فلقد قضى اللّه دون جزاء بين كل هؤلاء المختلفين في كتابات‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 432

وحيه، ف «لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ» تعني قضاء غير ذلك القضاء الذي هو قضية أصيلة للوحي الرسالي.

وَ يَقُولُونَ لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (20).

هنا القصد من «آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» بين آيات محسوسة كما كانت لرسل اللّه من قبل: «وَ إِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى‏ مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ ..» (6: 124) وبين آيات مقترحة، غضا للنظر عن هذا القرآن الذي هو أفضل وأبقى من كل آية.

و الجواب هنا «فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ» لا أملك منه شيئا من اللّه «فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ» وفي أخرى «قُلْ إِنَّمَا الآْياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ» (29: 50) فآيات الغيب هي- فقط- للّه وعند اللّه، فلا فارق بيننا في ذلك الانتظار إذ ليس الآية الغيب مني ولا أملكه من ربي حتى إذا استنزلها ينزّلها علي، فإن «لَوْ لا أُنْزِلَ» واردة مورد النقد على رسالته، كأنه قادر على أن ينزل آية من ربه، و «الغيب» المحصور في اللّه هنا هو الآية الرسالية وكما في أخرى «إِنَّمَا الآْياتُ عِنْدَ اللَّهِ» بكل مراحل العندية، علمية وقيومية، وإنزالا في أصلها وكمها وكيفها، فلا مدخل لي في الآيات الربانية، وقد فصلنا القول على ضوء آيات أن الآيات الرسالية محصورة بكل أبعادها في اللّه، هنا ينفض الرسول صلى الله عليه و آله- على محتده العظيم الرسالي القمة- ينفض يديه عن كافة اختصاصات الربوبية تخويلا وتوكيلا وخلافة ووزارة أماهيه من ممثلات الربوبية، مصرحا أنني وإياكم على سواء أمام الآية الربانية علما وقدرة «فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ».

وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 433

مَكْراً إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ (21).

«الناس» هم الناس حيث أكثرهم النسناس، فالنسيان يغمرهم في رحمة اللّه بعد ما تعمرهم ف «إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا» تحويلا لها عن ووجهها المتجه إلى اللّه إلى غير وجهها، استقلالا لها أم استغلالا إياها، منقطعة الرباط عن اللّه سبحانه وتعالى عما يشركون.

و هنا «قل» لهم أولاء الماكرين الحاكرين آيات اللّه، الناكرين دلالاتها «اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً» استدراجا لهم من حيث لا يعلمون وإملاء لهم بكيد متين ومنه «إِنَّ رُسُلَنا» البشرية و الملائكية والكونية والجوارحية «يكتبون» تسجيلا للأفعال والأصوات والنيات كلا على حسبه «ما تَمْكُرُونَ». إن كل واجهة أمام آيات اللّه، إلا ما يتجه به إلى اللّه، إنها «مَكْرٌ فِي آياتِنا» تكذيبا لها قوليا أو عمليا، أم غضا للنظر عنها دون تصديق ولا تكذيب أما ذا من غير واجهة الإعتبار والإستبصار.

و «آياتنا» هنا تعم مع سائر آيات اللّه، الآيات الرسولية والرسالية وفي قمتها القرآن العظيم، فبعد ضراء طويل وبيل مستهم من الجاهلية الجهلاء زمن الفترة الرسولية، إذا أذقناهم رحمة عالية غالية قرآنية هي كل رحمات اللّه الروحية الخالدة إلى يوم الدين «إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا» خوضا فيها وتكذيبا واستهزاء بها وفرية عليها أنها من أساطير الأولين و ما أشبه من افتراءات زور وغرور يدسها إليهم الغرور «قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً» حيث يأخذهم من حيث لا يعلمون و «إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ» فلا يفلتون عنا ولا نلفت عنهم ف «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ» و «هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (45: 29).

ذلك ومن مكرهم «فِي آياتِنا» أن أصابت أهل مكة ضراء القحط سبع سنين ثم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 434

أذاقهم رحمة الأمطار النافعة فنسبوها إلى أصنامهم ناسبين الضراء إلى اللّه، معاكسة ظالمة ما أظلمها في تلك الفرية القاحلة.

فما ذا يصنع اللّه بهؤلاء الحماقى البعاد الأنكاد الذين دأبهم الدائب هو المكر «فِي آياتِ اللَّهِ» وكيف يستجيبهم في تطلب آيات يقترحونها على الرسول صلى الله عليه و آله؟!.

و ترى ما هو الفارق بين الرحمة المذاقة والضراء الماسة؟ علّه أن الذوق أكثر من المس مسا والمس أقل من الذوق ذوقا، تلميحا لسبق رحمته غضبه، فما تذاق من رحمة هو أكثر بكثير مما يمس من ضراء.

ذلك، وطالما يتطلبون منه آيات رسولية حسية نزلت على رسل اللّه من قبل، وقد نزلت على هذا الرسول آية خالدة على مدار الزمن تناسب رسالته الخالدة، وبضمنها لمحات من آيات حسية كشق القمر وما أشبه.

و لقد فصلنا البحث حول انشقاق القمر في سورته وفي الهامش تأييد

تاريخية ننقلها عن بعض الأعلام المعاصرين‏ «1».

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى‏ أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هو المرجع الديني سماحة الحجة السيد شهاب الدين المرعشي النجفي دام ظله، قال لي: «رأيت في مجلة مصرية» المقطّم- أو- الهلال» أنه اكتشف في الصين قبل زهاء ستين سنة سرداب فيه رأس استوانة حجرية عثر عليه تحت تراب الأنقاض، مكتوبا عليه باللغة الصينية أنه «تمت هذه البناية في السنة التي انشق فيها القمر». وقد بعث الجامع الأزهر في القاهرة مبعوثين إلى الصين ليأخذوا صورة فوتوغرافية من هذه الأسطوانة، طبعت في هذه المجلة وقتذاك‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 435

إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (23).

البرّ هنا يشمل باطنه إلى ظاهره وإلى الجو حيث يقابل البحر، كما البحر يشمل تحته وعمقه، والجو أيضا يشمل كل آماده من فضاء الأوكسجين إلى ما فوقه الخالي عنه، فاللّه هو الذي يسيرنا فيها كلها بوسيط ودون وسيط، وسائط كانت زمن النزول أم تكونت وستتكون بعده إلى يوم القيامة، حيث الوسائل كلها من اللّه، سواء أكانت ظاهرة أم مكتشفة مخترعة، فالمخترع بتفكيره ومحاولاته وأسبابه التي يتذرع بها، والمخترع، كلاهما من اللّه خلقا وتقديرا وتيسيرا وتسييرا.

ف «هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ» على أية حال «حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ» سواء أكانت في الملاحة البحرية، أم الجوية بالطائرات والصواريخ «و جرين» تلك الفلك «بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ» تسيّرها دون شماس وبكل احتراس «وَ فَرِحُوا بِها» مرحين حيث الرخاء الآمن والسرور الشامل فإذا تقع المفاجأة: «جاءتها» الفلك «رِيحٌ عاصِفٌ» عصفها شذر مذر ويا للهول، «وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ» وتناوحت الفلك واضطربت عمن فيها ولا طمها الموج وحطها وشالها ودار بها كالريشة الضائعة في الخضم، وأهلها الهائلين في فزع «ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ» بعاصف الريح و محلق الموج، عند ذلك وقد انقطعت ظاهرة الأسباب وحارت دونه الألباب برزت فطرهم المحجوبة المغيبة ظاهرة متبلورة متعرية عما ألمّ بها من أوشاب وتنفضّ قلوبهم ما ران عليها من تصورات وتنبذ الفطرة الأصلية السليمة بالتوحيد الخالص عن الإشراك الكالس الفالس، ف «دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» قائلين «لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ» الورطة الهالكة الحالكة «لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ» لأنعم اللّه، غير ماكرين بآيات اللّه.

«فَلَمَّا أَنْجاهُمْ» بخارقة غير مترقبة فهدأت العاصفة وطمأن الموج وهدأت الأنفاس‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 436

اللاهثة و سكنت القلوب الطائرة الحائرة، ووصلت الفلك إلى الشاطئ آمنة واستقرت أرجلهم على اليابسة «إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ» متناسين العدل والحق، غافلين «إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى‏ أَنْفُسِكُمْ» فمهما بغيتم على غيركم فهم مظلومون فسيرحمون، فقد بقي بغيكم على أنفسكم لزاما وحزاما عن رحمة اللّه عليكم في الدارين، وليست فاعلية ذلك البغي مهما طال إلّا «مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا» جذوة من خطوة متخيلة «ثم» بعدها «إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ» إنباء علميا، وعينيا بمشاهدة أعمالكم، وواقعيا بتحولها عقوبات «بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

و هذه طبيعة الإنسان الجهول الغفول انه ينسى ربه عند الراحة والرحمة، ثم يذكره عند العاهة والزحمة، وريثما ينجيه اللّه عنها فإذا هو يبغي في الأرض بغير الحق و «مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى‏ ضُرٍّ مَسَّهُ» (10: 12) وهذه الآيات هي من آيات حكم الفطرة المتكشفة إلى الحق المبين، دليلا صارما على اللّه‏ «1». والبغي متعديا بنفسه هو الطلب، والبغي «على» هو الطلب الظالم، ف «بِغَيْرِ الْحَقِّ» تأكيد بأنه غير الحق كما في «يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ» أم وتقييد له بالمتعدي ب «على».

أجل «إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى‏ أَنْفُسِكُمْ» لزاما، حيث المبغي عليه ينجو منه حين يرجعون إلى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). وفيه عن تفسير القمي قال أمير المؤمنين عليه السلام في كتابه الذي كتب إلى شيعته ويذكر فيه‏خروج عائشة إلى البصرة وعظم خطاء طلحة والزبير فقال: وأي خطيئة أعظم مما أتيا، أخرجا زوجه رسول اللّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) من بيتها وكشفا عنها حجابا ستره اللّه عليها وصانا حلائلهما في بيوتهما، ما أنصفا للّه ولا لرسوله من أنفسهماثلاث خصال مرجعها على الناس في كتاب اللّه: البغي والمكر والنكث قال اللّه: «يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى‏ أَنْفُسِكُمْ» وقال: ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وقال: ولا يحيق المكر السي‏ء إلا بأهله، وقد بغيا علينا ونكثا ومكرا بي‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 437

اللّه و في هذه الدنيا، ولكنا الباغي باق على نفسه بغيه، لا يدعه حتى يقتص منه وكما يروى «ثلاث يرجعن على صاحبهن: النكث والبغي والمكر ..» «1» وقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: ثلاث هن رواجع على أهلها المكر والنكث والبغي، ثم تلا رسول اللّه صلى الله عليه و آله آيات ثلاث تالية «2».

ذلك وقد يلمح «إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى‏ أَنْفُسِكُمْ» طليقة ولمكان «على» أنه «لا يؤخر اللّه عقوبة البغي» «3»

، وانه مشهد شامل كامل آهل بالشهود إذ لم تفتأ منه حركة ولا خالجة، إنه مشهد نفسية الإنسان مع الحوادث الكوارث، مكرورا على مدار الزمن، فهل من منتبه؟.

و ترى «بغيكم»- فقط- على غيركم هو «عَلى‏ أَنْفُسِكُمْ»؟

و «بغيكم» كما «يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ» طليق، بل وبأحرى البغي على النفس أن يكون عليها من البغي على غيرها.

فسواء أكان بغيا على النفس خاصة أم على خاصة النفس وعامتها من سائر الأنفس،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 298 في تفسير العياشي عن أبي عبد اللّه عليه السلام: ثلاث ...

قال اللّه: «يا أَيُّهَا النَّاسُ ..»

(2). الدر المنثور 3: 303 عن أنس قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

(3). الدر المنثور 3: 303- أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: لا يؤخر اللّه ... فإن اللّه قال: «إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى‏ أَنْفُسِكُمْ» وفيه أخرج البيهقي في الشعب عن أبي بكر قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: ما من ذنب أجدر من أن يعجل اللّه لصاحبه العقوبة من البغي وقطيعة الرحم، وفيه عنه صلى الله عليه و آله: لو بغى جبل على جبل لدكّ الباغي منهما، وفيه أخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي جعفر محمد بن علي عليهما السلام قال: ما من عبادة أفضل من أن يسأل، وما يدفع القضاء إلا الدعاء وان أسرع الخير ثوابا البر وأسرع الشر عقوبة البغي وكفى بالمرء عيبا أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه وأن يأمر الناس بما لا يستطيع التحول عنه و أن يؤذي جليسه بما لا يعنيه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 438

بإيرادها موارد التهلكة، والزجّ بها في ركب الندامة الخاسر بالعصيان والطغيان، أم كان بغيا على سائر الناس غير المستحقين لبغي حيث الناس نفس واحدة كما انتشأت من نفس واحدة.

و قد يكون البغي في ثالوثه- حيث الثالث انعكاس البغي على النفس على سواها من أنفس- قد يكون معنيا من «بغيكم» حيث الباغي على نفسه يفسد عضوا من الأنفس وهي واحدة فتنضرب سائر الأنفس بها، كما ويقتدى بهذه النفس الباغية فتبغي تبعا لها غيرها.

و طالما «بَغْيُكُمْ عَلى‏ أَنْفُسِكُمْ» تشمل ذلك الثالوث، إلّا أن أضلاعه دركات، كما أن كل ضلع منها أيضا دركات، فهو على أنفسكم دركات حسب الدركات ولا تظلمون فتيلا.

فأين البغي على توحيد اللّه ورسالاته وشرائعه من البغي على أنفسكم في سائره وعلى عباد اللّه، فكلما كان المبغي عليه أعظم محتدا ومكانة، وأوسع رحمة، كان البغي عليه أعظم، فالجزاء- إذا- أعزم وألزم.

و الناس حين يبغون في هذه الدنيا يذوقون من خلفيته هنا قبل أن يجزوا جزاءهم الأوفى.

إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآْياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24).

«اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَ

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 439

الْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَ فِي الآْخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٌ وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ» (57:

20).

«أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها»: لبست زينتها بألوان الأزهار وأصابيغ الرياض، كما يقال:

أخذت المرأة قناعها وسائر زينتها.

هنا «ماء وغيث» مثل لأصل الحياة الإنسانية وما أشبه لعامة المكلفين، النازلة من سماء المشية الربانية إلى أرض الحياة الدنيا الدنية «فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ ..» خلطا للروح بالبدن في أرضه فإنه نبات من الأرض: «وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً» (71:

17) (حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ» البدن بحاجياتها «زخرفها» على ضوء الروح الحياة «و ازّينت» بها «وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها» غير مغادرين عنها «أَتاها أَمْرُنا» بتدميرها بعد تعميرها «لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً» يحصد «كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ» إقامة طائلة في الحياة الأرضية بالأمس القريب «كذلك» البعيد المحتد والمدى، القريب الهدى «نُفَصِّلُ الآْياتِ» المذكرات «لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» في هذه الحياة.

تلك هي الحياة الدنيا الزهيدة الدنية «فازهدوا فيما زهدكم اللّه عزّ وجلّ فيه من عاجل الدنيا» «1» «فاجعلوا عباد اللّه اجتهادكم في هذه التزود من يومها القصير ليوم الآخرة الطويل، فإنها دار عمل والآخرة دار القرار والجزاء فتجافوا عنها، فإن المغتر من اغتر بها، لن تعدوا الدنيا إذا تناهت إليه أمنية أهل الرغبة فيها المحبين لها، المفتونين بها أن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 298 في روضة الكافي كلام لعلي بن الحسين عليهما السلام في الوعظ والزهد في الدنيايقول فيه: فازهدوا .. فإن اللّه عزّ وجلّ يقول وقوله الحق: إنما مثل الحياة الدنيا ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 440

تكون كما قال اللّه: كماء أنزلناه من السماء ..» «1».

فها هو الماء- الروح- ينزل من سماء الرحمة إلى دار الضيق والظلمة والزحمة، فنبات البدن يمتصه ويختلط به فيمرع ويزدهر في الظاهر، وها هي ذي الأرض البدن كأنها عروس مجلوة متزينة لعريس ومتبرجة، ويظن أهلها أنها ازدهرت وبهرت وبما حاولوا تزينت فلا تتغير فإذا «أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً ..»! فهذه هي الدنيا بحذافيرها خاطفة غير عاطفة إلا جارفة خارفة، إلا لمن تزود منها للآخرة، ولذلك نسمع الرسول صلى الله عليه و آله يقول: «إنما أخشى عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من بركات الأرض» «2» و «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» «3» و «من كانت الدنيا همه فرق اللّه عليه أمره» «4» و «كن في الدنيا كأنك غريب» «5» و «إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظلّ تحت شجرة ثم راح» «6».

«ألا وإن الدنيا قد تصرمت، وأذنت بالقضاء، وتنكر معروفها، وأدبر حذّاء، فهي تحفز بالغناء سكّانها، وتحدوا بالموت جيرانها، وقد أمرّ منها ما كان صلوا، وكدر منها ما كان صفوا، فلم يبق منها إلا سملة كسملة الأداوة، أو جرعة كجرعة المقلة، لو تمزّزها الصّديان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام وفيها: فاجعلوا عباد اللّه ... كما قال اللّه عزّ وجلّ: ..

(2). المصدر نقلا عن مس- ك 53 ح 1، تر- ك 34 ب 16، مج- ك 37 ب 3 قا، حم- ثان ص 197 و 323 و 389 و 485

(3). المصدر- تر- ك 34 ب 18- 20، مج- ك 37 ب 2،

(4). مجلة العرفان العدد الثالث المجلد 61 ص 391 عن الإمام الصادق عليه السلام‏

(5). المصدر نقلا عن بخ- ك 81 ب 3، تر- ك 34 ب 25، حم- ثان ص 24 و 41 و 132

(6). المصدر نقلا عن تر- ك 34 ب 44، حم- أول ص 301 و 391 و 441، ط- ح 277

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 441

لم ينفع، فأزمعوا عباد اللّه الرحيل عن هذه الدار المقدور على أهلها الزوال، ولا يغلبنكم فيها الأمل، ولا يطولن عليكم فيها الأمد، فواللّه لو حننتم حنين الولّه العجال، ودعوتم بهديل الحمام، وجأرتم جؤار متبتل الرّهبان، وخرجتم إلى اللّه من الأموال والأولاد، التماس القربة إليه في ارتفاع درجة عنده- أو غفران سيئة أحصتها كتبه، وحفظها رسله، لكان قليلا فيما أرجو لكم من ثوابه، وأخاف عليكم من عقابه، واللّه لو انماثت قلوبكم إيمانا، وسالت عيونكم- من رغبة إليه أو رهبة منه- دما، ثم عمّرتم في الدنيا ما الدنيا باقية، ما جرت أعمالكم، ولو لم تبقوا شيئا من جهدكم أنعمه عليكم العظام، وهداه إياكم للإيمان» (الخطبة 52).

«أما بعد فإني أحذّركم الدنيا، فإنها حلوة خضرة، حفّت بالشهوات، وتحببت بالعاجلة، و راقت بالقليل، وتحلّت بالآمال، وتزينت بالغرور، لا تدوم حبرتها، ولا تؤمن فجعتها، غرّارة ضرّارة. حائلة زائلة، نافدة بائدة، أكّالة غوّالة، لا تعدو إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها، والرضا بها أن تكون كما قال اللّه تعالى: «كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَ كانَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ مُقْتَدِراً»- لم يكن امرؤ منها في حبرة إلا أعقبته بعدها غيره، ولم يلق من سرّائها بطنا إلّا منحته من ضرائها ظهرا، ولم تطلّه فيها ديمة رخاء إلا هتنت عليه مزنة بلاء، وحري إذا أصبحت له منتصرة أن تمسي له متنكرة، وإن جانب منها اعذوذب واحلولى امرّ منها جانب فأوبى، لا ينال امرء من غضارتها رغبا إلا أرهقته من ثوابها تعبا، ولا يمسي منها في جناح أمن إلّا أصبح قوادم خوف، غرّارة غرور ما فيها، فانية فان من عليها، لا خير في شي‏ء من أزوادها إلّا التقوى، من أقل منها استكثر مما يؤمنه، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه وزال عما قليل عنه، كم من واثق بها قد فجعته، وذي طمأنينة قد صرعته، وذي أبّهة قد جعلته حقيرا، وذي نخوة قد ردته ذليلا، سلطانها دول، وعيشها رنق، وعذبها أجاج،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 442

وحلوها صبر، وغذاءها سمام، وأسبابها رمام، حيّها بعرض موت، وصحيحها بعرض سقم، ملكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وموفورها منكوب، وجارها محروب- ألستم في مساكن من كان قبلكم أطول أعمارا، وأبقى آثارا، وأبعد آمالا، وأعدّ عديدا، وأكثف جنودا، تعبدوا للدنيا أي‏تعبد، وآثروها أي‏إيثار، ثم ظعنوا عنها بغير زاد مبلّغ، ولا ظهر قاطع، فهل بلّغكم أن الدنيا سنحت لهم نفسا بفدية، أو أعانتهم بمعونة، أو حسنت لهم صحبة، بل أرهقتهم بالقوادح، وأوهنتهم بالقوارع، وضعضعتهم بالنوائب، وعفّرتهم للمناخر، ووطئتهم بالمناسم، وأعانت عليهم ريب المنون- فقد رأيتم تنكّرها لمن دان لها وآثرها وأخلد إليها حتى ظعنوا عنها لفراق الأبد، وهل زودتهم إلا السّغب، أو أحلّتهم إلّا الضنك، وأو نوّرت لهم إلّا الظلمة، أو أعقبتهم إلّا الندامة- أفهذه تؤثرون، أم إليها تطمئنون، أم عليها تحرصون، فبئست الدار لمن لم يتهمها و لم يكن فيها على وجل منها- فاعلموا وأنتم تعلمون بأنكم تاركوها وظاعنون عنها، واتعظوا فيها بالذين قالوا «من أشد منا قوة»؟ حملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركبانا، وأنزلوا الأجداث فلا يدعون ضيفانا، وجعل لهم من الصفيح أجنان، ومن التراب أكفان، ومن الرفات جيران، فهم جيرة لا يجيبون داعيا، ولا يمنعون ضيما، ولا يبالون مندبة، إن جيدوا لم يفرحوا، وان قحطوا لم يقنطوا، جميع وهم آحاد، وجيرة وهم أبعاد، متدانون لا يتزاورون، وقريبون لا يتقاربون، حلماء قد ذهبت أضغانهم، وجهلاء قد ماتت أحقادهم، لا يخشى فجعهم، ولا يرجى دفعهم، استبدلوا بظهر الأرض بطنا، وبالسعة ضيقا، وبالأهل غربة، وبالنور ظلمة، فجاءوها كما فارقوها حفاة عراة، قد ظعنوا عنها بأعمالهم إلى الحياة الدائمة والدار الباقية كما قال سبحانه: «كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ» (الخطبة 110).

وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى‏ دارِ السَّلامِ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (25).

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 443

«دارِ السَّلامِ» هي الأولى السلام في الأولى، ومن ثم الأخرى في الأخرى، حيث الإسلام السليم يبني من الحياة الدنيا دار السلام. فالحياة الأولى للمؤمن السلام هي طليق السلام، والأخرى له هي السلام الطليق، حيث الأولى تعرضها عوارض من غير السلام، والأخرى طليقة عن كل عارضة وسأم.

و هنا «الدعوة عامة والهداية خاصة» «1» وكما في كل دعوة ربانية.

ف «دار السلام» هي الدار التي في الأصل سلام إلا لمن يجعلها ساما بديل سلام.

و «السلام» هو اللّه «السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ» (59: 23) «2» فهي بعد الأولى السلام بالإسلام داره الخاص لأولياءه بعد كل شغب وسغب في الدنيا، فهي الجنة و «لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ» (6: 127) فدار السلام سلام وهي «عِنْدَ رَبِّهِمْ» سلام على سلام وأين سلام من سلام! ثم هو قالة التحية السلام «دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ» (10: 10) وهو حالة السلام: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ. ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ» (15: 46) وهذه الحالة هي سلام من اللّه: «سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ» (36: 58) (سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مفتاح كنوز السنة نقلا عن بخ- ك 56 ب 37، ك 58 ب 1، ك 34 ب 12 و 17 و 27، ك 81 ب 7 قا 52، مس ك 12 ح 121- 123، ك 43 ح 30 و 31، ك 53 ح 6 قا 7، تر- ك 34 ب 26، ك 35 ب 28، نس- ك 23 ب 8 حم- ثان ص 539 ثالث ص 7 قا 19 و 21 و 22 قا 61 و 84 و 91 و 165 و 167 قا 171 و 182 و 224، رابع ص 137 و 149 و 153- 154 و 327 خامس ص 152 و 154 و 178 و 368 ط- ح 2180

(2). نور الثقلين 2: 300 في معاني الأخبار بإسناده إلى العلا بن عبد الكريم قال سمعت أبا جعفر عليهما السلام يقول في قول اللّه عزّ وجلّ: «وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى‏ دارِ السَّلامِ» قال: إن السلام هو اللّه عزّ وجلّ وداره التي خلقها لعباده ولأولياءه الجنة، وفيه بإسناده إلى عبد اللّه الفضل الهاشمي عن أبي عبد اللّه عليه السلام حديث طويل يقول فيه: والسلام اسم من أسماء اللّه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 444

عُقْبَى الدَّارِ» (13: 24).

ذلك ومن حصائل الإستجابة للدعوة الربانية إلى دار السلام أن المؤمن تصبح دنياه آخرة لأنها لها مزرعة وليست مزرءة، ف «اللَّهُ يَدْعُوا إِلى‏ دارِ السَّلامِ» في الأولى والآخرة حيث المساعي الجميلة لتطبيق دعوة اللّه تعمر الدنيا قبل الآخرة وإن كانت «الآْخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏». ف «يا أيها الناس هلموا إلى ربكم إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 304 عن أبي الدرداء قال قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: ما من يوم طلعت شمسه إلا وكّل بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق اللّه كلهم إلا الثقلين: يا أيها الناس ... ولا آبت شمسه إلا وكل بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق اللّه كلهم غير الثقلين: اللّهم أعط منفقا خلقا وأعط ممسكا تلفا فأنزل اللّه في ذلك كله قرآنا في قول الملكين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم واللّه يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وأنزل في قولها: اللّهم أعط منفقا خلفا واعط ممسكا تلفا: والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى- إلى قوله- للعسرى.

وفيه في الدلائل عن سعيد بن أبي هلال سمعت أبا جعفر محمد بن علي عليهما السلام وتلا: واللّه يدعو إلى دار السلام .. فقال حدثني جابر قال خرج علينا رسول اللّه صلى الله عليه و آله يوما فقال إني رأيت في المنام كان جبرئيل عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه ضرب مثلا فقال: اسمع سمعت أذناك، واعقل عقل قلبك: إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ دارا ثم بنى فيها بيتا ثم جعل فيها مأدبة ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من ترك، فاللّه هو الملك والدار الإسلام والبيت الجنة وأنت يا محمد رسول فمن أجابك دخل الإسلام ومن دخل الإسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل منها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 445

الكافرون «3»

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً (32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً (33): «وَ اضْرِبْ لَهُمْ» لقبيل الايمان والكفر، أهل الجنة والنار «مثلا» يمثل حالتهم وحوارهم وجوارهم، مبدأهم ومنتهاهم، كنموذجين في مسرح الحياة لطغوى النفس وتقواها، نفس فقيرة مفتقرة الى اللَّه، ونفس ثرية مستغنية عن اللَّه، هذه تذهله الثروة وتبطره النعمة فينسى نفسه وينسى اللَّه، وتلك مؤمنة معتزة بإيمانه ذاكرة لربه راضية بقضائه، ماضية في قضاءه، حيث يذكر اللَّه ويذكر نفسه انه عبد مفتقر الى اللَّه! والقرآن يقص القصص الحق من حاق التأريخ وحقه قصّا صالحا عما سبق، وتذكيرا بها صالحا فيما يلحق، دونما اختلاف لقصص لا أثر عنها في التأريخ، ام تاريخية لا تأثير لها تربويا في إبناء التأريخ.

و ها هي قصة الجنتين، لهما ميزات اربع تجعل لهما جمالا راقيا وثمرا رابيا:

جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ كأنها جمع يلمح بمختلف الأعناب، فلو لا هذه اللمحة لكانت «من عنب» جنسا، لا جمعا:

«أعناب» وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ حفاظا على الأعناب، وتجميلا للجنتين، وردفا لما يثمر كثمرها، غذاء وإداما وشرابا، وعلّ النخل كأعناب تعني مختلف النخل حيث تأتي مفردة:

«كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ» وجمعا: «وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ» إذا ففيهما ألوان النخل والأعناب، حافة ومحفوفا بها- 3- وَ جَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً يزيدها ثمرا وجمالا فوق جمال وثمر، و علّه مختلف الثمر كمختلف النخل والأعناب، فان يكن واحدا جي‏ء بصيغته،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 446

حنظة او شعير أماذا؟.

4- وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً خلالا بينهما يفصلهما عن بعض، وخلالا في كل منهما سواقي تجري من تحتهما، كما تجري من تحت الجنة أنهار! جنتان مثمرتان من مختلف الكروم، محفوفتان بسياج من مختلف النخيل، بينهما زروع، ونهر متفجر، ويا له من منظر بهيج وحيوية دافقة وجمال رائع ومال جامع! كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها من أعناب ونخل وزرع عدلا.

وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً لم تنقص من أكله شيئا، حيث الظلم هو الانتقاص أيا كان ومن أيّ كان، جمادا او نباتا أو حيوانا او إنسانا، مهما اختلفت إرادة وشعورا ام دونهما، اختيارا او اضطرارا، ام بينهما كما النحل حيث تنحل بيتا وعسلا غريزيا دون اختيار تام او اضطرار! ولكنما الجنة دون النحل اثمارا وتركا، والظلم في الأصل من الأفعال الاختيارية القبيحة، ولا تقبح الجنة في انتقاص الثمر أم تركه، وانما حسن التعبير عن هذا المعنى اللااختياري ولا القبيح بالظلم حيث كان ثمر الجنة البستان كالمستحق لمالكها، الساعي لها، المتعب فيها، فإذا أخذ حقه منها على كماله وتمامه حسن القول: أنها «لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً» حيث لم تمنع منه مستحقه، فتكون كالظالم إذا انتقصت من ثمرها، ولأن الظلم أصله الانتقاص اختياريا ام دونه قبيحا ام سواه حسب اختلاف الفواعل شعورا وسواه في درجاته، تكليفا وسواه في درجاته، فهو إذا حقيقة ام استعارة لطيفة جميلة! وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً ما يزدادها بهاء وثمرا و ارتياعا!.

و مما يزيده جمالا مقابلة اللّاظلم من الجنة بالظلم من صاحب الجنة حيث ازدهى ولم يشكر وبطر فاستكبر، وقد امتلى نفسه بالجنتين وازدهى النظر إليهما، إحساسا بالزّهو، وتنفشا كالديك، واختيالا كالطاووس، تعاليا على صاحبه وهو يجاوره ويحاوره: «أَنَا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 447

أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَ أَعَزُّ نَفَراً» أمّاذا من كلام فاض أجوف أخوف.

وَ كانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَ هُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَ أَعَزُّ نَفَراً (34).

«وَ كانَ لَهُ»: لما جعلناه له من جنتين- لصاحب الجنتين- لا كل الجنتين- او للنهر «ثمر» و كلها معنية- وعلّ تنوين التنكير هنا تلويح لكثرة الثمر عدة وعدة ومدّة أماذا من ثمر- وقد تلمح «كان» بسابق الثمر زمنا متداوما، ام وعلى أقل تقدير بوجود الثمر حينه كما «آتَتْ أُكُلَها ..».

«فَقالَ لِصاحِبِهِ» الذي يصاحبه ملكا او شغلا أما ذا من صحبة وتعارف «وَ هُوَ يُحاوِرُهُ» حول شؤون الحياة «أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا» حيث «له ثمر» «وَ أَعَزُّ نَفَراً» من ولد وخدم وأعوان مناصرين لان لي مالا وثمرا! وفي الحق لقد ألهاه التكاثر في حواره هذه، وتفخيما لجانبه وتذليلا لصاحبه، وتغافلا عن ربه، ظلما مثلثا يرجع الى نفسه فنكرانا للنشأة الاخرى!: «وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً (35) وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى‏ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً» (36).

«وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ» وكيف دخل؟ وكيف هي جنته وهي جنة اللَّه حيث أعطاها إياه:

«جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ»؟ انه دخل على رعونة وكبرياء، وطنطنة وخيلاء، متحسّبا أنها منه وله دون اللَّه، وكما قاله أخوه قارون: «إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى‏ عِلْمٍ عِنْدِي» (28: 78) وتلك الجنة أم أي‏مال ومنال لأيّ كان وأيان هي من اللَّه ابتلاء، امتحانا او امتهانا، فكم من كادح كثيرا لا يفيده إلّا قليلا، وكم من كادح قليلا او مرتاح يستفيد كثيرا!.

فهي- إذا- جنته إذ جعله اللَّه مستخلفا له فيها ردحا باختيار، وهي جنة اللَّه لأنها من اللَّه فلا قوة إلّا باللَّه.

«دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ» انتقاصا لها تناسيا عن فطرته وفكرته وعقليته تجاه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 448

ربه و هو معترف به: «لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى‏ رَبِّي» تأبيدا لجنته وهي بائدة فانية بعد ردح قل أو كثر «قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً» وماذا يعني هذا الأحمق النكد البطر من أبد جنته؟

هل البقاء دون فناء! بقوته ام قوة اللَّه؟ والدنيا بحذافيرها دار فناء! ام البقاء ما هو باق، وماذا الذي يضمن له ذلك البقاء، وكم من ثراء أثرى أصبحت فناء! ام ماذا، مما يشهد على أية حال أنه «ظالِمٌ لِنَفْسِهِ» في قولته الخواء البتراء!.

و من خلفيات هذا الأبد نكران الساعة: «وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً» ترى وما هي الرباط بين الأبد لهذه الجنة ونكران دار الأبد، ان هي إلّا جنة الثراء من ثمره وجنته، ف «هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ» في جنونه المعمّد المختار، تسامحا عن عقله.

و جنّة ثالثة من جنته «وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى‏ رَبِّي» كاحتمال أخير على بعده فما يضرني إذا حيث «لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً» تخيلا بخيلائه وكبريائه أنه يملك جنة الساعة باحرى من جنة هذه الساعة! وما هي الرباط بين الجنتين حيث يجعلهما في ظنه لزام بعض؟

هذه ظنة الجاهلين من أثرياء وفقراء ان من اوتي الحياة الدنيا فهو في رقان في تفسير الآخرة أحرى ممن لم يؤتها، ويكأن اللَّه يجازي ذوي الأنفة والكبرياء والثراء بما طغوا وبغوا، يجازيهم في الأخرى ثوابا بدل العقاب، فما أظلمه إذا من إله «وَ ما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»!.

يظنها الأثرياء بجنة الغرور والكبرياء، والفقراء لظنهم أن الثراء ثواب من اللَّه وعطاء، إذا فلتكن الطغوى بديل التقوى يستحق بها ثواب الآخرة بعد الاولى!.

«لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً» وكيف وبماذا؟ ألا أنكم تملكون الأخرى كما ملكتم الاولى «فَلِلَّهِ الآْخِرَةُ وَ الْأُولى‏» «وَ ما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ زِينَتُها وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏» (28: 60) أم لأن اللَّه يخافكم فيفضلكم فيها كما فضّلكم-

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 449

بحسبانكم- في الدنيا- وهو يخاف منه ولا يخاف! ام لأنه يخلف وعده جهلا ام ظلما او عجزا أم ماذا؟ وما ذلك إلّا جهالة وجُنة ممن أترفته الحياة الدنيا، تنفّخا منها وتنفّجا فيها!.

هذه مقالة وحالة صاحب الجنة هنا، وأما صاحبه الفقير الذي لا مال له ولا نفر ولا جنة عنده ولا ثمر، ولكنه غني باللَّه، فقير المال غني الحال، إنه يواجه صاحبه الفقير الحال، غني المال، كواعظ منبّه، تنديدا به في حواره، وتهديدا له في بداره:

قالَ لَهُ صاحِبُهُ‏ «1» وَ هُوَ يُحاوِرُهُ أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَ لا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً (38).

هل أنت كافر بمثلث: «خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا»؟ وأنت مقرّ انه ربك «وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى‏ رَبِّي»!.

الصاحب المؤمن الفقير لا يهاب في حواره صاحبه الكافر النكير، فلا يبالي مالا ولا نفرا، ولا يداري ثراء ولا بطرا، ولا يماري إلّا مراء ظاهرا وجدالا بالتي هي أحسن بصامد الايمان وخالص اليقين والاطمئنان، بتنديد شديد وتبديد حديد هدم صرح كفره، تزييفا لموقفه الكافر وتثبيتا لموقفه المؤمن: «لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي» لا سواه من آلهة مختلفة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قوله تعالى «قالَ لَهُ صاحِبُهُ- ومن قبل- فقال لصاحبه، حيث يعبر عن كل من الموحدوالمشرك انه صاحب للآخر يدلنا على ان لفظة الصحبة والصحابة ليست لتدل على الصحبة الايمانية او الشركية، والا لأصبح هنا المؤمن مشركا والمشرك مؤمنا، فاستدلال إخواننا بآية الغار «إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ» ان أبا بكر لكونه صاحب الرسول في الغار وليس غيره في نص القرآن فهو الصحابي المؤمن الوحيد لرسول اللَّه، إنه مخدوش بآيتي الكهف، فالثابت من الصحبة ليس إلّا صحبته في الغار وأما الصحبة الايمانية فلا تثبتها كما قد لا تنفيها اللهم إلّا قوله تعالى: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» حيث اختص سكينته بالرسول (صلّى اللَّه عليه وآله وسلم) دونه وهو بحاجة حين يحزن الى السكينة وقد «أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى‏ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» (9: 26) و (48: 26)! راجع تفسير سورة الفتح من الفرقان ج: 26

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 450

مختلقة، هو ربي في حلي وترحالي، في كافة احوالي، تتمثل ربوبيته الوحيدة فيّ على أية حال، دون أن اوحّده في لفظة القول «وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى‏ رَبِّي» ثم أشرك، به في الفعل: «ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً. وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً. وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى‏ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً» كأنه رب لربه يملكه، دون ان يملكه ربه .. لكنا .. لكِنَّا ... لا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً» في اي مقال او حال، في ماض او مستقبل او حال! أترى «لكنّا» هي لكننا مخففة يعني بها قبيلة الايمان؟ وقد يصح لفظيا ومعنويا ثم يبعده «ربي»! ام هي مدغمة «لكن انا» وهو أقرب، إعراضا عن الإنية والأنانية المشركة لمحاوره الكافر وتعريفا بكيانه كمؤمن، ف «هُوَ اللَّهُ رَبِّي» بيان واف لكيانه «أنا» واين «انا» من كافر و «انا» من مؤمن؟! الكافر يجعل «انا» ه محورا رئيسيا وحتى لربه وكما قال «لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً» كأنه يملك ربه، والمؤمن يجعل «انا» ه لا شي‏ء إلّا ما ربّاه ربه «لكن انا»: «هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَ لا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً»! هنالك ثالوث من «انا» انحسه دعوى الألوهية من غير اللَّه «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏» ثم دعوى الوحدة الحقيقة مع اللَّه «انا هو وهو انا» ثم انا المحور واللَّه الحائر حول هذا المحور، ثالوث الانحراف والانجراف الى الإنية والأنانية.

و صالحه «أنا هو الله ربي» حيث «لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» هو الأصل الأصيل ولا خبر عني «انا» إلا ما هباني ربي، فانا صفر الوجود وهو صرف الوجود، انا مبتدء هو مبدئه وخبره ومبتدئه ومنتهاه «لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي» وما أحلاه توحيدا «1».

أ ترى أن صاحبه كان مشركا ناكرا للمعاد لمكان الظنّة الكافرة ذات أبعاد- 1- (ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً» تأبيدا للحياة الدنيا- 2- (وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً» ترديدا في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 222- اخرج ابن أبي حاتم عن اسماء بنت عميس قال علمني رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وآله وسلم) كلمات أقولهن عند الكرب «الله الله ربي لا أشرك به شيئا»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 451

الحياة الآخرة- 3- وتنديدا بوعد اللَّه للمؤمنين ووعيده لغير المؤمنين: «وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى‏ رَبِّي ..»!.

أم إنه لم يكن مشركا وثنيا يعبد أصناما، حيث المشركون ينكرون المعاد وهو متردد «ما أَظُنُّ .. وَ لَئِنْ رُدِدْتُ» ولهم ارباب متعددون وهو يقول:

«ربي» .. وهم بعاد عن «ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» إلّا ان يؤمنوا، وقد رجاه صاحبه ان يقوله! فهو إذا أشرك بربه بزهوة الثراء والخيلاء كما هو للأغنياء الأغبياء ذوي الانفة والكبرياء، «وَ لا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً» في تمنيه بعد الحسبان تنديد بنفسه ان حسب قوته وجنته تكفيان بقاء بادرار واستمرار لثمره من دون اللَّه، وهذه حالة شركية تتمثل لكل من جنّته الثراء وإن كان من الموحدين في قوله الخواء. «وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ.

وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .. (39)

«لو لا .. قلت: ما شاء اللَّه كائن لا ما شئته أنا «لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» دونني أنا، فانا أنما أمشي و أمضي على هامش مشيئة اللَّه، دونما استقلال في نفسي ولا استغلال لمشيئة اللَّه، و «ما شاءَ اللَّهُ» تعم المشيئة التشريعية والتكوينية سواء، لا شريك له فيهما سواء، فلا شرعة صالحة الّا من اللَّه، ولا تكوين أيا كان إلّا من اللَّه، من خير، ف «الخير كله بيديه» ومن شر، ف «الشر ليس اليه» لان تكوينه- أيا كان ينتهي الى اذنه، فلو لا إذنه أخيرا بعد اختيار المختار لم يحصل إذ «لا مؤثر في الوجود إلا الله»: فانه «لا جبر ولا تفويض بل امر بين أمرين».

ليست الاختيارية في فعل إلّا بمقدمة او مقدمات اختيارية، لا أنه بمقدماته كلها اختيارية، مهما اختلفت الأفعال الاختيارية ثوابا وعقابا بقلة او كثرة في مقدماتها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 452

الاختيارية والاضطرارية، فما يشاءه اللَّه من شر أنت تفعله باختيارك لا يصبح اضطراريا لأنه شاءه، إذ ما شاءه إلّا بعد ما شئته ولكي لا تجبر على ترك الشر كما ولا تجبر على فعله وفعل الخير او تركه، مهما يمتاز الخير بتوفيق من اللَّه، وليس اللَّه بموفق شريرا في شره:

ف «ما شاءَ اللَّهُ» كلمة جامعة تجمع عالمي التكوين والتشريع، إذ «لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» فان كل قواتك من اللَّه، وهي لا تكفي حولا عن معصية اللَّه وقوة في طاعة اللَّه إلّا باللَّه، فهما بعد متناصران في قوة باللَّه، ثم ولا تكفي فعلا لمعصية اللَّه وتركا في طاعة اللَّه إلّا وأخيرا بقوة اللَّه، فبقوته أعطاك امتحانا ما تشاء التخلف عنه، ثم بقوة منه اخرى يشاء ما تشاء مما لايرضاه تشريعا، فهو تكوين في امتحان يخالف تشريعا، ليس لأنه مغلوب في عصيانه، بل تحقيقا لواقع الإختيار الامتحان.

و قد يعني «لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» معنى «لا حول ولا قوة إلا بالله» «1» حيث القوة في ترك المعصية حول عن معصية اللَّه، والقوة على الطاعة قوة باللَّه، ف «لا حول عن معصية الله إلا بقوة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بعون الله» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. المصدر- اخرج ابن أبي شيبة واحمد والنسائي عن معاذ بن جبل ان النبي (صلّى اللَّه عليه‏وآله وسلم) قال: ألا ادلك على باب من أبواب الجنة؟ قال: ما هو؟ قال (صلّى اللَّه عليه وآله وسلم): «لا حول ولا قوة الا بالله»:

(2). المصدر- اخرج ابن مردويه والخطيب والديلمي من طرق عن ابن مسعود عن النبي (صلّى اللَّه عليه وآله وسلم) قال: أخبرني جبرئيل ان تفسير لا حول ولا قوة الا باللَّه انه ... وفي معناه ما رواه في كتاب التوحيد عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: سألته عن معنى «لا حول ولا قوة الا بالله» فقال: معناه: لا حول لنا عن معصية اللَّه الا بعون اللَّه ولا قوة لنا على طاعة اللَّه إلا بتوفيق اللَّه عز وجل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 453

و انها باب من أبواب الجنة «1» وكنز من كنوز الجنة ودافعة كل آفة حتى تأتي المنية «2» ومبقية لكل عطية إلهية «3» وتزجر الشياطين بها الملائكة «4» ودواء من كل بلية «5» مهما كانت حرقا او غرقا «6» ام أية بلية! ف «لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» و «أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» (2: 165):

فليقل الموحد «ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» وليفعل «ما شاءَ اللَّهُ ...» وليعتقد «ما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر اخرج ابن أبي شيبة واحمد عن أبي ذر قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه).

و اخرج نصه او ما في معناه جماعة آخرون‏

(2). المصدر اخرج ابو يعلى وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن انس قال قال رسول اللَّه (صلّى‏اللَّه عليه وآله وسلم): ما أنعم اللَّه على عبد نعمة في اهل او مال او ولد فيقول «ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» الا دفع اللَّه عنه كل آفة حتى تأتيه منيته وقرأ «وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»

(3). المصدر اخرج ابن مردويه عن عقبة بن عامر قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله وسلم) «من أنعم اللَّه عليه نعمة فأراد بقاءها فليكثر من «لا حول ولا قوة الا بالله» ثم قرأ رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وآله وسلم) «وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» أقول وقد فسره الرسول (صلّى اللَّه عليه وآله وسلم) باضافة الحول كما قدمناه و هنا وقبله يستدل لها بالآية وليس فيها «حول»

(4). نور الثقلين 3: 261 ج 85 في محاسن البرقي عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال قال لي: إذا خرجت من منزلك في سفر او حضر فقل: بسم اللَّه آمنت باللَّه توكلت على اللَّه، ما شاء اللَّه لا حول ولا قوة الا باللَّه، فتلقاه الشياطين فتضرب الملائكة وجوهها وتقول: ما سبيلكم عليه وقد سمى اللَّه وآمن به وتوكل على اللَّه وقال «ما شاء الله ولا قوة الا بالله»؟!

(5). الدر المنثور اخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه و آله وسلم) «و لا حول ولا قوة بالله» دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها الهم‏

(6). نور الثقلين 3: 260 ج 84 في تهذيب الأحكام عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: اربع لأربع- الى قوله: والثالثة للحرق والغرق: ما شاء اللَّه ولا قوة الا باللَّه وذلك انه يقول «وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ- أقول- وقد أحرقت جنته بحصبان من السماء فأصبحت صعيدا زلقا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 454

شاءَ اللَّهُ ...»! فيصبح بكيانه ككل «ما شاءَ اللَّهُ ..» لا في لفظة القول دون فعل واعتقاد ام وفي اي منهما ام فيهما دون لفظة القول.

أنت وكل فاعل مختار انما تعمل بقوة اللَّه، منك المشية والإختيار وتقديم ما عندك من طاقات وامكانيات، ومن اللَّه التوفيق بإزالة الموانع وتهيئة ما لا تسطع من الأسباب ف «لا جبر ولا تفويض بل امر بين أمرين»!.

.. إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالًا وَ وَلَداً (39) فَعَسى‏ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَ يُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً (40) أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً (41) لك جنة قد يرسل عليها ربي حسبانا «1» من السماء خلاف حسبانك فيها: «ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً»! ولي جنة خير من جنتك هي لا تبيد أبدا ولا يرسل ربي عليها حسبانا من السماء إلّا رحمة متواصلة ورضوانا، فأين جنة من جنة، واين عقلية ايمان وجنة؟:

و «عسى» هنا ترجّ دون تردد تادبا أمام وعد اللَّه الحق، علّه يؤهل له! أنا هنا اقل منك مالا وولدا وهنالك في يوم اللَّه أكثر بل ليس لك هنالك إلّا حسبان بدل الجنة والرضوان، وأنت هنا اكثر مني مالا وولدا قد يرسل عليها حسبان كما لك هنالك حسبان، واين حسبان من رضوان.

جنتك قد تصبح بكفرانك صعيدا زلقا: لا ماء فيها ولا كلاء «أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً»!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الحسبان هو الحساب وهو هنا ما يحاسب عليه فيجازي وهو الظن، فالحسبان الاول في‏المتن هو الثاني والثاني، هو الثالث، فقد يكون عذابا بحسبان او رحمة بحسبان فليس الحسبان إذا- فقط- حسبان العذاب‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 455

فقد تصطدم الجنة ببرودة ام حرارة زائدة فتيبس ثم تجبر حيث تعمّر، ولكنما الحسبان من السماء يجعلها غير قابلة الزرع والإنماء- إذ «تصبح صَعِيداً زَلَقاً»: دحضا لا نبات فيه.

ام قد يقل الماء المتفجر ام يسد بسدات تحت الأرضية فيرجع بالتنقية، ولكنما الغور إبعاد له أو إفناء «فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً»!.

وَ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى‏ ما أَنْفَقَ فِيها وَ هِيَ خاوِيَةٌ عَلى‏ عُرُوشِها وَ يَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً (42).

لقد حصل فعلا ما أنذره صاحبه حيث «أُحِيطَ بِثَمَرِهِ» بما أحاط اللَّه ثمره بحسبان من السماء إمّا ذا، فاستأصل ثمره «وَ كانَ لَهُ ثَمَرٌ» وقد تكون هذه الاحاطة السماوية من كل الجوانب كالبحرية: «جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ..» (10: 22)

و الإصابة المحيطة هي التي لا منفذ عنها ولا مخلص منها: «فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى‏ ما أَنْفَقَ فِيها»: صژر مدمر من كل جانب وكأنه لم يكن له ثمر، حيث لم يبق له أثر إلّا «صَعِيداً زَلَقاً» و «يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ» كناية عن الإنفاق النادم حيث تهدّر دون اي ثمر «و هي» الجنة «خاوِيَةٌ عَلى‏ عُرُوشِها» مهشمة محطمة تذروه الرياح وكان اللَّه على كل شي‏ء مقتدرا «و هو يقلب كفيه» أسفا على ماله الضائع بحاله الضائعه «وَ يَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً» ولات حين مناص وفرار عما قدّمه، ومن ورائه جهنم وبئس القرار! ترى ولماذا أصبحت الجنتان في سرد القصة كأنهما جنة واحدة:

آتت- أكلها- لم تظلم- جنته- هذه- منها- جنتك- من جنتك- عليها- فتصبح- ماءها- فيها- عروشها-؟ علهما لأنهما أصبحتا كجنة واحدة لمكان زرع بينهما كما فيهما مهما فصل بينهما جدار من نخل، فدخوله في قسم منها دخول فيهما، أو أنه دخلهما. وَ لَمْ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 456

تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما كانَ مُنْتَصِراً (43) هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَ خَيْرٌ عُقْباً (44):

و رغم نفره من ولد وسواهم «لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ» حيث أحاط اللَّه وقد كان يعتز بمال ونفر «وَ ما كانَ مُنْتَصِراً» وبمن ينتصر؟

بمن لا ينصرونه او ينصرونه؟ أمن اللَّه؟ ولا قوة إلّا باللَّه! او من حسبان السماء؟

وليس إلا امر اللَّه! ف «هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ» لا لسواه إلّا باطلا.

و ماذا تعني «هنالك» حيث تخص بها الولاية للَّه؟ وكيف بوصف اللَّه بالحق ولا اله إلّا اللَّه الحق؟ ثم ثوابه وعقبه خير من ايّ كان ولا خير إلّا منه؟

فهل «هنالك» تشير الى مكانة الحيطة الإلهية بعذاب ألا ناصر فيها إلّا اللَّه حيث تعني الولاية النصرة، فمهما كانت الإصابة من غير اللَّه تدفع بغير اللَّه، فالإصابة الخاصة من اللَّه لا دافع عنها إلّا اللَّه الحق، دون الآلهة الباطلة التي يتخذونها آلهة دونه، فحين تتقطع الأسباب وتحار دون الحيطة الغيبية الألباب، تصرخ الفطرة أن لا إله الا اللَّه، و «الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ» دون سواه! ولكنه على صحته في نفسه لا يناسب «هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَ خَيْرٌ عُقْباً» حيث الموقف هنالك هو العقاب وليس الثواب! ام إن «هنالك» البعيد هي الحياة البعيدة الأخرى، فالولاية النصرة والمالكية للتدبير هي «لِلَّهِ الْحَقِّ» دون الآلهة الباطلة «هُوَ خَيْرٌ ثَواباً» من سواه لو كان لهم ثواب ولا ثواب لسواه «وَ خَيْرٌ عُقْباً» عاقبة من سواه لو كان لهم عقب ولا عقب لسواه، أو ان «خير» مقابل الشر فليس هنا تفضيلا، فليس الخير ثوابا وعقبا إلّا له، ولمن سواه الشر ثوابا وعقبا!

و هذا على حقه في نفسه، وبالنسبة لثوابه وعقبه قد لا يناسب الحيطة المدمرة الإلهية، اللّهم إلّا وهو أشدتنكيلا وعقابا! ام إن «هنالك» يجمع بين الموقف يوم الجمع ويوم الدنيا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 457

حين يحاط بالإنسان فيجمع بين المناسبتين، فإذا كانت ولاية النصرة والتدبير للَّه الحق دون آلهة الباطل، ففروا- إذا- الى اللَّه الحق، فهل تريدون من الآلهة إلّا ثوابا وعقبا فهو «خَيْرٌ ثَواباً وَ خَيْرٌ عُقْباً»! إن الولايات الهامشية الاختيارية لمن سوى اللَّه ليست إلّا من قبل اللَّه كما ولّى استخلافا دون تخويل، فلا تركنوا إليها اللّهم إلّا الى حقها «1» دون باطلها، تذرعا إلى تحقيق أمر اللَّه، والزلفى إلى ولاية اللَّه، ولتكونوا على نبهة دائبة ألّا ولي إلّا للَّه، ولا ثواب وعقاب إلّا من اللَّه، ففي ظل ولاية اللَّه تتوارى الولايات كلها، و «لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»! وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَ كانَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ مُقْتَدِراً (45) هنا مثل للحياة الدنيا يأتي في يونس اكثر تفصيلا: «إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآْياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (24).

ألا إن الدنيا «كروضة اعتمّ مرعاها وأعجبت من يراها، عذب شربها، تمج عروقها الثرى وينظف فروعها الندى، حتى إذا بلغ العشب أبانه واستوى بنانه، هاجب ريح تحت العروق، وتفرق ما اتّسق، فأصبحت كما قال اللَّه «هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَ كانَ اللَّهُ عَلى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و من حق الولايات الهامشية ولاية الرسول (صلّى اللَّه عليه وآله وسلم) وفي ظلها ولايةعلي عليه السلام والائمة المعصومين من ولده، وقد تبرز ولاية علي عليه السلام تأويلا ل «الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ» كمصداق مختلف فيها في الولايات تحت ظل الولاية المحمدية كما رواه في الكافي باسناده عن علي بن حسان عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: سألته عن قوله عز وجل «هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ» قال: ولاية امير المؤمنين عليه السلام و رواه مثله عن عبد اللَّه الرحمن بن كثير عنه عليه السلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 458

كُلِّ شَيْ‏ءٍ مُقْتَدِراً» «1» فهي إذا «لا تعدوا إذ تناهت إلى أمنية اهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قال اللَّه «كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ» .. «2».

أ ترى «الْحَياةِ الدُّنْيا» هنا هي الرديئة الدنيئة؟ و «كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ»؟ قد لا يناسبها، فانه رحمة من سماء الرحمة اختلط بها نبات الأرض! أم هي أدنى الحياة العقلية إلينا وأقربها، من وراءها الحياة البرزخية والاخرى وهما العليا؟ ويناسبها «كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ» ولكنما العاقبة «فَأَصْبَحَ هَشِيماً ..» قد لا تناسبها!- ام هي الدنيا بمعنييها حيث يناسبان موضعيها «ماء وهشيما»؟ وهذا أنسب وأحرى! فكما الماء النازل من السماء طاهر في نفسه، عال في مكانه ومكانته، وحين ينزل يختلط به نبات الأرض لينبت، فلو لا الماء فلا نبات ولا كلاء، كما لو لا بذور النبات لم يفد الماء، ومن ثم نبات الأرض الظاهر الزاهر بزخرفاته يصبح هشيما تذروه الرياح، حيث تنتهي شريط الحياة للنبات.

كذلك الروح الإنساني الطاهر ينزل من سماء المشيئة الإلهية إلى أرض البدن «وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ» (32: 9) وأرض الأرض: «قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ» (7: 24) فاختلط به نبات الأرضين زينة وزخرفة، ثم يصبح البدن و من ثم أرض البدن بنباته هشيما تذروه الرياح! والهشيم: الكسير الرخو، والذرو: التفريق، فالرياح تفرّق كسير النبات ورخوها كأن لم تكن شيئا! مشهد للحياة الدنيا، خاطف قصير يلقى في النفس لها ظل الفناء في مثلث نزول ماء السماء وخلطه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 362 ح 92 في روضة الكافي باسناده عن علي بن الحسين عليه السلام حديث طويل‏في الزهد في الدنيا وفيه يقول عليه السلام «فهي كروضة ..»

(2). عن نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين عليه السلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 459

وهشيمه، فلا بقاء إذا لدنياها، و الباقي هو ماء السماء، روح الإنسان بعد تهشّم البدن بدنياه، فليتزود نازل السماء من منزل الأرض زادا لأخراه.

أ لهذه الخليطة الهشيمة، الحطيمة اليتيمة الزهيدة، القصيرة الوهيدة، لهذه تتنافس، فتتقاعس عن واجب الحياة، عن أخراها الى أولاها، لحد تظن ألّا تبيد هذه أبدا؟! حتى متى الغفلة والغفوة عن حق الحياة وحاقها، الى باطلها وزائلها «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الآْخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ» (30: 7) الْمالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ أَمَلًا (46).

أ ترى أن زينة الحياة الدنيا محرّمة على أهلها؟ «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ .. قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ ..» (7: 33)!. فمن هذه الزينة باقيات صالحات هي خير عند ربك ثوابا وخير أملا، ومنها زائلات طالحات لا خير فيها ولا ثواب إلّا شر وتباب! الأعمال كلها باقيات أقوالا وافعالا ونيات، من صالحات وطالحات باغيات، فالصالحات خير عند ربك ثوابا كما الطالحات شر لا تخلّف إلّا عقابا، والصالحات خير أملا يأملها فاعلها في الدارين، والطالحات شر املا في الدارين: «وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ مَرَدًّا» (19: 76) وإذا كان الإنسان يتعلق بالمال والأولاد ثوابا وأملا ومردا، فالباقيات الصالحات منهما وسواهما خير ثوابا وخير أملا و خير مردا! وزينة المال والأولاد قد تكون باقية صالحة لحد توخذ في كل مسجد «يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» (7: 31) حيث تشمل المال إنفاقا له في كل مسجد والأولاد تعبّدا كأمثالكم في كل مسجد، فيصبحان على زينتهما من الباقيات الصالحات، فزينة المال والأولاد كسائر الزينة في الحياة الدنيا هي زينة اللَّه حيث زينها اللَّه وجعلها وسيلة للحياة الأخرى،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 460

ولكنما الشيطان يزينها زينة اخرى أنها دائبة ترغب في نفسها فتزلّ فيها قدم بعد ثبوتها، او تضل حين ورودها لمن أبصر إليها فأعمته ولم يبصر بها فبصرته: «زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَياةُ الدُّنْيا وَ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ...» (2: 212) (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَ الْأَنْعامِ وَ الْحَرْثِ ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ» (3: 14).

فللزينة قيمة ما تزيد في قيمة الإنسان وهي الباقية الصالحة، وليست لها قيمة ما تنقص من قيمة الإنسان وتجعله كحيوان، وهي الباقية الطالحة، وما أهونها واحونها زينة تسلب قيمة الإنسان بدل أن تجلب قيمة للإنسان!

الكافرون الإخسرون أعمالًا

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104) (بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا» هم في الدرك الأسفل من ضلال السعي وخسار الأعمال، لا يوازيهم أحد من الخاسرين حيث الأفعل هنا مطلق فلا يساوى أو يسامى، كما لا يفوقهم أحد في الخسران! وأصل الضلال ذهاب القصد عن سنن طريقه، فكأن سعيه لما كان في غير طريقه المؤدي الى مرضاة ربه، فهو ضال في سعيه، خابط في غيّه وحابط في عمله.

فقد يكون الإنسان بطّالا لا يسعى في الحياة الدنيا، لا لها ولا للأخرى، او يسعى للدنيا، مهتديا الى منافعها دون الاخرى، او يسعى دونها ضالا في سعيه للدنيا وهو عارف بضلاله ام يسعى لها ضالا في سعيه وهو يحسب أنه يحسن صنعا دركات بعضها سفل بعض والرابعة سفلاها، حيث يحرم الآخرة إذ لم يسع لها، ويحرم الدنيا لضلال سعيه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 461

لها، ويحرم الاهتداء إلى ضلاله إذ يحسب أنه يحسن صنعا «خَسِرَ الدُّنْيا وَ الآْخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ»! وترى «فِي الْحَياةِ الدُّنْيا»؟ ظرف لضلاله؟ أن سعيه ضل عن الحياة العليا في الحياة الدنيا، فظل يسعى لها دون الأخرى، وقد يكون ناجحا في هذه الأدنى مهما حرم الأخرى؟ وليس من الأخسرين أعمالا، حيث الأخسر منه من زاد ضلالا على ضلال، 1- ضل سعيه عن الآخرة- 2- ثم ضل في سعيه للدنيا، أن تكون «فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» ظرفا لسعيه، فسعيه في الحياة الدنيا ضل، ضلال في ضلال، ومن ثم «وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» ضلال ثالث، فهنالك يتم ثالوث الضلالة! فطالما البطالون خاسرون ولكنهم قد يهتدون، وكما الساعون للدنيا المهتدون الى منافعها، فقد يفيقون عن غفوتهم، ويستقيمون عن زلتهم، بل و الضالون في سعيهم لها، العارفون بضلالهم، مهما كانوا بعادا عن الهدى، ولكن الذي ضل في سعيه عن الحياة العليا إلى الحياة الدنيا، ثم ضل في سعيه للدنيا، وهو يحسب انه يحسن صنعا، غارقا في ثالوث الضلالة، فانه دائب في سعيه الى خساره في الأولى والأخرى، ولا ترجى إفاقته عن غفوته وضلاله إذ لم يبق له منفذ إلى صالحه، فهو من الأخسرين أعمالا! إنه بسعيه الهادف إلى فوائده في الدنيا يخسرها كما خسر الأخرى، كادحا إلى خسران، منفقا حياته في تعب هدرا دونما عائدة إلّا الخسران، كمن يذبح نفسه بذات يده وهو يحسب انه ذابح خروفا يشويه لطعامه مكدا مجدا في ذبحه! قد يصبح الساعي بضلاله فيما يعمل من الأخسرين أعمالا في الآخرة وهو في الدنيا رابح حياتها: «.. أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ .. الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالآْخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ: أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ ما كانُوا يُبْصِرُونَ، أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ. لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 462

الآْخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ» (11: 22) «إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآْخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ. أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ وَ هُمْ فِي الآْخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ» (27: 5) هؤلاء وهؤلاء من الأخسرين في الآخرة، ومنهم من لم يخسر دنياه، فليس من الأخسرين اعمالا في النشأتين إلّا في الأخرى، فاما الذي ضل سعيه في الحياة الدنيا وهو يحسب أنه يحسن صنعا فقد خسر الاولى كما الاخرى وقد تكون خسراه في عقباه أقوى حيث هو في أولاه أغوى.

لا أخسر مطلقا في سائر القرآن إلّا هنا وفيمن كادوا بإبراهيم «وَ أَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ» (21: 7) ولكنهم الأخسرون في الآخرة كالأوّلين، وفي دنياهم في الكيد الذي كادوا به إبراهيم وهم في سائر دنياهم رابحين.

لآیة الأخسرين مصاديق من ضلّال أهل الكتاب والمسلمين- الغارقين في ثالوث الضلالة في الدنيا والدين ك «الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في السواري» «1» وكفرة أهل الكتاب المبتدعين‏ «2» «و لاأظن إلا أن الخوارج منهم» «3» وكل من يتقشف فيما يظنه شرعة أهلية وهو خطر على الدين والدينين.

و كما لها مصاديق من المكذبين ب‏آيات اللّه الصادقين عن سبيل اللّه، وقد يكون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 253- اخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي خميصة عبد اللّه بن قيس قال‏سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول في هذه الآية انهم.

(2). نور الثقلين 3: 312 ح 250 في كتاب الاحتجاج عن الأصبغ بن نباتة قال ابن الكوا لأميرالمؤمنين عليه السلام اخبرني عن قول اللّه عز وجل: «الآية» قال: كفرة اهل الكتاب اليهود والنصارى وقد كانوا على الحق فابتدعوا في أديانهم وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا

(3). الدر المنثور 4: 253- اخرج عبد الرزاق والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم‏و ابن مردويه من طريق عن علي عليه السلام انه سئل عن هذه الآية فقال: لا أظن‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 463

المتظاهر بالدين، والمتقشف الجاهل أخطر منهم وأضل سبيلا! فالأخسرون اعمالا دركات بعضها سفل بعض، مهما كان الغارقون في ثالوث الضلالات كلهم من الأخسرين، ولكنما الذين كفروا ب‏آيات ربهم ولقائه هم الأسفلون وكما جرت عليهم الآية وتتلوها: أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِ‏آياتِ رَبِّهِمْ وَ لِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً (105):

«كَفَرُوا بِ‏آياتِ رَبِّهِمْ» عشوا عنها وتعاميا ومدّا في كفرهم بقرن شيطانهم فضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون، كفر مطلق لا مخلص عنه «كَفَرُوا بِ‏آياتِ رَبِّهِمْ وَ لِقائِهِ» يوم الدنيا بما يقربهم الى اللّه زلفى ويوم الآخرة بنكرانها فلقاء الرب هو لقاء ربوبيته، في الأولى ربوبيته التكليف التكميل فزلفى المعرفة، وفي الأخرى ربوبية الحساب ومن ثم الثواب والعقاب فإلى جنة او نار، في دار ليس الأمر فيها إلّا للّه، يصيرون إليها ولا محيص لهم عنها، وإذ لا أحد فيها يستطيع انصرافا عن الوجهة التي أمر اللّه سبحانه بجمع الناس إليها وحشرهم نحوها سمي ذلك لقاء الرب.

فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ ومساعيهم فأصبحت «كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْ‏آنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ» فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً» إذ لا أعمال لهم صالحة حتى توزن ولا وزن للطالحة فتوزن! «أولئك ..» تعريف ثالث بالأخسرين اعمالا بعد «وَ مَنْ يَعْشُ» و «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ» ثالوث الضلالة في مثلث التعريف باهل الدرك الأسفل من النار.

فكفرهم مطلق لا مخلص عنه ولا مناص حيث يشمل آيات ربهم كلها، آفاقيا وانفسيا، تكوينيا وتشريعيا، رساليا ورسوليا إمّا ذا، حيث عشوهم عن ذكر الرحمن مطلق، وآيات الرحمن تذكّر الرحمن لغير العاشين عنها.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 464

ثم الكفر ب‏آيات الرب كفر بلقائه، والكافر ب‏آيات ربه ولقائه لا أعمال له ثابتة إلّا زائلة خابطة حابطة، واصل الحبط انتفاخ بطن الدابة بنوع سامّ من الكلإ فتلقى حتفها، فالجاهل يراها سمينة شبعانة، وهي في سبيل الموت! وهذا أنسب وصف لأعمال الكفار، أنها تنتفخ ويظنها أصحابها رابية رابحة وهي بائرة رائحة.

أ ترى اعماله الحابطة هي الطالحة؟ وهي ثابتة كما الصالحة! «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»! ام الحابطة هي الصالحة؟ وليست للأخسرين اعمالا اعمال صالحة! لكفرهم المطلق! الحبط هنا يعني زوال الوزن، فصالحة أعماله خاوية عن وزن للكفر المطلق، مهما أنفق وسعى في إصلاح الحياة، فتحبط أعمالها عن وزن، وطالحة اعماله خفيفة حابطة بلا إحباط «فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً» حيث تبقى أعماله كلها طالحة خفيفة ليس لها وزن، فكيف يقام له وزن؟ وذلك الحبط يشمل الدنيا والآخرة «فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الآْخِرَةِ» (2: 317) في ميزان اللّه، فلا وزن لهم في الدنيا كما الآخرة، إذ لا تحسب صالحاتهم صالحات، ولا فلاح لهم في طالحات، فهم أخفّاء عند اللّه وعند أهل اللّه في الأولى كما الاخرى: «وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِ‏آياتِنايَظْلِمُونَ» (7: 9).

فهنالك الوزن محصور في الحق‏ «1»، فلا وزن للباطل حتى يقام له وزن، سواء أكان الباطل حابطا من أصله كسائر الباطل، ام محبطا كان فيه شائبة الحق فأحبطه اللّه لخبطه في شاكلته، كصالحات الكفار من خدمات بشرية تصلح الحياة: «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لم يقل «الوزن يومئذ حق» وانما «الحق» تدليلا على ان الوزن هو الحق فلا وزن للباطل‏حتى يوزن او يقاس بوزن الحق!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 465

الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ. أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآْخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (11: 16) ليس الوزن عند اللّه إلّا ما يقرب إلى اللّه ف «ليؤتين يوم القيامة بالعظيم الطويل الأكول الشروب فلا يزن عند الله تبارك وتعالى جناح بعوضة» «1» ومن أخفهم وأخسهم «أئمة الكفر وقادة الضلالة فأولئك لا يقيم لهم يوم القيامة وزنا ولا يعبأ بهم، لأنهم لم يعبأوا بأمره ونهيه ..» «2».

قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً (109).

هذه تحيل مداد كلمات الرب ولو كان ضعف البحر، وأخرى تحيل مداد كلمات اللّه ولو كان ثمانية أضعاف البحر: «وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (31: 27).

فما هو البحر؟ ثم مداد مثله، او من بعده سبعة أبحر؟ وما هي كلمات ربي؟ وكلمات اللّه؟ ثم و لها حد بعد ام لا حد لها؟ علّ «البحر» فيهما هو مجموعة بحار الأرض، فانها هي المعروفة لدينا عينيا وقرآنيا «3» دون سواها من بحار، و «ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 254- اخرج ابن عدي والبيهقي في شعب الايمان عن أبي هريرة قال قال‏رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) ... اقرؤا ان شئتم «فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً

(2). نور الثقلين 3: 312 ح 253 في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يذكر فيه اهل الموقف وأحوالهم وفيه ومنهم أئمة الكفر.

(3). لا نجد في 40 موضعا فيها البحر بصيغة موضعا يدلنا على بحر في غير الأرض، اللهم إلا مايصلح التعميم وهذا ليس دلالة على بحر في غير الأرض يستدل بها! مهما دلت أحاديث عدة أن في السماء بحار

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 466

أَقْلامٌ» لا تجاوب إلّا ما في الأرض من بحار، حيث البحر المحيط في الكون تناسبه الشجر المحيط في الكون! فلا هو مطلق البحر في الكون، ولا بحر بعينه في الأرض، حيث اختلاف بحار الأرض ينافي تعريف «البحر» الّا جنسه الشامل لكل بحر، ف «البحر» إذا عوان بين البحرين لمطلق الكون أو خاص من الأرض.

و المداد ما يمدّ به من مادة للمدّ او قلم يمدّها، فهناك البحر مداد وما في الأرض من شجرة أقلام المداد.

ثم «كَلِماتُ رَبِّي» هي الدالات لفظيا وعلميا وعينيا على الربوبية العليا كما «كلمات الله» هي الدالات على الألوهية وهي أشمل من كلمات الربوبية، فالكلمة ما تدل على معنى في أيّة زاوية من الثلاثة أماهيه، وإذا كانت نعمة اللّه لا تحصى وهي محدودة في الواقع لحدوثها «وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها» فأحرى بكلمات الرب وكلمات اللّه ألّا تحصى! ثم «لو» في آيتي مداد الكلمات تحيل ان يكون البحر مدادا لكلمات ربي وكلمات اللّه، و «لو» الثانية في الأولى إحالة ثانية دون وقفة عليها، «يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ» في الثانية تعني استمرارية الاستحالة دون وقفة على السبعة الزائدة، الرامزة الى الكثرة الكثيرة، والقصد فيهما إلى استحالة مدّ الكلمات ككلّ باي مداد، حيث إن مداد البحار والأشجار هي ايضا من الكلمات، أيا كان الكاتب، وباية سرعة كانت الكتابة وأيان «لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي».

«كلمات ربي وكلمات الله» وهي كل دالة على اللّه، ليست هي ذات اللّه ولا من ذات اللّه، وإنما هي مخلوقات اللّه ولا بد وأنها حادثة محدودة، كما توحيه «قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي» ولكنها ليست بالتي تعد أو تحصى، فضلا عن ان تكتب، إحالة في بعدين:- 1- ان لا احد يمكنه إحصاءها فضلا عن كتابتها- 2- ولو أمكنه فالكاتب نفسه، ومداد البحار

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 467

والأشجار والورق المكتوب فيه، هي كلها من كلمات اللّه، ولو أنها كتبت فيما يكتب فنفس الكتابة بحذافيرها من كلمات اللّه فتسلسل مستحيل، او «لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي»! إن كتابات الوحي وكافة التشريعات الإلهية، التي تحملها الأصوات والكتابات والمفهومات، هي من كلمات الرب، وحملتها الرسل والأئمة وسائر العلماء باللّه، هم من كلمات الرب، وكافة الرحمات الإلهية رحمانية ورحيمية هي من كلمات الرب، ومجموعة الكائنات هي آيات اللّه وكلماته، فأين مداد البحار والأشجار من مدّ كلمات اللّه! فكلمات الرب هي الدالات على ربوبيته، وكلمات اللّه هي الدالات على ألوهيته في ذاته ورحماته رحمانية ورحيمية، ومن نعم او نقم إمّا ذا.

ففيما «إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها» فاستحالة الإحصاء والكتابة التي هي أصعب، في كلمات النعم والنقم إمّا ذا هي أحرى!: واين أنت ايها الإنسان الهزيل الجاهل العاجز الذليل، و الغوص في خضم ذلك البحر الملتطم، واليمّ المنجسم من كلمات الرب اللّه، إلّا غرقا فيها عن سباحتك! قد يدرك الإنسان الغرور بما يسجّله من مكامن الكون، فتاخذه نشوة الظفر في ظهور علمي وفي القدرة فيحسب أنه على شي‏ء! ولكنما الآيات الربانية والإلهية تواجههم ب‏آفاقها المترامية، فإذا هم على خطوات من الشاطئ ولما يخوضوا البحر .. وحتى لو كان البحر مدادا بيده «لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً» «يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ» مدادا! ف «قد أخبرك ان كلام الله عز وجل ليس له آخر ولا غاية لا ينقطع ابدا» فيما نحصيه! كلمات اللّه بعد كل مداد تنتظر مدادا يمدها، ولن يمددها أي‏مداد، فطالما هو أيضا من كلمات اللّه إذا «لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي»! فيا لنا من غباوة وعمى، وحماقة كبرى، نعيش كلمات اللّه، غارقين في خضمّها، ومارقين عن الذي تدل عليه وترشدنا إليه «فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 468

تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ»! كلمات تذكرنا الرحمن «وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ»!

الكافرون «4»

«رب ما يودّ الّذين كفروا لو كانوا مسلمين»

و ربما قيل في «ربما» أقاويل، كأنها لا تدخل إلا على الماضي إذ لم يجدوها في استعمال العرب جاهليا وسواه تدخل على المستقبل؟ وكلام اللَّه أقوى واجل واشرف مستند لصحة دخولها عليه! ثم وفي استقبال فعلها هنا شمول لمثلث الزمان، يوم الدنيا والبرزخ‏ «1» ويوم الدين، في الاوّل ربما هو قليل، وفي الآخرين غير قليل، إذ يعرفون فيها خطأهم، ويتحسرون ان «لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ». ولكن هيهات، ولات حين مناص، وقد فات يوم خلاص‏ «2».

«رُبَما يَوَدُّ ..» ولكنه حيث لا ينفع التمني ولا يجدي الوداد، وذلك تهدّد خفي واستهزاء ملفوف بالذين كفروا منذ الموت، وحث على انتهاز الفرصة المعروضة للإسلام قبل الموت.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. نور الثقلين 3: 313 ح 256 حدثنا محمد بن احمد عن عبد اللّه بن موسى عن الحسن بن‏علي بن أبي حمزة عن أبيه عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام في حديث قلت: قوله عز وجل «قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً،» قال: قد أخبرك ..

رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ‏

(2). تفسير البرهان 2: 325 بسند عن جابر بن يزيد قال قال ابو عبد اللَّه عليه السلام قال امير المؤمنين عليه السلام في الآية هو إذا خرجت انا وشيعتي وخرج عثمان وشيعته وثقل بني امية فعندها يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 469

«و لو انهم يودون هنا لو كانوا مسلمين وما هم بمسلمين فإن هم إلا كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون» ف: ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3).

«ذرهم» في خوضهم يلعبون، حين لا يرجى منهم إسلام وهم يترجون، أتركهم وما هم فيه من حيونات الحياة وشهواتها «يأكلوا» حيث هو بغيتهم من الحياة «و يتمتعوا» بسائر المتع البهيمية «وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ» البعيد الطويل في الحياة الدنيا عن الحياة الاخرى إذ لا يعلمون: «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الآْخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ» (30: 7) (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» منذ الموت والى القيامة الكبرى حين يرون العذاب، يعلمون انه الحق من ربهم، عين اليقين، مهما كانوا يعلمون هنا علم اليقين «وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا» (27: 14).

فيا لصاحب الأمل الخاطئ الخابط من خبط وخطل «يتعاطى الأمل فيختلجه الأجل دون ذلك» «1» فهو عائش بين الأمل والأجل، ولكن لا يمهله الأجل، مهما أهمله الأمل.

فانما أخاف عليكم اثنتين: اتباع الهوى وطول الأمل، اما اتباع الهوى فانه يصد عن الحق و اما طول الأمل فينسي الآخرة «2» ف «إذا استحقت ولاية الله والسعادة جاء الأجل بين العينين وذهب الأمل وراء الظهر، وإذا استحقت ولاية الشيطان والشقاوة جاء الأمل بين العينين وذهب الأجل وراء الظهر» «3» و «ما أطال عبد الأمل إلا ساء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 94- اخرج احمد وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري ان رسول اللَّه (صلى‏اللَّه عليه وآله) غرس عودا بين يديه وآخر الى جنبه وآخر بعده قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: اللَّه ورسوله اعلم قال: فان هذا الإنسان وهذا اجله وهذا أمله فيتعاطى.

(2). نور الثقلين 3: 3 عن اصول الكافي بسند عن يحيى بن عقيل قال قال امير المؤمنين عليه السلام: ..

(3). المصدر عن الكافي بسند عن أبي شيبة الزهري عن أبي جعفر عليه السلام قال قال رسول اللَّه (صلى‏اللَّه عليه وآله وسلم): ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 470

العمل» «1».

و «ما أنزل الموت حق منزلته من عد غدا من اجله» «و اعلموا أن الأمل يسهي القلب وينسي الذكر فاكذبوا الأمل فانه غرور وصاحبه مغرور» «2» ف «إن صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين وهلاك آخرها بالشح والأمل» «3» والأمل المذموم في آيته هنا هو الملهي «وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ» وفي روايته: طول الأمل، فنفس الأمل إذا ليس مذموما فمنه ممدوح ومنه مذموم، واجمع تعبير لمذمومه «وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ».

ثم وطول الأمل مقابل قصره دون تركه عن بكرته حيث الأمل في أصله زاد الحياة وراحلتها، فقد يأمل أطول مما يعمل، رجاء زائدا على ما ينتجه العمل، فهو طول الأمل، وإذا كان دون عمل فهو أطول، وإذا كان أمل الخير من عمل الشر فأنكى وأعضل.

و قد يكون اقصر من العمل، وفيه فشل في العمل، وسوء ظن باللَّه الذي وعد على الصالحات عشر أضعافها، فان امل اقل منها، ام اقل من قدر العمل فسوء ظن بوعد اللَّه.

و اما إذا كان املا على قدر العمل فهو عدل في الأمل.

إذا فأمل الخير في عمله بين إفراط هو طوله وتفريط هو قصره، وعوان هو قصره على حدّ العمل، واما الأمل دون عمل، ام امل الخير من العمل السوء، ام امل المستحيل بعمل ودون عمل، فكل ذلك هباء خواء، تجمعها «وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ» ويقابلها أمل دون إلهاء وهو الأمل الحق على ضوء العمل الحق، او الوعد الحق وان كان دون عمل، كما وعد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر الكافي عن امير المؤمنين عليه السلام‏

(2). نهج البلاغة عن امير المؤمنين عليه السلام‏

(3). المصدر عن كتاب الخصال عن عبد اللَّه بن حسن بن علي عليه السلام عن امه بنت الحسين عليهم السلام عن‏أبيها قال قال رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) ...

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 471

اللَّه المؤمنين على نياتهم الحسنة خيرا حين لا يقدرون على العمل بها.

فحين تحصل موافقات بين القول والعمل والنية والأمل والسنة، فهنا الأمل الصالح، وفي منافقاتها في أية دركاتها الأمل الملهي، فهناك درجات وهنا دركات.

«ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا»- «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَ النَّارُ مَثْوىً لَهُمْ» (47: 12) فالأمل أملان، أمل في الحياة الدنيا تزيفه هذه الآية الوحيدة في سائر القرآن، وآخر فيما عند اللَّه له وحيدة اخرى: «وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ أَمَلًا» (18: 46).

فمن يأمل رحمة اللَّه، ويعمل لأمله بمرضات اللَّه. فهو آمل ما عند اللَّه مهما طال.

و من يأمل دنيا الحياة وزينتها، فهو عامل لها عاصيا للَّه، آملا ما لا يرضاه اللَّه مهما قصر.

فليس طول الأمل ذميما إلّا بعيدا عن مرضات اللَّه، والمؤمن أمله طويل فيما عند اللَّه لدنياه وعقباه «وَ الْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى‏» (20: 132): (رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الآْخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ‏النَّارِ» (2: 201).

و كضابطة عامة لا أمل إلّا بعمل يوافقه، فلا أمل دون عمل كما لا عمل دون أمل، صالحين كانا ام طالحين، ثم لا أمل إطلاقا فيما لا يمكن ذاتيا ام عرضيا فانه باطل قاحل.

ففي مثلث وفاق الأمل مع العمل ام نفاقه او كون أحدهما دون زميله، الحق هو الاوّل ان كان في مرضات اللَّه كما امر اللَّه.

فما كل أمل بمكروه، حيث الإنسان أيا كان يعيش الأمل ويعيشه الأمل، فان كان أملا في مرضات اللَّه على عمل وفيما وعد اللَّه فهو قضية الايمان، كما القائم المنتظر والعدل المؤمل يأمله كل مؤمن كما وعد اللَّه، ولكن شرط العمل وفق الأمل، أمل يشجّعه على‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 472

العمل الصالح لكي يصلح ان يكون من شعبه وتحت لواءه، وقد يروى عن النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) في صالح الأمل قوله: «الأمل رحمة لأمتي ولولا الأمل ما وضعت والدة ولدها ولا غرس غارس شجرا» «1».

و ان كان املا في غير مرضاته، ولا سيما دون عمل يستقبله، وانه يلهيه عن كل أمل وعمل في مرضات اللَّه، وما يعنيه في صالح الحياة الراضية المرضية، فهو من الأخسرين اعمالا وآمالا ف «ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ».

أمل خارف، وإلهاء جارف في متعة الحياة الدنيا، وهو للذين كفروا واضرابهم‏ «2». ثم امل عوان بين هذا وذاك، يأمله ضعفاء الايمان، قد يلهيهم كما إذا طال، وقد لا يلهيهم إذا قصر، أعاذنا اللَّه شره وضره.

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قل للمقيم بغير دار اقامة |  | حان الرحيل فودّع الأحبابا |
| ان الذين لقيتهم وصحبتهم‏ |  | صاروا جميعا في التراب رميما «3» |

ف «من أيقن انه يفارق الأحباب ويسكن التراب ويواجه الحساب ويستغني عما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). سفينة البحار 1: 30 عن روضة الكافي وفيه ايضا قيل بينما عيسى بن مريم جالس و شيخ يعمل بمسحاة ويثير الأرض فقال عيسى اللهم انزع منه الأمل فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة فقال عيسى عليه السلام اللهم اردد اليه الأمل فقام فجعل يعمل فسأله عيسى عن ذلك فقال بينما انا اعمل إذ قالت لي نفسي الى متى تعمل وأنت شيخ كبير فألقيت المسحاة، واضطجعت ثم قالت لي نفسي واللَّه لا بدّ لك من عيش ما بقيت فقمت الى مسحاتي‏

(2). المصدر عن الامام الصادق عليه السلام ان اللَّه تعالى يقول: وعزتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على‏عرشي لاقطعن امل كل مؤمل من الناس امل غيري ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس ولأنحينه من قربي ولأبعدنه من وصلي أيؤمل غيري في الشدائد والشدائد بيدي ويرجو غيري ويقرع بالفكر باب غيري وبيدي مفاتيح الأبواب‏

(3). سفينة البحار 1: 30 للحسن بن علي عليهما السلام:.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 473

خلف و يفتقر الى ما قدم كان حريا بقصر الأمل وطول العمل» «1» و «لولا الأمل علم الإنسان حسب ما هو فيه ولو علم حسبما هو فيه مات من الهول والوجل كفرا» «2».

فالأمل الصالح فيه حياة الإنسان، والأمل الصالح فيه هلاكه، فانه صورة حية وسيرة ميتة، لا يزال يخايل هذا الإنسان، جاريا وراءه كالماء والهواء وهو منشغل به ومستغرق فيه حتى يجاوز منطقة الامان، فيغفل حتى اللَّه، وعن كل ما يعنيه في حياته الإنسانية، وهذا هو إلهاء الأمل الطائل لهذا الإنسان الغافل.

فحين يبلغ الإنسان الى ذلك الهلاك العامد والكفر الصامد، لم تك لتنفعه الذكرى، إذا ف «ذرهم ..» «فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ» (23: 54).

«فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ» (52: 45) (قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ» (6: 91).

ذرهم في تلك الدوامة الدائمة والمصيبة القائمة، حيث الأمل يلهي والمطامع تغر، والعمر يمضي والفرصة تضيع، ذرهم فلا تشغل نفسك بهؤلاء الحماقى الهلكى الذين ضلوا في متاهة الأمل الغرور.

وَ ما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَ لَها كِتابٌ مَعْلُومٌ (4) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ (5).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. المصدر عن الكنز قال امير المؤمنين عليه السلام:

(2). المصدر عن امير المؤمنين عليه السلام: ... و

فيه ان اسامة بن زيد اشتري وليدة بمأة دينار الى شهر فسمع رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله وسلم) فقال: الا تعجبون من اسامة المشتري إلى شهر إن اسامة لطويل الأمل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 474

فكما سنة اللَّه لا تتخلف وهي جارية في كل فرد، كذلك في كل امة وقرية، فلها «كِتابٌ مَعْلُومٌ» عند اللَّه مهما جهلوه وأنكروه، وعلى حسب الأمل والعمل يكون الأجل، دونما فوضى جزاف، و «ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها» المكتوب لها «وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ» عنه «وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ» (7: 34).

فلا تحسبنّ امة ولا تحسبنّهم أنه يلهى عنهم فيما هم فيه مقترفون، حيث الأجل ينتظرهم قريبا ام بعيدا، و «إِنْ مِنْ أُمَّةٍ» تعم امم الخير والشر، فقد يعجّل لامة الشر أجله، أو يؤجل لامة الخير اجله وكل في كتاب.

«ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ ما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» 96.

«ما عندكم» ككل وإياكم «ينفد» وهو نافد في أصله بوصله وفصله على أية حال، مهما كان له بقاء حينا او أحيانا «وَ ما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ»- «وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» (42: 36) واين بقاء من بقاء، فانه في الحق فناء أمام ذلك البقاء.

ضابطة عامة تستغرق كل ما عندنا نفادا، وما عند اللَّه بقاء دونما استثناء، ولأن «باق» تقابل «ينفد» فلتعن الأبدية بإرادة اللَّه، إذا فما عند اللَّه من الجنة ونعيمها باق بأهلها لا يزول، ومما عندنا العذاب على ما عندنا من أسبابه فهو ينفد مهما كان خلودا ابديا! بل وكذلك خير ما عندنا لو لا رحمة اللَّه وفضله وعطاءه غير المجذوذ، حيث يستمر بخيراتنا استطارة لها الى يوم القيامة والى غير النهاية.

و من البقاء لما عند اللَّه «وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» فأحسن ما كانوا يعملون هو جزاءهم «لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (9:

121) كما به جزاءهم بأحسن جزاء وهو الجزاء الباقي.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 475

فقد يجزى المحسن الصابر بكل حسناته، فجزاءه إذا درجات، ولكنه يجزى بأحسن اعماله فجزاءه كله بأحسن درجات، ام يجزى بأحسن ولكنه على قدره فهو مما ينفد، ولكنه جزاء بالأحسن من احسن اعماله فهو باق «وَ ما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ».

و ليس هناك إلغاء في جزاء الحسن من الأعمال، بل الحسن يجزى به كما الأحسن لأنه صبر في اللَّه و «إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ».

و ليس الصابرون فحسب هم مخصوصون بهذه الكرامة الغالية، بل هي جزاء كل من عمل صالحا:

«مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى‏ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» 97.

قاعدة مطردة في كافة الصالحات للصالحين والصالحات، وإذ «لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» فالحياة الطيبة الموعودة هي على قدر الصالحات دون اية فوارق من جنس ام جنسيات، فالذكر والأنثى متساويان في قاعدة العمل وفائدته العائدة.

و «صالحا» هنا هو الصالح لحياة طيبة حيث يخلّفها فتخلفه برحمة اللَّه وبركاته شريطة الايمان، وتلك هي من مظاهر الصالحات في هذه النشأة الاولى، واما الاخرى:

«وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» حياة طيبة اخرى تلو الاولى وظهورا تاما لملكوتها «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏. وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى‏، ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى‏».

فمن هذه الحياة الطيبة حياة النصرة الإلهية «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» (40: 51) ومنها ولاية الملائكة لهم «نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الآْخِرَةِ» (41: 31)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 476

و بشرى اللَّه فيها: «أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ. لَهُمُ الْبُشْرى‏ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الآْخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (10: 64) و «القنوع بما رزقه الله» «1» مما يسلب عنه الخوف والحزن في الحياة الدنيا و الآخرة أحرى.

و تثبيتهم بالقول الثابت «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الآْخِرَةِ» (14: 27) وبصيرة نافذة في الحياة الدنيا تتخطى ظاهرها الى باطنها خلاف من سواهم الذين «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الآْخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ» (30: 7) وتثبيتا لإيمانهم «أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ» (58: 22).

و سداسية النصرة هذه هي الحياة الطيبة الايمانية التي يخلّفها العمل الصالح قدره، فيصبح المؤمن دنياه نموذجا من الآخرة حيث يجعلها مزرعة لآلخرة! بجناحي علم الايمان وقدرته القاهرة المشيرة إليهما الآيات الست.

و هنالك يتهدم صرح الضلالة الجاهلية من حرمان المرأة من كل مزية دينية او جلّها ام قسم منها، فالمحور الأصيل للحياة الطيبة في الدنيا والآخرة هو عمل الصالحات على قاعدة الايمان، أيا كان العامل، ذكرا ام أنثى، كبيرا أو صغيرا، وضيعا او شريفا، فلا شرف وحياة طيبة الا بشرف الايمان وعمله الصالح، دون أية شريطة اخرى تكمل هذه الحياة ام تنقصها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. نور الثقلين 3: 83 عن تفسير القمي في الآية قال: ... وفي نهج البلاغةو سئل عن هذه الآيةفقال: هي القناعة وفي تفسير البرهان 2: 382 عن امالي الشيخ بسند متصل الى عبيد الله بن المنصور قال حدثني الإمام علي بن محمد قال حدثني أبي محمد بن علي قال حدثني أبي علي بن موسى بن جعفر قال: قال سيدنا الصادق عليهم السلام قوله: فلنحيينه حياة طيبة قال: القنوع‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 477

و هذه الحياة تفارق سائر الحياة لسائر الاحياء الذين فارقوا الايمان وعمل الصالحات، بل هي حياة جديدة تستمر معه من هنا الى البرزخ والى القيامة الكبرى بصورة ازكى وأنمى، فحياته السابقة إذا لا تحسب حياة بل هي ممات: «أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها ..»

(6: 122) و «إِنَّ الدَّارَ الآْخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ» (29: 64) وكما يترجاها من لم يقدم لها من أولاها «يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي» (89: 24).

و هذه الحياة الطيبة هي التي يتطلبها عباد اللَّه الصالحون ليل نهار: «رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الآْخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ النَّارِ» (2: 201) يعنون حياة حسنة، ودنياها هي التي تحضّر لآخراها.

و انما يتقدم صالح العمل هنا على صالح الايمان تاشيرا عشيرا للمؤمنين ان العمل هو الغاية القصوى من الايمان، كما العلم ذريعة العمل، فالعلم والايمان هما ذريعتان اثنتان لصالح العمل.

ثم نرى الايمان يتقدم على عمل الصالحات في سائر القرآن، حيث الايمان هو عمل القلب، وهو متقدم على عمل القالب، وهو ام لاعمال الجوارح، وهي تستخدم لمزيد اليقين: «وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» كما اليقين مستخدم للعبودية «ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ».

إذا فالإيمان وعمل الصالحات جناحان اثنان للطائر القدسي الانساني الى بغيته من خلقه، كل يؤيد الآخر ويزيده رقيا وكمالا، وقاعدة العمل الصالح التي يرتكز عليها هي قاعدة الايمان «وَ هُوَ مُؤْمِنٌ» فالعقيدة الصالحة هي المحور الذي تشد اليه الخطوط بأسرها عن أسرها، وإلا فهي أنكاث، ثم لا يهم الحياة الطيبة على ضوءهما ان تكون‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 478

ناعمة بنعمة المال والمنال، فالاتصال باللَّه، والاطمئنان الى رعايته وستره ورضاه- وفيها طمأنة القلب- ذلك يكفي تطييبا للحياة مهما اعترضتها حرمانات مادية واصطدامات في هذه السبيل المليئة بالاشلاء والدماء.

و هذه الحياة الطيبة اضافة الى انها لا تنقص من احسن الأجر في الاخرى، تزيده حسنا على حسن لأنها ذريعتها وطريقتها المثلى.

ثم الجزاء بأحسن ما كانوا يعملون يلمح الى عفوة عن السى‏آت، وزيادة في الدرجات، فلا يجزى- إذا- بالسيئات، ولا بالحسنات على قدرها، وانما «بِأَحْسَنِ ماكانُوا يَعْمَلُونَ» وما أفضله وأطيبه جزاء! بل وقد يبدل اللَّه سيئاتهم حسنات كما يبدل حسناتهم بأحسنها فيجزيهم- إذا- بأحسن ما كانوا يعملون، ومن ذلك رزقهم في الجنة بغير حساب:

«وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى‏ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ» (40: 40). لا حساب لسيئاتهم فان قاعدة حياتهم هي العمل الصالح بإيمان، و لا حساب لرزقهم بقدر صالحاتهم، ف «إذا عرفت الحق فاعمل ما شئت من خير يقبل منك» «1».

و ليست هذه الحياة الطيبة هي- فقط- روح الايمان، فانها تتبنى الإيمان ويتبناها الإيمان، بل هي كما تقول الآيات: نصرة الايمان، وكتابته تثبيتا له في قلوب المؤمنين،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 83 عن معاني الاخبار عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قيل له ان أبا الخطاب يذكر عنك انك قلت له: إذا عرفت الحق فاعمل ما شئت قال: لعن اللَّه أبا الخطاب واللَّه ما قلت هكذا ولكني قلت له: إذا عرفت الحق فاعمل ما شئت من خير يقبل منك ان اللَّه عز وجل يقول: «مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى‏ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ» ويقول تبارك وتعالى: «مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى‏ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 479

وإنارة زائدة لقلوبهم وبصائرهم، وتثبيتا بالقول الثابت.

و على الجملة تصبح حياته الدنيا نموذجة صادقة عن الحياة الاخرى، التي هي الحياة لا غيرها: «وَ إِنَّ الدَّارَ الآْخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ» «يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي» (89: 24) (وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» (42:

36).

فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ 98.

و ترى الاستعاذة المأمور بها هنا هي في ختام القراءة لمكان «فَإِذا قَرَأْتَ» حيث الجزاء «فاستعذ» ليس إلا تلو الشرط واقعيا كما هو ادبيا؟

و الاستعاذة تعني فصل الشيطان عن قارئ القرآن حين يقرء، كما «وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآْخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً» (17: 45)! ام «إذا قرأت» تعني بداية القراءة، كما: إذا سافرت فخذ زادك معك؟

ام تعنيهما حيث القارئ بحاجة الى الاستعاذة بعد ختام القراءة حفاظا على ما تلقى، كما يحتاج إليها في بدايتها لكي يتلقى معانيها كما هيه، دون وسوسة شيطانية.

ام ان هذه الاستعاذة تحلق على قارئ القرآن حين القراءة كما في البداية والنهاية، ولأنها ليست- فقط- لفظة تقال مهما كانت هي منها، وانما حقها وواقعها ان تستعيذ بقلبك، تفريغا له عن الشيطان وكل الشيطنات، ففروغا لتجلى وحي القرآن «فقارئ القرآن يحتاج الى ثلاثة أشياء قلب خاشع وبدن فارغ وموضع خال، فإذا خشع لله قلبه فر منه الشيطان» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مصباح الشريعة عن الامام الصادق عليه السلام استنادا الى هذه الآية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 480

ثم و «قرأت» الماضي تتحول الى المستقبل قضية الشرط، فالمعني- إذا- لما تقرء القرآن .. و هذا يعم حالة القراءة كلها منذ البداية حتى النهاية، دون اختصاص بنهاية ام بداية.

و هنا الاستعاذة بالقلب وسائر الأحوال الباطنية والظاهرية فيما سوى اللسان، تحلق على جو القراءة على اية حال، وهي باللسان كإذاعة لما في الجنان- تكون في البداية والنهاية دون حال القراءة حذرا من الاختلاط، فقل: أعوذ باللَّه .. أولا، وقل أعوذ باللَّه آخرا، وكن أعوذ باللَّه في نفسك وكل كيانك أولا وآخرا وفيما بينهما.

استعذ باللَّه من الشيطان الرجيم الذي يحول دون قراءتك، او التأمل فيما تقرء ترتيلا لفظيا او معنويا، او يضلك في معانيه، ام يزل بك في تصديقه او تطبيقه، ام اي امر أريد به، ولتعرف انك تقرء منشور ولاية ربك لكي تتخلق به فتصبح قرآنا بكل كيانك كما نبي القرآن، فحين تعلم متأكدا ان اللَّه اصطفاه على سائر وحيه على أنبياءه تبيانا لكل شي‏ء وهدى ورحمة للمؤمنين، فلا يحيد بك اي شيطان من إنس او جان عن الأنس به طول حياتك.

و لتعرف ان اعداء القرآن أكثرهم عددا، وأعظمهم في صنوفهم مددا، قد يأتونك عداء سافرا، واخرى متظاهرين بمظاهر الحب والحفاظ على كيان القرآن «فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ».

و ما الاستعاذة اللفظية الا حاكية عن ذلك، فإذا استعاذ القلب استعاذ القارئ بجملته، ومن الجملة الظاهرة الحاكية عن الاستعاذة القلبية هي اللفظية.

فالاستعاذة في بداية القراءة تمهيد للجو الذي يتلى فيه كتاب اللَّه، وتطهير له من الوساوس والهواجس، واتجاه بكل المشاعر الى اللَّه خالصة مخلصة، لا يشغلها شاغل من‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 481

الشيطان.

ثم هي قلبيا على طول خط القراءة ضمان لسلامة التفهم وسلالة التصديق، ومن ثم ضمان لدائب الأثر على اثر القراءة، فيعيش القارئ- إذا- ولا سلطان عليه من شيطان مهما وسوس له فان صلته باللّه تعصمه عن الانسياق معه والانقياد اليه.

هنا المأمور بالاستعاذة أولا هو الرسول صلى الله عليه و آله ثم الذين معه على الأبدال وأحرى لهم وأولى لمكان عصمته دونهم، فهو- إذا- يستزيد عصمة وهم يعتصمون دون عصمة، ولكنه ليس يستعيذ- فقط- لنفسه، بل ولامته «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ» (22: 52) وما أمنية الرسل الا هدى الناس، وما الإلقاء فيها الا الغاء تأثير دعواتهم فيلغي اللّه ذلك الإلقاء ثم يحكم اللّه آياته.

و لقد أمر الرسول ان يعوذ برب الفلق وبرب الناس، لكي يفلق ما يغلقه الشيطان على الناس.

و ترى ما هي صيغة الاستعاذة اللفظية؟ المستفادة من هذه الآية: أستعيذ باللّه من الشيطان الرجيم‏ «1»؟.

و لأن الاستعاذة هي طلب العوذ فقد يصح «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» كما في المعوذتين «أعوذ» «2» والأرجح اضافة السميع العليم:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 85 في تفسير العياشي عن سماعة عن أبي عبد اللّه عليه السلام في الآية قلت كيف أقول: قال: تقول أستعيذ باللّه السميع العليم من الشيطان الرجيم‏

(2). الدر المنثور 4: 130- اخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في سننه عن جبير بن مطعم ان النبي صلى الله عليه و آله لما دخل في الصلاة كبر ثم قال: أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم وفيه اخرج ابو داود والبيهقي عن أبي سعيد قال كان رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله) إذا قام من الليل فاستفتح الصلاة قال: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك الا اله غيرك ثم يقول: أعوذ باللّه السميع العليم من الشيطان الرجيم وأخرجه ابو داود و البيهقي عن عائشة في ذكر الافك قالت: جلس رسول اللّه صلى الله عليه و آله وكشف عن وجهه وقال: أعوذ باللّه السميع العليم من الشيطان الرجيم ان الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم الآيات‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 482

«وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ» (7: 201).

و هل الاستعاذة واجبة للقراءة للأمر بها في الآية، ام واجبة على الإطلاق لأمر المعوذتين؟

لا! إنما هي راجحة للقراءة حيث القراءة في نفسها غير واجبة- الا قدر الواجب من المعرفة- فكيف تجب لها الاستعاذة، وباحرى في غير القراءة، ولكنها قلبيا وعمليا واجبة ارشادية لكيلا يقع المؤمن في فخ الشيطان، او يعني الأمر بالاستعاذة ايجابيا انها- ولا سيما قلبيا- هي شرط صحة القراءة، ثم ولا منافاة بين ندب القراءة ووجوب الاستعاذة عندها، كرد السلام فانه واجب عند بدئه وهو راجح، ام ان الاستعاذة الواجبة هي القلبية قدر المستطاع، فلأن مهبط القرآن لسانا وسمعا وقلبا وعملا، يتطلب نزاهة من الشيطان، فاستعذ باللّه من الشيطان الرجيم قبل القراءة تسلم قراءتك عن وساوسه، واستعذ باللّه فيه بعد ختامها لتسلم قراءتك من هواجسه، واستعذ بينهما لئلا يداخلك في هذا البين، والاستعاذة القلبية في هذه الثلاث هي لزام سلامة القراءة، وهي باللسان ادب البداية وحدب النهاية.

فلتعش الاستعاذة في قراءتك منشور ولاية ربك، لتعيش في ظلالهما القرآن بقلبك‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 483

وقالبك.

و لتعارض كل شيطان- من انس او جان يمنعك عن القرآن- بكل طاقاتك وإمكانياتك كفاحا صارما بالأسلحة المضادة المناسبة لمصائد الشيطان ومكائده.

اننا ما أمرنا بالاستعاذة من الشيطان في أية عبادة ام قراءة إلا القرآن، لأنه الشامل لكل وظائف الولاية الإلهية، فالاستعاذة عند قراءته تحلق على كل ما يرضاه الرحمان، «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»! ولماذا نستعيذ باللّه من الشيطان الرجيم؟ ل: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ 99 إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ 100.

ف «آمنوا» متمثل في قراءة القرآن، وهنا نعرف المعني منها انها قراءة التفهم فالتصديق والايمان، «وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» متمثل في استعاذتهم، وهنا نعرف انها ليست فقط لفظة تقال والقلب خاو، فالإيمان باللّه والتوكل على اللّه على ضوء كتاب اللّه هو الضمان الأمان عن سلطان الشيطان، فكل من الايمان دون توكل والتوكل دون ايمان خاويان، وسلطان الشيطان مستقر فيهما كما كان فيمن يفقدهما معا، مهما اختلف سلطان عن سلطان، فالإيمان في بعدي الجنان والأركان يتكفل الواجهة الاختيارية للإنسان قدر الإمكان، ثم التوكل ضمان لبقاء الايمان وتكامله.

و ليس سلطانه أية وسوسة منه تحمل المؤمن على لمم ام يزيد، بل هو سلطان له على اصل الايمان، ان يتولاه المؤمن ويشرك به، كما هو المستفاد من الحصر «إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ»:

«قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ. إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ. وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ» (15: 43) والمؤمن العاصي ليس من اهل الجحيم،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 484

فليست الغواية بسلطانه إلّا خروجا عن سلطان الرحمن الى سلطان الشيطان بزوال الايمان.

إذا «فليس له ان يزيلهم عن الولاية (الإلهية) فأما الذنوب وأشباه ذلك فإنه ينال منهم كما ينال من غيرهم» «1» فقد «يسلط والله من المؤمن على بدنه ولا يسلط على دينه» «2»: قضاء عليه ام نيلا منه تركا له الى دين الشيطان، ومهما اخطأ المؤمن بوسوسته ليس ليستسلم له متوليا له ولاية المحبة ام ولاية السلطة، بل يتولى عنه إذا مسه: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ. وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ» (7: 202).

و كما أن مس الشيطان مس للروح، كذلك التذكر الذي يطرده دحرا هو تذكر الروح سلبا بالاستعاذة وإيجابا بالبسملة، مهما استعاذ وبسمل بلسانه، كما بقلبه وسائر أركانه، فالأصل هو القلب ثم القالب ومن ثم اللسان الحاكي عنهما، استعاذة مثلثة الزوايا، قاعدتها القلب، وعمودها القالب واذاعتها اللسان واللّه خير مستعاذ به ومستعان.

هذا ولكن حذار حذار من خطوات الشيطان حيث يخطو من الصغائر إلى الكبائر والى الشرك باللّه والإلحاد في اللّه، ولذلك يومر الذين آمنوا ان يعيشوا الاستعاذة باللّه من الشيطان الرجيم بكل طاقاتهم وامكانياتهم متوكلين في كل ذلك على اللّه.

و هنا تتقدّم «الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ» على «الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ» تلميحا ان توليه قبل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 86 في تفسير العياشي عن حماد بن عيسى رفعه الى أبي عبد الله عليه السلام قال‏سألته عن قول الله: انما سلطانه .. قال: ليس له ..

(2). المصدر في روضة الكافي بسند متصل عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال قلت له: فإذاقرأت ... وعلى ربهم يتوكلون فقال: يا أبا محمد يسلط ... قلت قوله عز وجل: انما سلطانه .. قال: الذين هم باللّه مشركون يسلط على أبدانهم وعلى أديانهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 485

الإشراك به، فكل دركة من دركات تولّيه حركة الى دركة من الإشراك به، ف «الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ» هم غير المشركين، مهما اختلفا في درك الضلال، كما اختلف سلطان عن سلطان، حيث الاول خطوة الى الثاني، كما ودوامة السى‏آت خطوات الى توليه.

و هنا «به مشركون» قد يعني يشركون بالشيطان حيث أشركوا باللّه سواه بواسطته، ام «بالله مشركون» «1» والمعنيان علهما معنيّان، حيث الإشراك باللّه ليس الا بالشيطان، مهما اختلف المعني من الباء هنا وهناك سببية «2» وتعدية والاولى مقدمة على الثانية حيث الإشراك باللّه ليس الا بسبب الشيطان.

ثم الشيطان تعم كافة شياطين الجن والانس، فان الاسم الخاص لزعيم الشياطين هو إبليس، وهو يضل أولياءه والذين هم به مشركون بخيله ورجله، بذريته الشياطين وسواهم من الشياطين، كما ويضلهم بنفسه، حيث يتولونه ويستسلمون له بشهواتهم ونزواتهم حتى يشركوا باللّه، وعوذا باللّه.

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِيزانَ وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17).

ترى أليس الكتاب هو الميزان فكيف يردف به الميزان؟ أم هو ميزان ثان؟ «3» لقد ذكر الميزان هنا وفي الحديد عدلا للكتاب «وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان 2: 384 عن الكافي عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال قلت له: فإذا قرأت القرآن ... فقال‏يا محمد يسلط واللّه من المؤمن على بدنه ولا يسلط على دينه وقد سلط على أيوب فشوه خلقه ولم يسلط على دينه وقد يسلط من المؤمنين على أبدانهم ولا يسلط على دينهم قلت له قوله عز وجل «إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ»؟ قال: الذين هم باللّه مشركون يسلط على أبدانهم وعلى أديانهم‏

(2). فان أشرك بالشيطان يعني بسببه وأشرك باللّه يعني أشرك غيره به فهذه للتعدية وتلك‏للسببية

(3). راجع ج 27 الفرقان ص 170 حول آية الميزان‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 486

بِالْقِسْطِ .. (57: 25) ومن ثم ميزان موضوع في الرحمان مع رفع السماء «وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ» «1» (55: 9).

فهنالك ميزان هو القرآن، أصلا يرجع إليه كل ميزان حتى نبوّة نبي القرآن، ثم ميزان فيه و في السنة المحمدية يعرف بهما معارف القرآن، ومن ثم ميزان متصل به كيانا منفصل عنه كونا للتعرف الى القرآن وتطبيقه وتأسيس دولته: هو نبي القرآن (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وخلفاءه المعصومون عليهم السلام والعلماء الربانيون، ومن قبل ميزان الفطرة والعقل والعلم يعرف بها وحي القرآن وأهل بيت القرآن‏ «2»، وميزان العدل والقسط حيث يكرّسهما القرآن، ويكرّسان لتطبيق القرآن في الاولى، وللحساب يوم يقوم الحساب قسطا و عدلا وكتاب الأعمال وكتّاب الأعمال وقلب محمد (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) وقلوب المحمديين المعصومين الطاهرين: عليهم السلام: «وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ إِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَ كَفى‏ بِنا حاسِبِينَ» (21: 47) موازين متصلة كيانا بالقرآن مهما كانت منفصلة كونا عن القرآن، حيث القرآن هو الأصل في الميزان ثم الفروع هي سائر الميزان.

و قد يعني الكتاب هنا جنس الكتاب قرآنا وما قبله من كتاب، فمن الميزان إذا المعجزات التي تثبت وحي الكتاب كما سوى القرآن، وأما القرآن فهو أمّ المعجزات كما هو أم الكتاب.

و «بالحق» هنا تبيّن موقف الكتاب أنه يصاحب الحق، وأن نزوله بسبب الحق تبيانا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر ص 18- 20 حول آية الميزان‏

(2). نور الثقلين 4: 568 في تفسير القمي في الآية قال: الميزان امير المؤمنين عليه السلام والدليل على‏ذلك قوله عز وجل في سورة الرحمن «وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ قال: يعني الإمام»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 487

وتطبيقا للحق، ثم الحق في الكتاب الأخير ثابت لا ينسخ، فهو حق مطلق مطبق مهما كان الحق في كل كتاب قبله لردح من الزمن غير مطلق.

«وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ»:

(يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً) (33: 63) (وَ يَقُولُونَ مَتى‏ هُوَ قُلْ عَسى‏ أَنْ يَكُونَ قَرِيباً) (17: 51) إن «لعل وعسى» ترجّ في ظرف الشك، ظنا دون علم، ف «إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ» في الأحزاب بيان لحالة الشك في أنها متى؟ أقريب أم بعيد؟ ثم «لعل» فيها وفيما هنا و «عسى» في الأسرى ترجّ في قربها يخرجه عن الشك إلى وشك اليقين وأشرافه بأنها قريب، وما يدريه إلّا من أدراه كل ما دراه من وحي الرسالة أنه قريب، كما وأدراه أخيرا بقربها: (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً.

وَ نَراهُ قَرِيباً) (70: 6) قريبا في واقعها كقربها في ميزان الفطرة والعقل والعلم والعدل لزمن بعيد أم قريب وكل آت قريب. «لعل وعسى» هنا وهناك لا تعني ترجّي اللَّه، وإنما ترجّي الرسول بما أدراه اللَّه، و من ثم العلم حيث أتم ترجيّه، وعلّ «لعل وعسى» فيما يؤمر الرسول (صلى اللَّه عليه وآله و سلم) هنا أن يقول مماشاة مع خصومه الناكرين ليوم الدين.

ترى ما هو المأخذ هنا في قرب الساعة حيث الوسط هو زمن نبي الساعة؟ «1» هل هو بداية الخلقة؟ والساعة الحساب الجزاء لا تعني ايّ كائن! أم بداية خلقة المكلفين من النسل الأخير جنا أو إنسانا أو أيا كان فإنه موضوع هذا البيان؟ ولا يخصهم يوم الجمع مهما خصهم هذا البيان! أم هم المكلفون أجمع بمن فيهم هذا النسل الأخير؟ وقد يقربنا أن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تأتي الساعة في 48 موضعا تعني القيامة الا «ساعَةِ الْعُسْرَةِ» و «ساعَةً مِنْ نَهارٍ» و «ما لَبِثُواغَيْرَ ساعَةٍ» و «لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً» ف 44 موضعا تعني القيامة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 488

الخطاب موجه إلى هذا الأخير، ثم لا يجدينا قرب الساعة إذا كان المبدء بداية خلق المكلفين، إذ لا نعلمها- و إن على وجه التقريب- حتى تفيدنا أن الساعة قريب، فلتكن الساعة أقرب إلى نبي الساعة منه إلى بداية النسل الأخير من الإنس، حيث الجن موقفه كمن سلف من أنسال لا يدرى متى خلقوا.

يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (18).

يستعجلون بها حيث لا تحس قلوبهم هو لها فلا يحومون حولها إلا هزوا لو أنها آتية فمتى؟ ولماذا لا تأخذنا «وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ..» (22: 47).

و امّا الذين آمنوا فهم «مُشْفِقُونَ مِنْها» ولأن الإشفاق هي العناية المختلطة بخوف حيث يحب المشفق المشفق عليه ويخاف ما يلحقه تقصيرا منه لا من المشفق عليه، إذا فهم لا يستعجلونها بل قد يستأجلونها ليتهيئوا لها حيث «يَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ»!.

ثم العناية قد تربو الخوف كأنه لا خوف: «إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ» (52: 26) أم الخوف يربوها كان لا عناية: «تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَ هُوَ واقِعٌ بِهِمْ» (42:

22) (وَ وُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الُمجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ» (18: 49) أو الخوف يربوها وهي موجودة: «فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها» (33: 72) أم هما سيان حيث الخوف والرجاء يتساويان كما هنا «وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها ..» وفي أضرابها: «وَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ» (70: 27) ضروب أربعة من الإشفاق تشارك فيها العناية والخوف.

ثم المستعجلون بها يمارون فيها، ظلمات بعضها فوق بعض في نكرانها: «ألا» فانتبهوا «إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ» جدالا في حجج داحضة، إنهم «لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ»: بعيد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 489

عن النجاة حيث أوغلوا فيه معاندين متعنتين، وبعيد عن الفطرة والعقل والعلم والعدل، فلا يماري في الساعة إلّا من غرب عقله، وحجبت فطرته، وبرزت شقوته.

فالضلال القريب هو الضلال القاصر حيث يرجى بوصول البينة زواله، والضلال البعيد هو المقصر بعد تمام الحجة فلا يرجى إذا زواله، حيث المماراة هي الجدال في الحق كأنه باطل فيه مرية، ولكي يستأصل فلا تبقى له باقية.

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19).

اللطيف هو صاحب اللطف الدقيق الذي لا يعزب عن علمه وقدرته وحيطته شي‏ء واللَّه لطيف في ذاته حيث لا تدركه الأبصار، ولطيف بعباده حيث يدرك الأبصار، ولان اللطيف بعباده عليم بهم خبير لم يوصف اللطيف فيما وصف إلا بالخبير «1» ولأنه «هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» (12: 100). إنه «يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ» لأنه «لَطِيفٌ بِعِبادِهِ» والرازق اللطيف حيث يعلم الحاجة والمصلحة فيلطف قد لا يكون قويا على مرامه عزيزا، ولكنه «هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ» فعلمه بعباده وعطفه وقوته وعزته تجعل رزاقيته تامة لا حول لها دون أن يمنعه مانع منه أو سواه، فلا بسط الرزق لمن يبسط له لمزيد اللطف والقوة والعزة، ولا من قدر عليه رزقه لنقصان هنا أو هناك، وإنما كل لكل حسب الحكمة، والرزق يعم المعنوي منه كالرسالة و ولاية الأمر الإمامة والمادي منه كسائر النعم غير الروحية.

و ترى ما هي الرباط بين آية اللطف وما قبلها من آية الساعة وما بعدها من حرث الدنيا والآخرة؟.

هي أن الساعة الحساب الجزاء هي قضية اللطف القوة العزة، وكذلك إيتاء حرث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 568 في اصول الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قلت: اللَّه لطيف‏بعباده يرزق من يشاء؟ قال: ولاية امير المؤمنين؟

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 490

الدنيا لمن يريدها، وزيادة الحرث لمن يريد الأخرى: مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآْخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَ ما لَهُ فِي الآْخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (20) «1».

تشبيه عجيب وتمثيل مصيب، فحرث الآخرة والدنيا هو كدح الكادح لثواب الآجلة وحطام العاجلة، حيث الحارث المزدرع إنما يتوقع عاقبة حرثه فيجني ثمار غراسه ويفوز بعوائد ازدراعه.

إن الدنيا بما يسعى فيها مزرعة قد تعنى لها نفسها او تعنى لآلخرة «فالدنيا مزرعة الآخرة» ولذلك يتقدم هنا «حَرْثَ الآْخِرَةِ» رغم تقدم الدنيا بحرثها في نقدها على الآخرة، ف «إِنَّ الدَّارَ الآْخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ» (29: 64).

إنما الدنيا زرع «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» فمن كان يريد منه حرث الآخرة يزد اللَّه له في حرثه ولا يحرمه دنياه كما يصلح لآخرته، ومن كان يريد منه حرث الدنيا يؤت منها، شيئا مما أرادها لا كلها، وما له في الآخرة من نصيب.

فانظر إلى طلاب حرث الآخرة والأولى تكشف عن الحماقة الكبرى في إرادة حرث الدنيا، وهو آت لا محالة لمن أرادها أو لم يردها، فلكلّ نصيبه من حرث الدنيا وفق المقدّر له في حكمة اللَّه ثم يبقى حرث الآخرة خالصا لمن أراده وعمل له «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً،

وَ مَنْ أَرادَ الآْخِرَةَ وَ سَعى‏ لَها سَعْيَها وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً. كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً. انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ وَ لَلآْخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلًا» (17: 20) (مَنْ كانَ يُرِيدُ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). للاطلاع على تفصيل البحث راجع آية العاجلة في الأسرى‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 491

الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ. أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآْخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (11: 18).

من طلاب حرث الدنيا نجد أغنياء وفقراء، ومن طلاب حرث الآخرة نجد فقراء وأغنياء، وأين فقراء من فقراء وأغنياء من أغنياء، فكل ذلك محسوب حسب أسباب الرزق المتعلقة بالأوضاع العامة والاستعدادات الخاصة، وإن كان الأغنياء في طلاب الدنيا أكثر من طلاب الآخرة، وترى كم عمق هذا الحمق الذي يحصر الهم في إرادة حرث الدنيا ويحسره عن إرادة حرث الآخرة؟ إن الزيادة في حرث الآخرة مزيد رحمة من اللَّه لطلابها في تقواهم والتسوية أو النقيصة في حرث الدنيا كذلك مزيد رحمة على العباد «وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ» (42: 27) وترك لتأييد أهل الدنيا في طغواهم.

ثم وإرادة حرث الدنيا قد تكون بعمل الآخرة فهي أردأ وأنكى وأضل سبيلا: ف «من أراد الحديث لمنفعة الدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب ومن أراد به خير الآخرة أعطاه الله خير الدنيا والآخرة» «1» و «ان المال والبنين حرث الدنيا والعمل الصالح حرث الآخرة وقد يجمعهما الله لأقوام فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه واخشوه خشية ليست بتعذير واعملوا في غير رياء ولا سمعة» «2» و «من كانت نيته الدنيا فرق الله عليه أمره وجعل الفقر بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ومن كانت نيته الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة» «3» وقد قال (صلى اللَّه عليه وآله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 569- ح 52 عن اصول الكافي بسند عن أبي عبد الله عليه السلام‏

(2). المصدر ح 54 بسند خطب امير المؤمنين عليه السلام وقال: اما بعد- الى ان قال-: ..

(3). مجمع البيان وروي عن النبي (صلى اللَّه عليه وآله وسلم): ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 492

وسلم): «بشر هذه الأمة بالسنا والرفعة والنصر والتمكين في الأرض ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب» «1» قال تعالى: «ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك» «2».

ولما يصل امير المؤمنين علي عليه السلام إلى هذه الآية يبكي ويقول: «اللهم إني اسألك إخبات المخبتين وإخلاص الموقنين ومرافقة الأبرار واستحقاق حقائق الإيمان والغنيمة من كل بر والسلامة من كل إثم ورجوت رحمتك والفوز بالجنة والنجاة من النار «3».

وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ: «و لكل» من الفريقين: صالحين وطالحين «درجات»: للمؤمنين حسب مراتبهم درجات، ولغيرهم كذلك دركات، و ليست فوضى وبلا حساب وإنما «مِمَّا عَمِلُوا»: سعوا- في أعمال الإيمان وعقائده وأقواله، في مثلث الإيمان درجات وكما في كل زاوية منه درجات، كذلك وثالوث اللاإيمان دركات كما في كل زاوية منه دركات «وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ».

و كما أن درج المؤمن والكافر في درجة واحدة ظلم، كذلك درج كل من الفريقين في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 5- اخرج احمد والحاكم وصححه وابن مردويه وابن حبان عن أبي بن كعب‏ان رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) قال: ...

(2). المصدر- اخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال: تلا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه وآله وسلم) من كان يريد حرث الآخرة ... ثم قال: يقول اللَّه: ابن آدم ..

(3). اخرج ابن النجار في تاريخه عن رزين بن حصين قال: قرأت القرآن من اوّله الى آخره على علي بن أبي طالب عليه السلام فلما بلغت الحواميم قال لي قد بلغت عرائس القرآن فلما بلغت اثنتين وعشرين آية من حم عسق بكى ثم قال: اللهم ... أقول: هذه الآية حسب ما عندنا هي العشرين ولعله عليه السلام حسب البسملة آية ثم آية اخرى في هذا البين آيتين فأصبحت هذه الآية الثانية والعشرين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 493

درجة واحدة، رغم اختلاف درجاتهم: ظلم: «أَ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللَّهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ. هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ» (3:

163) (ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى‏ بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها غافِلُونَ. وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ» (6: 132).

ثم هنا درجات حسب الصالحات والطالحات «مِمَّا عَمِلُوا» وهناك درجات الاستعدادات ليست مما عملوا، وإنما ابتلاءات من اللّه: «وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ» (6: 165) (وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا» (43: 32).

و إنما الجزاء الحساب يوم الحساب حسب الدرجات مما عملوا، لا ما خلقوا عليها بلاء وامتحانا، مهما أملوا! كما وان من الدرجات هي العلى «فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى‏» (20: 75) ومنها الدرجات الدنا التي هي دركات و «إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وَ إِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَ يُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً» (4: 40) (وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى‏ إِلَّا مِثْلَها وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ» (6: 160). ف «هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ» (3: 163): (وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا» لماذا؟ .. وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ فعطف الواو هنا يعطف بنا إلى المحذوف من غايات الدرجات، فأعمالهم هي التي تجعلهم عند اللّه وبإذنه درجات، وإن كانت الحسنات بفضله مضاعفات، وإن كانت بعض السيئات بفضله مكفرات، ولكنما الأصل المذكور هنا: وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ توفية عدل، وإن كان هناك فضل فوق عدل، وليس هنا ظلم دون عدل.

ثم إن توفية الأعمال؟ هي الوفاء الكامل للعاملين بنفس الإعمال: إبرازا لصورها وأقوالها المسجلة في مختلف السجلات الكونية: من أرض بفضائها، ومن أعضاء العاملين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 494

لهما أم ماذا يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً (3: 30).

فهي تشهد لك أو عليك يوم يقوم الإشهاد، فتعذب بها نفسيا أو تتلذذ على رؤوس الاشهاد، ثم هي تتحول بإذن اللّه إلى ملكوتها وحقائقها الشريرة أو الخيرة فتعذب بها نفسها أو تثاب: هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (27: 90) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ لا ينقصون: عما عملوا من طاعة أو عصيان، وإنما جزاء عدلا وفاقا في العصيان، ومع فضل من اللّه في بعض العصيان تكفيرا وعفوا، ومع الفضل كل الفضل في الطاعات، إذا فلا نقصان لا في طاعة ولا عصيان.

وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ.

هنا معرض السيئات بعد أن قضي الأمر وأتى دور الحساب: يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ كأنهم متاع للنار هي تشتريه، وكما يجاء بجهنم وَ جِي‏ءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ (89: 23) وتعرض هي أيضا للكافرين: وَ عَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ: (18: 100) فانها أيضا متاع للكافرين هم مشتروها. فبعد أن كملت المعارضة تكمل المعاملة المخالطة، دون مماكثة أو مماكسة، إذ زالت الموانع من الجانبين المتاعين‏ «1» بتمام العرض مع بعض وكمال الملائمة، حيث الطينة السجينية لا تلائم إلا السجين، فالنار لا تشتري وتحرق إلا الكفار

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). العرض هو اظهار لعدم المانع من تلبس شي‏ء بشي‏ء

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 495

كما الكفار لا يشترون إلا النار جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ!.

عرض وعرض ولكن دون اي خفاء في أي‏منهما كمتاع، فأنتم يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى‏ مِنْكُمْ خافِيَةٌ (69: 18) عرضا لصوركم بسيركم وأعمالكم وأقوالكم، لا تخفى خافية من سيئة ظاهرة أو باطنة، وأما جهنم وَ عَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً (18:

100): حقيقيا لا تخفى منها خافية، فلا مباغتة هنا وهناك ولا مباغتة يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ (46: 34)؟ وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ .. (42: 45).

فلما تمت المعارضة الحجة الذاتية في المتاعين المعروضين، حقت كلمة العذاب، وبعد مصارحة الحجة من رب العالمين: «أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِها ..»

.. «وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ» (40: 64):

طيبات خلقت لكم وأحلت لتكسبوا بها حسنات، وتنموها لعقبى الحياة، ولكنكم اذهبتموها في دنيا الحياة، مستمتعين بها في الشهوات، مستغلين إياها للموبقات، فلم تبق لكم- إذا- طيبات، وإنما خبيثات نتنات، اللهم الا من تمتع بالطيبات المحللات وأمتع، واستفاد من زينة اللّه التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق حسب شريعة اللّه، فإن ذلك ليس من اذهاب الطيبات‏ «1» وإنما الذي يستمتع بها اخلادا إلى الحياة الدنيا فيقال لهم: ها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قد يكون اذهاب الطيبات اخلادا الى الدنيا فهو كفر، او يكون تمتعا بالحلال دون غفلة عن‏الآخرة ف «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ» ولكن القدوة من اهل اللّه أحيانا يتركونها، لا تحريما لها، وانما زهدا في الدنيا وتسكينا للفقراء وكما يروى عن عمر بن الخطاب قال: استأذنت على رسول اللّه صلى الله عليه و آله فدخلت عليه في مشربة أم ابراهيم وانه لمضطجع على حفصة وان بعضه على التراب وتحت رأسه وسادة محشوة ليفا فسلمت عليه ثم جلست فقلت: يا رسول اللّه! أنت نبي اللّه وصفوته وخيرته من خلقه وكسرى وقيصر على سرر الذهب وفرش الديباج والحرير، فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: أولئك قوم عجلت طيباتهم وهي وشيكة الانقطاع وانما أخرت لنا طيباتنا.

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام في بعض خطبه: واللّه لقد وقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها، ولقد قال لي قائل: ألا تنبذها؟ فقلت: اعزب عني: فعند الصباح يحمد القوم السرى. وفي الدر المنثور 6: 43- أخرج احمد والبيهقي في شعب الايمان عن ثوبان (رض) قال: كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله إذا سافر كان آخر عهده بإنسان من أهله فاطمة وأول من يدخل عليه إذا قدم فاطمة فقدم من غزاة له فأتاها فإذا بمسح على بابها ورأى على الحسن والحسين قلبين من فضة فرجع ولم يدخل عليها فلما رأت ذلك فاطمة ظنت انه لم يدخل من اجل ما رأى فهتكت الستر ونزعت القلبين من الصبيين فقطعتهما فبكى الصبيان فقسمته بينهما فانطلقا الى رسول اللّه صلى الله عليه و آله وهما يبكيان فأخذه رسول اللّه صلى الله عليه و آله منهما فقال: يا ثوبان! اذهب بهذا الى بني فلان اهل بيت بالمدينة واشتر لفاطمة قلادة من عصب وسوارين من عاج فان هؤلاء اهل بيتي ولا أحب ان يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا.

وفي نور الثقلين انه لما دخل العلاء بن يزيد بالبصرة يعود عليا عليه السلام قال له العلاء: يا امير المؤمنين! أشكو إليك أخي عاصم بن زياد، لبس العباء وتخلى من الدنيا، فقال عليه السلام: عليّ به، فلما جاء قال عليه السلام: يا عديّ نفسه لقد استهام بك الخبيث، أما رحمت أهلك وولدك؟ أ ترى اللّه أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها؟ أنت أهون على اللّه من ذلك! قال: يا أمير المؤمنين! هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك؟ قال: ويحك، اني لست كأنت، ان اللّه تعالى فرض على أئمة الحق ان يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا تبيغ بالفقير فقره‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 496

أنتم لم تدخروا من هذه الطيبات شيئا تعيشون بها في الأخرى، إذ لم تحسبوا لها حسابا، وإنما حسبتم أنها الأولى والأولى فقط، فأذهبتم فيها كل الطيبات، غافلين عن الأخرى كأن لم تكن شيئا مذكورا: «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الآْخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ» (30: 7).

ترى وما هي الطيبات الذاهبة الفانية في الحياة الدنيا، التي كان من المفروض إبقاءها واستثمارها للحياة الأخرى، والدنيا بما فيها فانية لا تبقى؟!.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 497

إن الطيبات هي طيبة الحياة: روحا انسانية وعقلا حالا ومالا، وكل ما رزقك اللّه من مظاهر الحياة، روحية ومادية، التي تتبنى لك حياة سعيدة في العاجل والآجل. ولكنك أذهبتها في هذه الدنيا مبصرا إليها كأنها الحياة فقط، لا مبصرا بها عمق الحياة، ولكي تستغلها للأخرى، مستقلا لها في الأولى ومستكثرا للأخرى، فأنت أنت الأحمق الأطغى أغمضت عين العقل فأذهبت طيباتك في حياتك الدنيا، وبدلت نعمة اللّه كفرا، واستمتعت بها كأنها فقط للأولى، ولإشباع غريزة الشهوات، فلم تبق لك أية طيبات، اللهم إلا خبيثات و خبيثات «لَيمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى‏ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ» (8: 37): (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ» (42: 45).

إنكم «اسْتَمْتَعْتُمْ بِها» بدل أن تستمتعوها، لتشتروا بها الحياة الأخرى، فلا متعة لكم منها فيها حيث اذهبتموها في متع الأولى، وهذه إهانة لنعم اللّه ومهانة للطيبات تجزون بها جزاء وفاقا: فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ: استكبار يخلفه اذهاب الطيبات في الحياة الدنيا تغافلا عن الأخرى، وكما أنه يخلف فسوقا: خروجا عن طاعة اللّه، فمعظم الفسوق من مخلفات الاستكبار كما ان الاستكبار من خلفيات الإخلاد إلى الحياة الدنيا: ظلمات بعضها فوق بعض.

إن الاستكبار فسوق عن طاعة اللّه، ومروق عن عبادة اللّه، فإن الكبرياء ليست إلا للّه، فالجزاء، العدل، الوفاق الفرض، لمن استكبر في الأرض، ليس إلا عذاب الهون: هونا على هون، فمن عذاب ما ليس على هون رغم أنه في نفسه هون، وذلك للفاسق غير المستكبر.

و قد توحى آية الفسوق هذه بأن الكفار مكلفون بالفروع، مؤاخذون عليها كما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏16، ص: 498

الأصول، حيث الفسوق بالاستكبار ليس إلا عمل المعاصي وترك الطاعات، كما الاستكبار في الأرض، نكران للأصول، واستبداد على اللّه وعلى عباد اللّه، فلو اختص عذاب الهون بالاستكبار، لم يك لذكر وَ بِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ مجال، إذا فهم معذبون بالكل، دون اختصاص بالجل: الكفر والكفر فقط: بل والمعاصي أيضا.

صحيح ان الطاعات لا تقبل إلا الايمان، فالصالحات ممتنعة مع الكفر، إلا أنها امتناع بالاختيار، والامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار.